بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(٤٠) سورة غافر مكية
وآياتها خمس وثمانون

تفسير سورة غافر (*)

هذه السُّورة مكِّيَّةٌ بإجماع ، وقد رُوي في بعض آياتها أنها مدنية (١) ، وذلك ضعيف ، والأَول أَصح ، وهذه الحواميم التي روى أَنس

(*) وتُسَمَّى سورة (المؤمن) ، وأيضاً تُسَمَّى سورة (الطَّوْل) . وعدد آياتها خمس وثمانون آية ، وقيل : ثنتان وثمانون آية .

(١) حُكي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعن قتادة أن فيها آيتين نزلتا بالمدينة، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللهِ ﴾ والتي بعدها ، وهما الآيتان (٥٦ ، ٥٧) ، وقال الحسن : هي مكية إلا قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ؛ لأن الصلوات نزلت بالمدينـــة .

وابن عطية يرى أن ذلك ضعيف ، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « أُنزلت سورة حم المؤمن بمكة » ، وأيضاً ما أخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير رضي الله عنهما أنه قال: « نزلت سورة المؤمن بمكة » ، وما أخرجه ابن الضريس ، والنحاس ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، من أنه قال : « أُنزلت الحواميم السبع بمكة » ، وما أخرجه ابن مردويه ، والديلمي ، عن سَمُرَةَ بن جندب رضي الله عنه ، قال : نزلت الحواميم جميعاً بمكة » .

رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها ديباج القرآن (١) ، ووقفه الزجاج على ابن مسعود رضي الله عنه ، ومعنى هذه العبارة أنها خلت من الأحكام ، وقُصرت على المواعظ والزجر وطرق الآخرة محضاً(٢) ، وأيضاً فهي قصارٌ لا يلحق لقارئٍ فيها سآمة. ورُوي أن ابن مسعود رَوى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أراد أن يرتع في رياض مونقة من الجنة فليقرأ الحواميم) (٣) ، وهذا نحو الكلام الأول في المعنى . وقال عليه الصلاة والسلام : (مثل الحواميم في القرآن مثل الحِبَرَات في الثياب) (٤) .

---

(١) أخرجه أبو الشيخ ، وأبو نعيم ، والدَّيْلمي ، عن أنس رضي الله عنه . (الدر المنثور) ، أما وقف الحديث على ابن مسعود رضي الله عنه فقد أخرجه أبو عُبَيْد ، وابن الضريس ، وابن المنذر والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان .

(٢) يريد أنها قصرت على المواعظ والزّجر قصراً خالصاً ، والمحض : الخالص ، وفي اللسان عن الأزهري : كل شيءٍ خلص حتى لا يشوبه شيءٌ يخالطه فهو محض ، وفي حديث الوسوسة : (ذلك محض الإيمان) ، أي : خالصُه وصريحه .

(٣) أخرجه ابن الضريس ، عن إسحق بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لكلّ شجرة ثمراً ، وإن ثمرات القرآن ذوات حَمّ ، هنّ روضات مخصبات معشبات متجاورات ، فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم) .. الحديث ، وله بقية ذكرها الإمام السيوطي في الدر المنثور ، وأخرج الديلمي ، وابن مردويه ، عن سَمُرة ابن جندب رضي الله عنه مرفوعاً : (الحواميم روضة من رياض الجنة) .

(٤) الحِبَرَات جمع حِبَرَة وحَبَرَة ، وهي نوع من البرود اليمنية المخططة ، وتمتاز بأنها ناعمة ، وقد أُخذ ذلك من قولهم : « ثوبٌ حَبِير ، بمعنى ناعم جديد » . راجع اللسان والتاج . والحديث ذكره الثعلبي ، ونقله عنه في القرطبي .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾

قد تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السُّور ، وتلك الأَقوال كلها تترتب في [حمٓ] ، ويختص هذا الموضع بقول آخر قاله الضحاك ، والكسائي : إن [حمٓ] هجاءُ (حُمَّ) بضم الحاءِ وشدِّ الميم المفتوحة ، كأَنه يقول : «حُمَّ الأَمْرُ وَوَقع تنزيل الكتاب من الله»(١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : «آلـر ، وحمٓ ، ونٓ هي حروف (الرحمن) مُقَطَّعة في سُوَر» ، وقال القرظي : أَقسم الله تعالى بِحِلْمه ومُلْكِه(٢) ،

---

(١) وعلى هذا المعنى جاء قول كعب بن مالك :

فَلَمَّا تلاقَيْنَا وَدارَتْ بِنَـا الرَّحَـى ... وَلَيْسَ لأمْرٍ حَمَّهُ اللهُ مَدْفَـعُ

أي : ليس لأمر قضاه الله وأراده .

(٢) ذكر الشوكاني هذه الأقوال وغيرها ، ثم عقَّب عليها بقوله : «والحق أن هذه الفاتحة لهذه السُّوَر وأمثالها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلم معناه» . والقُرَظِيُّ هو محمد بن عبد الله القُرَظِيُّ، وفي النسخة التونسية : «وقال القرطبي» ، وهو خطأٌ من الناسخ .

وسأَل أعرابيٌّ النبي صلى الله عليه وسلم عن [حمٓ] ما هو؟ فقال: (بدءُ أَسماءٍ وفواتح سُوَر).

وقرأ ابن كثير بفتح الحاءِ، ورُوي عن أبي عمرو (١) كسرها على الإمالة، ورُوي عن نافع الفتح، ورُوي عنه الوسط بينهما، وكذلك اختُلف عن عاصم، ورُوي عن عيسى كسر الحاءِ على الإمالة، وقرأ جمهور الناس بفتح الحاءِ وسكون الميم، وقرأ عيسى بن عُمَر أيضاً بفتح الحاءِ وفتح الميم الأَخيرة في النطق، ولذلك وجهان: أحدهما التحريك للالتقاءِ مع الياءِ الساكنة، والآخر أَن تكون حركة إعراب، وذلك نصب بفعل مضمر تقديره: اقرأْ حـمٓ، وهذا على أَن يجري مجرى الأَسماءِ، والحُجَّة فيه قولُ شُرَيْح بن أَوْفى العَبْسِيّ:

يُذَكِّرني حاميمَ والرُّمْحُ شاجــرٌ فَهَلَّا تَلَا حاميمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ؟ (٢)

---

(١) في النسخة التونسية: «عن ابن عُمَر»، وهو خطأٌ من الناسخ.

(٢) البيت في اللسان (حَمَمَ)، وقد نقل عن أبي عبيدة نسبته لشُرَيْح بن أَوْفَى، وقال: «وأنشده غيره للأشتر النَّخَعي»، والضمير في (يُذَكِّرني) هو لمحمد بن طلحة، وقد قتله الأشتر أو شُرَيْح في موقعة الجمل، ومعنى قول الشاعر: «والرمح شاجر» أنه ناشب فيه، يقال: شجره بالرمح: طعنه، وفي حديث الشُّرَاة: «فشجرناهم بالرماح» أي: طعنَّاهم بها حتى اشتبكت فيهم. والبيت شاهد على أنَّ (حَاميمَ) تكون اسماً معرباً، وعلى هذا جاءت قراءة عيسى بن عُمر بفتح الميم الأخيرة، وهذا قول الجرمي، (صالح بن إسحق) وقد أنكر بعض العلماء ذلك، ومنهم يونس الذي قال: من قال هذا القول فهو منكر عليه؛ لأن السورة [حمٓ] ساكنة الحروف، فخرجت مخرج التَّهَجِّي، وهذه أسماءُ سور خرجن متحركات.

وقال الكميت :

وَجَدْنَا لكُمْ في آلِ حاميمَ آيَـــةً تَـأَوَّلَهَا مِنَّا تَقِـيٌّ وَمُعْــزِبُ (١)

وقرأ أبو السمال بكسر الميم الأخيرة ، وذلك لالتقاء الساكنين ، و [حمٓ] آية .

و [تَنْزِيلُ] رفع بالابتداء ، والخبر قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ، وعلى القول بأن [حمٓ] إشارة إلى حروف المعجم يكون قوله : [تَنْزِيلُ] خبر ابتداءٍ ، و [ٱلْكِتَابِ] : القرآن ، وقوله تعالى : [غَافِرِ] بدلٌ من المكتوبة (٢) ، وإن أردت بـ [غَافِر] الْمُضِيَّ ـ أي غُفْرانه في الدنيا وقضاءه بالغُفْران والسَّتْر على المذنبين ـ فيجوز أن تكون [غَافِر]

---

(١) البيت للكميت بن زيد الأسدي ، وهو في الديوان ، واللسان ، ومجاز القرآن ، و (آل حاميم) هي السُّور التي أوّلها [حمٓ] ، وقد نصَّ الحريري في (دُرَّة الغواص) على أنه يقال : آل حاميم، وذوات حاميم ، وآل طسٓمٓ ، ولا يقال : حواميم ولا طواسيم . والآية التي يشير إليها الكميت هي قوله تبارك وتعالى في سورة الشورى : ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ ٱلمَوَدَّةَ في ٱلْقُرْبَى ﴾ ـ ٢٣ الشورى ـ والتَّقِيُّ : الساكت عن التفضيل والتَّشَيُّع لآل النبي صلى الله عليه وسلم ، والمُعْرِبُ : الذي أبان وأعْرَبَ عمَّا في نفسه من تَشَيُّع وتفضيل لآل البيت ، وهذه هي رواية أبي عمرو للبيت ، (مُعْرِب) بالراء ، ولكن الأموي رواها بالزاي كما قال أبو عبيدة ، ورواية البيت كما في مجاز القرآن هي :

وجدنَا لكُمْ في آلِ حاميـــمَ آيةً وفي غيْرها آيٌ وآيٌ يُعَـــرِّبُ

وقوله : « وفي غيرها » يشير به إلى قوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ـ (٣٣) الأحزاب ـ .

(٢) أي : لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ .

صفةً ؛ لأَن إضافته إلى المعرفة تكون محضة ، وهذا يترجَّح جدًّا ، وإذا أَردت بـ [غَافِر] الاستقبال ـ أَي غُفْرَانَهُ يوم القيامة ـ فالإضافة غير محضة ، و [غَافِر] نكرة ، فلا يجوز أَن تكون نعتاً ؛ لأَن المعرفة لا تُنْعت بالنكرة ، وفي هذا نظر . وقال الزَّجَّاج : [غَافِر] و [قَابِل] صفتان ، و ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ بَدَلٌ(١) ، و [ٱلذَّنْب] اسم الجنس ، وأَما [ٱلتَّوْب] فيحتمل أَن يكون مصدراً كالعوم والنوم فيكون اسم جنس ، ويحتمل أَن يكون جمع تَوْبة ، كتَمْرةٍ وتَمْر ، وساعة وساع . وقبول التوبة من الكافر مقطوعٌ به ؛ لإِخبار الله تعالى ، وقبولها من العاصي في وجوبها قولان لأَهل السُّنَّة ، وحكى الطبري عن أَبي بكر ابن عياشٍ أَن رجلاً جاءَ إلى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : إني قتلت ، فهل لي من توبة ؟ فقال : نعم ، اعمل ولا تيأَس ، ثم تَلَا هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ . [و ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ صفةٌ ، وقيل : بَدَلٌ] (٢).

---

(١) قال أبو حيان الأندلسي : « إنما جَعَل « غافِر وقابِل » صفتين وإن كانا اسمَيْ فاعل لأنه فهم من ذلك أنه لا يرادُ بهما التَّجدد ولا التقييد بزمان ، بل أُريد بهما الاستمرار والثبوت ، وإضافتهما محضة فتعرَّف ، وصح أن يوصف بهما المعرفة ، وإنما أعرب ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ بدلا لأنه من باب الصفة المشبهة ، ولا يتعرف بالإضافة إلى المعرفة ، وقد نصَّ سيبويه على أن كل ما إضافته غير محضة إذا أُضيف إلى معرفة جاز أن ينوي بإضافته التَّمَحُّض فيتعرف وينعت به المعرفة ، إلاَّ ما كان من باب الصفة المشبهة فإنه لا يتعرف » . (البحر المحيط ٧ـ٤٤٧) .

(٢) هكذا في جميع الأصول ، وأعتقد أن ما بين العلامتين [......] مكرر ، أو أنه في غير موضعه ، فقد سبق الحديث عن إعراب كل من ﴿غَافِر ، وقَابِل ، وشَدِيد ٱلْعِقَابِ﴾ .

ثم عقَّب تعالى هذا الوعيد بوعد ثان في قوله سبحانه : ﴿ ذِي ٱلطَّوْلِ ﴾ ، أَي : ذي التَّطَوُّل والمَنِّ بكلِّ نعمة ، فلا خير إلا منه ، فترتَّب في الآية وعيدٌ بين وعْدَيْن ، وهكذا رحمة الله تعالى تغلب غضبه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

سمعت هذه النزعة من أَبي رضي الله عنه ، وهي نحو من قول عمر رضي الله عنه : «لن يغلب عسْرٌ يُسْرَيْن» ، يريد قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً ، إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً ﴾(١) . و «الطَّوْلُ» : الإنعام ، ومنه «ما حَليتُ بطائل»(٢) ، وحكى الثعلبي عن أَهل الإشارة أَنه تعالى غافر الذنب فضلاً ، وقابل التَّوْب وعداً ، وشديد العقاب عدلاً . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الطَّوْلُ : السَّعَة والغِنَى . ثم صدع تعالى بالتوحيد في قوله : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، وبالبعث والحشر في قوله : ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ ﴾ يريد : جدالاً باطلاً ، لأَن الجدال فيها يقع من المؤمنين لكن في إثباتها وشرحها ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ ﴾ أَنزله منزلة : «فَلَا يَحْزُنْكَ وَلَا يَهُمَّنَّكَ» لتدل الآية على أَنهم ينبغي أَلَّا يَغْتَرُّوا بإملاءِ الله تعالى لهم ، فالخطاب له

---

(١) الآيتان (٥ ، ٦) من سورة (الشَّرْح) .

(٢) أي : لم أَظفر ولم أستفد بفائدة ، ولا يستعمل إلاّ في النفي ، (راجع اللسان) .

والإشارة إلى من يقع منه اغترارٌ ، ويحتمل أن يكون [يَغْرُرْكَ] بمعنى : تظُن أن وراءَ تقلُّبهم وإمهالهم خيراً لهم ، فتقول : عَسَى ألا يُعَذَّبوا . وحل الفعل من الإدغام لسكون الحرف الثاني ، وحيث هما متحركان لا يجوز الحلُّ ، لا تقول : زيد يَغْرُرُكَ (١) . وتقلُّبهم في البلاد عبارة عن تمتعهم بالمساكن والمزارع والأَسفار وغير ذلك .

ثم مثَّل لهم بمن تقدمهم من الأُمم ، أي : كما حَلَّ بأُولئك كذلك ينزل بهؤلاءِ . و [ٱلْأَحْزَابُ] يريد بهم عاداً وثموداً وأهل مَدْيَن وغيرهم ، وفي مصحف ابن مسعود : «بِرَسُولِهَا» ردًّا على «الأُمَّة» ، وضمير الجماعة هو على معنى الآية لا على لفظها . وقوله تعالى : [لِيَأْخُذُوهُ] معناه : ليهلكوه ، كقوله سبحانه : [فَأَخَذْتُهُمْ](٢) ، والعرب تقول للقتيل : أَخيذٌ ، وللأَسير : أَخيذٌ ، ومنه قولهم : «أَكذبُ من الأَخيذِ الصَّبْحَان»(٣) ، وقال قتادة : [لِيَأْخُذُوهُ] معناه :

---

(١) فَكُّ الإدغام لُغَةُ أهل الحجاز ، والإدغام لغة تميم ، وقد قرأ بها زيد بن علي ، وعبيد بن عمير .

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (الرعد) ، وتكررت في الآية (٢٤) من سورة (الحج) ، والأخذُ بمعنى القتل والإهلاك كثير متكرر في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ ، وقال : ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ ، وقال : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ، وقال : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ .

(٣) الأخيذ : الأسير المأخوذ ، والصَّبْحان : الذي شرب الصَّبُوح ، وهو اللبن الذي يشربُ في الصباح ، وأصل هذا المثل أن رجلا خرج من حيِّه وقد اصطبح ، فلقيه جيش من =

ليقتلوه . و [لِيُدْحِضُوا] معناه : لِيُزْلِقُوا ولِيُذهبوا ، والمدْحَضَة : المزَلَّة والمَزْلَقَة(١) . وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ تعجيب وتعظيم ، وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

= الأعداء يقصدون قومه ، فأخذوه وسألوه عن الحيّ ، فقال : إنما بتُّ في القَفْر ولا عهد لي بقومي ، وبينما هم يتنازعون غلبه البول فبال ، فعلموا أنه قد اصطبح وشرب اللبن ولولا ذلك لم يَبُل ، فطعنه واحد منهم في بطنه فبدره اللبن ، فمضوا غير بعيد فعثروا على الحيّ . وفسَّر الفراءُ المثل تفسيراً آخر ، قال : الأخيذ الصَّبْحان هو الفصيل يقال : أخذ يأخذ أخذاً إذا أكثر من شرب اللبن ، بأن يتفلّت على أُمِّه فيمتك لبنها فيأخذه ، أي : يُتْخَم منه ، وكذبه أن التُّخَمَة تُكسبه جوعاً كاذباً ، فهو لذلك يحرص على اللبن ثانياً .

(١) في اللسان (دَحَضَ) : « الدَّحْضُ : الزَّلَق ، والإدحاض : الإزلاق ، وفي حديث الجُمُعة : كرهتُ أن أُخرجكم فتمشون في الطين والدَّحض ، أي : الزَّلَق . »

في مصحف عبد الله بن مسعود : «وكذلك سبقت كلمةُ ربِّك» ، والمعنى : وكما أَخذْتُ أُولئك المذكورين وأَهلكتهم فكذلك حقت كلماتي على جميع الكفار ، من تقدم منهم ومن تأَخر ، أَنهم أَهل النار وسكانها . وقرأَ نافع ، وابن عامر : [كَلِمَاتُ] على الجمع ، وهي قراءَة الأَعرج ، وأَبي جعفر ، وابن نصاح . وقرأَ الباقون على الإِفراد ، وهي للجنس ، وهي قراءَة أَبي رجاءٍ ، وقتادة ، وهذه كلها عبارة عن حتم القضاءِ عليهم . وقوله : [أَنَّهُمْ] بدلٌ من [كَلِمَةُ] .

ثم أَخبر تعالى بخبر يتضمن تشريف المؤمنين وتعظيم الرجاءِ لهم ، وهو أَن الملائكة الحاملين للعرش والذين حول العرش ـ وهم أَفضل الملائكة ـ يستغفرون للمؤمنين ، ويسأَلون الله تبارك وتعالى لهم الجنة والرحمة ، وهذا معنى قوله تعالى في غير هذه الآية : ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً﴾(١) ، أَي : سأَلته الملائكة ، وفسَّر تعالى في هذه الآية المُجْمَلَ الذي في قوله تعالى في غير هذه الآية : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾(٢) ، لأَنه معلوم أَن الملائكة لا يستغفرون لكافر ، وقد يجوز أَن يقال : معنى ذلك أَنهم يستغفرون للكفار بمعنى طلب هدايتهم والمغفرة لهم بعد ذلك ، وعلى هذا النحو هو استغفار إِبراهيم عليه الصلاة والسلام لأَبيه ، واستغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم للمنافقين ،

(١) من الآية (١٦) من سورة (الفرقان) .
(٢) من الآية (٥) من سورة (الشُّورى) .

وبلغني أَن رجلًا قال لبعض الصالحين : ادْعُ لي واستغفر لي ، فقال له : تُبْ واتَّبع سبيلي يستغفر لك من هو خير منِّي ، وتَلَا هذه الآية . وقال مطرف بن الشِّخير : وجدنا أَنصح العباد للعباد الملائكة ، وأَغش العباد للعباد الشياطين ، وتلا هذه الآية ، وروى جابر بن عبد الله أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أَذِنَ لي ربِّي أَن أُحدِّث عن مَلَك من حَمَلَة العرش بين شحمة أُذنه وعاتقه مسيرة خمسمائة سنة)(١) .

وقرأَت فرقة : [ٱلْعُرْشَ] بضم العين ، والجمهور على فتحها .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ . نصب [رَحْمَةً] على التمييز ، وفيه حذف تقديره : يقولون ، ومعناه : وَسِعَتْ رَحمتُكَ وعِلْمُكَ كلَّ شيءٍ ، وهذا نحو قولهم : «تَفَقَّأْت شحماً(٢) ، وتصبَّبت عرقاً ، وطبت نفساً» . و «سبيلُ اللهِ المُتَّبَعة» هي الشرائع .

وقرأَ جمهور الناس : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ على جمع الجنَّات ، وقرأَ الأَعمش – في رواية المفضل – : ﴿جَنَّةَ عَدْنٍ﴾ على الإِفراد ، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه ، و «الْعَدْنُ» : الإقامة .

---

(١) أخرجه أبو داود ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في (العظمة) ، وابن مردويه ، والبيهقي في (الأسماء والصفات) ، بسند صحيح ، عن جابر رضي الله عنه ، (ذكره في الدر المنثور ، وفيه : مسيرة سبعمائة سنة) .

(٢) تَفَقَّأَ : مطاوع فَقَّأَ ، وهي مبالغةٌ في فَقَأَ ، والمعنى أن الجسم تشقق فخرج منه الشحم .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ .
رُوي عن سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه في تفسير ذلك أن الرجل يدخل الجنة قبل قرابته ، فيقول : أين أبي ؟ أين أُمي ؟ أين زوجتي ؟ فيلحقون به لصلاحهم ، ولتنبيهه عليهم وطلبه إياهم ، وهذه دعوة الملائكة ، وقرأ عيسى بن عمر : [وَذُرِّيَّتَهُمْ] بالإفراد .

وقوله تعالى : [وَقِهِمْ] أَصله : اوْقِهِم ، حذفت الواو إتباعاً لحذفها في المستقبل ، واستغني عن ألف الوصل لتحرُّك القاف ، ومعناه : اجعل لهم وقاية تقيهم السيئات ، واللفظ يحتمل أن يكون الدعاءُ في أن يدفع الله عنهم نفس السيئات حتى لا ينالهم عذابٌ من أَجلها ، ويحتمل أن يكون الدعاءُ في رفع العذاب اللاحق من السيئات ، فيكون في اللفظ ـ على هذا ـ حذف مضاف ، كأَنه قال : وَقِهِمْ جزاءَ السيئات .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

أَخبر الله تعالى بحال الكفرة ، وجعل ذلك عقب حال المؤمنين ليتبيَّن الفرق ، وروي أن هذه الحال تكون للكفار عند دخولهم النار ؛

فإنهم إذا أُدخلوا فيها مقتوا أَنفسهم ، أَي : مَقَتَ بعضهم بعضاً ، ويحتمل أَن يمقت كل واحد نفسه ، فإن العبارة تحتمل المعنَيَيْن ، و «المَقْتُ» هو احتقارٌ وبُغْض عن ذنب وريبة ، هذا حدُّه ، وإذا مقت الكفار أَنفسهم نادتهم ملائكة العذاب – على جهة التوبيخ – فيقولون لهم : مَقْتُ الله إيَّاكم في الدنيا – إذ كنتم تُدعَوْن إلى الإيمان فتكفرون – أَكثر من مقْتكم أَنفسكم اليوم ، هذا هو معنى الآية ، وبه فسَّر مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد . وأَضاف تعالى المصدر إلى الفاعل في قوله سبحانه : ﴿لَمَقْتُ ٱللهِ﴾ والمفعول محذوف لأَن القول يقتضيه . واللام في قوله تعالى : [لَمَقْتُ] يحتمل أَن تكون لام الابتداءِ أَو لام القسم ، وهو أَصوب . و [أَكْبَرُ] خبر الابتداءِ . والعامل في [إذْ] فعل مضمر تقديره : «مَقَتَكُمْ إذْ» ، وقدَّره قوم : «اذكروا إذْ» ، وذلك ضعيف يحلُّ ربط الكلام ، اللَّهم إلا أَن يُقَدَّر أَن مَقْتَ الله لهم هو في الآخرة ، وأَنه أَكبر من مقتهم أَنفسهم ، فيصح أَن يُقَدَّر المضمر : «اذكروا» ، ولا يجوز أَن يعمل فيه قوله تعالى : [لَمَقْتُ] لأَن خبر الابتداءِ قد حال بين «الْمَقْتِ» وبين [إذْ] ، إذ هي في صِلَتِهِ ، ولا يجوز ذلك .

واختلف المفسرون في معنى قولهم : ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ – فقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وقتادة ، والضحاك ،

وابن مالك : أَرادوا بموتهم كونهم ماءً في الأَصلاب ، ثم إِحياءَهم في الدنيا ، ثم إِماتتهم الموت المعروف ، ثم إِحياءَهم يوم القيامة ، فالواو هي كالتي في سورة البقرة ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (١) ، وقال ابن زيد : أَرادوا أَنه أَحياهم نسماً عند أَخْذ العهد عليهم وقت أَخذهم من صلب آدم عليه السلام ، ثم أَماتهم بعد ذلك ، ثم أَحياهم في الدنيا ، ثم أَماتهم ثم أَحياهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف لأَن الإِحياءَ فيه ثلاث مرات .

وقال السُّدي : أَرادوا أَنه أَحياهم في الدنيا ثم أَماتهم ، ثم أَحياهم في القبور وقت سؤال منكر ونكير ثم أَماتهم فيه ، ثم أَحياهم في الحشر . وهذا أَيضاً يدخله الاعتراض الذي في القول قبله ، والأَول أَثبت الأَقوال .

وقال محمد بن كعب القرظيُّ : أَرادوا أَن الكافر في الدنيا هو حيُّ الجسد ميِّتُ القلب ، فكأَن حالهم في الدنيا جمعت إِحْياءً وإِماتةً ، ثم أَماتهم حقيقة ، ثم أَحياهم في البعث .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والخلاف في هذه الآية مقول كلُّه في آية سورة البقرة ، وهذه الآية يظهر منها أَن معناها منقطع من معنى قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة (البقرة) .

إِلَى ٱلْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ، وليس الأَمر كذلك ، بل الآيتان مُتَّصلتا المعنى ، وذلك أَن كفرهم في الدنيا كان أَيضاً بإِنكارهم البعث ، واعتقادهم أَنه لا حشر ولا عذاب ، ومقتهم لأَنفسهم إنما عظَّمه لأَن هذا المعتقد كذَّبهم ، فلما تقرر مقتهم لأَنفسهم ورأَوْا خزياً طويلاً عريضاً رجعوا إِلى المعنى الذي كان كفرهم به وهو البعث ، وخرج إِلى الوجود مقترناً بعذابهم ، فأَقَرُّوا به على أَتَمِّ وجوهه ، أَي : كنا قد كفرنا بإِنكارنا البعث ، ونحن اليوم نُقر أَنَّك أَحييتنا اثنتين وأَمَتَّنا اثنتين ، كأَنهم قصدوا تعظيم قدرته سبحانه وتعالى ، واسترضاءه بذلك ، ثم قالوا عقِب ذلك الإِقرار طمعاً منهم : فها نحن معترفون بذنوبنا ، فهل إِلى خروج من سبيل ؟ وهذا كما تكلِّف إِنساناً أَن يُقِرَّ لك بحق وهو ينكر ، فإِذا رأَى الغلبة وصُرع أَقرَّ بذلك الأَمر مُتَمِّماً أَوفى مما كنت تطلبه به أَوَّلاً ، وفيما بعد قولهم : «فَهَلْ إِلَى خُروجٍ مِنْ سَبِيلٍ» محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر ، تقديره : لا إِسعاف لطلبتكم ، أَو نحو هذا من الرَّدِّ والزجر .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ﴾ يحتمل أَن يكون إِشارةً إِلى مقتهم أَنفسهم ، ويحتمل أَن يكون إِشارة إِلى العذاب الذي هم فيه ، أَو إِلى المنع والزجر والإِهانة التي قلت إِنها مقدرة محذوفة الذكر لدلالة ظاهر القول عليها ، ويحتمل أَن تكون إِشارة إِلى مقت الله تعالى إِياهم ، ويحتمل أَن تكون المخاطبة بـ [ذَلِكُمْ] لمعاصري محمد صلى الله عليه

وسلم في الدنيا ، ويحتمل أن تكون للكفار عامة . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا دُعِـيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ معناه : بحالة توحيد ونفي لما سواه من الآلهـة والأنداد . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ أي : إذا ذكرت اللات والعُزّى وغيرهما صدقتم واستقرت نفوسكم ، والحُكْم اليوم بعذابكم وتخليدكم في النار لِله لا لتلك التي كنتم تشركونها معه في الألوهية ، و « الْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ » صفتا مدح لا في المكان ومضادة السفل والصغر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

هذا ابتداءُ مخاطبة في معنى توحيد الله تعالى وتبْيين علامات ذلك . وآياتُ الله تَعُمُّ آياتِ قدرته وآيات قرآنِهِ والمعجزات الظاهرة على أيدي

رسله ، وتنزيلُ الرزق هو في تنزيل المطر وفي تنزيل القضاءِ والحكم بنَيْل ما يناله المرءُ في تجارة وغير ذلك . وقرأَ جمهور الناس : [وَيُنْزِلُ] بالتخفيف ، وقرأَ الحسن ، والأَعرج ، وعيسى وجماعة بالتشديد . وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ معناه : وما يتذكَّر تذكُّراً يُعْتد به وينفع صاحبه ؛ لأَنَّا نجد من لا يُنيب يتذكر لكن لما كان ذلك غير نافع عُدَّ كأَنه لم يكن .

وقوله تعالى : ﴿فَادْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ مخاطبة للمؤمنين أَصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، و [ٱدْعُوا] معناه : اعبدوا .

وقوله تعالى : ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ﴾ يحتمل أَن يريد بالدرجات صفاته العُلَى ، وعبَّر تعالى بما يقرب لأَفهام السامعين ، ويحتمل أَن يريد : رفيع الدرجات التي يعطيها للمؤمنين ، ويتفضل بها على عباده المخلصين في جنته . و «العَرْشُ» هو الجسم المخلوق الأَعظم الذي السموات السبع والأَرضون فيه كالدنانير في الفَلَاة من الأَرض .

قوله تعالى : ﴿يُلْقِـي ٱلرُّوحَ﴾ . قال الضحاك : الرُّوحُ هنا هو الوحي والقرآن وغيره مما لم يُتْلَ ، وقال قتادة والسدي : الرُّوح النُّبُوَّة ومكانتها ، كما قال : ﴿رُوحاً منْ أَمْرِنَا﴾(١) ، وسمى هذا روحاً لأَنه

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى) .

يُحيي به الأُمم والأَزمان كما يُحيي الجسد بروحه ، ويحتمل أَن يكون إلقاءُ الروح عامًّا لكل ما ينعم الله تعالى به على عباده المهتدين في تفهيمه الإيمان والمعقولات الشرعية . والمقدر ـ على هذا التأْويل ـ هو الله تعالى . وقال الزجاج : الرُّوحُ كلُّ ما به حياة الناس ، وكلُّ مهتد حيٌّ ، وكلُّ ضالٍّ كالميت . وقوله تعالى : ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ إن جعلته جنْساً للأُمور فـ [منْ] للتَّبعيض ، أَو لابتداءِ الغاية ، وإن جعلنا الأَمر من معنى الكلام فـ [مِنْ] إمَّا لابتداءِ الغاية ، وإمَّا بمعنى البـاء ، ولا تكون للتَّبعيض بَتَّة .

وقرأَ أُبَيٌّ بن كعب وجماعة : [لِيُنْذِرَ] بالياءِ وكسر الذال ، وفي الفعل ضمير يحتمل أَن يعود على الله تعالى ، أَو على الرُّوح ، أَو على [مَنْ] في قوله تعالى : ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ، وقرأَ محمد بن السميفع اليماني : [لِيُنْذَرَ] بالياءِ وفتح الذال وضم الميم من [يَوْمُ] ، وجعل اليوم منذراً على الاتساع ، وقرأَ جمهور الناس : [لِتُنْذِرَ] بالتاءِ على المخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، و [يَوْمَ] بالنصب ، وقرأَ أَبو عمرو ، ونافع ، وجماعة : [ٱلتَّلَاقِ] بدون ياءٍ ، وقرأَ أَبو عمرو أَيضاً ، وعيسى ، ويعقوب : [ٱلتَّلَاقي] بالياءِ ، والخلاف فيها كالخلاف الذي مَرَّ في ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَاد﴾(١) ، ومعناه : تلاقي جميع العالم بعضهم ببعض ،

(١) من الآية (٣٢) من هذه السورة . ونلحظ أنه لم يمر ، بل سيأتي .

وذلك أَمْرٌ لم يتفق قطُّ قبل ذلك اليوم . وقال السدي : معناه : تلاقي أَهل السماءِ والأَرض ، وقيل : معناه : تلاقي الناس مع بارئهم ، وهذا المعنى الأَخير هو أَشدها تخويفاً ، وقيل : يلتقي المرءُ وعمله .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ معناه : في براز من الأَرض يَنْفُذُهُم البصر(١) ويُسمعهم الداعي ، ونُصب [يَوْمَ] على البدل من الأَول ، فهو نصب المفعول ، ويحتمل أَن ينصب على الظرف ويكون العامل فيه قوله تعالى : ﴿لَا يَخْفَى﴾ ، وهي حركة إعراب لا حركة بناءٍ؛ لأَن الظرف لا يُبْنَى إِلَّا إذا أُضيف إلى غير متمكن كيومئذ ، وكقول الشَّاعر:

عَلَى حينَ عَاتبْتُ المشِيبَ عَلَى الصِّبَا وقُلْتُ أَلمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ؟(٢)

وكقوله تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾(٣) ، وأَمَّا في

(١) يعني : يشملهم ويتجاوزهم كلهم ، يقال : نَفَذَ القَوْمَ نَفْذاً : جازهم وخلَّفهم ، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه : (إنَّكُمْ مجموعون في صعيد واحد يَنْفُذُكُم البصر) .

(٢) البيت للنابغة الذبياني ، وهو من قصيدة له يمدح النعمان ، ويعتذر إليه مما وشت به بنو قُرَيْع بن عوف ، ويهجو مُرَّة بن ربيعة لما قذف في حقه عند النعمان ، و (عَلى) بمعنى (في) ، كقوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ ، والجار والمجرور متعلقان بقوله في البيت السابق : (فَكَفْكَفْتُ مِنِّي عَبْرَةً) ، و (عَلَى الصِّبَا) متعلق بـ (عَاتَبْتُ) ، والمعنى : كَفْكَفْتُ الدمع في وقت عتابي نفسي لنفسي على فعل التَّصَابي في حالة مشيبها ، والعتاب للمشيب مجازٌ . والشاهد هو بناءُ (حينَ) على الفتح لأَنها مضافة إلى مبني غير متمكن ، والبيت في الديوان ، وابن الشجري ، وابن يعيش ، والإنصاف ، وشرح شواهد المغني ، وخزانة الأدب ، والعيني ، والهمع . وقد سبق الاستشهاد به في غير هذا الموضع من هذا التفسير .

(٣) من الآية (١١٩) من سورة (المائدة) .

هذه الآية فالجملة ٱسمٌ متمكن ، كما تقول : «جئتُ يَوْمَ زَيْدٌ أَميرٌ» فلا يجوز البناءُ، فتأمَّل (١) .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَخْفَى عَلَى ٱللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أَي : من بواطنهم وسرائرهم وذوات صدورهم ، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب : «لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ» بضمير بدل المكتوبة (٢).

قوله تعالى : ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ . رُوي أَن الله تعالى يُقَرِّر هذا التقرير ويسكت العالم هيبةً وجزعاً ، فيجيب هو نفسه : ﴿لِلهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ ، قال الحسن : هو تعالى السائل وهو المجيب ، وقال ابن مسعود : إنه تعالى يقرر فيجيب العالم بذلك ، وقيل : يُنادي بالتقرير مَلَك فيجيب الناسُ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وإذا تـأَمل المؤمن أَنه لا حول لمخلوق ولا قوة إِلَّا بالله ، فالزمان كلُّه وأَيام الدَّهر أَجمع إنما الملك فيها للواحد القهار ، لكن ظهور ذلك للكفــرة والجهــلة يتَّضح يوم القيــامة . وإذا تُؤُمِّل تسخيــر أَهل

(١) ذكر أبو حيان كلام ابن عطية هذا في البحر المحيط ، ثم عقَّب عليه بقوله : «أما قوله : (لا يبنى إلا إذا أُضيف إلى غير متمكن) فالبناءُ ليس متحتماً ، بل يجوز فيه البناءُ والاعرابُ ، وأما تمثيله بقوله تعالى : ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فمذهب البصريين أنه لا يجوز فيه إلا الإعراب ، ومذهب الكوفيين جواز الإعراب والبناء فيه ، وأما إذا أُضيف إلى جملة اسميه كما مثَّل من قوله : (جئت يومَ زيدٌ أميرٌ) فالنقل عن البصريين تَحتُّم الإعراب كما ذكر ابن عطية ، والنقل عن الكوفيين جواز الإعراب والبناءِ» .

(٢) أي : بدلاً من لفظ الجلالة (الله) .

السموات وعبادتهم ونفـوذ القضاءِ في الأَرض فأَيُّ مُلْك لغيـر الله ؟

ثم يُعلم الله تبارك وتعالى أَهل الموقف بأَنه يوم المجازاة بالأَعمال صالحها وسيِّئها ، وهذه الآية نصٌّ في أَن الثواب والعقاب على اكتساب العبد ، وأَنه يومٌ لا يوضع فيه أَمرٌ في غير موضعه ، وذلك قوله تعالى : ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ . ثم أَخبرهم عن نفسه بسرعة الحساب ، وتلك عبارة عن إِحاطته بالأَشياءِ علماً ، فهو يحاسب الخلائق في ساعة واحدة كما يرزقهم ؛ لأَنه لا يحتاج إِلى عدٍّ وفكر ، ورُوي أَن يوم القيامة لا ينتصف حتى يقبل المؤمنون في الجنة والكافرون في النار .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾

أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالإِنذار للعالم والتحذير من يوم القيامة وأَهواله ، وهو الذي أَراد بـ « يوم الآزفة » ، قاله مجاهد ،

وابن زيـد ، وقتـادة ، ومعنى [ٱلْآزِفَـة] : القـريبة ، من أَزِفَ الشيءُ إذا قَـرُب ، والآزفـة في الآية صفة لمحذوف قد عُلم واستقر في النفوس هوله ، فعبَّر عنه بالقرب تخويفاً، والتقدير: يوم الساعة الآزفـة ، أو الطـامة الآزفـة ، ونحو هـذا، فكما لو قال : « وأنذرهم الساعة » لَعُلِم هولها بما استقر في النفوس من أَمرهـا ، فكذلك عُلم هنا إذا جاءَ بصفتها التي تقتضي حُلُولَها واقترابها .

وقوله تعالى : ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾ معناه : عند الحناجر ، قد صعدت من شدة الهول والجزع ، وهذا أَمر يحتمل أَن يكون حقيقة يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم وتبقى حياتهم، بخلاف الدنيا التي لا تبقى لأَحد فيها حياة مع تنقل قلبه ، ويحتمل أَن يكون تجوُّزاً عبَّر به عمَّا يجده الإِنسان من الجزع وصعود نفسه وتضايق حنجرته بصعود القلب، وهذا كما تقول العرب: كادت نفسي أَن تخرج، وهذا المعنى يجده المفرِّط الجزِع كالذي يساق إلى القتل ونحوه .

وقوله تعالى : [كَاظِمِينَ] حالٌ مما أُبدل منه قوله تعالى : ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾، أَو مما ينضاف إليه [ٱلْقُلُوبُ]؛ إذ المراد: إذ قلوب

الناس لدى حناجرهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ ، مُهْطِعِينَ﴾(١) ، أراد تعالى : تشخص فيه أبصارهم. و «الْكَاظِمُ» : الذي يردُّ غيظه وجزعه في صدره .

فمعنى الآية أنهم يطمعون بردِّ ما يجدونه في الحناجر والحال تغالبهم ، ثم أخبر تعالى أن الظّالمين ظلم الكفر هم في تلك الحال ليس لهم حميم ، أي قريب يهتم لهم ويتعصب ، ولا لهم شفيع يُطاع فيهم ، وإن همَّ بعضهم بالشفاعة لبعض فهي شفاعة لا تُقبل ، ويروى أن بعض الكفرة يقولون لإبليس يوم القيامة : اشفع لنا ، فيقوم ليشفع فتبدو منه أَنْتَن ريح يؤذي بها أهل المحشر ، ثم ينحصر ويكِعُّ ويخزى . و [يُطَاع] في موضع الصفة لـ [شَفِيع] ؛ لأن التقدير : ولا شفيع مطاع ، وموضع [يُطَاعُ] يحتمل أن يكون خفضاً حملًا على اللفظ ، ويحتمل أن يكون رفعاً عطفاً على الموضع قبل دخول [مِنْ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه كلها عندي اعتراضٌ في الكلام بليغ .

---

(١) من الآية (٤٢ ، ٤٣) من سورة (إبراهيم) .

وقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ متصل بقوله : ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ؛ لأَن سرعة حسابه تعالى للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رؤْية وفكرة ، ولا لشيءٍ مما يحتاجه الحاسبون ، وقالت فرقة : [يَعْلَمُ] متصلة بقوله تعالى : ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ ، وهذا قول حسَنٌ ، يُقَوِّيه تناسب المعنيين ، ويُضَعِّفه بُعْد الآية من الآية وكثرة الحائل . والخائنة مصدر كالخيانة ، ويحتمل في الآية أَن أَن تكون [خَائِنَة] اسم فاعل ، كما تقول : ناظرة الأَعين ، أَي : يعلم الأَعين إذا خانت في نظرها ، وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات ، فمن ذلك كسْر الجفون ، والغمز بالعين ، والنظرة التي تُفهم معنى ، أَوْ يريد بها صاحبها معنى ، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءه عبد الله بن أَبي سرح لِيُسْلم بعد رِدَّته بشفاعة عثمان رضي الله عنه ، فتلكَّأَ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بايعه ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأَصحابه : هلَّا قام إليه رجل حين تلكَّأْت فضرب عنقه ؟ فقالوا : يا رسول الله ، أَلا أَوْمأْت إلينا ، فقال عليه الصلاة والسلام : (ما ينبغي لنبي أَن تكون له خائنة أَعين)(١) ، وفي بعض الكتب المنزَّلة من قول الله عزَّ وجلَّ : «أَنا مرصاد

(١) أخرج أبو داود ، والنسائي ، وابن مردويه ، عن سعد رضي الله تعالى عنه ، قال : (لما كان يوم فتح مكّة أمّن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلاّ أربعة نفر وامرأتين ، =

الهمم ، أنا العالم بمجال الفِكر وكسر الجفون» ، وقال مجاهد : خائنة الأَعين : مسارقة النظر إلى ما لا يجوز .

ثم قَوَّى الله تعالى هذا الإخبار بأَنه يعلم ما تخفي الصدور ، مما لم يظهر على عين ولا غيرها ، ومثَّل المفسرون في هذه الآية بنظر الرجل إلى امرأة هي حرمة لغيره فقالوا : خائنة الأَعين هي النظرة الثانية ، وما تخفي الصدور ، أَي عند النظرة الأُولى التي لا يمكن المرءُ دفعها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا المثال جزءٌ من خائنة الأَعين .

ثم قدح تعالى في جهة الأَصنام ، فأَعْلَم أنه لا ربَّ غيره ، يقضي بالحق ، أَي يُجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثلها ، وينصف المظلوم من الظالم ، إلى غير ذلك من أَقضية الحق والعدل ، والأَصنام لا تقضي شيئاً ولا تنفذ أَمراً . و [يَدْعُونَ] معناه : يعبدون ، وقرأَ جمهور القراءِ : [يَدْعُونَ] بالياءِ على ذكر الغائب ، وقرأَ نافع ـ بخلاف عنه ـ وأَبو

= وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فاختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة جاءَ به ، فقال : يا رسول الله ، بايِعَ عبد الله ، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً ، كل ذلك يأبى أن يبايعه ، ثم بايعه ، ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ؟ هلاَّ أومأت إلينا بعينك ، قال : إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن تكون له خائنة الأعين) .

جعفر ، وشيبة : [تَدْعُونَ] بالتاء ، على معنى : قل لهم يا محمد : والذين تدعون أنتم . ثم ذكر تعالى لنفسه صفتين بَيِّنٌ عُرُوُّ الأَصنام عنهما ، وهي(١) في جهة الله تعالى عبارة عن الإدراك على إطلاقه .

ثم أحال كفار قريش ـ وهم أصحاب الضمير في [يَسِيرُوا] ـ على الاعتبار بالأُمم القديمة التي كذبت أنبياءَها فأَهلكها الله تعالى ، وقوله تعالى : [فَيَنْظُرُوا] يحتمل أَن يجعل في موضع نصب جواب الاستفهام ، ويحتمل أَن يكون مجزوماً عطفاً على [يَسِيرُوا] ، و [كَيْفَ] في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ﴾ خبر [كَانَ] مقدم ، وفي [كَيْفَ] ضمير ، وهذا على أَن تكون [كَانَ] الناقصة ، وأَمَّا إن جعلناها تامة بمعنى حَدَثَ وَوَقع ف [كَيْفَ] ظرف ملغى لا ضمير فيه .

وقرأَ ابن عامر وحده : ﴿ أَشَدَّ مِنْكُمْ ﴾ بالكاف ، وكذلك هي في مصاحف أَهل الشام ، وذلك على الخروج من غيبة إلى الخطاب ، وقرأَ الباقون : ﴿ أَشَدَّ مِنهُمْ ﴾ ، وكذلك هي في سائر المصاحف ، وذلك أَوفق لتناسب ذكر الغائب ، و « الآثار في الأَرض » هي المباني والمآثر والصِّيت الدنيوي . و « ذنوبهم » كانت تكذيب الأَنبياءِ عليهم الصلاة

---

(١) هكذا في الأصول ، وقد وَافقَ بها قوله جواباً عنها : « عبارة عن الإدراك » .

والســلام ، و «الواقي» : الساتر المــانع ، مأخــوذ من الوقاية (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) ﴾

قوله تعالى : [ذَلِكَ] إشارةٌ إلى أخذه إيَّاهم بذنوبهم وإن لم يكن لهم منه واقٍ ، ثم ذكر تعالى أن السبب في إهلاكهم هو ما قريشٌ عليه من أن جاءَهم رسول من الله تعالى ببيِّناتٍ من المعجزات والبراهين فكفروا به ، وذكر أن الله تعالى أخذهم ، ووصف نفسه بالقوة وشدة العقاب ، وهذا كله بيان في وعيد قريش .

ثم ابتدأ تبارك وتعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومَلَئِهِ ، وهي قصة فيها للنبي صلى الله عليه وسلم تسلية وأُسوة ، وفيها لقريش

(١) و [وَاقٍ] في موضع خفض معطوف على اللفظ ، ويجوز أن يكون في موضع رفع عطفاً على الموضع ، والرفع والخفض واحد ؛ لأن الياءَ تحذف وتبقى الكسرة دالَّة عليها .

والكفار به وعيدٌ ومثال يخافون منه أَن يحلَّ بهم ما حلَّ بأُولئك من النقمة ، وفيها للمؤمنين وعدٌ ورجاءٌ بالنَّصْر والظَّفر وحمد عاقبة الصبر. وآيات موسى كثيرة ، وعُظْمها (١) والذي عرضه على جهة التحدي : العصا واليد ، فوقعت المعارضة في العصا وحدها ، ثم انفصلت القضية عن إيمان السَّحرة وغلبة الكافرين . و « السُّلطانُ » : البُرْهانُ ، وقرأ عيسى بن عمر : [سُلُطَانٍ] بضم اللام ، والناسُ على سكونها . وخصَّ تعالى هامان وقارون بالذكر تنبيهاً على مكانهما من الكفر ، ولكونهما أَشهر رجال فرعون ، وقيل : إن قارون هذا ليس بقارون بني إسرائيل ، وقيل : هو ذلك ولكنه كان منقطعاً إلى فرعون خادماً له مستعيناً معه . وقوله : [سَاحِرٌ] أي في أمر العصا ، [كَذَّابٌ] في قوله : إني رسول من الله .

ثم أَخبر عنهم أَنهم لما جاءَهم موسى عليه السلام بالنُّبوَّة والحق من عند الله قال هؤلاءِ الثلاثة وأَجْمع رأْيهُم على أَن يُقتل أَبناءُ بني إسرائيل أَتباع موسى عليه السلام وشُبَّانُهُم وأَهْلُ القوة منهم ، وأَن تُسْتَحيى النساءُ للخدمة والاسترقاق ، وهذا رجوع منهم إلى نحو القتل الأَول الذي كان قبل ميلاد موسى عليه السلام ، ولكن هذا الأَخير لم يتمَّ لهم عزمهم فيه ، ولا أَعانهم الله تعالى على شيءٍ منه ، وقال

(١) أي : وأعظمها وأهمها ، وهو الذي عرضه على فرعون وقومه متحدِّياً لهم .

قتادة : هذا قتل غير الأَول الذي كان حذر المولود ، وسموا من ذكرنا من بني إسرائيل أَبناءً كما تقول لأَفخاذ القبيلة أَو المدينة وأَهل الظهور فيها : هؤلاءِ أَبناءُ فلانة .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ عبارةٌ وجيزة تعطي قوتها أَن هؤلاءِ الثلاثة لم يقدرهم الله تعالى على قتل أَحد من بني إسرائيل ، ولا نجحت لهم سعاية فيهم ، بل أَضلَّ الله سعيهم وكيـــدهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ
دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ
مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي
يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٣٨﴾﴾

الظاهر من أَمر فرعون أنه لما بهرت آياتُ موسى عليه السلام انهدَّ ركنه ، واضطربت معتقدات أَصحابه ، ولم يفقد منهم من

يجاذبه الخلاف في أمره ، وذلك بيِّنٌ من غير ما موضع من قصتهما ، وفي هذه الآية على ذلك دليلان : أحدهما قوله : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ ، فليست هذه من ألفاظ الجبابرة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم ، والدليل الثاني مقالة المؤمن وما صدع به ، وأن مكاشفته لفرعون أكبر من مساترته ، وحكمه بنبوة موسى عليه السلام أظهر من توريته في أمره ، وأما فرعون فإنما لجأ إلى المخرقة والاضطراب والتعاطي ، ومن ذلك قوله : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ ، أي : إني لا أُبالي عن ربِّ موسى ، ثم رجع إلى قومه يريهم النصيحة والحماية لهم فقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ ، والدينُ : السلطان ، ومنه قول زهير :

لَئِنْ حَلَلْتَ بِجَوٍّ في بَني أَسَدٍ في دينِ عَمْرو وحَالَت بَيْنَنا فَدَكُ (١)

(١) البيت من قصيدة قالها زهير حين أغار الحارث بن ورقاء الصداوي الأسدي عَلَى بني عبد الله بن غطفان واستاق إبلَ زهير وراعيَ هذه الإبل واسمه يسار ، وبعد هذا البيت يقول مخاطباً الحارث : وهو جواب قوله هنا : لئن حَلَلْت :

لَيَأتِيَنَّكَ مِنِّي مَنْطِقٌ قَذِعٌ باقٍ كما دَنَّس القُبْطِيَّةَ الوَدَكُ

والمراد بقوله : دين عمرو : سُلطان عمرو وطاعته ، وأراد عمرو بن هند ملك العراق ، وفَدَك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة سبع للهجرة صلحاً ، والقَذِع : الشاتم أقبح شتم ، والقُبطية ثياب بيضاء كانت معروفة عندهم ، والوَدَك : الدَّسَم يسيل من اللحم والشحم ، يقول له : لئن نزلت في حماية عمرو ابن هند ، ونزلت بعيداً عنِّي وحالت بيننا البلاد فلن تسلم من لساني وهجائي لك ؛ لأنه سيتبعك إلى أبعد مكان ، وسيبقى على الدهر تردده أفواه الرواة .

وقرأ ابن عامر ، وابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : [وَأَنْ] ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿أَوْ أَنْ﴾ ، ورجَّحها أبو عبيدة بزيادة الحرف ، فعلى الأُولى خاف أمرين ، وعلى الثانية خاف أحد أمرين ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، والحسن ، وقتادة ، والجحدري ، وأبو رجاءٍ ، ومجاهد ، وسعيد بن المسيب ، ومالك بن أنس : [يُظْهِرَ] بضم الياءِ وكسر الهاءِ [ٱلْفَسَادَ] نصْباً ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : [يَظْهَرَ] بفتح الياءِ والهاءِ [ٱلْفَسَادُ] بالرفع على إسناد الفعل إليه ، وهي قراءَة حمزة ، والكسائي ، وأبي بكر عن عاصم ، والأَعرج ، وعيسى ، والأَعمش ، وابن وثاب ، وروي عن الأَعمش أنه قرأ: [وَيَظْهَرُ] برفع الراءِ ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : [وَيَظْهَرَ] بفتح الياءِ .

ولمَّا سمع موسى عليه السلام مقالة فرعون ـ لأَنه كان معه في مجلس واحد ـ دعا ربَّه تعالى وقال : ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الآية ، وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر : [عُذْتُ] ببيان الذَّال ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [عُذتُّ] بالإِدغام ، واختلف عن نافع ، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب : [عُتُّ] على الإِدغام في الخط .

ثم حكى الله تعالى مقالة رجل مؤمن مِن آل فرعون ، وشرَّفه بالذكر ، وخلَّد ثناءَه في الأُمم ، سمعت أَبي رحمه الله تعالى يقول : سمعتُ

أبا الفضل الجوهري على المنبر يقول ـ وقد سئل أن يتكلم في شيء من فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ـ فأطرق قليلًا ثم رفع رأسه وقال :

عَنِ المرْءِ لا تَسْأَل وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بالمقَارِنِ يَقْتَدِي(١)

ماذا تريدون من قوم قرنهم الله تعالى بنبيِّه صلى الله عليه وسلم ، وخصَّهم بمشاهدته وتلقي الوحي منه ؟ وقد أثنى الله عزَّ وجلَّ على رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، فجعله الله تعالى في كتابه وأثبته في المصاحف لكلام قاله في مجلس من مجالس الكفر ، وأين هو من عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ جرَّد سيفه بمكة وقال : والله لا أعبد الله سرًّا بعد اليوم ؟

وقرأت فرقة : [رَجْلٌ] بسكون الجيم كعَضُد وعَضْد ، وسَبُع وسَبْع ، وقرأ الجمهور : [رَجُلٌ] بضم الجيم .

واختلف الناس في هذا الرجل ـ فقال السدي وغيره : كان من آل فرعون ، وكان يكتم إيمانه ، ف [يَكْتُمُ] ـ على هذا ـ في موضع الصفة دون تقديم ولا تأخير ، وقال مقاتل : كان ابن عمٍّ فرعون ، وقالت فرقة : لم يكن من أهل فرعون بل من بني إسرائيل ، وإنما

---

(١) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن الصحابة كان لهم من الفضل أنهم عاشوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعلموا منه ، وكانوا قرناء له ، والمرء يعرف بقرينه . والقرين في اللغة هو صاحبك الذي يقارنك ، والجمع قرناء .

المعنى : وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون، ففي الكلام تقديم وتأْخير . والأَول أَصح ، ولم يكن لأَحد من بني إسرائيل أَن يتكلم بمثل هذا عند فرعون، ويحتمل أَن يكون من غير القبط ويقال فيه : من آل فرعون إذْ كان في الظاهر على دين فرعون ومن أَتباعه ، وهذا كما قال أَراكةُ الثقفيُّ يرثي أَخاه ويتعزَّى برسول الله صلى الله عليه وسلم :

فَلَا تَبْكِ مَيْتاً بَعْدَ مَيْتٍ أَجَنَّه   عَلِيٌّ وَعَبَّاسٌ وآلُ أَبي بَكْرِ (١)

يعني المسلمين إذ كانوا في طاعة أَبي بكر رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ مفعول من أَجله ، أَي لأَجل أَن يقول ، وجلَّح (٢) معهم هذا المؤمن في هذه المقالات، ثم غالطهم بعْدُ في أَن جعله في احتمال الصدق والكذب، وأَراهم أَنها نصيحة . وحذفت النون من [يَكُ] تخفيفاً على ما قال سيبويه ، وتشبيهاً بالنون في «يفعلون ويفعلان» على مذهب المبرد، وتشبيهاً بحرفي العلَّة – الياءِ والواو – على مذهب أَبي

---

(١) وهذا شاهد على أنه يقال للمرء : «إنه من آل فلان» إذا كان على دينه ومن أتباعه ؛ لأن الشاعر يقول : وآلُ أبي بكر ويعني بذلك كل من كان على دين أبي بكر رضي الله عنه ، وهو في البيت يتعزى عن فقد أخيه بأن هناك من هو أفضل منه وأعظم ، وقد مات ، فلا يحق لنا أن نبكي عليه بعد أن مات هذا الإنسان العظيم الذي تولى دفنه علي بن أبي طالب والعباس وجميع المؤمنين الذين كانوا في طاعة الصديق رضي الله عنه .

(٢) جلَّحَ في الأمر : أقدم ومضى .

علي الفارسي ، وقال : كأَن الجازم دخل على «يكن» وهي مجزومة بعد فأَشبهت النون الياءَ من «يقضي» والواو من «يدعو» لأَن حقها على اللسان سواءٌ .

واختلف المتأَولون في قوله : ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ – فقال أَبو عبيدة وغيره : [بَعْضُ] بمعنى «كُلٍّ» ، وأَنشدوا قول القطامي عُمَيْر بنُ شُيَيْم :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِـهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ(١)

وقال الزجاج : هو إلزامُ الحُجَّة بأَيسر ما في الأَمر ، وليس فيه نفي إصابة الكلِّ ، وقالت فرقة : أَراد : يصبكم بعض العذاب الذي يَذْكُر ، وذلك كاف في هلاككم ، ويظهر لي أَن المعنى : يصبكم القسم الواحد

---

(١) القطامي اسمه عُمير بن شُيَيْم ، وهو من بني تغلب ، والبيت مما يُتَمَثَّل به من شعره ، وهو في البحر المحيط ، وفي القرطبي وفي اللسان ، وقبله :

والنَّاسُ مَن يَلْقَ خيْراً قَائِلُونَ لَهُ ... ما يَشْتَهِي ، ولأُمِّ الْمُخْطِئ الْهَبَلُ

والمتأني في الأمر : المُتَرَفِّق فيه المُتَمَهِّل ، والزَّلَلُ : الخطأُ والسقوط . وقد نقل في اللسان عن أبي إسحق قوله : «مِن لطيف المسائل أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا وعد وعداً وقع الوعد بأسره ولم يقع بعضه ، فمن أين جاز أن يقول : ﴿بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ ؟ وهذا باب من النظر يذهب فيه المُناظر إلى إلزام حجته بأيسر ما في الأمر ، وليس في هذا معنى الكُلِّ ، وإنما ذكر البعض ليُوجب له الكلَّ ؛ لأن البعض هو الكلُّ ، ومثل هذا قول الشاعر : (قد يدرك المتأني ... البيت) ؛ لأن القائل إذا قال : أَقَلُّ ما يكون للمتأني إدراك بعض الحاجة ، وأقل ما يكون للمستعجل الزَّلَلُ ، فقد أبان فضل المتأني على المستعجل بما لا يقدر الخصم أن يدفعه . فكأن مؤمن آل فرعون قال لهم : أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعضُ الذي يعدكم ، وفي بعض ذلك هلاكُكم» .

مما يَعِد به ، وذلك هو بعض ما يَعِد ؛ لأَنه عليه السلام كان وعدهم إن آمنوا بالنعيم ، وإن كفروا بالعذاب ، فإن كان صادقاً فالعذابُ بعض ما وعد به ، وقالت فرقة : أَراد ببعض ما يعدكم : عذاب الدنيا لأَنه بعض عذاب الآخرة ، أَي : وتصيرون بعد ذلك إلى الباقي ، وفي البعض كفاية في الإهلاك .

ثم وعظهم هذا المؤمن بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ ، قال السدي : مُسْرِفٌ بالقتل ، وقال قتادة : بالكفر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

قول هذا المؤمن : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ استنزالٌ لهم ووعظ من جهة شهواتهم ، وتحذير من زوال ترفهم ،

ونصيحة لهم في أمر دنياهم، وقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريد أرض مصر وما والاها من مملكتهم. ثم قررهم على من هو الناصر لهم من بأس الله تعالى، وهذه الأقوال تقتضي زوال هيبة فرعون، ولذلك استكان هو ورجع يقول: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كما يقول من لا تحكُّم له. وقوله: [أُرِيكُمْ] من رأى، وقد عُدِّي بالهمزة، فللفِعْلِ مفعولان: أحدهما الضمير في [أُرِيكُمْ]، والآخر ما في قوله: ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾، وكان الكلام: «أُريكم ما أَرَى»، ثم أَدخل في صدر الكلام (ما) النافية وقَلَب معناها بـ (إلَّا) الموجبة تخصيصاً وتأْكيداً للأمر، كما تقول: «قام زيد»، فإذا قلت: «ما قام إلَّا زيد» فقد أَفَدْتَ تخصيصه وتأْكيد أَمره، و (أَرى) متعدية إلى مفعول واحد، وهو الضمير الذي فيه، العائدُ على (ما)، تقديره: إلَّا ما أَراه، وحَذْفُ هذا المفعول من الصلة حسَنٌ لطول الصلة.

وقرأ الجمهور: [ٱلرَّشَادِ] مصدر (رشد)، وفي قراءة معاذ بن جبل رضي الله عنه: ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَّادِ﴾ بشد الشين، قال أَبو الفتح: وهو اسم فاعل في بِنْيَته مبالغة، وهو من الفعل الثلاثي (رَشَدَ)، فهو كَعَبَّاد من عَبَدَ(١)، وقال النحاس: هو وهم، وتوهمه من الفعل

---

(١) الذي قاله أبو الفتح بشيء من التفصيل هو: «ينبغي أن يكون هذا من قولهم: رشِدَ يَرْشَدُ، كعَلاَّمٍ من عَلِم يَعْلَم، أو من رَشَدَ يَرْشُدُ، كَعَبَّادٍ من عَبَدَ =

الرباعيّ . وقوله رحمه الله مردود ، قال أبو حاتم : كان معاذ بن جبل يفسرها : سبيل الله ، ويبعُد عندي هذا على معاذٍ رضي الله عنه ، وهل كان فرعون يدَّعي إلَّا أنه إله ؟ ويقلق بناءُ اللفظة على هذا التأْويل .

واختلف الناس في المراد بقوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ﴾ — فقال الجمهور : هو المؤمن المذكور أوَّلًا ، قصَّ الله تبارك وتعالى أقاويله إلى آخر الآيات ، وقالت فرقة : بل كلام ذلك المؤمن قديم ، وإنما أراد الله تعالى بالذي آمن موسى عليه السلام ، واحتجت هذه الفرقة بقوَّة كلامه ، وأنه جَلَّح معهم بالإيمان ، وذكر عذاب الآخرة ، وغير ذلك ، ولم يكن كلام الأَول إلَّا بملاينة لهم .

وقوله تعالى : ﴿مِثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أَي : مثل يوم من أَيامهم ؛ لأَن عذابهم لم يكن في يوم واحد ولا عصر واحد ، و «الأَحزاب» : المتحزِّبون على أَنبياءِ الله تعالى عليهم الصلاة والسلام ، و [مِثْلَ] الثاني بدل من الأَول ، و «الدَّأْبُ» : العادة ، وقوله : ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ أَي : من نفسه ، أَي : يظلمهم هو ، فالإِرادة هنا على بابها لأَن الظلم منه لهم لا يقع البَتَّةَ ، وليس معنى الآية أَن الله لا يريد

= يَعْبُدُ ، ولا ينبغي أن يحمل على أنه من أرْشَدَ يُرْشِدُ ؛ لأن فعَّالا لم يأت إلا في أحرف محفوظة، وهي أجْبَرَ فهو جبَّار، وأقصر فهو قصَّار ، وأدرك فهو درَّاك » ، وحديثه في ذلك طويل ، راجع المُحْتَسَب .

ظُلْمَ بَعضهم لبعض ، والبرهان وقوعه ، ومحال أن يقع إلَّا ما يريد الله تعالى ، وقوله : ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ معناه : ينادي قوم قوماً ويناديهم الآخَــرون .

واختلف المتأولون في التَّنادي المشار إليه ـ فقال قتادة : هو نداءُ أَهل الجنة أَهلَ النار : ﴿هلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾(١) الآية . ونداءُ أَهل النَّار لهم : ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ﴾(٢) الآية ، وقالت فرقة : بل هو النداءُ الذي يتضمنه قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾(٣) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : هو التنادي الذي يكون بالناس عند النفخ في الصُّور نفخة الفزع في الدنيا ، وأنهم يفرون على وجوههم للفزع الذي ينالهم ، وينادي بعضهم بعضاً ، وروي هذا التأْويل عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم(٤) ، ويحتمل أَن يكون المراد التذكير بكل نداءٍ

(١) من الآية (٤٤) من سورة (الأعراف) .
(٢) من الآية (٥٠) من سورة (الأعراف) .
(٣) من الآية (٧١) من سورة (الإسراء) .
(٤) ذكر هذا الحديث عليُّ بن معبد ، والطبري ، وغيرهما ، وهو عن أبي هريرة ، وفيه : (فتكون الأرض كالسفينة في البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها ، وتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ما في بطونها ، وتشيب الولدان ، وتتطاير الشياطين هاربة فتتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ، ويولِّي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً ، وهي التي يقول الله تبارك وتعالى : ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ ٱللهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ، الحديث بكماله) .

في القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة ولها أجوبة بنداءٍ، وهي كثيرة، منها ما ذكرناه، ومنها: يأَهل النار خلودٌ لا موت، يأَهل الجنة خلودٌ لا موت، ومنها نداءُ أهل الغدرات، والنداءُ ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ (١)، والنداءُ ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ (٢)، إلى غير ذلك.

وقرأت فرقة: [ٱلتَّنَادْ] بسكون الدال في الوصل، وهذا على إجرائهم الوصل مجرى الوقف في غير ما موضع، وقرأ نافع، وابن كثير: [ٱلتَّنَادِي] بالياء في الوصل والوقف، وهذا على الأَصل، وقرأ الباقون: [ٱلتَّنَادِ] بغير ياءٍ فيهما، ورُوي ذلك عن نافع، وابن كثير، وحذفت الياءُ مع الأَلف واللام حملًا على حذفها مع معاقبها وهو التنوين، وقال سيبويه: حذفت الياءُ تخفيفاً، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، وأَبو صالح، والكلبي: [ٱلتَّنَادِّ] بشدِّ الدَّال، وهذا معنى آخر ليس من النداءِ، بل هو من البعير إذا هرب (٣)، وبهذا المعنى فسَّر ابن عباس والسُّدي هذه الآية، وروت هذه الفرقة في هذا المعنى

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٠) من هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية.

(٢) من الآية (١٦) من هذه السورة (غافر).

(٣) قال أبو الفتح ابن جني: «والتَّنَادُّ تَفَاعُل، مصدر تَنَادَّ القومُ، أى تفرقوا، من قولهم: نَدَّ البعير يَنِدُّ، كَنَفَرَ يَنْفِر، والتَّنَادُّ كالتنافر، وأصله التَّنَادُدُ، فأُسكنت الدال الأُولى وأُدغمت في الثانية استثقالا لاجتماع مِثلين متحركين».

حديثاً أن الله تعالى إذا طوى السموات نزلت ملائكة كل سماءٍ فكانت صفًّا بعد صف مستديرة بالأَرض التي عليها الناس للحساب ، فإذا رأى العالم هول القيامة وأَخرجت جهنم عنقاً إلى أَهلها فرَّ الكفار ونَدُّوا مدبرين إلى كل وجهة ، فتردهم الملائكة إلى المحشر خائبين لا عاصم لهم(١) ، قالت هذه الفرقة : ومصداق هذا الحديث في كتاب الله تعالى قوله سبحانه : ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَآئِهَا ﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾(٣) ، وقوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُـذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾(٤)

---

(١) أخرج هذا الحديث ابن المبارك ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن الضحاك رضي الله عنه ، قال : (إذا كان يوم القيامة أمر الله السماءَ الدنيا فتشققت بأهلها ، فتكون الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن بها ، ثم الثانية ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، ثم الخامسة ، ثم السادسة ، ثم السابعة ، فصفوا صفّاً دون صف ، ثم ينزل الملك الأعلى من مجنبته اليسرى جهنم ، فإذا رآها أهل الأرض نَدُّوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك قول الله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ ، وذلك قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ ، وقوله : ﴿ يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ ، وذلك قوله : ﴿ وَٱنْشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ، وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾ ، يعني ما تشقق فيها ، فبينما هم كذلك إذْ سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب) .

(٢) من الآية (١٧) من سورة (الحاقة) .

(٣) من الآية (٢٢) من سورة (الفجر) .

(٤) من الآية (٣٣) من سورة (الرحمن) .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ معناه على بعض الأَقاويل في التَّنادي : تفرون هروباً من الفزع ، وعلى بعضها : تفرُّون مُدْبرين إلى النَّار . والعَاصِمُ : المنجي .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾

قدمنا الخلاف في هذه الأَقوال كلها ، هل هي من قول مؤمن آل فرعون أو من قول موسى عليه السلام ؟ وقالت فرقة من المتأَولين منهم الطبري : يوسف المذكور هو يوسف بن يعقوب عليه الصلاة والسلام ، وقالت فرقة : بل هو حفيده يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام . و « البَيِّنَات » التي جاءَ بها يوسف عليه السلام لم تُعَيَّن لنا حتى نقف على معجزاته ، وروي عن وهب بن مُنَبِّه أن فرعون موسى لحق يوسف ، وأَن هذا التقريع كان له . وروى أَشهب عن مالك أنه بَلَغَه أن فرعون عمّر أَربعمائة وأَربعين سنة ، وقالت فرقة : بل هو فرعون آخر .

وقوله تعالى : ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ حكاية حال لريبة قولهم لأنهم إنما أرادوا : لن يجيء بعد هذا من يدَّعي مثل ما ادَّعى ، ولم يُقرَّ أُولئك قطُّ برسالة الأَول ولا الآخر ولا بأَن الله تعالى يبعث الرُّسل ، فحكى ريبة قولهم ، وجاءت عبارتهم مشنعة عليهم ، ولذلك قال لهم بأَثر هذا : ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ ، أَي : كما صيَّركم من الكفر والضلالة بهذا الحدِّ فنحو ذلك هو إضلاله لصنفكم أَهل السرف في الأُمور وتعدي الطور والارتياب بالحقائق ، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب ، وابن مسعود : «قُلْتُمْ أَلَنْ يبعث اللهُ» .

ثم أَنحى لهم على قومٍ صفتُهم موجودة في قوم فرعون ، فكأَنه أَرادهم فزال عن مخاطبتهم حُسْنَ أَدب واستخلاباً ، فقال : ﴿ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ﴾ ، أَي بالإبطال لها والرَّدِّ بغير برهان ولا حجَّة أَتتهم من عند الله . ﴿كَبُرَ مَقْتاً﴾ جدالُهم ﴿عِنْدَ ٱللَّهِ﴾ ، فاختصر ذكر الجدال لتقدم الدلالة فيما ذكر عليه ، وردَّ الفاعل بـ [كَبُرَ] نصباً على التمييز، كقولك: تَفَقَّأْتُ شَحْماً (١) وتَصَبَّبْتُ عَرَقاً ، و[يَطْبَعُ] معناه : يختم بالضلال ويحجب عن الهدى .

وقرأَ أَبو عمرو ، والأَعرج - بخلاف عنه - : ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبٍ﴾ بالتنوين [مُتَكَبِّرٍ] على الصفة ، وقرأَ الباقون بالإضافة إلى [مُتَكَبِّرٍ] ، قال أَبو علي : المعنى : يطبع الله على القلوب إذا كانت قلباً قلباً من كل

---

(١) معناها أن الجسم تشقق فخرج منه الشَّحْم ، (وتَفَقَّأَ) مطاوع (فَقَأَ) .

متكبر ، ويؤيد ذلك أن في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ»(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويتجه أن يكون المراد عموم قلب المتكبر الجبار بالطبع ، أي لا ذرَّة فيه من الإيمان ولا مقاربة ، فهي عبارة عن شدَّة إطلاقه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

---

(١) وكأن تقدير الكلام : يطبع الله على كلِّ قلب كلِّ متكبر جبار ، فحذفت (كلّ) الثانية لتقدم ما يدل عليها ، ولو لم نقدرها لصار المعنى إلى ما ذكره ابن عطية بعد ذلك من أنه يتجه أن يُراد عموم القلب المتكبر بالطبع ، بمعنى أن الله يطبع على كل قلب فلا يبقى فيه جزءٌ بدون طبع .

ذكر الله عزَّ وجلَّ مقالة فرعون حين أَعيته الحيل في مقاومة موسى عليه السلام بحجة ، وظهر لجميع المشاهدين أَن ما يدعو إليه موسى عليه السلام هو عبادة إِلٰه السماءِ ، فنادى فرعون هامان ـ وهو وزيره والناظر في أُموره ـ فأَمره أَن يبني له بناءً عالياً نحو السماءِ ، و «الصَّرْحُ» كل بناءٍ عظيم شنيع القدر ، مأْخوذ من الظهور والصراحة ، ومنه قولهم : «صريح النَّسب ، وصرَّح بقوله» ، فيروى أَن هامان طبخ الآجُرَّ ـ ولم يُطبخ قبله ـ وبناه ارتفاع اربعمائة ذراع ، فبعث الله تبارك وتعالى جبريل عليه السلام فمسحه بجناحه فكسره ثلاث كسر ، تفرقت اثنتان ووقعت ثالثة في البحر ، وروي أَن هامان لم يكن من القبط ، وقيل : كان منهم ، و «الْأَسْبَابُ» : الطُّرق ، قاله السدي ، وقال قتادة : الأَبواب ، وقيل : عنى : لعله يجد مع قربه من السماءِ سبباً يتعلق به ، وقرأَ الجمهور : [فَأَطَّلِعُ] رفعاً عطفاً على [أَبْلُغُ] ، وقرأَ حفص عن عاصم ، والأَعرج : [فَأَطَّلِعَ] نصباً بالفاءِ في جواب التمني . ولما قال فرعون بمحضر من مَلَئِهِ : ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى﴾ اقتضى كلامه الإِقرار بإِلٰه موسى ، فاستدرك ذلك استدراكاً قلقاً بقوله : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ﴾ أَي أَنه كما تَخَرَّق (١) فرعون في بناءِ الصَّرح والأَخذ في هذه الفنون المقصرة ، كذلك جرى جميع أَمره ،

---

(١) تَخَرَّق : اختلق الكذب وبالغ فيه .

وزُيِّن له ، أَي زيَّن الشيطان سوءَ عمله في كل أَفعاله ، وقرأَ الجمهور : ﴿ وَصَدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ بفتح الصاد ، بإِسناد الفعل إلى فرعون ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، وجماعة بضم الصاد وفتح الدَّال المشدَّدة : [وَصُدَّ] عطفاً على [زُيِّنَ] وحملًا عليه ، وقرأَ يحي بن وثاب : [وَصِدَّ] بكسر الصَّاد على معنى صُدَّ أَصله صُدِدَ ، فنقلت الحركة ثم أُدغمت الدال في الدال ، وقرأَ ابن أَبي إِسحق ، وعبد الرحمن بن أَبي بكرة : [وَصَدٌّ] بفتح الصاد ودال مهملة مُشَدَّدة مرفوعة منونة عطفاً على قوله : ﴿ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ . و «ٱلسَّبِيلُ» : سبيل الشرع والإِيمان ، و «التَّبَابُ» : الخُسْران ، ومنه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾(١) ، وبه فسَّر مجاهد وقتادة ، وتَبُّ فرعون ظاهرٌ لأَنه خسر ماله في الصَّرح وغيره ، وخسر مُلْكه ، وخسر نفسه ، وخُلِّد في جهنم .

ثم وعظ الذي آمن فدعا إلى اتِّباع أَمر الله تعـالى ، وقوله : ﴿ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ ﴾ يقوِّي أَن المتكلِّم موسى عليه السلام ، وإِن كان الآخر يحتمل أَن يقول ذلك ، أَي : اتبعوني في اتباع موسى عليه السلام .

ثم زهَّد في الدنيا وأَخبر أَنها شيءٌ يُتَمَتَّع به قليلًا ، ورغَّب في الآخرة ، إِذ هي دار الاستقرار . وقرأَ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ،

(١) الآية (١) من سورة (المَسَد) .

والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وأبو رجاءٍ ، وشيبة ، والأعمش : [يَدْخُلُونَ] بفتح الياءِ وضم الخاءِ ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم ، والأعرج ، والحسن ، وأبو جعفر ، وعيسى : [يُدْخَلُونَ] بضم الياءِ وفتح الخاءِ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾

قد تقدم ذكر الخلاف ، هل هذه المقالة لموسى عليه السلام أو لمؤمن آل فرعون . والدُّعاءُ إلى طاعة الله تعالى وعبادته وتوحيده هو الدعاءُ إلى سبب النجاة ، فجعله دعاءً إلى النجاة اختصاراً واقتضاباً ، وكذلك دعاؤُهم إياه إلى الكفر واتِّباع دينهم هو دعاءٌ إلى سبب دخول النار ، فجعله دعاءً إلى النار اختصاراً ، ثم بيَّن عليهم ما بين الدعوتين

من البَوْن في أَن الواحدة كُفْر وشِرْك ، والأُخرى دعوة إلى الإسناد إلى عزَّة الله تعالى وغفرانه .

وقوله : ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ليس معناه أَنِّي جاهل به ، بل معناه أَن العلم بأَن الأَوثان وفرعون وغيره ليس لهم مدخل في الأُلوهية ، وليس لأَحد من البشر علمٌ بوجه من وجوه النظر بأَن لهم في الأُلوهية مدخلًا ، بل العلم اليقين بغير ذلك من حدوثهم متحصل .

و ﴿لَا جَرَمَ﴾ مذهب سيبويه والخليل أَنها (لا) النافية دخلت على (جَرَمَ) ، ومعناها : ثَبَتَ وَوَجَبَ ، ومن ذلك جَرَمَ بمعنى كَسَبَ ، كقول الشاعر :

وَلَقَدْ طَعَنْتَ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَــــةً جَرَمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا (١)

---

(١) البيت للفزاريّ ، أبي أسماء بن الضَّريبة ، وقيل هو لعطية بن عُفَيْف . وهو في الكتاب لسيبويه ، وفي الخزانة ، واللسان (جرم) ، والاشتقاق ، والمقتضب . والبيت يقرأُ بضم التاء في (طَعَنْت) وهو غلط والصواب فتحها ؛ لأن الشاعر خاطب بها كُرْزاً العقيلي ورثاه ، وكان كُرْزٌ قد طعن أبا عُيَيْنَة وهو حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري في يوم الحاجر ، ويدل على ذلك قوله قبله : (يا كُرْزُ إنَّكَ قد فتَكْتَ بفارس) ، وفي الخزانة قال سيبويه : « إن جرم في البيت فعل ماض بمعنى حَقَّ ، وفزارة فاعل ، وأن يغضبوا بدل اشتمال ، أي حق غَضَبُ فزارة بعده » ، وقال الفراءُ : « إن الرواية هي بنصب فزارة ، أي كسبت الطعنة فزارةَ الغَضَبَ ، أي جرمت لهم الغَضَبَ » ، وليس في كلام سيبويه ما يؤدي هذا المعنى ، بل إن كلامه يقتضي أن (جرم) فعل يرفع الفاعل ، والفاعل في البيت ضمير الطعنة . والكلام في البيت طويل كثير ، والخلاف بين النوحويين فيه متعدد ، والمهم أن (جَرَمَ) عند سيبويه فعل ، وعند الفراءِ اسم . وسيبويه يرى أن (لا) زائدة قبل (جرم) إلا أنها لزمتها لأنها كالمثل ، ويرى الخليل أن ﴿ لا جَرَمَ ﴾ إنما تكون جواباً لما قبلها من الكلام ، تقول: الرجل كان كذا وكذا ، فتقول : لا جرم أنهم سيندمون ، أو أنه سيكون كذا وكذا .

أَي أَوجبت لهم ذلك وثَبَّتته لهم ، فكأَن الكلام نفي للكلام المردود عليه بـ (لا) ، وإثبات لمستأْنف بـ (جَرَمَ) ، و [أَنَّ] – على هذا النظر – في موضع رفع بـ [جَرَمَ] ، وكذلك [أَنَّ] الثانية والثالثة ، ومذهب جماعة من أَهل اللسان أن ﴿لَا جَرَمَ﴾ هي بمعنى (لَا بُدَّ) و (لَا مَحَالَة) فـ [أَنَّ] – على هذا النظر – في موضع نصب بإِسقاط حرف الجرِّ ، أَي : لا محالة بأَنَّ ما ، و [مَا] بمعنى (الذي) واقعة على الأَصنام وما عبدوه من دون الله تبارك وتعالى .

وقوله : ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أَي ليس له قَدْر وحقٌّ يجب أَن يُدعى أَحدٌ إِليه ، فكأَنه قال : تدعونني إلى ما لا غناءَ له وبَيْن أَيدينا خطب جليل من الرَّدِّ إلى الله تعالى . وأَهلُ الإِسراف والشِّرك هم أَصحاب النار بالخلود والملازمة ، أَي : وكيف أَطيعكم مع هذه الأُمور الحقائق وفي طاعتكم رفض العمل بحسبها والخوف منها ؟ قال ابن مسعود ومجاهد : المسرفون سَفَّاكُوا الدماءِ بغير حِلِّها(١) ، وقال قتادة : هم المشركون .

ثم توعَّدهم بأَنهم سيذكرون قوله هذا عند حلول العذاب بهم ، وسوَّف بالسين(١) إذ الأَمر يحتمل أَن يخرج الوعيد في الدنيا أَو في الآخرة ،

---

(١) في القرطبي : « بغير حقِّها » .

(٢) أي قال : فَسَتَذْكُرُونَ بالسِّين ، وهي سين التسويف، أي التأخير والتَّطويل .

وهو تأْويل ابن زيد ، وروى اليزيديُّ وغيره عن أَبي عمرو فتح الياءِ من [أَمْرِيَ] ، والضمير في [فَوَقَاهُ] يحتمل أَن يعود على موسى عليه السلام أَو على مؤمن آل فرعون ، وقال قائلوا ذلك : إِن ذلك المؤمن نجا مع موسى عليه السلام وفرَّ في جملة من فرَّ معه ، وكان من المتَّبِعين . وقرأَ عاصم : [فَوَقَاهُ] بالإِمالة . و [حَاقَ] معناه : نزل ، وهي مستعملة في المكروه ، وسوءُ العذاب : الغَرَقُ وما بعده من النار وعذابها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ ، [ٱلنَّارُ] رفع على البدل من [سُوءُ] ، وقالت فرقة : [ٱلنَّارُ] رفع بالابتداءِ ، وخبره [يُعْرَضُونَ] .

وقالت فرقة : هذا الغُدُوُّ والْعَشِــيُّ هو في الدنيا ، أي : في كلِّ غُدُوٍّ وَعَشِــيٍّ من أَيام الدنيا يعرض آلُ فرعون على النار (١) ، وروي في ذلك عن الهُذَيل بن شرحبيل ، والسُّدي أن أَرواحهم في أَجواف طير سود تروح بهم وتغدو إلى النار ، وقاله الأَوزاعي حين قال له رجل : إني رأَيت طيوراً بيضاً تغدو من البحر ثم ترجع بالعشي سوداً مثلها ، قال الأَوزاعي : تلك هي التي في حواصلها أَرواح آل فرعون ، يحترق ريشها ويسودُّ بالعرض على النار ، وقال كعب بن محمد القرظي وغيره : أَراد تعالى أَنهم يُعرضون في الآخرة على النار على تقدير ما بين الغُدُوِّ والعَشيِّ ؛ إذْ لا غُدُوَّ ولا عَشيَّ في الآخرة، وإنما ذلك على التقدير بأَيام الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يحتمل أَن يكون [يَوْمَ] عطفاً على [عَشِيًّا] والعامل فيه [يُعْرَضُونَ] ، ويحتمل أَن يكون كلاماً مقطوعاً والعامل في [يَوْمَ] [أَدْخِلُوا] ، والتقدير على كل قول : «يقال أَدْخلُوا» . وقرأَ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ،

---

(١) خرَّج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعَشِيِّ ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة) .

والأَعرج ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، والأَعمش ، وابن وثاب ، وطلحة : [أَدْخِلُوا] بقطع الأَلف ، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وابن كثير ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وأَبو بكر عن عاصم ، والحسن ، وقتادة : [ٱدْخُلُوا] بصلة الأَلف على الأَمر لآل فرعون ، و [آلَ] – على هذه القراءَة – منادى مضاف ، و [أَشَدَّ] نصب على الظرفية .

والضمير في قوله : [يَتَحَاجُّونَ] لجميع كفار الأُمم ، وهذا ابتداءُ قصص لا يختص بآل فرعون ، والعامل في [إِذْ] فعل مضمر تقديره : واذكر ، وقال الطبريُّ : و [إِذْ] هذه عطف على قوله تعالى : ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾(١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد ، و «المُحَاجَّةُ» : التَّحَاوُرُ بالحجة والخصومة . و «الضُّعَفَاءُ» يريد : في القَدْر والمنزلة في الدنيا ، و «ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا» هم أَشراف الكفار وكبراؤُهم ، ولم يصِفهم بالكِبْر إِلَّا من حيث استكبروا ، لا أَنهم في أَنفسهم كبراءُ ، ولو كانوا كذلك في أَنفسهم لكانت صفتهم الكبراءَ أَو نحوه مما يوجب الصفة لهم ، و «التَّبَعُ» قيل : هو جمعٌ واحده تابعٌ كغائب وغَيَب(٢) ، وقيل : هو مفرد يوصف

(١) من الآية (١٨) من هذه السورة .

(٢) أوضح منها أنه مثل خادم وخَدَم ، وعاسٌ وعَسَس ، ورَاصِدٌ ورَصَد ، وهَامِلٌ وهَمَل ، وهذه الأخيرة تقال للبعير إذا ضلَّ وأُهمل .

به الجمع كعَدْل وزَوْر وغيره . وقولهم : ﴿مُغْنُونَ عَنَّا﴾ أَي تحملون عنا كَلَّه (١) ومَشَقَّتَه ، فأَخبرهم المستكبرون بأَن الأَمر قد انجزم بحصول الكُلِّ منهم فيها ، وأَن حكم الله تعالى قد استمرَّ بذلك .

وقولهم : ﴿كُلٌّ فِيهَا﴾ ابتداءٌ وخبر ، والجملة خبر [إنَّ] ، وقرأَ ابن السميفع : ﴿إِنَّا كُلاًّ فِيهَا﴾ بالنصب على التأْكيد ، ثم قال جميع من في النَّار لخزنتها وزبانيتها : ادعوا ربكم عَسى أَن يخفف عنَّا مقدار يوم من أَيام الدنيا من العذاب ، فراجعتهم الخزنة - على معنى التوبيخ والتقرير - ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ﴾ الآية ، فأَقرَّ الكفار عند ذلك وقالوا : [بَلَى] ، أَي قد كان ذلك ، فقال لهم الخزنة عند ذلك : فادعوا أَنتم إِذاً ، وهذا على معنى الهُزْءِ بهم ، أَي : فادعوا أَيُّها الكافرون الذين لا معنى لدعائكم ، وقالت فرقة : ﴿وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ هو من قول الخزنة ، وقالت فرقة : هو من قول الله تعالى إِخباراً منه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وجاءَت هذه الأَفعال على صيغة المضي - ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾ - لأَنها وصف حال مُتَيقنة الوقوع فَحَسُنَ ذلك فيها .

---

(١) من معاني الكَلّ : المصيبة تحدث ، فالمعنى : تحملون عنا مصيبتنا التي حدثت لنا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾

أَخبر الله تعالى أنه ينصر رسله عليهم السلام والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، قال بعض المفسرين : وهو خاصٌّ فيمن أَظهره الله تعالى على أُمته كنوح وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، وليس بعام لأَنا نجد من الأَنبياءِ عليهم السلام من قتله قومه كيحيي عليه السلام ولم ينصر عليهم . وقال السدي : الخبر عام على وجهه ، وذلك أَن نُصرة الرسل والأَنبياءِ عليهم الصلاة والسلام واقعة ولا بُدَّ ، إمَّا في حياة الرُّسل المنصورين كنوح وموسى عليهما السلام ، وإمَّا فيما يأْتي به الزمان بعد موتهم ، أَلا ترى ما صنع الله تبارك وتعالى

ببني إسرائيل بعد قتلهم يحي عليه السلام بتسليط بختنصر عليهم حتى انتصر ليحي عليه السلام ؟ ونصر المؤمنين داخل في نصر الرُّسل عليهم السلام ، وأيضاً فقد جعل الله تعالى للمؤمنين الفضلاء ودًّا ، ووهبهم نصراً إذا ظُلِموا ، وحضت الشريعة على نُصرتهم ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من ردَّ عن أخيه المسلم في عرضه كان حقًّا على الله أن يردَّ عنه نار جهنم)(١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله مَلَكاً يحميه يوم القيامة)(٢).

وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ﴾ ، يريد يومَ القيامة ، وقرأ الأعرج ، وأبو عمرو - بخلاف - : [تَقُومُ] بالتاء ، وقرأ نافع ، وأبو جعفر ، وشيبة : [يَقُومُ] بالياء ، و [ٱلْأَشْهَادُ] يحتمل أن يكون من الشهادة ، ويحتمل أن يكون من المشاهدة بمعنى المصدر ، وقال الزجاج : أَشْهَادٌ جمع شاهد كصاحب وأصحاب ، وقالت فرقة :

(١) أخرجه أحمد ، والترمذي وحسَّنه ، وابن أبي الدنيا في ذمِّ الغيبة ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وفي آخره كما ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور : (ثم تلا : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية) ، وفي القرطبي أن هذا الخبر عن أبي الدرداء ، وأن بعض المحدِّثين يقول إنه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣-٤٤١) ، وأبو داود في الأدب ، ولفظه كما في مسند أحمد ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من حمى مؤمناً من منافق يعيبه بعث الله تبارك وتعالى مَلَكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن بغي مؤمناً بشيء يريد شينه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال) .

أَشْهَادُ جمع شَهْد ، وشَهْد جمع شاهد كصاحب وصَحْب وتاجر وتَجْر ، وقال الطبري : أَشهاد جمع شهيد كشريف وأَشراف .

و ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ ﴾ بدل من الأَول ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وقتادة ، وعيسى ، وأَهل مكة : ﴿ لَا تَنْفَعُ ﴾ بالتاءِ من فوق ، وقرأَ الباقون : ﴿ لَا يَنْفَعُ ﴾ بالياءِ ، وهي قراءَة أَبي جعفر ، وطلحة ، وعاصم ، وأَبي رجاءٍ ، وهذا لأَن تأْنيث المعذرة غير حقيقي ، ولأَن الحائل قد وقع ، و « الْمَعْذِرَةُ » مصدر كالعُذر . و [ٱللَّعْنَةُ] : الإِبعاد ، و ﴿ سُوءُ ٱلدَّارِ ﴾ فيه حذف مضاف تقديره : سوءُ عاقبة الدار .

ثم أَخبر الله تعالى بقصة موسى عليه السلام وما آتاه الله تعالى من النُّبُوَّة تأْنيساً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وضَرْبَ أُسْوة ، وتَذْكيراً بما كانت العرب تعرفه من أَمر موسى عليه السلام ، فيُبَيِّن ذلك أَن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس ببدع من الرُّسل . و « الْهُدَى » : النُّبُوَّة والحكمة ، والتوراة تعُمُّ ذلك جميعه . وقوله تعالى : [وَأَوْرَثْنَا] عبارة عن أَن طوائف بني إِسرائيل قرناً بعد قَرْن تصير فيهم التوراة إِماماً ، فكان بعضهم يرثها عن بعض ، وتجيءُ الوراثة في حق الصدر الأَول منهم على تجوُّز . و « ٱلْكِتَابُ » : التوراة .

ثم أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالصبر وانتظار إِنجاز الوعد ، أَي : فستكون عاقبة أَمرك كعاقبة أَمره ، وقال الكلبي : نسخت آيةُ القتال الصبرَ حيث وقع ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ

لِذَنْبِكَ﴾ يحتمل أن يكون ذلك قبل إعلام الله إيَّاه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؛ لأَن آية هذه السورة مكية وآية سورة الفتح مدنية متأخرة ، ويحتمل أن يكون الخطاب في هذه الآية له والمراد أُمَّته ، أَي أَنه إذا أُمر هو بهذا فغيره أَحرى بامتثاله . و «الْإِبْكَارُ» والبكور بمعنى واحد ، وقال الطبري : الإبكار من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس ، وحكى عن قوم أَنه من طلوع الشمس إلى ارتفاع لضحى ، وقال الحسن : [بِالْعَشِـيِّ] يريد صلاة العصر ، [وَالْإِبْكَارِ] يريد به صلاة الصبح .

ثم أَخبر تعالى عن أُولئك الكفار الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان ، وهم يريدون بذلك طمسها والرَّد في وجهها ، أَنهم ليسوا على شيءٍ بل في صدورهم وضمائرهم كِبْر وأَنَفَة عليك حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله تعالى ، ثم نفى أَن يكونوا يبلغون آمالهم بحسب ذلك الكِبْر فقال : ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ ، وهنا حذف مضاف تقديره : ببالغي إرادتهم فيه ، وهذا النفي الذي يتضمن أَنهم لا يبلغون أَملًا تأْنيسٌ لمحمد صلى الله عليه وسلم . ثم أَمره بالاستعاذة بالله في كل أَمره من كُلِّ مُسْتعاذٍ منه لأَن الله يسمع أَقواله وأَقوال مخالفيه ، وهو بصير بمقاصدهم ونيَّاتهم ومُجَازٍ كلاًّ بما استوجبه ، والمقصد بأَن يُستعاذ منه عند قوم الكِبْر المذكور ، كأَنه قال : هؤلاءِ لهم كِبْر لا يبلغون منه أَملًا ، فاستعذ بالله من حالهم في ذلك . وذكر

الثعلبي أَن هذه الاستعاذة من الدجَّال وفتنته ، والأَظهر ما قدَّمناه من العموم في كل مُسْتَعاذٍ منه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيَة توبيخٌ لهؤلاءِ الكفار المتكبرين ، كأَنه تعالى قال : مخلوقات الله تعالى أَكبر وأَجل قدراً من خلق البشر ، فما لأَحد منهم أَن يتكبر على خالقه ، ويحتمل أَن يكون الكلام في معنى البعث والإِعادة ، فَأَعْلم تعالى أَن الذي خلق السموات والأَرض قويٌّ قادر على خلق الناس تارةً أُخرى ، و «الْخَلْق» ـ على هذا التأْويل ـ مصدرٌ مضاف إلى المفعول . وقال النقاش : المعنى : مما يخلق الناس ؛ إذ هم في الحقيقة لا يخلقون شيئاً ، فالخلق في قوله تعالى : ﴿مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ مضاف إلى الفاعل على هذا التأْويل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ يقتضي أن الأَقل منهم يعلم ذلك ، ولذلك مَثَّل الأَكثرَ الجاهلَ بالأَعمى ، والأَقلَّ العالمَ بالبصير ، وجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعادلهم قوله : [الْمُسيءُ] ، وهو اسم جنس يعُمُّ المسيئين . وأَخبر تعالى أن هؤلاءِ لا يستوون ، فكذلك الأَكثر الجهلاءُ من الناس لا يستوون مع الأَقل الذين يعلمون .

وقرأ أكثر القراءِ ، والأَعرج ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، والحسن : [يَتَذَكَّرُونَ] بالياءِ على الكناية عن الغائب ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وقتادة ، وطلحة ، وعيسى ، وأَبو عبد الرحمن : [تَتَذَكَّرُونَ] بالتاءِ من فوق على المخاطبة ، والمعنى : قل لهم يا محمد .

ثم جزم تعالى الإِخبار بأَن السَّاعة آتية ، وهي القيامة المتضمنة للبعث من القبور ، والحساب بين يدي الله تعالى ، وافتراق الجمع إلى الجنة وإلى النار . وقوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي في ذاتها ونفسها ، وإن وُجد من العالم من يرتاب فيها فليست فيها في نفسها ريبة .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ آية تفضل ونعمة ووعد لأُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم بالإِجابة عند الدُّعاءِ ، وهذا وعد مقيَّد بشرط المشيئة وهي موافقة المقدور لمن شاءَ الله تعالى ، لا أَن الاستجابة عليه حتم لكل داعٍ لا سيما من تعدى في دعائه ، فقد عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاءَ الذي قال : اللَّهم أَعطني

القصر الأَبيض الذي عن يمين الجنة (١). وقالت فرقة : معنى [ٱدْعُوني] : اعبدوني ، و [أَسْتَجِبْ] معناه : بالثواب والنصر ، ويدل على هذا التأْويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ ، ويُحتج له بحديث النعمان بن بشير أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الدعاءُ هو العبادة) ، وقرأَ هذه الآية(٢) . وقال ابن عباس رضي الله عنهما :

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة ، وابن ماجه في الدعاء ، وأحمد في مسنده (٤–٨٧) ، عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابناً له يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض من الجنة إذا دخلتها عن يميني ، قال : فقال له : يا بني سل الله الجنة وتعوَّذ من النار ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (سيكون بعدي قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والطهـور) .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الدعاء تلو العبادة) ، ثم قرأ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ — قال : عن دعائي — ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ، هل تدرون ما عبادة الله ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو إخلاص الله مما سواه (. (الدر المنثور) .

هذا وقد رُوي عن عُبادة بن الصامت أنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (أُعطِيَتْ أُمتي ثلاثاً لم تُعط إلا للأنبياء ، كان الله تعالى إذا بعث النبي قال : ادْعني أستجب لك ، وقال لهذه الأمة : ﴿ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، وكان الله إذا بعث النبي قال : ما جعل عليك في الدين من حرج ، وقال لهذه الأمة : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيداً على قومه ، وجعل هذه الأمة شهداء على الناس) . ذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» .

المعنى : وحِّدوني أغفر لكم ، وقيل للثوري : ادع الله تعالى فقال : إن ترك الذنوب هو الدعاءُ .

وقرأ ابن كثير ، وأبو جعفر ، [سَيُدْخَلُونَ] بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، والحسن ، وشيبة : [سَيَدْخُلُونَ] بفتح الياء وضم الخاء ، واختلف عن أبي عمرو ، وعن عاصم ، و «الدَّاخر» : الصاغر الذليل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

هذا تنبيه على آيات الله تعالى ، وعِبَرٌ متى تأملها العاقل أدَّته إلى توحيد الله تبارك وتعالى والإقرار بربوبيَّته ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّهَارَ

مُبْصِراً﴾ مجازه : يُبصر فيه ، كما تقول : نهارٌ صائم وليل قائم ، وقوله تعالى : ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معناه : خالق كلِّ شيءٍ مخلوق ، وما يستحيل أن يكون مخلوقاً كالقرآن والصفات فليس يدخل في هذا العموم ، وهذا كما قال تعالى : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾(١) معناه : كل شيءٍ بعثت لتدميره . وقرأت فرقة : [تُؤْفَكُونَ] بالتاء ، وفرقة : [يُؤْفَكُونَ] بالياء ، والمعنى في القراءة الأُولى : قُلْ لهم ، و [تُؤْفَكُونَ] معناه : تُصرفون عن طريق النظر والهُدى ، وهذا تقرير بمعنى التوبيخ والتقريع .

ثم قال لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ﴾ أي : على هذه الهيئة وبهذه الصفة صرف الله الكفار الجاحدين بآياته سبحانه وتعالى من الأُمم المتقدمة عن طريق الهُدى ، ثم بيَّن نعمته سبحانه وتعالى في أن جعل الأَرض قراراً ومهاداً للعباد ، والسماءَ بناءً وسقفاً . وقرأ الناس : [صُوَرَكُمْ] بضم الصاد ، وقرأ أبو رزين بكسرها (٢) ،

---

(١) من الآية (٢٥) من سورة (الأحقاف) .

(٢) وهذا فِرارٌ من الضمة قبل الواو ، لأنها ثقيلة ، قال بعض اللغويِّين : إن جمع (فُعْلة) على فِعَل شاذٌّ ، وهذا كما قالوا شاذّاً (قِوًى) بكسر القاف في جمع (قوة) بضم القاف — لكن الجوهري قال: والصِّوَرُ — بكسر الصاد — لغة في الصُّوَر جمع صورة ، وأنشد على هذه =

وقرأت فرقة : [صُوْرَكُمْ] بسكون الواو على نحو بُسْـرَةٍ وبُسْر .

وقوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ يريد : من المسْتَلَذَّات طعماً ولبساً ومكاسب وغير ذلك ، ومتى جاءَ ذكر الطَّيِّبات بقرينة «رَزَقَكُمْ» ونحوه فهذا هو المُسْتَلَذُّ ، ومتى جاءَ بقرينة تحليل أو تحريم ـ كما قال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾(١)، وكما قال : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾(٢) ـ فالطَّيِّباتُ في مثل هذا : الحلالُ ، وعلى هذا النظر تخرج مذهب مالك رحمه الله تعالى في الطَّيِّبَات والخَبائث ، وقولُ الشَّافعي رحمه الله تعالى : إن الطَّيِّبات هي المُسْتَلَذَّات والخبائث هي المُسْتَقْذَرات ضعيفٌ ينكسر بِمُسْتَلَذَّات مُحَرَّمة ومُسْتَقْذَرَات مُحَلَّلة لا ردَّ له في صدرها ، وأما حيث وقعت الطَّيِّبات مع الرِّزق فإنما هي تعديد نعمة فيما يستحسنه البشر ولا سيما هذه الآية التي هي مخاطبة للكفار ، فإنما عُدِّدت عليهم النعمة التي يعتقدونها نعمة . وباقي الآية بَيِّن .

= اللغة هذا البيت الذي يصف الجواري :

أَشْبَهْنَ مِنْ بَقَرِ الْخَلْصاءِ أَعْيُنَهَا وهُنَّ أَحْسَنُ مِن صِيرَانِهَا صِـــوَرَا

والصِّيران : القطيع من البقر . (راجع الصحاح للجوهري) وغيره .

(١) من الآية (٣٢) من سورة (الأعراف) .

(٢) من الآية (١٥٧) من سورة (الأعراف) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ * قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

لما سردت الآيات صفات الله التي تُبيِّن فساد حال الأَصنام كان من أَبْيَنِهَا أن الأَصنام مواتٌ جمادٌ ، وأنه عزَّ وجلَّ الحيُّ القيُّوم ، وصُدور الأَمر من لدنه وإيجادُ الأَشياءِ وتدبيرُ الأَمر كلِّه وعلمُه بالكلِّ ، دليلٌ قاطع على أنه حيٌّ لا إِلٰه إِلَّا هو .

وقوله تعالى : ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ كلامٌ متصل مقتضاه : ادعوه مخلصين بالحمد ، وبهذه الأَلفاظ قال ابن عباس رضي الله عنهما : من قال : «لَا إِلٰه إِلَّا الله» فليقل أَثرها : «الحمد لله ربّ العالمين» ، وقال نحو هذا سعيد بن جبير ثم قرأَ هذه الآية .

ثم أمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يصدع بأنه نُهي عن عبادة الأصنام التي عبدها الكفار من دون الله سبحانه وتعالى ، ووقع النهي لما جاءه الوحي والهدى من ربِّه ، وأُمر بالإسلام الذي هو الإيمان والأعمال ، وقوله تعالى : ﴿لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ أي أن أستسلم لربِّ العالمين وأخضع له بالطاعة (١) .

ثم بيَّن تعالى أمر الوحدانية والأُلوهية بالعبرة في ابن آدم وتدرُّج خلقه ، فأوله خلق آدم من تراب من طين لازب (٢) ، فجعل البشر من تراب لما كان منسلاً من المخلوق من التراب ، وقوله : ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إشارة إلى التناسل من آدم فمن بعده و« النُّطْفَة » [هي] (٣) الماءُ الذي خلق المرءُ منه ، و « العَلَقَةُ » : الدم الذي يصير من النطفة ، و « الطِّفْل » هنا اسم جنس ، و « بُلُوغُ الأَشُدِّ » اختُلف فيه - فقيل : ثلاثون ، وقيل : ستة وثلاثون ، وقيل : أربعون ، وقيل : ستة وأربعون ، وقيل : عشرون ، وقيل : ثمانية عشر ، وقيل : خمسة عشر ، وهذه الأقوال الأخيرة ضعيفة في الأَشُدِّ .

---

(١) أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة وشيبة ابن ربيعة قالا : يا محمد ارجع عما تقول ، وعليك بدين آبائك وأجدادك ، فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ لَمَّا جَاءَنِيَ ٱلْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ .

(٢) في بعض النسخ : « من تراب ثم من طين لازب » .

(٣) ما بين العلامتين [....] زيادة لتوضيح المعنى واستقامة العبارة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ عبارة تتردَّد في الأَدراج المذكورة كلها ، فمن الناس من يموت قبل أن يخرج طفلا ، وآخرون قبل الأَشُدِّ ، وآخرون بعد الشيخوخة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى ﴾ أي : هذه الأَصناف كلها مخلوقة مُيَسَّرة ليبلغ كل واحد منها أَجلًا مُسمًّى لا يتعداه ولا يتخطَّاه ، وليكون معتبراً ، ولعلكم أَيُّها البشر تعقلون الحقائق إذا نظرتم في هذا وتدبرتم حكمة الله فيه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ
(٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ
أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢)
ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ
نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْراً ﴾ عبارة عن إنفاذ الإِيجاد وإخراج المخلوق من العدم ، وإِيجادُ الموجودات هو بالقدرة ، واقترانُ الأَمر بذلك هو عظمة في المُلْك وتخضيعٌ للمخلوقات وإظهارٌ للقدرة ،

والأَمر للمُوجَد إنما يكون في حين تلبُّس القدرة بإيجاده ، لا قبل ذلك لأَنه حينئذ لا يخاطب في معنى الوجود والكَوْن ، ولا بعد ذلك لأَنَّ ما هو كائن لا يقال له : كُنْ .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ الآية . ظاهرها أَنها في الكفار المجادلين في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والكتاب الذي جاءَ به ، بدليل قوله : ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ الآية ، وهذا قول ابن زيد وجمهور المفسرين ، وقال محمد بن سيرين وغيره : قوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ الآيَةَ إشارةٌ إلى أهل الأَهواءِ من هذه الأُمة ، وروت هذه الفرقة في نحو هذا حديثاً(١) ، وقالوا : هي في أَهل القَدَر ومن جرى مجراهم ، ويلزم قائلي هذه المقالة أَن يجعلوا قوله : ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ الآية ... كلاماً مقطوعاً مستأْنفاً في الكفار ، [ٱلَّذِينَ] ابتداءٌ ، وخبره ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ، ويحتمل أَن يكون خبر الابتداءِ محذوفاً ، والفاءُ متعلقة به . وقوله تعالى : ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَالُ﴾ يعني يوم القيامة ، والعامل في الظرف [يَعْلَمُونَ] ، وعبَّر عن ظرف الاستقبال بظرف لا يقال إلَّا في الماضي ، لأَنه لما تيقن وقوع الأَمر حسُنَ تأْكيده بالإخراج في صيغة الماضي ، وهذا كثير في القرآن ،

---

(١) ذكره المهدوي ، عن عقبة بن عامر أنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (نزلت هذه الآية في القَدَرية) .

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى ﴾(١)، قال الحسن بن أبي الحسن: لم تُجعل السلاسل في أعناق الكفار لأنهم أعجزوا الربَّ تعالى ولكن لترسِّبهم إذا أطفاهم اللَّهب(٢). وقرأ الجمهور: [وَٱلسَّلَاسِلُ] رفعاً عطفاً على [ٱلْأَغْلَالُ]، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه [وَٱلسَّلَاسِلَ] بالنصب [يَسْحَبُونَ] بفتح الياء وإسناد الفعل إليهم وإيقاع الفعل على السلاسل، وقرأت فرقة: [وَٱلسَّلَاسِلِ] بالخفض على تقدير: إذْ أعناقهم في الأغلالِ والسَّلَاسِلِ، فعطف على المراد من الكلام لا على ترتيب اللفظ؛ إذْ ترتيبه فيه قلب، وهو على حدِّ قول العرب: «أَدْخَلْتَ القَلَنْسُوَةَ في رأْسي»، وفي مصحف أُبيٍّ ابن كعب رضي الله عنه: «وفي السلاسل يسحبون»، و[يُسْحَبُونَ] معناه: يُجَرُّونَ، والسَّحْب: الجرُّ. و«الحميم»: الذائب الشديد الحرِّ من النار، ومنه يقال للماءِ السخن: حميم. و[يُسْجَرُونَ] قال مجاهد: معناه: توقد النار بهم، والعرب تقول: «سَجَرْتُ التَّنُّورَ» إذا ملأْتها ناراً، وقال السدي: [يُسْجَرُونَ]: يُحرقون.

---

(١) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة).

(٢) في اللسان (رسب): «رَسَبَ الشيءُ في الماء يَرْسُب رسوباً: ذهب سُفْلا، وفي حديث الحسن يصف أهل النار: إذا طفت بهم النار أَرْسَبَتْهُمُ الأغلال، أي إذا رفعتهم وأظهرتهم حطَّتهم الأغلال بثقلها إلى أسفلها».

ثم أخبر تعالى أنهم يوقفون يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع ، فيقال لهم : أين الأصنام التي كنتم تعبدون في الدنيا ؟ فيقولون : ضلُّوا عنا ، أي تلقوا النار وغابوا واضمحلوا ، ثم تضطرب أقوالهم ويفزعون إلى الكذب فيقولون : بل لم نكن نعبد شيئاً ، وهذا من أشد الاختلاط وأبْيَن الفساد في الذهن والنظر ، فقال الله تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ ، أي بهذه الصفة المذكورة وبهذا الترتيب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ
﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ
بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

المعنى : يقال للكفار المعذَّبين : ذلكم العذابُ الذي أنتم فيه بما كنتم تكفرون وتفرحون في الدنيا بالمعاصي والكفر وتمرحون ، قال

مجاهد : معناه : الأَشَرُ والبَطَرُ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الفخر والخيلاءُ . وقوله تعالى : [ٱدْخُلُوا] ، يقال لهم قبل هذه المحاورة في أَول الأَمر : ادخلوا ، لأَن هذه المخاطبة إنما هي بعد دخولهم وفي الوقت الذي فيه الأَغلال في أَعناقهم ، وأَبواب جهنم هي السبعة المؤدية إلى طبقاتها وأَدراكها السبعة . و «المثْوى» : موضع الإقامة .

ثم آنس الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم ووعده بقوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ﴾ في نصرك وإظهار أَمرك ، فإنَّ ذلك إمَّا أَن ترى بعضه في حياتك فتقر به عينك ، وإمَّا أَن تموت قبل ذلك فإلى أَمرنا وتعذيبنا يصيرون ويرجعون ، وقراءة الجمهور : [يُرْجَعُونَ] بضم الياءِ ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن ، ويعقوب : [يَرْجِعُونَ] بفتح الياءِ ، وقرأَ طلحة بن مصرف ، ويعقوب – في رواية الوليد بن حسان – : [تَرْجِعُونَ] بفتح التاءِ منقوطة من فوق .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية ردٌّ على العرب الذين قالوا : إن الله تعالى لا يبعث بشراً رسولًا ، واستبعدوا ذلك ، وقوله تعالى : ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ ، قال النقاش : هم أَربعة وعشرون ، وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ رُوي من طريق أَنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم :

(إن الله عزَّ وجلَّ بعث ثمانية آلاف رسول)(١)، وروي عن سلمان، عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (بعث الله أربعة آلاف نبي)(٢)، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (بعث الله تعالى رسولًا من الحبشة أسود)(٣) وهو الذي لم يُقَصّ على محمد صلى الله عليه وسلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ساقه على أن هذا الحبشي مثال لما لم يقص، لا أنه هو المقصود وحده، فإن هذا بعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ رَدٌّ على قريش في إنكارهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وقولهم: إنه كاذب على الله تعالى، والإذنُ يتضمن علماً وتمكيناً، فإذا اقترن به أمر قَوِيَ كما هو في إرسال النبي، ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي إذا أراد إرسال رسول وبعثة نبي قضى ذلك وأنفذه بالحق، وخسر كلُّ مبطل، وحصل

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك، ولفظه كما جاء فيه: (بُعث النبي صلى الله عليه وسلم بعد ثمانية آلاف من الأنبياء، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل)، فلم يرفعه أنس إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري.

(٣) أخرجه ابن جرير، وزاد السيوطي في (الدر المنثور) نسبته إلى الطبراني في الأوسط، وابن مردويه.

على فساد آخرته ، وتحتمل الآية معنى آخر وهو أن يريد بـ «أَمْرِ اللهِ» القيامة ، فتكون الآية توعُّداً لهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذه آياتُ عِبَر وتعديد نِعَم ، و «الأَنعام» : الأَزواج الثمانية ، و [مِنْهَا] الأُولى للتبعيض ؛ لأَن المذكور ليس كل الأَنعام ، بل الإِبل خاصة ، و [مِنْهَا] الثانية لبيان الجنس ؛ لأَن الجميع منها يؤكل ، وقال الطبري في هذه الآية : إن الأَنعام تعمُّ الإِبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير وغير ذلك مما يُنتفع به من البهائم ، فـ [مِنْهَا] في الموضعين للتبعيض ـ على هذا ـ لكنه قول ضعيف ، وإنما الأَنعام : الأَزواج الثمانية التي ذكر الله تعالى فقط ، ثم ذكر الله تعالى المنافع ذكراً مُجْمَلًا لأَنها أَكثر من أَن تحصى .

وقوله تعالى : ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ يريد قطع الْمَهَامِهِ (١) الطويلة والمشاق البعيدة ، و «الْفُلْكُ» : السفن ، وهو هنا جمع ، و [تُحْمَلُونَ] يريد : برًّا وبحراً ، وذكر تعالى الحَمْل عليها وقد تقدم ذكر ركوبها لأن المعنى مختلف في الأمرين وبينهما تغاير ؛ لأن الركوب هو المتعارف فيما قَرُب ، ويستعمل دأباً في القرى والمواطن ، فهو نظير الأكل منها وسائر المنافع ، ثم خصص بعد ذلك السفر الأطول وحوائج الصدور مع البُعد ، وهذا هو الحمل الذي قرنه بشبيهه من أمر السفن .

ثم ذكر الله تعالى آياته عامة جامعةً لكلِّ عِبْرَة وموضِع نظر ، وهذا غير منحصر لاتِّساعه ، ولأن في كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على وحدانيته ، ثم قرَّرهم – على جهة التوبيخ – بقوله : ﴿فَأَيَّ آيَاتِ ٱللهِ تُنْكِرُونَ﴾ ؟

ثم احتجَّ تعالى على قريش بما يظهر في الأُمم السالفة من نقمات الله في الكفرة الذين كانوا أكثر عَدَداً ، وأَشَدَّ قُوَّةَ أبدانٍ وممالك ، وأعظم آثاراً في المباني والأفعال من قريش والعرب ، فلم يُغْن عنهم كَسْبهم ولا حالهم شيئاً حين جاءَهم عذاب الله وأَخْذُه . و [مَا] في قوله : ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ نافية ، قال الطبري : وقيل : هي توقيف وتقرير .

---

(١) جمع مهمه وهو المفازة البعيدة والبلد المقفر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

الضمير في [جَاءَتْهُمْ] عائد على الأُمم المذكورين الذين جُعلوا مَثَلًا وعِبرة. واختلف المفسرون في الضمير في [فَرِحُوا] ، على من يعود ؟ فقال مجاهد وغيره : هو عائد على الأُمم المذكورين ، أي : بما عندهم من العلم في ظنهم ومُعْتقدهم من أنهم لا يُبعثون ولا يُحاسبون ، وقال ابن زيد : اغتروا بعلمهم بالدنيا والمعايش ، وظنُّوا أنه لا آخرة ففرحوا ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾(١) ، وقالت فرقة : الضمير عائد على الرُّسل ، وفي هذا التأْويل حذف تقديره : كذَّبوهم ففرحوا - أي الرُّسل - بما عندهم من العلم بالله تعالى والثقة به وبأَنه سينصرهم .

و [حَاقَ] معناه : نزل وثبت ، وهي مستعملة في الشَّر ، و [مَا] في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُوا بِهِ ﴾ هو العذاب الذي كانوا يُكذِّبون به

(١) من الآية (٧) من سورة (الروم) .

ويستهزئون بأمره ، والضمير في [بِهِمْ] عائد على الكفار بلا خلاف .

ثم حكى تعالى حالة بعضهم مِمَّن آمن بعد تابُّس العذاب بهم فلم ينفعهم ذلك ، وفي ذكر هذا حضٌّ للعرب على المبادرة ، وتخويف من التأنّي ، لئلا يدركهم عذاب لا تنفعهم توبة بعد تَلَبُّسه بهم ، وأمّا قصة قوم يونس عليه السلام فقد رأَوْا العذاب ولم يكن تلبّس بهم ، وقد مرّ تفسيرها مُستقصى في سورة يونس عليه السلام . و [سُنَّةَ] نصب على المصدر ، و [خَلَتْ] معناه : مضت واستمرت وصارت عادة . وقوله تعالى : [هُنَالِكَ] إشارةٌ إلى أوقات العذاب ، أي ظهر خُسْرَانُهُم وحضر جزاءُ كفرهم .

كمل تفسير سورة (غافر) والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٤١) سُورة فصّلت مكيّة وآياتها ٥٤ نزلت بعد غافر

هذه السُّورة مكيَّة بإجماع من المفسِّرين(١)، ويُروى أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُبَيِّن عليه أمر مخالفته لقومه ، وليحتجَّ عليه فيما بينه وبينه ، وليُبْعد ما جاءَ به ، فلمَّا تكلَّم عتبةُ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : [حٰمٓ] ، ومرَّ في صدر هذه السُّورة حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(٢) ، فأُرْعِدَ الشَّيْخُ وقفَّ شعره(٣) ، وأمسك على فم رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وناشده بالرَّحم أن يُمسك ، وقال حين فارَقَهُ : « والله لقد سمعتُ شيئاً ما هو بالشِّعر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة ، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي(٤).

(١) وتسمى هذه السورة (فُصِّلت) ويقال لها سجدة المؤمن ، ويقال لها أيضاً: المصابيح ، وآياتها ٥٤ آية ، وقيل : ٥٣ آية .

(٢) وهي الآية رقم (١٣) من السورة .

(٣) أُرعِد فلان : أخذته الرعدةُ . وقَفَّ شعره : قام من الفزع .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبو يَعْلي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي ، كلاهما في الدلائل ، وابن عساكر ، عن جابر بن عبد الله =

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾

=رضي الله عنه ، وفيه كما ذكره في الدرِّ المنثور : (اجتمعت قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشِّعر ، فليأت هذا الرجلَ الذي قد فرَّق جماعتنا ، وشتَّت أمرنا ، وعاب ديننا ، فَلْيُكَلِّمه ولْيَنْظُر ماذا يرُدُّ عليه ، فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة ، قالوا : أنت يا أبا الوليد ، فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عِبْتَ ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع لك ... إلخ) — وفي آخره أيضاً — كما رواه أبو بكر بن الأنباري — : (فانصرف عتبة إلى قريش في ناديها ، فقالوا : والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضى به من عندكم ، ثم قالوا : ما وراءك أبا الوليد ؟ قال : والله لقد سمعت كلاماً من محمد ما سمعتُ مثله قط ، والله ما هو بالشِّعر ولا بالكهانة ، فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي ، خلُّوا محمداً وشأنه واعتزلوه ، فوالله ليكونَنَّ لما سمعتُ من كلامه نبأٌ ، فإن أصابته العربُ كُفيتموه بأيدي غيركم ، وإن كان ملكاً أو نبيّاً كنتم أسعد الناس به ؛ لأن مُلكه مُلككم وشرفه شرفكم ، فقالوا : هيهات ، سحرك محمد يا أبا الوليد ، وقال : هذا رأيي لكم ، فاصنعوا ما شئتم) .

تقدم القول في أَوائل السُّور وفيما تختص به الحواميم ، وأَمال الأَعمش [حٰـمٓ] في كلِّها ، و [تَنْزِيلٌ] خبر الابتداءِ ، إِمَّا على أَن يقدر الابتداءُ في [حٰـمٓ] على ما تقتضيه بعض الأَقاويل فيها ، إِذا جعلت إِسمًا للسورة أَو للقرآن أَو إِشارة إِلى حروف المعجم ، وإِمَّا على أَن يكون التقدير : هذا تنزيلٌ ، ويجوز أَن يكون [تَنْزِيلٌ] ابتداءً وخبره في قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ﴾ ، على معنى : ذُو تنزيل . و ﴿ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتا رجاءٍ ورحمة لله تعالى ، و [فُصِّلَتْ] قال السدي : معناه : بُيِّنَت آياته ، أَي فُسِّرَت معانيه ، ففصل بين حلاله وحرامه ، وزجره وأَمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وقيل : فُصِّلَت في التنزيل ، أَي نزل نجوماً ولم ينزل مرةً واحدة ، وقيل : فصلت المواقفُ وأَنواعُ أَواخر الآي ، ولم يكن يرجع إِلى قافية واحدة ونحوها كالشِّعر والسجع ، و [قُرْآناً] نصب على الحال عند قوم ، وهي مؤكِّدة لأَن هذه الحال ليست مما تنتقل ، وقالت فرقة : هو نصب على المصدر ، وقالت فرقة : [قُرْآناً] توطئة للحال و [عَرَبِيًّا] حال ، وقالت فرقة : [قُرْآناً] نصب على المدح ، وهذا قول ضعيف .

وقوله تعالى : ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قالت فرقة : معناه : يعلمون الأَشياءَ ويعقلون الدلائل وينظرون على طريق النظر ، فكأَن القرآن فصِّلت آياته لهؤلاءِ إِذ هم أَهل الانتفاع بها فَخُصُّوا بالذكر تشريفاً ،

ومن لم ينتفع بالتفصيل فكأنه لم يُفَصَّل له ، وقالت فرقة : [يَعْلَمُونَ] متعلق في المعنى بقوله تعالى : [عَرَبِيًّا] ، أي : جعلناه بكلام العرب لقوم يعلمون ألفاظه ، ويحققون أنها لم يخرج شيءٌ منها عن كلام العرب ، وكأن الآية رادَّة على من زعم أن في كتاب الله تعالى ما ليس في كلام العرب ، فالعلم - على هذا التأْويل - أخصُّ من العلم على التأْويل الأَول ، والأَول أشرف معنىً ، وبَيِّنٌ أَنه ليس في القرآن إلَّا ما هو من كلام العرب ، إمَّا على أَصل لغتها ، وإمَّا ما عرَّبته من لغة غيرها ثم ذُكر في القرآن وهو معرَّب مستعمل .

وقوله تعالى : ﴿بَشِيراً ونَذِيراً﴾ نعتٌ للقرآن ، أَي يبشِّر من آمن بالجنة ويُنذر من كفر بالنَّار ، والضمير في [أَكْثَرُهُمْ] عائد على القوم المذكورين . وقوله تعالى : ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ نفيٌ لسمعهم النافع الذي يعتد به سمعاً . ثم حكى تعالى عنهم مقالتهم التي باعدوا فيها كل المباعدة ، وأَرادوا بها أَن يُؤْيِسُوهُ من قبولهم دينه ، وهي : ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ ، و [أَكِنَّةٍ] : جمع كنان ، وهو بابُ فِعَالٍ وأَفْعِلَة ، والكِنَانُ : ما يجمع الشيء ويضمه ويحول بينه وبين غيره ، ومنه الكِنُّ ، ومنه كنانة النبْل ، وبها فسَّر مجاهد هذه الآية ، و [مِنْ] في قولهم : ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ لابتداء الغاية ، وكذلك هي في قولهم : ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ مؤكدة ولابتداء

الغاية (١) ، و «الوَقْر» الثِّقَل في الأُذن الذي يمنع السَّمع ، وقرأ ابن مصرف : [وِقْرٌ] بكسر الواو ، و «الْحِجَابُ» الذي أَشاروا إليه هو مخالفته إيَّاهم ، ودعوته إلى الله تبارك وتعالى دون أَصنامهم ، أَي : هذا أَمر يحجبنا عنك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه مقالة يحتمل أَن تكون معها قرينة الجِدّ في المحاورة وتتضمن المباعدة ، ويحتمل أَن تكون معها قرينة الهَزْل والاستخفاف ، وكذلك قولهم : ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ يحتمل أَن يكون القول تهديداً ، ويحتمل أَن يكون متاركة محضة . وقرأ الجمهور : ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾ على معنى الأَمر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقرأ يحي بن وثاب ، والأَعمش : ﴿قَالَ إِنَّمَا﴾ على معنى المُضِيِّ والخبر عنه ، وهذا هو الصدع بالتوحيد والرسالة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ ، قال الحسن : علَّمه الله تعالى التواضع ، و [أَنَّ] في قوله تعالى : ﴿أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ﴾ رفع على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله ، وقوله : [فَاسْتَقِيمُوا] أَي على محجَّة الهدى

(١) في بعض النسخ : «مؤكدة لابتداء الغاية» .

وطريق الشرع والتوحيد ، وهذا المعنى مُضَمَّن في قوله : [إِلَيْهِ] ، و «الوَيْلُ» : الحزن والثبور ، وفسَّره الطبري وغيره في هذه الآية بقيح أهل النار وما يسيل منهم . وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ﴾ قال الحسن ، وقتادة ، وغيرهما (١) : هي زكاة المال ، وروي أن الزكاة قنطرة الإسلام ، من قطعها نجا ومن جانبها هلك (٢) ، واحتُجَّ لهذا التأويل بقول أبي بكر رضي الله عنه في الزكاة وقت الرِّدَّة (٣) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، والجمهور : الزكاة في هذه الآية : «لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ» التوحيد ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ (٤) ، ويُرَجِّح هذا التأويل أن الآية من أوَّل المكِّيِّ وزكاة المال نزلت بالمدينة ، وإنما هذه زكاة القلب والبدن ، أي تطهيرهما (٥) من الشِّرك والمعاصي ، وقاله مجاهد والرَّبيع ، وقال الضحاك ومقاتل : معنى الزكاة هنا النفقة في الطاعات ، وأعاد الضمير في قوله تعالى : ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ توكيداً .

---

(١) في الأصول : «وغيره» .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، عن قتادة ، أنه قال : «كان يقال : الزكاة قنطرة الإسلام ... الخ» ، وهكذا أيضاً أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره .

(٣) كان أهل الرِّدَّة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : «أما الصلاة فنصلي ، وأما الزكاة فوالله لا تغصب أموالنا» ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : «والله لا أُفرِّق بين شيءٍ جمع الله بينه ، والله لو منعوني عِقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه» .

(٤) من الآية (١٨) من سورة (النازعات) .

(٥) في الأصول : «أي تطهيره» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ﴾

ذكر عزَّ وجلَّ حالة الذين آمنوا معادلًا بذلك حالة الكفار المذكورين ليتبيَّن الفرق ، وقوله تعالى : ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : غير منقوص ، وقالت فرقة : معناه : غير مقطوع ، يقال : مَنَنْتُ الحبلَ إذا قطعتَه (١) ، وقال مجاهد : معناه : غير محسوب ؛ محصور ، فهو مُعَدٌّ لأَن يُمَنَّ به ، ويظهر في الآية أنه وصفه بعدم المن والأَذى ، ومن حيث هو من جهة الله تعالى فهو تشريف لا مَنَّ فيه ، وأُعطيات البشر هي التي يدخلها المنُّ ، وقال السدي : نزلت هذه الآية في المرضى والزَّمْنى(٢) إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كُتب لهم من الأَجر كأَصح ما كانوا يعملون .

---

(١) قال ذو الإصبع العدواني :

إنِّي لَعَمْــرُكَ ما بَابي بِـذِي غَلَقٍ   عَلَى الصَّدِيقِ وَلا خَيْرِي بِمَمْنُونِ

(٢) الزَّمنى : المرضى مرضا يدوم طويلا ، أو الضعاف بكبر السِّن .

ثم أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بأَن يوقفهم مُوَبِّخاً على كفرهم بخالق الأَرض والسماءِ ومخترعهما ، ووصف صورة الخلق ومدَّته ، والحكمةُ في خلق هذه المخلوقات في مدة مُمْتَدَّة مع قدرته على إيجادها في حين واحد هي إظهارُ القدرة في ترتيب ذلك حسب شرف الإيجاد أَوَّلًا أَوَّلًا ، قال قوم : لِيُعَلِّم عباده التأَنِّي في الأُمور والمَهَل . وقد تقدم القول غير مرة في نظير قوله : [أَئِنَّكُمْ] ، واختلف رواة الحديث في اليوم الذي ابتدأَ الله تعالى فيه خلق الأَرض ، فروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وغيره أَن أَول يوم هو الأَحد ، وأَن الله تبارك وتعالى خلق فيه وفي الاثنين الأَرض ، ثم خلق الجبال ونحوها يوم الثلاثاءِ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : فَمِنْ هنا قيل : هو يوم ثقيل ، ثم خلق الثمار والشجر والأَنهار يوم الأَربعاءِ ، ومن هنا قيل : هو يوم راحة وتفكُّر في هذه التي خلقت فيه ، ثم خلق السموات وما فيها يوم الخميس ويوم الجمعة ، وفي آخر ساعة منه خلق آدم عليه السلام ، قال السدي : وسُمِّي يوم الجمعة لاجتماع المخلوقات فيه وتكاملها . فهذه رواية فيها أَحاديث مشهورة ، ولمَّا لم يخلق الله تعالى يوم السبت شيئاً امتنع بنو إسرائيل من الشغل فيه ، ووقع في كتاب مسلم أَن أَول يوم خلق الله فيه البريَّةَ يوم السبت ، ثم رتَّب المخلوقات على ستة أَيام ، وجعل يوم الجمعة عارياً من المخلوقات إلَّا من آدم وحده . والظاهر من القصص في طينة آدم عليه السلام

أَن الجمعة التي خُلق فيها آدم قد تقدمتها أَيام وجُمع كثيرة ، وأَن هذه الأَيام التي خلق فيها المخلوقات هي أَول الأَيام ، لأَن بإِيجاد الأَرض والسماءِ والشمس وُجد اليوم ، وقد يحتمل أَن يجعل قوله تعالى [يَوْمَيْنِ] على التقدير وإِن لم تكن الشمس خلقت بعد وكان تفصيل الوقت يعطى أَنها الأَحد ويوم الاثنين كما ذُكر .

و «الْأَنْدَاد» : الأَشباه والأَمثال، وهذه إِشارة إِلى كل ما عُبد من الملائكة والأَصنام وغير ذلك، قال السدي : أَكفاءٌ من الرجال يطيعونهم . و «الرَّوَاسي» هي الجبال الثوابت ، رَسَا الجبلُ إِذا ثبت ، وقوله تعالى : ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أَي جعلها مُنْبتَة للطيبات والأَطعمة ، وجعلها طهوراً ، إِلى غير ذلك من أَنواع البركة ، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه : «وقَسَّم فيها أَقواتها» ، وفي مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه : «وقدَّر» .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : [أَقْوَاتَهَا] ـ فقال السدي : هي أَقوات البشر وأَرزاقهم ، وأَضافها إِلى الأَرض من حيث هي فيها وعنها ، وقال قتادة : هي أَقوات الأَرض من الجبال والأَنهار والأَشجار والصخور والمعادن والأَشياءِ التي بها قوام الأَرض ومصالحها ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما في هذا حديثاً مرفوعاً ، فشبهها بالقوت الذي به قوام الحيوان ، وقال مجاهد : أَراد أَقواتها من المطر والمياه ، وقال عكرمة ، والضحاك ، ومجاهد أَيضاً : أَراد تبارك وتعالى بقوله :

[أَقْوَاتَهَا] : خصائصَها التي قسمها في البلاد ، فجعل في اليَمَن أَشياءَ ليست في غيره ، وكذلك في العراق والشام والأَندلس وغيرها من الأَقطار ليحتاج بعضها إلى بعض ، ويتقوت من هذه في هذه من الملابس والمطعوم ، وهذا نحو القول الأَول إلَّا أَنه بوجه أَعمَّ منه .

وقوله تعالى : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ يريد تعالى : باليومين الأَولين (١) ، وهذا كما تقول : بنيتُ جدار داري في يوم ، وأَكملتُ جميعها في يومين ، أَي بالأَول .

وقرأَ الحسن البصري ، وأَبو جعفر ، وجمهور الناس : [سَوَاءً] بالنصب على الحال ، أَي : سواءً هي وما انقضى فيها ، وقرأَ أَبو جعفر ابن القعقاع : [سَوَاءٌ] بالرفع ، أَي هي سواءٌ ، وقرأَ الحسن ، وابن أَبي إسحق ، وعيسى ، وعمرو بن عبيد : [سَوَاءٍ] بالخفض على نعت «الأَيام» . واختلف المتأَولون في معنى [لِلسَّائِلِينَ] — فقال قتادة ، والسُّدي : معناه : سواءً لمن سأَل عن الأَمر واستفهم عن حقيقة وقوعه وأَراد العبرة فيه ، فإنه يجده كما قال عزَّ وجلَّ . وقال ابن زيد وجماعة : معناه : مُسْتَوٍ مُهَيَّأٌ أَمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إليها من البشر ، فعبَّر عنهم بالسَّائلين ، بمعنى الطَّالبين ؛ لأَنهم من شأْنهم ولابُدَّ طَلَبُ ما ينتفعون به ، فهم في حكم من سأَل هذه الأَشياءَ ؛

(١) يعني : في تَتِمَّة أربعة أيامٍ .

إذ هم بحال حاجة إليها . ولفظة «سواءٍ» تجري مجرى «عَدْل» و «زَوْرٍ» في أن ترد على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ معناه : بقدرته واختراعه ، أي : إلى خلق السموات وإيجادها ، وقوله تعالى : ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ روي أنها كانت جسماً رخواً كالدخان أو البخار ، وروي أنه مما أمره الله أن يصعد من الماءِ ، وهنا لفظ متروك يدل عليه الظاهر ، وتقديره : فأوجدها وأتقنها وأكمل أمرها ، وحينئذ قال لها وللأرض : ﴿ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ . وقرأ الجمهور : [ٱئْتِيَا] ، من أتى يأْتي ، ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ على وزن فَعَلْنا ، وذلك على معنى : ائْتِيَا أوامري وإرادتي فيكما ، وقرأ ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد : [آتِيَا](١) ، من آتى يُؤْتي ، ﴿قَالَتَا

---

(١) ضبطه القرطبي بقوله : «بالمدّ والفتح» ، وقال أيضاً إنها قراءة عكرمة ، ويفهم من الهامش التالي أنهما من : (آتَى يُؤَاتِي) ، لا من (آتَى يُؤْتِي) .

آتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ على وزن أَفْعَلْنا(١)، وذلك بمعنى أَعْطِيَا من أنفسكما من الطاعة ما أَردتُه منكما ، والإشارة بهذا كله إلى تسخيرهما وما قدَّره الله تعالى من أعمالهما . وقوله تعالى : ﴿أَوْ كَرْهاً﴾ فيه محذوف ومقتضب ، والتقدير : ائْتِيَا طوعاً وإلَّا أَتَيْتُما كَرْهاً ، وقوله تعالى : [قَالَتَا] أراد الفرقتين المذكورتين ، جعل تعالى السموات سماءً والأَرضين أَرضاً ، ونحو هذا قول الشاعر :

أَلَمْ يَحْزُنْكِ أَنَّ حبال قَوْمـي وَقَوْمكِ قَدْ تَبَايَنَتَا انقِطَاعَا ؟(٢)

---

(١) قال أبو الفتح ابن جني في المحتسب : « ينبغي أن يكون [آتَيْنَا] هنا : فَاعَلْنَا ، كقولك : سارعنا وسابقنا ، ولا يكون : أَفْعَلْنَا ؛ لأن ذلك متعدٍّ إلى مفعولين ، وفاعَلْنَا متعدٍّ إلى مفعول واحد ، وحذف الواحد أسهل من حذف الاثنين ؛ لأنه كلما قلَّ الحذف كان أمثل من كثرته ، ومِثْل [آتَيْنَا] في أنه فاعَلْنا لا أفعَلْنا القراءة الأخرى : ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا﴾ ، أي : سارعنا بها » . والزمخشري من هذا الرأي أيضاً ، فقد قال : إنها من المُواتاةِ وهي الموافقة ، فيكون وزن [آتَيْنَا] : فَاعَلْنا ، وتقدمه إلى ذلك أبو الفضل الرازي ، قال : « [آتَيْنَا] بالمدِّ على فَاعَلْنا ، من المواتاة ، ومعناه : سارعنا ، على حذف المفعول منه ، و لا يجوز أن يكون من الإيتاء الذي هو الإعطاءُ لبُعْد حذف مفعوله ».

(٢) البيت للقطامي الشاعر النصراني الذي عاش في العصر الإسلامي ، وهو من قصيدة له يمدح زُفَر بن الحارث الكلابي الذي أطلق سبيله من الأسر ، وفي مطلعها يقول : (قِفِي قَبْلَ التَّفَرّقِ يا ضُبَاعَا) ، وضُباعَة هذه هي بنت زفر ، والبيت في الطبري ، والبحر المحيط ، وفي الديوان ، وفي (شعراء النصرانية في الإسلام) ، والرواية في أكثرها : (أَلَم يَحْزُنْك أن حِبَالَ قَيْسٍ وتَغْلب...) — والحبال : الصِّلاتُ والعهود ، والشاهد أن الشاعر قال : (تباينتا) بالتثنية مع أن حبال قيس وحبال تغلب جمع ، وكان الظاهر يقتضي أن يقول : (تباينت) مراعاة لمعنى الجمعية في الحبال . هذا هو كلام ابن عطية هنا ، ولكن أبا حيان يخالفه في البحر المحيط ويقول : « وليس كما ذكر ابن عطية لأنه إنما تقدم ذكر الأرض مفردة والسماء =

جعلها فرقتين وعبّر عنهما بِتَبَايَنَتَا . وقوله : [طَائِعِينَ] ، لما كان ممن يقول - وهي حال من يعقل - جرى الضمير في [طَائِعِينَ] ذلك المجرى ، وهذا كقوله تعالى : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(١) .

واختلف الناس في هذه المقالة من السماءِ والأَرض - فقالت فرقة : نطقتا حقيقة ، وجعل الله تعالى لهما حياة وإدراكاً يقتضي نطقهما ، وقالت فرقة : هذا مجاز ، وإنما المعنى أَنهما ظهر فيهما من اختيار الطاعة والخضوع والتذلل ما هو بمنزلة قول : ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ . والقول الأَول أَحسن لأَنه لا شيءَ يدفعه ، ولأَن العبرة فيه أَتم ، والقدرة فيه أَظهر .

وقوله تعالى: [فَقَضَاهُنَّ] معناه : فأَوجدهن ، ومنه قول أَبي ذؤيب :

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَـــــا دَاودُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ(٢)

= مفردة فَحَسُن التعبير عنهما بالتثنية ، والبيت هو من وضع الجمع موضع التثنية ، كأنه قال: ألم يحزنك أن حبال قومي وقومك ، ولذلك ثنّى في قوله : (تباينتا) ، وأنّث على معنى الحبل ؛ لأنه لا يريد به الحبل حقيقة ، وإنما عنى به الذمة والمودة التي كانت بين قوميهما » .

(١) من الآية (٤) من سورة (يوسف) .

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهُذلي ، وهو من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله :

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّـــعُ وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مِنْ يَجْزَعُ

وبيت الشاعر يتحدث مع أبيات قبله عن معركة جرت بين فارسين كلاهما بطل ، وكلاهما في كفه سنان ، وعليهما مسرودتان ، فالضمير في (عليهما) يعود على البطلين ، والمسرودتان : دِرْعَانِ سردت كل واحدة منهما ، والسَّرْدُ : الخَرْزُ في الأديم ، وقد أراد في الدرع مثل هذا الذي يحدث في الأديم ، وقضاهُمَا : فَرَغَ من عملهما ، وهو موضع الشاهد هنا ، والصَّنَعُ : الحاذِقُ بالعمل ، وهو هنا تُبَّع وهو واحد من أشهر ملوك اليمن قديماً ، قال الأصمعي : « سمع الشاعر أن داود عليه السلام كان قد سُخِّر له الحديد فهو يصنع منه ما أراد ، =

وقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ قال مجاهد ، وقتادة : أَوحَى إلى سكانها وعَمَرتها من الملائكة وإليها هي في نفسها ما شاءَ الله تعالى من الأُمور التي بها قوامها وصلاحها ، قال السدي ، وقتادة : من الأُمور التي هي لغيرها مثل ما فيها من جبال البَرَد ونحوها ، وأَضاف الله تعالى الأَمر إليها من حيث هو فيها .

ثم أَخبر الله تعالى أَن الكواكب زيَّن بها السماءَ الدنيا ، وذلك ظاهر اللفظ بحسب ما يقتضيه حسُّ البصر ، وقوله تعالى : [وَحِفْظاً] منصوب بإِضمار فعل ، أَي : وحفظناها حفظاً . وقوله تعالى : [ذَلِكَ] إشارة إلى جميع ما ذكر ، أَي : أَوجده بقدرته وعزَّته وأَحْكمه بعلمه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

= وسمع بأن تُبَّعاً عملهما فقال : عملهما تُبَّع ، والحقيقة أنه أمر بعملهما »، والسوابغ : الطويلة التي تكسو الجسم من أعلاه إلى أسفله ، والمعنى : إن على كل من البطلين درع سابغة مسرودة فرغ من عملها داود عليه السلام ، أو صنعها تُبَّع اليماني المشهور بهذه الصناعة .

المعنى : فإن أعرضت قريش والعرب الذين دعوتهم إلى الله تعالى عن هذه الآيات البيِّنات فأعلمهم أنك تحذرهم أن يصيبهم مثلُ العذاب الذي أصاب الأُمم التي كذبت كما تكذب هي الآن ، وقرأ جمهور الناس : ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ﴾ ، وقرأ النَّخعي ، وأبو عبد الرحمن ، وابن محيصن : ﴿صَعْقَةً مِثْلَ صَعْقَةِ﴾ ، فَأَمَّا هذه القراءَة الأَخيرة ففيها المعنى بَيِّنٌ ؛ لأَن الصعقة : الهلاك للإنسان ، وأَما الأُولى فالمعروف في الصاعقة أَنها الوقعة الشديدة من صوت الرعد ، وهي تكون معها في الأَحيان قطعة نار ، فَشُبِّهَت هنا وقْعة العذاب بها لأَن عاداً لم تُعَذَّب إلَّا بريح ، وإنما هذا تشبيه واستعارة ، وبالوقعة فسَّر هنا الصاعقة قتادةُ وغيره . وخصَّ تعالى عاداً وثموداً بالذكر لوقوف قريش على بلادها في اليمن والحجر بطريق الشام .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ ، أَي : قد تقدموا في الزمن واتصلت نذارتهم إلى أَعمار عادٍ وثمود ، وبهذا الاتصال قامت الحجة ، وقوله تعالى : ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، أَي : جاءَهم رسولٌ بعد اكتمال أَعمارهم وبعد تقدم وجودهم في الزمن ، فلذلك قال تعالى : ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، وجاءَ من مجموع العبارة إقامة الحجة عليهم في أَن الرسالة والنِّذارة عمتهم خبراً ومباشرةً ، ولا يتوجه أَن يُجعل ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ عبارة عمَّا أَتى بعدهم في الزمان ؛ لأَن ذلك لا يلحقهم منه تقصير ، وأَمَّا

الطَّبري رحمه الله تعالى فقال : إن الضمير في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ عائد على الرُّسل ، والضمير في قوله تعالى : ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ على الأُمم ، وتابَعَه الثعلبي ، وهذا غير قوي لأَنه يُفَرِّق الضمائر ويشعِّب المعنى .

و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ نصب على إسقاط الخافض ، التقدير : «بأَن» ، و [تَعْبُدُوا] مجزوم على النهي ، ويتوجه أَن يكون منصوباً على أَن تكون [لا] نافية ، وفيه بُعد ، وكان من مقالات تلك الأُمم إنكار بعثة البشر واستدعاءُ الملائكة ، وهذه أَيضاً كانت من مقالات قريش ، وقولهم : ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ليس على جهة الإِقرار بأَنهم أُرسلوا بشيءٍ ، وإنما معناه : على زعمكم ودعواكم .

ثم وصف تعالى حالة القوم ، وأَن عاداً طلبوا التكبُّر ووضعوا أَنفسهم فيه بغير حق بل بالكفر والمعاصي ، وغرَّتهم قوَّتهم وعِظم أَبدانهم والنعم عليهم ، فقالوا ـ على جهة التقرير ـ : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ؟ أَي : لا أَحد أَشد منَّا قوَّة ، فعرض الله تعالى بقوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ، وهذا بيِّنٌ في العقل ، فإِنَّ الموجدَ للشيءِ المخترعَ له المُذْهِبَ متى شاءَ أَقوى منه ، وأَخبر تبارك وتعالى عنهم بجحودهم لآياته المنصوبة للنظر والمنزلة من عنده؛ إِذْ لفظ الآية يعم ذلك .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

رُوي في الحديث أن الله تعالى أمر خزنة الريح ففتحوا على عادٍ منها قدر حلقة الخاتم ، ولو فتحوا قدر منخر الثور لهلكت الدنيا ، ورُوي أن الريح كانت ترفع العِيرَ بأَوقارها (١) فتطيرها حتى تطرحها بالبحر ، وقال جابر بن عبد الله ، والتيمي (٢) : حبس عنهم المطر ثلاثة أَعوام ، وإذا أَراد الله بقوم شرًّا حبس

(١) العِيرُ : ما جُلب عليه الطعام من قوافل الإبل والبغال والحمير ، والأوقار : الأحمال الثقيلة ، جمع وِقْر وهو الحمل الثقيل .

(٢) في الأصول : « جابر بن عبد الله التيمي » ، وهو خطأ ، والصواب أنهما شخصان ، أمَّا الأول فهو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرَام الأنصاري السَّلَمي ، صحابي ابن صحابي ، غزا تسع عشرة غزوة ، ومات بالمدينة بعد السبعين ، وكانت سنه عند وفاته أربعاً وتسعين سنة ، وأما الثاني فهو عثمان بن عمر بن موسى التيمي ، قاض من أهل المدينة ، ولي قضاءها زمن مروان ابن محمد ، ثم ولي القضاءَ للمنصور العباسي . (راجع تهذيب التهذيب ، وتقريب التهذيب) .

عنهم المطر ، وأرسـل عليهم الريح . واختلف النـاس في الصَّرصَر — فقال قتادة ، والسدي ، والضحاك : هو مأْخوذ من الصِّرِّ وهو البَرْد ، والمعنى : ريحاً باردة لها صوت ، وقال مجاهد : صَرْصَر : شديدة السموم عليهم ، وقال الطبري وجماعة من المفسِّرين : هو من صَرْصَرَ(١) إذا صوَّت صوتاً يشبه الصاد والراءَ ، وكذلك يجيءُ صوت الريح في كثير من الأَوقات بحسب ما تلقى .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، والأَعرج ، والحسن ، والنَّخَعي ، وعيسى : [نَحْسَاتٍ] بسكون الحاءِ ، وهي جمع نحْسٍ ، يقال : يومٌ نَحْس وقوم نَحْس ، فهو مصدر يوصف به أَحياناً ويضاف إليه «اليوم» أَحياناً ، وعلى الصفة به جمع في هذه الآية ، واحتج أَبو عمرو لهذه القراءَة بقوله تعالى : ﴿في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾(٢) ، وقال النَّخعي : نَحَسات وليست بِنَحِسَات بكسر الحاءِ ، وقرأَ الباقون ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، وأَبو رجاءٍ ، وقتادة ، والجحدري ، والأَعمش : [نَحِسَاتٍ] بكسر الحاءِ ، وهي جمع نَحِس على وزن حَذِر ، فهو صفة اليوم مأْخوذ من النَّحْس ، وقال الطبري : نَحِسٌ ونَحْسٌ لغتان .

---

(١) في الأصول : «من صَرَّ يصرُّ» ، والتصويب عن الطبري والبحر المحيط .
(٢) من الآية (١٩) من سورة (القمر) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليس كذلك ، بل اللُّغة الواحدة تجمعهما ، أَحدهما مصدرٌ والآخر من أَمثلة اسم الفاعل ، وأَنشد الفراءُ :

أَبْلِـغْ جُذَاماً وَلَـخْماً أَنَّ إِخْوَتَهُـمْ طَيًّا وبَهْرَاءَ قومٌ نَصْرُهُمْ نَحِسُ (١)

وقالت فرقة : إن «نَحْسَاتٍ» بالسكون مخففة من «نَحِسَات» بالكسر ، والمعنى في هذه اللَّفظة : مشائيم ، من النَّحْس المعروف ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدي . وقال الضحاك : معناه : شديدة ، أَي شديدة البرد حتى كان البرد عذاباً لهم ، قال أَبو علي : وأَنشد الأَصمعي في النَّحْس بمعنى البرد :

كأَنَّ سُلَافَةً عُرِضَتْ لِنَحْسٍ يُحِيلُ شَفيفُها الماءَ الزُّلَالَا (٢)

---

(١) استشهد الفراءُ بهذا البيت في (معاني القرآن) على كسر الحاء في (نَحِس) ، قال : العوامُّ على تثقيلها بكسر الحاء ، وقد خفف بعض أهل المدينة (نَحْسَاتٍ) ، وقد سمعتُ بعض العرب يُنشد : (أبلغ جذاماً ... البيت) ، وهذا لمن ثقَّل ، ومن خفف بناه على قوله : ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾» . والبيت في البحر والطبري واللسان ، وجذامٌ ولخمٌ وطيٌّ وبهراءُ قبائل معروفة .

(٢) البيت لابن أحمر ، وهو : عمرو بن أحمر بن فَرَّاص ، وقيل : ابن العَمَرَّد بن فَرَّاص ، وهو في اللسان (نحس) ، قال : «النَّحْس : شدة البرد ، حكاه الفارسيُّ وأنشد لابن أحمر : (كأن مدامةً عُرِضت ... البيت) ، » . والسُّلافةُ : أفضل الخمر وأخلصها ، والنَّحْس: الريح الباردة ، وهو موضع الشاهد هنا ، وعُرِضت : وضعت في مَهب هذه =

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [نَحِسَاتٍ] معناه : متتابعات ، وكانت آخر شوال من الأَربعاء إلى الأَربعاء .

و «عَذَابُ الخِزْيِ في الدُّنْيا» : الهلاك بسبب الكفر ومخالفة أَمر الله تعالى ، ولا خِزْيَ أَعظم من هذا إلَّا ما في الآخرة من الخلود في النَّار .

وقرأَ جمهور النَّاس : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بغير صرف ، وهذا على إرادة القبيلة ، وقرأَ يحي بن وثاب ، والأَعمش ، وبكر بن حبيب : ﴿وَأَمَّا ثَمُودٌ﴾ بالتنوين والإجراءِ ، وهذا على إرادة الحيِّ ، وبالصرف كان الأَعمش ، ويحي بن وثاب يقرآن في جميع القرآن إلَّا في قوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾(١) لأَنه في المصحف بغير أَلف . وقرأَ ابن أَبي إسحق ، والأَعرج – بخلاف – والأَعمش ، وعاصم : [ثَمُودَ] بالنصب ، وهذا على إضمار فعل يدل عليه قوله تعالى :

= الريح ، والشَّفيف : البَرْدُ ، ومعنى يُحيل : يصبُّ ، هكذا فسَّر الأصمعي كما حكاه صاحب اللسان ، والمعنى عند الأصمعي : بَرْدُها يصبُّ الماءَ في الحلق ، ولولا بَرْدُها لم يُشرب الماءُ . هذا وقد استشهدوا على أن الشَّفيف هو شدة البرد بقول الشاعر :

وَنَقْري الضَّيْفَ مِنْ لَحْمٍ غَرِيضٍ ... إذا ما الكَلْبُ أَلْجَأَهُ الشَّفِيفُ

وبما جاء في حديث الطُّفيل : (في ليلة ذات ظلمة وشِفَافٍ) ، قالوا : الشِّفَافُ : جمع شَفِيفٍ ، وهو لذع البرد .

(١) من الآية (٥٩) من سورة (الإسراء) .

[فَهَدَيْنَـاهُمْ]، وتقديره عند سيبويه : مهما يكن من شيء فهدينـا ثمود هديناهم ، والرفع عنده أَوجه (١)، ورُوي عن ابن أَبي إسحق ، والأَعمش : [ثَمُوداً] منونةً منصوبةً ، وروى المفضـل عن عاصم الوجهيْن .

وقوله تعالى : [فَهَدَيْنَاهُمْ] معناه : بَيَّنَّا لهم ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ليس الهُدى هنا بمعنى الإرشاد ، وهذا كما هي الآن شريعة الإسلام مبينة لليهود والنصارى المختلطين بنا ، ولكن يعرضون ويشتغلون بالضد ، فذلك استحباب العمى على الهدى (٢) . وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَى عَلَى ٱلْهُدَى ﴾ عبارة عن تكسبهم في العمى ، وإلَّا فهو بالاختراع لله تعالى ، ويدلُّك على أَنها إشارة إلى تكسُّبهم قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ وصف بالمصدر ، والمعنى : الذي معه هوان وإذلال ، ثم قرن تعالى بذكرهم ذكر من آمن واتقى ونَجا بِه لِيُبَيِّنَ الفرق .

---

(١) في بعض النسخ : « والرفع عنده أوجب » .

(٢) في بعض النسخ : « فلذلك يقال : استحبوا العمى على الهدى » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[يَوْمَ] نصب بإضمار فعل تقديره : واذكر يومَ . وقرأ نافع وحده ، والأعرج ، وأهل المدينة : [نَحْشُرُ] بالنون [أَعْدَاءَ] بالنصب ، إلَّا أن الأعرج كسر الشين . وقرأ الباقون : [يُحْشَرُ] بالياء المرفوعة [أَعْدَاءُ] رفعاً ، وهي قراءة الأعمش ، والحسن ، وأبي رجاءٍ ، وأبي جعفر ، وقتادة ، وعيسى ، وطلحة ، ونافع - فيما روي عنه - ، وحجتهم [يُوزَعُونَ] . و ﴿ أَعْدَاءُ ٱللَّهِ ﴾ هم الكفار المخالفون لأمره ، و [يُوزَعُونَ] قال قتادة وأهل اللغة : يُكَفُّ أَوَّلُهُم حبساً على آخرهم (١) ،

(١) يعني : يُحجز أوَّلهم حتى يجتمع عليهم آخرهم ، ثم يوزَّعون بعد ذلك على أنواع النار .

وفي حديث أَبي قحافة يَوْمَ الفتح : (ذلك الوازع)(١) ، وقال الحسن البصري : لابُدَّ للقاضي من وَزَعة ، وقال أَبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه : إنِّي لا أُقيد من وَزَعه اللهُ تعالى .

و [حَتَّى] غاية لهذا الحشر المذكور ، وهذا وصف حال من أَحوالهم في بعض أَوقات القيامة ، وذلك عند وصولهم إلى جهنم ، فإن الله تعالى سيقررهم عند ذلك على أَنفسهم ، ويُسأَلون سؤال توبيخ عن كفرهم ، فينكرون ذلك ويحسبون أَن لا شاهد ، ويظنون السؤال سؤال استفهام واستخبار ، فينطق الله تعالى جوارحهم بالشهادة عليهم ، فروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّ أَول ما ينطق من الإنسان فخذه اليسرى ، ثم تنطق الجوارح ، فيقول الكافر : تباً لك أَيتها الأَعضاءُ فعنك

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طُوى قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده : أيْ بُنَيَّة ، اظْهري بي على أبي قبيس ، قالت : وقد كف بصره ، قالت: فأشرفتُ به عليه ، فقال: يا بُنَيَّة ماذا تَرَيْن ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً ، قال : تلك الخيل ، قالت : وأرى رجلا يسعى بين ذلك السواد مقبلا ومدبراً ، قال : يا بُنَيَّة ذلك الوازع ، يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها ... إلى آخر الحديث ، وهو حديث طويل . وفيه : فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ودخل المسجد أتاه أبو بكر بأبيه يعوده ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه) ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه ، قال : فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ، ثم قال له : أسْلم فأسلم .

كنت أُدافع)(١)، وفي حديث آخر (يجيئون يوم القيامة وعلى أفواههم الفدام فيتكلم الفخذ والكفُّ)(٢).

ثم ذكر تعالى محاورتهم لجلودهم في قولهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾، أي: وعذابُنا عذابٌ لكم، واختلف الناس، ما المرادُ بالجلود؟ فقال جمهور الناس: هي الجلود المعروفة، وقال عبيد الله بن أبي جعفر: كنّى بالجلود عن الفروج وإيَّاها أَراد، وأخبر الله تعالى أن الجلود

---

(١) أخرج ابن جرير عن عقبة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أول عظم يتكلم من الإنسان يوم يختم على الأفواه فَخِذُه من الرِّجل الشمال). وأخرج أيضاً عن أنس قال: (ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا تسألوني مِمَّ ضحكتُ؟ قالوا: مِمَّ ضحكتَ يا رسول الله؟ قال: عجبت من مجادلة العبد ربَّه يوم القيامة، قال: يقول: يا ربِّ أليس وعدتني ألا تظلمني؟ قال: فإن لك ذلك، قال: فإنِّي لا أقبل عليَّ شاهداً إلا من نفسي، قال: أو ليس كَفَى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيُختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، قال: فيقول لهنَّ: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، عَنْكُنَّ كنتُ أُجادل)، وفي ابن كثير أن الحافظ أبا بكر البزّار أخرجه عن أنس أيضاً، وأن مسلم والنسائي أخرجاه عن الثوري، وزاد السيوطي نسبته إلى ابن أبي الدنيا في التوبة، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وأخرج مثله مسلم، والترمذي، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وأحمد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، والبيهقي في البعث عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه، ولفظه كما في الدر المنثور: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تحشرون ها هنا — وأومأ بيده إلى الشام — مُشاةً ورُكباناً على وجوهكم، وتعرضون على الله وعلى أفواهكم الفِدَام، وإن أول ما يُعربُ عن أحدكم فَخِذُه وكفُّه، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾. هذا والفِدامُ: ما يُشَدَّ على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي أنهم يمنعون الكلام حتى تتكلم جوارحهم، فشُبِّه ذلك بالفِدَام.

تردُّ جوابهم بأَن الله تعالى الخالق المبدئُ المعيدَ هو الذي أَنطقهم ، وقوله تعالى : ﴿أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يريد : كلَّ شيءٍ ناطقٍ ، مما هي فيه عادة أَو خرق عادة .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ يحتمل أَن يكون من كلام الجلود ومحاورتها ، ويحتمل أَن يكون من كلام الله عزَّ وجلَّ لهم ، أَو من كلام مَلَك بأَمره ، وأَما المعنى فيحتمل وجهين : أَحدهما أَن يريد : وما كنتم تتصاوَنُونَ وتحجزون أَنفسكم عن المعاصي والكفر خوف أَن يُشْهد ، أَو لأَجل أَن يُشهد ، ولكنكم ظننتم أَن الله سبحانه لا يعلم فانهمكتم وجاهرتم ، وهذا هو مَنْحى مجاهد ، والسَّتْر يَنْصرف على هذا المعنى ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

والسَّتْرُ دونَ الفاحِشاتِ ومَـــا يَلْقَاكَ دونَ الخَيْرِ مِنْ سِتْـــرِ[1]

والمعنى الثاني أَن يريد : وما كنتم تمتنعون وما يُمكنكم ولا يسعكم الاختفاءُ عن أَعضائكم والاستتارُ عنها بكفركم ومعاصيكم ، ولا تظنون أَنها تصل بكم إِلى هذا الحد ، وهذا هو منحى السدي ، كأَن المعنى : وما كنتم تدفعون بالاختفاء والسَّتر أَن تشهد ؛ لأَن الجوارح لزيمة

(١) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن معنى التَّستُّر هو عدم التَّصَوُّن والتحرُّز من المعاصي خيفة أن يُشهد أو لأجل أن يُشهد عليهم ، وفي اللسان أن السَّتْر : الإخفاءُ ، والسَّتَر بالفتح مصدر سترتُ الشيءَ أَسْتُرُهُ إذا غطَّيته ، فاستتر هو ، وتَستَّرَ هو : تغَطَّى ، والسِّتْر بالكسر : ما سُتِر به . والفحشاءُ والفاحشة : القبيح من القول والفعل ، أو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي .

لكم ، وفي إلزامه إياهم الظنَّ بأَن الله لا يعلم إلزامهم الكفر والجهل بالله تعالى ، وهذا المعتقد يؤدي بصاحبه إلى تكذيب أَمر الرسل ، واحتقار قدرة الله تعالى لا ربَّ غيره ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «ولكن زعمتم أَن الله» ، وحكى الطبري عن قتادة أَنه عبَّر بـ [تَسْتَتِرُونَ] عن «تَظُنُّونَ» ، وذلك تفسير لم ينظر فيه إلى اللفظ ولا ارتبط فيه معه ، وذكر الطبري وغيره حديثاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قـال : إِنِّي لَمُسْتَتِرٌ بأَستار الكعبة إذ دخـل ثلاثة نفر ، قرشيان وثقفي ، أَو ثقفيان وقرشي ، قليلٌ فقْهُ قلوبهم ، كثيرٌ شحمُ بطونهم ، فتحدثوا بحديث ، فقال أَحدهم : أَترى الله يسمع ما قلنا ؟ قال الآخر : إنه يسمع إذا رفعْنا ولا يسمع إذا أَخفينا ، وقال الآخر : إن كان يسمع شيئاً منه فإنه يسمعه كله ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأَخبرتُه بذلك ، فنزلت : ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ الآية ، فقرأَ حتى بلغ ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ ، وذكر النقاش أَن الثلاثة : صفوان بن أُمية ، وفرقد بن ثُمامة ، وأَبو فاطمة ، وذكر الثعلبي أَن الثَّقفي عَبْدُ ياليل ، والقُرَشييْن ختَناه : ربيعة وصفوان ابنا أُمية بن خلف(١) .

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن مسعود رضي الله عنه . وذكره الواحدي في أسباب النزول ، وقال : إن البخاري رواه عن طريق الحميدي ، وإن مسلم رواه عن أبي عمر ، وكلاهما عن سفيان ، عن منصور .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويشبه أن يكون هذا بعد فتح مكّة ، فالآية مدنية (١) ، ويشبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ الآية متمثلاً بها عند إخبار عبد الله إياه ، والله تعالى أعلم .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

[ذَٰلِكُمْ] رفع بالابتداء ، والإشارة به إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ ﴾ ، قال قتادة : الظَّنُّ ظنَّان ، ظنٌّ مُنْجٍ وظنٌّ مُهلك(٢).

---

(١) سبق أن ذكر هو وكل المفسرين أن هذه السورة مكية بإجماع ، ولم يستثن أحد منها أيّة آية ، فتأمل ، ولعل ما ذكره بعد من تمثل الرسول صلى الله عليه وسلم بالآية هو الأشبه .

(٢) قال قتادة : الظنّ هنا بمعنى العلم ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ، فإن قوماً أساءوا الظنّ بربهم فأهلكهم، فذلك =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالمُنْجي هو أَن يظنَّ الموحِّد العارف بربه تعالى أَن الله تعالى يرحمه ، والمُهلك ظنون الكفرة الجاهلين على اختلافها ، وفي هذا المعنى ليحيي ابن أَكثم رؤْيا حسنة مؤنسة ، و [ظَنُّكُم] خبر ابتداءٍ(١) .

وقوله تعالى : [أَرْدَاكُمْ] يصح أَن يكون خبراً بعد خبر ، وجوَّزَ الكوفيون أَن يكون في موضع الحال ، والبصريون لا يُجيزون وقوع الماضي حالاً إِذا اقترن بِقَدْ ، تقول : رأَيت زيداً قد قامَ ، وقد يجوز تقديرها عندهم وإِن لم تظهر(٢) ، ومعنى [أَرْدَاكُمْ] : أَهلككم ، والرَّدى : الهلاكُ .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : فإِن يصبروا أَو لا يصبروا ، واقتصر لدلالة الظاهر على ما ترك ، و « المَثْوَى » : موضع الإِقامة . وقرأَ جمهور الناس : [يَسْتَعْتِبُوا] بفتح

= قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ ، أخرجه أحمد ، والطبراني ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان ، وابن مردويه ، عن جابر رضي الله عنه .

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط تعقيباً على هذا : « ولا يصحُّ أن يكون ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ خبراً ، لأن قوله تعالى : [وَذَٰلِكُمْ] إشارة إلى ظنهم السابق ، فيصير التقدير : « وظَنُّكُم بأن ربكم لا يعلم ظَنُّكم بربكم » فاستفيد من الخبر ما استفيد من المبتدأ ، وهو لا يجوز ، وصار نظير ما منعه النحاة من قولك : « سيِّد الجارية مالكها » .

(٢) عقَّب أبو حيان في البحر المحيط على هذا أيضاً بقوله : « وقد أجاز الأخفش من البصريِّين وقوع الماضي حالا بغير تقدير « قد » ، وهو الصحيح ؛ إذ كثر ذلك في لسان العرب كثرة توجب القياسَ ويَبْعُد فيها التأويل » .

الياءِ وكسر التاءِ الثانية على إسناد الفعل إليهم ، ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ بفتح التاءِ ، على : وإن يطلبوا العُتْبَى – وهي الرِّضى – فما هم ممن يعطاها ويستوجبها ، وقرأَ الحسن ، وعمرو بن عبيد ، وموسى الأَسواري : [يُسْتَعْتَبُوا] بضم الياءِ وفتح التاءِ الثانية ، ﴿فَمَا هُمْ مِنَ ٱلْمُعْتِبِينَ﴾ بكسر التاءِ ، على معنى : وإن طُلب عندهم خير أَو صلاح فما هم ممن يوجد عندهم ؛ لأَنهم فارقوا الدنيا دار الأَعمال ، كما قال عليه الصلاة والسلام : (ليس بعد الموت مُسْتَعْتَب)(١) ، ويحتمل أَن تكون هذه القراءَة بمعنى : ولو رُدُّا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .

ثم وصف عزَّ وجلَّ حالهم في الدنيا وما أَصابهم حين أَعرضوا فحتم عليهم . و [قَيَّضْنَا] أَي يسَّرنا لهم قُرناءَ سوءٍ من الشياطين وغُواة الإِنس ، وقوله سبحانه : ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم﴾ ، أَي : علَّموهم وقَرَّروا في نفوسهم معتقدات سوءٍ في الأُمور التي تقدمتهم : من أَمر الرُّسل عليهم السلام ، والنُّبُوَّاتِ ، ومدحِ عبادة الأَصنام ، واتِّباع فعل الآباءِ إلى غير ذلك مما يقال فيه : «إِنَّه بين أَيديهم» ، وذلك كل ما تقدمهم في الزَّمن واتَّصل إليهم أَثره أَو خبره ، وكذلك أَعطوهم معتقدات سوءٍ فيما خلفهم ، وهو كل ما يأْتي بعدهم من أَمر القيامة والبعث ونحو ذلك مما يقال فيه : «إِنه خلف الإِنسان» ،

(١) قال ابن الأثير في كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) : «معناه : ليس بعد الموت من استرضاءٍ ؛ لأن الأعمال بطلت وانقضى زمانها ، وما بعد الموت دار جزاءٍ لا دار عمل» . ثم وجدْتُ العبارة بنصها في لسان العرب بعد أن استشهد بالحديث .

فزينوا لهم في هذين كلَّ ما يُرديهم ويفضي بهم إلى عذاب جهنم .

وقوله تعالى : ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي : سبق القضاءُ الحتم وأَمر الله بتعذيبهم في جملة أُممٍ كفَّار مُعَذَّبين من الجن والإِنس ، وقالت فرقة : [في] بمعنى «مَعْ» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمعنى يتـأَدَّى بالحرفين ، ولا نحتاج إلى أَن نجعل حرفاً بمعنى حرفٍ إذ قد أَبى ذلك رؤساءُ البصريين .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ﴾ حكايةٌ لما فعله بعض قريش كأَبي جهل وغيره ، وذلك أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأُ القرآن في المسجد الحرام ويُصغي إليه الناس من مؤمن وكافر ، فخشي الكفار استمالة القلوب بذلك فقالوا : متى قرأَ محمد فَلْنُغَطِّ نحن بالمُكاءِ والصفير والصياح وإنشاد الشِّعر والأَرجاز حتى يخفى صوته ولا يقع الاستماع منه(١) ، وهذا الفعل منهم هو اللَّغْوُ ، وقال أَبو العالية : أَرادوا : قعوا فيه وعيبوه ، و «اللَّغْوُ» في اللغة : سقط القول الذي لا معنى له ، أَو هو من الحاسة والتَّطَوُّل في حكم ما لا معنى له ، وقرأَ جمهور الناس : [وَٱلْغَوْا] بفتح الغين وجَزْم الواو ، وقرأَ بكر بن حبيب السَّهْمي : [وَٱلْغُوا] بضم الغيْن

(١) المُكاءُ : الصفير ، يقال : مَكا مكاءً : صَفَر بفيه ، أو شبَّك بأصابع يديه ثم أدخلهما في فيه ونفخ فيها . وهذا الخبر أخرجه ابن جرير عن مجاهد .

وسكون الواو ، ورويت عن عيسى ، وابن أَبي إسحق - بخلاف عنهما - ، وهما لغتان ، يقال : لَغَا يَلْغُو ، ويقال : لَغِـيَ يَلْغَى ، ويقال أَيضاً : لَغَا يَلْغَى ، أَصله يَفْعِل - بكسر العين - فردَّه حرف الحلْق إلى الفتح ، فالقراءَة الأُولى من يَلْغَى ، والقراءَة الثانية من يَلْغُو ، قاله الأَخفش . وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أَي تطمسون أَمر محمد صلى الله عليه وسلم وتُميتون ذكره وتصرفون القلوب عنه ، فهذه الغَلَبة التي تَمَنَّوْها.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، الفاءُ دخلت على لام القَسَم ، وهي آية وعيد لقريش ، و «العذاب الشديد» هو عذاب

الدنيا في بدْرٍ وغيرها ، و « الجزاءُ بأسوإِ أعمالهم » هو عذاب الآخرة .

وقوله تعالى : [ذَٰلِكَ] إشارة إلى الجزاءِ المتقدم ، و [جَزَاءُ] خبر الابتداءِ ، و [ٱلنَّارُ] بدل من قوله تعالى : [جَزَاءُ] ، ويجوز أن يكون [ذَٰلِكَ] خبر ابتداءٍ تقديره : الأمر ذلك ، ويكون قوله تعالى : [جَزَاءُ] ابتداءٌ و [ٱلنَّارُ] خبره . وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي موضع البقاءِ وسكن العذاب الدائم ، فالظرفية فيه متمكنة على هذا التأْويل ، ويحتمل أن يكون المعنى : هي لهم دار الخلد ، ففي قوله : [فِيهَا] معنى التحديد ، كما قال الشاعر :

. . . . وفي اللهِ إنْ لَمْ تُنْصِفُوا حَكَمٌ عَدْلُ (١)

وفي قراءة عبد الله بن مسعود : « ذلك جَزاءُ أعداءِ اللهِ النارُ دارُ الخُلْد » ، وسقط : ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ ، وجحودهم بآيات الله تعالى مطردٌ في علاماته

(١) يستشهد ابن عطية بهذا الشطر على أن « في » تعطي معنى التحديد ، وهذا للإجابة عن سؤال مقدر خلاصته في الآية : كيف قيل : [فيها] مع أنها هي نفسها دار الخُلْد ؟ والجواب أن الشيء قد يجعل ظرفاً لنفسه باعتبار مُتَعَلَّقه على سبيل المبالغة ، كأن ذلك المتعلق صار الشيء مُسْتَقَرّاً له ، وهذا أبلغ من نسبة ذلك المتعلق إليه على سبيل الإخبار عنه ، فالنار نفسها قد صارت دار الخلد لهم ، والله سبحانه وتعالى هو الحَكَمُ العدل وتحدد ذلك فيه إذا فُقد الإنصاف عند الذين يخاطبهم الشاعر ، ومثل هذا أيضاً قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ، إذ قد يقال ، كيف يكون فيه أُسوةٌ حسنة مع أنه هو الأسوة الحسنة نفسها ، والجواب هو ما ذكرناه من أنه قد جُعل هو نفسه صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة وتحددت الأسوة الحسنةُ فيه . هذا والبيت بتمامه في اللسان ، أنشده ابن بَرِّي ، وهو :

أَقادَتْ بَنُو مَرْوانَ قَيْساً دِماءَنَا وَفي اللهِ إنْ لَمْ يَحْكُمُوا حَكَمٌ عَدْلُ

بلفظ (إن لم يَحْكُموا) ، والحَكَمُ : الحاكم ، وفي المثل « في بيته يُؤْتَى الحَكَمُ » . والقَوَدُ : قتل النفس بالنفس ، يريد أنّ بني مروان أباحوا دماءَهم والعدل عند الله وحده .

المنصوبة لخلْقه ، وفي آيات كتابه المنزّلة على نبيّه صلى الله عليه وسلم .

ثم ذكر الله عزَّ وجلَّ مقالة كفارٍ يوم القيامة إذْ دخلوا النار ، فإنهم يرون عظيم ما حلَّ بهم وسُوءَ منقلبهم ، فتجول أفكارهم فيمن كان سبب غوايتهم وبادئَ ضلالتهم ، فيعظم غيظهم وحنقهم عليه ، ويودون أن يحصل في أشد العذاب ، فحينئذ يقولون : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا ٱللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ ، وظاهر اللفظ يقتضي أن «الذي» في قولهم : [ٱللَّذَيْن] إنما هو للجنس ، أي : أرنا كلَّ مُغْوٍ من الجن والإنس ، وهذا قول جماعة من المفسرين ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقتادة : طلبوا ولد آدم الذي سنَّ القتل والمعصية من البشر ، وإبليس الأبالسة من الجن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتأمل هذا ، هل يصح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؟ لأن ولد آدم مؤمن عاصٍ ، وهؤلاءِ إنما طلبوا المُضلِّين بالكفر المؤدي إلى الخلود ، وإنما القويُّ أنهم طلبوا النوعين ، وقد أصلح بعضهم هذا القول بأن قال : يطلب ولَدَ آدم كلَّ عاصٍ دخل النار من أهل الكبائر ، ويطلب إبليسَ كلَّ كافر ، ولفظ الآية يزحم هذا التأويل ؛ لأنه يقتضي أن الكفار إنما طلبوا اللَّذَيْن أضلّا .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : [أَرِنَا] بكسر الراء ، وهي رؤية عين ، ولذلك هو فعل متعدٍّ إلى مفعولين ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : [أَرْنَا] بسكون الراءِ ، فقال هشام ابن عمّار عن عامر : هي خطأ ، وقال أبو علي : هي مخففة من [أَرِنَا] كما قالوا : ضحْك وفخْذ ، وقرأ أبو عمرو بإشمام الراءِ الكسر ، ورويت عن أهل مكة . وقولهم : ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ يريدون : في أسفل طبقة في النار ، وهي أشد عذاباً ، وهي دَرْك المنافقين (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا ﴾ الآيةُ ... آيةُ وَعْدٍ للمؤمنين ، قال سفيان بن عبد الله الثقفي : (قلتُ للنبي عليه الصلاة والسلام : أخبرني بأمر اعتصم به ، فقال : قل ربِّي الله ثم استقم ، قلت : ما أخوف ما تخاف علي ؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه وقال : هذا (٢)) .

---

(١) الدَّرْك — بسكون الراء وبفتحها — : أسفل كل شيءٍ ذي عُمْق كالبئر ونحوها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ، والجمع : أدْراك .

(٢) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والدارمي ، والبخاري في تاريخه ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، عن سفيان الثوري ، ولفظه كما ذكره في الدر المنثور ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ... الحديث .

واختلف الناس في مقتضى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا﴾ ـ فذهب الحسن ، وقتادة ، وجماعة إلى أن معناه : استقاموا بالطاعات واجتناب المعاصي . وتلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية وهو على المنبر ثم قال : استقاموا ـ والله ـ لله تعالى بطاعته ، ولم يروغوا روغان الثعالب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ذهب رضي الله عنه إلى حمل الناس على الأتم الأفضل ، وإلّا فيَلْزَم ـ على هذا التأويل ـ من دليل خطابه ألَّا تتنزل الملائكة عند الموت على غير مستقيم على الطاعة . وذهب أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجماعة معه إلى أن المعنى : ثم استقاموا على قولهم : «ربُّنا الله» ، فلم يَخْتَلَّ توحيدهم ولا اضطرب إيمانهم ، وروى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : (قد قالها الناس ثم كفر أكثرهم ، فمن مات عليها فهو ممن استقام)(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

المعنى : هو في أول درجات الاستقامة ، أمن الخلود ، فهذا كقوله عليه الصلاة والسلام : (من كان آخر كلامه لا إله إلّا الله دخل الجنة)(٢) ،

(١) أخرجه الترمذي ، والنسائي ، والبزار ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن عدي ، وابن مردويه ، ذكر ذلك الإمام السيوطي في الدر المنثور .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود ، والحاكم في مستدركه ، عن معاذ رضي الله تعالى عنه ، ورمز له بالصحة الإمام السيوطي في الجامع الصغير .

وهذا هو المعتقد إن شاءَ الله تعالى ، وذلك أَن العصاة من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم وغيرها فرقتان : فأَما من قضى الله تعالى بالمغفرة له وترك تعذيبه فلا محالة أَنه ممن تتنزل عليه الملائكة بالبشارة ، وهو إنما استقام على توحيده فقط ، وأَما من قضى الله تعالى بتعذيبه مدةً ثم بإدخاله الجنة فلا محالة أَنه يلقى جميع ذلك عند موته ويعلمه ، وليس يصح أَن تكون حاله كحالة الكافر اليائس من رحمة الله تعالى ، وإذا كان هذا فقد حصلت له البشارة بأَلَّا يخاف الخلود ولا يحزن منه ، وبأَنه يصير آخراً إلى الخلود في الجنة ، وهل العصاة المؤمنون إلا تحت الوعد بالجنة ؟ فهم داخلون فيمن يقال لهم : ﴿أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ، ومع هذا كله فلا يُختلف في أَن الموحِّد المستقيم على الطاعة أَتَمُّ حالاً وأَكمل بشارة ، وهو مقصد أَمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وعلى نحو ذلك قال سفيان الثوري : [ٱسْتَقَامُوا] : عملوا بنحو ما قالوا ، وقال الربيع : أَعرضوا عما سوى الله تعالى ، وقال الفضل : زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية ، وبالجملة فكلما كان المرءُ أَشد استعداداً كان أَسرع فوزاً بفضل الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أَمنة عامة في كل همٍّ مستأْنف ، وتسلية تامة عن كل فائت ماض ، وقد قال مجاهد :

المعنى : لا تخافوا ما تُقدمون عليه ، ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : «تتنزلُ عليهم الملائكة لا تخافوا» بإسقاط الألف(١) ، بمعنى : يقولون لا تخافوا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

المتكلم بـ ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ هم الملائكة القائلون : «لا تخافوا ولا تحزنوا» ، أي : يقولون للمؤمنين عند الموت وعند مشاهدة الحق : نحن كنا أولياءكم في الدنيا ونحن هم في الآخرة ، قال السدي : المعنى : نحن حفظتكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة . والضمير

(١) في بعض النسخ : «بإسقاط أن» .

في قولهم : [فِيهَا] عائد على الآخرة ، و [تَدَّعُونَ] معناه : تطلبون .
و [نُزُلاً] نصب على المصدر(١) ، وقراءة الجمهور بضم الزاي ، وقرأ أبو حيوة(٢) بإسكانها .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً﴾ الآية .... ابتداءُ توصية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو لفظ يعم كلَّ من دعا قديماً وحديثاً إلى الله تبارك وتعالى وإلى طاعته من الأنبياء عليهم السلام ومن المؤمنين ، والمعنى : لا أَحد أَحسن ممن هذه حاله ، وإلى العموم ذهب الحسن ، ومقاتل ، وجماعة ، وبَيِّنٌ أَن حالة محمد صلى الله عليه وسلم كانت كذلك مبرزة ، وإلى تخصيصه في الآية ذهب السدي ، وابن زيد ، وابن سيرين ، وقال قيس بن أَبي حازم ، وعائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها ، وعكرمة : نزلت هذه الآية في المؤذِّنين ، قال قيس : ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ هو الصلاة بين الأَذان والإقامة ، وذكر النقاش ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما .

---

(١) فالتقدير : أنزلناه نُزُلاً ، وقيل : هو منصوب على الحال ؛ لأن « النُّزُل » هو الرزق المقدم للنَّزيل وهو الضيف ، فيكون المعنى : تعطون ذلك في حال كونه نُزولا ، وقيل : هو جمع نازلٍ ، فهو كشارف وشُرُف ، فينتصب أيضاً على الحال ، أي : نازلين ، ويكون صاحب الحال هو الضمير المرفوع في [تَدَّعُونَ] .

(٢) في بعض النسخ : « أبو جعفر » واختّرنا ما يتفق مع ما في البحر المحيط .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومعنى القول بأَنها في المؤذِّنين أَنهم داخلون فيها ، وأَما نزولها فمكِّيَّة بلا خلاف ، ولم يكن بمكة أَذان ، وإِنما ترتَّب بالمدينة ، وإِن الأَذان لَمِن الدعاءِ إِلى الله تعالى ، ولكنه جزءٌ منه ، والدعاءُ إِلى الله تعالى بقوة كجهاد الكفار وردع الطغاة وكفِّ الظَّلَمة وغيره أَعظم عناءً من تولِّي الأَذان ؛ إِذ لا مشقَّة فيه ، والأَصوب أَن يعتقد أَن الآية نزلت عامة ، قال زيد بن علي : المعنى : مِمَّن دعا إِلى الله تعالى بالسيف . وقرأَ الجمهور : ﴿ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ بنونين ، وقرأَ ابن أَبي عبلة : ﴿ إِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ بنون واحدة ، وقال الفضيل بن رُفَيْدَة(١) : كنت مؤذناً في أَصحاب ابن مسعود ، فقال لي عاصم بن هُبيرة : إِذا أَكملت الأَذان فقل : إِنَّني من المسلمين ، ثم تلا هذه الآية .

ثم وعظ الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام ، ونبهه على أَحسن مخاطبة ، فقرَّر أَن الحسنة والسيئة لا تستوي ، أَي : فالحسنة أَفضل ، وكرَّر [لَا] في قوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ تأْكيداً ليدل على أَن المراد : «ولا تستوي الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة» فحذف اختصاراً ودلت [لَا] على هذا الحذف . وقوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ آيةٌ جمعت مكارم الأَخلاق وأَنواع الحلم ، والمعنى : ادفع أُمورك وما يعرض لك مع الناس ومخالطتك لهم بالفعلة أَو بالسيرة التي هي

(١) في القرطبي : «فُضَيل بن رفيدة» .

أَحسن الفعلات والسِّير ، فمن ذلك بذلُ السلام ، وحُسْن الأَدب ، وكَظْم الغيظ ، والسَّماحة في القضاءِ والاقتضاءِ ، وغير ذلك . قال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا فعل المؤمن هذه الفضائل عصمه الله تعالى من الشيطان ، وخضع له عدوُّه ، وفسَّر مجاهد وعطاءٌ هذه الآية بالسلام عند اللقاءِ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولا شك أَن السلام هو مبدأُ الدفع بالتي هي أَحسن ، وهو جزءٌ منه .

ثم قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، فدخل كاف التشبيه لأَن الذي عنده عداوة لا يعود وليًّا حميماً ، وإنما يَحْسُن ظاهره فيشبه بذلك الوليَّ الحميم ، و « الحَمِيمُ » هو القريب الذي يَحْتَمُّ للإنسان (١) ، والضمير في قوله تعالى : [يُلَقَّاهَا] عائد على هذه الخُلُق التي يتضمنها قوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، وقالت فرقة : المراد : وما يُلَقَّى لا إِلَهَ إِلَّا الله ، وهذا تفسير لا يقتضيه اللفظ . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ مدح بليغ للصبر ، وذلك بَيِّنٌ للمتأَمل ؛ لأَن الصبر على الطاعات وعن الشهوات جامعٌ لخصال الخير كلها . و « الحَظُّ العظيمُ » يحتمل أَن يريد : من العقل والفضل ، فتكون الآية مدحاً ، وروي أن

(١) يَحْتَمُّ للإنسان : يَهْتَمُّ له ، جاء في اللسان : واحْتَمَّ له : اهْتَمَّ ، الأزهري : أَحَمَّني هذا الأمر واحْتَمَمْتُ له كأنه اهْتِمامٌ بحميم قريب ، وأنشد :

تَعَزَّ عَلَى الصَّبَابَةِ لا تُـلامْ كأَنَّكَ لا يُلِمُّ بِكَ احْتِمَامُ

رجلاً شتم أبا بكر الصديق رضي الله عنه بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فسكت أبو بكر ساعة ، ثم جاش به الغضب فردَّ على الرجل ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم ، فاتَّبعه أبو بكر وقال : يا رسول الله قمتَ حين انتصرتُ ؟ فقال : إنه كان يردُّ عنك مَلَك ، فلما قَرُبْتَ تنتصر ذهب المَلَك وجاءَ الشيطان ، فما كنتُ لأُجالسه (١) ، ويحتمل أن يريد : ذو حظ من الجنة وثواب الآخرة ، فتكون الآية وعداً ، وبالجنَّة فسَّر قتادة «الحظَّ» هنا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
(٣٦) وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ
(٣٨) ۩ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ
ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢ـ٤٣٦ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي آخره زيادة على ما هنا (ثم قال : يا أبا بكر ثلاثٌ كلهن حق : ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضي عنها لله عزَّ وجلَّ إلاَّ أعزَّ الله بها نصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلاَّ زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرةً إلاَّ زاده الله عزَّ وجلَّ بها قلَّة) .

[إِمَّا] شرطٌ ، وجواب الشرط قوله تعالى : [فَاسْتَعِذْ] ، و «النَّزْغُ» : فعل الشيطان في قلب أَو يد ، من إِلقاءِ غضب أَو حِقْد أَو بطش في اليد ، فمن الغضب هذه الآية ، ومن الحقد قوله تعالى : ﴿نَزَغَ ٱلشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾(١) ، ومن البطش قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يُشر أَحدكم على أَخيه بالسلاح لا ينزغ الشيطان في يده فيلقيه في حفرة من حُفر النار)(٢) ، وندب الله تعالى في هذه الآية المتقدمة إِلى مكارم الأَخلاق بالدفع بالّتي هي أَحسن ، ثم أَثنى تعالى على من لُقِّيها(٣) وَوَعَدَهُ، وعَلِمَ أَنَّ خِلْقَةَ البشر تغلب أَحياناً وتثور بهم ثورةُ الغضب ونزغ الشيطان ، فدَلَّهم على مُذْهِب ذلك وهي الاستعاذة به عزَّ وجلَّ .

ثم عدد الله تعالى آياته ليعتبر فيها من صدف عن التوحيد ، فذكر الليل والنهار ، وذِكْرهما يتضمن ما فيهما من الطول والقِصر والتداخل والاستواءِ في مواضع وسائر عبرهما ، وكذلك ذِكْر الشمس

---

(١) من الآية (١٠٠) من سورة (يوسف) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن ، ومسلم في البِرِّ ، وأحمد في مسنده ٢-٣١٧ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه كما في البخاري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري لعلَّ الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار) ، فالفعل فيه «ينزع» بالعين المهملة ، وكذلك هو في مسند أحمد ، وفي صحيح مسلم ، وعلى هذا فلا شاهد فيه .

(٣) لُقِّيَ الشيءَ : عُلِّمَهُ ونُبِّهَ عليه ، وتَلَقَّاهُ : تعلمه وفهمه .

والقمر مُتَضَمِّن عجائبهما وحكمة الله تعالى فيهما ونَفْعه عباده بهما ، ثم قال تعالى : لا تسجدوا لهذه المخلوقات وإن كانت تنفعكم ؛ لأَن النفع بها إنما هو بتسخير الله تعالى إياها فهو الذي ينبغي أَن يُسجد له ، والضمير في [خَلَقَهُنَّ] قالت فرقة : هو عائد على الآيات المتقدم ذكرها ، وقالت فرقة : الضمير عائد على الشمس والقمر ، والاثنان جمع ، وجمع ما لا يعقل يؤنث ، فلذلك قال : [خَلَقَهُنَّ] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومن حيث يقال : شموسٌ وأَقمارٌ لاختلافهما بالأَيام ساغ أَن يعود الضمير مجموعاً ، وقالت فرقة : هو عائد على الأَربعة المذكورة ، وشأْن ضمير ما لا يعقل إذا كان العدد أَقل من العشرة أَن يجيء هكذا ، فإذا زاد أُفرد مؤنثاً ، فتقول : الأَجذاع انكسرْنَ والجذوع انكسرت ، ومنه ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾(١) الآية ، ومنه قول حسَّان بن ثابت :

. . . . وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا(٢)

(١) من الآية (٣٦) من سورة (التوبة) .

(٢) البيت من قصيدته التي يفتخر فيها ، والتي بدأها بقوله : (أَلم تسأَلِ الرَّبْعَ الجديدَ التَّكَلُّمَا) ؟ والمذكور هنا شطره الثاني ، والبيت بتمامه :

لَنَــا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَــى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْــدَةٍ دَمَا

وهو بيت مشهور تكلم عنه كثير من النقاد قديماً وحديثاً ، وأخذوا عليه الكثير ، والجفنات : جمع جفنة وهي القصعة التي يوضع فيها الطعام ، ويقطرن : يسيل منهن الدم ، والشاهد أن (أسياف) جمع قلَّة ، ولهذا أعاد الضمير عليها جمعاً مؤنثاً فقال : «يقطرن» ، والنجدة : سرعة الإغاثة والشجاعة في القتال . يفخر بأنهم أهل كرم وشجاعة على عادة العرب في ذلك .

وقال السموأل :

وَلَا عَيْبَ فِينَا غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَنَـــا بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُـــولُ (١)

(١) اضطرب النساخ في كتابة هذا البيت في الأصول ، ولعلَّ السبب هو وجود تشابه كبير بينه وبين بيت آخر مشهور للنابغة الذبياني ، أما بيت السموأل فهو :

وأَسْيَافُنَا في كُلِّ يَوْمِ كَرِيهَـــةٍ بها مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُـــولُ

ويوم الكريهة هو يوم القتال ، والقِراع : المضاربة بالسيوف ، والدارعون : لابسو الدروع في الحرب ، والفُلول : جمع فَلٍّ ، والفَلُّ : الثَّلْم في السيف . وهو من قصيدة مشهورة قال عنها النقاد : إنها من أجمع قصائد الفخر التي جمعت ضروب الممادح ، ولهذا فهي من أجود ما قيل في الفخر ، وقد بدأها السموأل بن عادياء بقوله :

إذا المرءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُه فكُلُّ رِداءٍ يَرْتَديه جَمِيـــــــلُ

والشاهد في البيت أن (سُيوف) جمع كثرة ولهذا عاد الضمير عليها مفرداً مؤنثاً — وهذا على الرواية التي ذكرها ابن عطية والتي أثبتناها في موضعها من تفسيره مع أنها رواية غير صحيحة، والرواية الصحيحة التي ذكرناها في هذا الهامش ليس فيها شاهد ، بل هي على عكس ما ذكر ابن عطية حيث عاد الضمير مفرداً مؤنثاً على جمع القِلَّة وهو (أسياف) — فتأمل الفرق بين الروايتين .

وأما بيت النابغة الذبياني فهو :

ولا عَيْبَ فيهمْ غَيْرَ أنَّ سُيُوفَهُمْ بهنَّ فلولٌ مِنْ قِرَاعِ الكتَـــائِبِ

وهو من قصيدته المعروفة التي مدح بها عمرو بن الحارث الأصغر ، والتي قال في مطلعها :

كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ نَـــاصِبِ ولَيْلٍ أُقاسيهِ بطــيءِ الْكَوَاكِبِ

وهو متداول في كتب النحو وكتب البلاغة ، أما علماءُ النحو فأولهم سيبويه الذي جعل الاستثناء فيه منقطعاً ولهذا نصبت (غير) لكنه جُعل كالمتصل ، وذلك لصحة دخول البدل في المبدل منه ، وأما كتب البلاغة فقد أورده العلماءُ شاهداً في البديع على تأكيد المدح بما يشبه الذَّمّ ، فإن الشاعر نفى العيب عن الممدوحين على جهة الاستغراق ، ثم أثبت لهم عيباً هو تثَلُّم سيوفهم من كثرة المضاربة بها في الحروب ، وهذا في الحقيقة ليس بعيب ، بل هو غاية المدح ، وعلى هذا فالشاعر أكَّد المدح بما يشبه الذَّمّ ، وهذا البيت في الديوان ، والكتاب ، والهمع ، والكامل ، وشرح شواهد المغني ، ومعاهد التنصيص .

وهذا مَهْيَع كثير وإن كان قد يوجد الأَمر متداخلاً بعضه على بعض .

ثم خاطب الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بما يتضمن وعيدهم وحقارة أَمرهم، وأَن الله تعالى غير محتاج إلى عبادتهم بقوله تعالى : ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ الآية ، وقولُه تعالى : ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني بهم الملائكة وهم صافُّون يسبحون ، و [عِنْدَ] في هذه الآية ليست بظرف مكان ، وإنما هي بمعنى المنزلة والقُرْبة ، كما تقول : زيد عند الملك جليل ، وفي نفسه رفيع ، ويُروى أَن تسبيح الملائكة قد صار لهم كالنَّفَس لابن آدم ، و [يَسْأَمُونَ] معناه : يملُّون .

ثم ذكر تعالى آية منصوبة لِيُعْتَبر بها في أَمر البعث من القبور ، ويستدل بما شوهد من هذه الآية على ما لم يشاهد بعد من تلك ، وهي آية يراها عياناً كل مَفْطُور على عقل . و «خشوع الأَرض» هو ما يظهر عليها من استكانة وشعث بالجدب وصَيْلَم السَّموم (١) ، فهي عابسة كما الخاشع عابس يكاد يبكي ، و «الماءُ المُنْزل» هو المطر ، و «اهتزاز الأَرض» هو تخلخل أَجزائها بالماءِ وتشققها للنبات ، و «رُبُوُّهَا» هو انتفاخها بالماءِ وعلوُّ سطحها به . وقرأَ الجمهور : [رَبَتْ] ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع : [وَرَبَأَت] بأَلف مهموزة ، ورواها الرواسيُّ عن أَبي عمرو، وهو أَيضاً بمعنى : عَلَتْ وارتفعت ، ومنه الربيئة وهو

---

(١) الصَّيْلَم : الأمر المستأصِل ، والسَّمومُ : الريح الحارَّة والحرُّ الشديد الذي ينفذ في المسامِّ ، يريد أَنَّ ريح السَّموم تستأصل كل ما على وجه الأرض من زرع وخضرة .

الذي يرتفع حين يرصد للقوم ، ثم ذكَّر تعالى بالأمر الذي ينبغي أن يقاس على هذه الآية والعبرة ، وذلك إحياءُ الموتى ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم ، و «الشيءُ» في اللغة : الموجود .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾

هذه آية وعيد ، و «الإلحادُ» : الميل ، وهو ها هنا عن الحق ، ومن «الإلحاد» لحد الميت لأنه في جانب ، يقال : لَحَد الرجلُ وأَلْحَد بمعنى ، وقرأ الجمهور : [يُلْحِدُونَ] بضم الياء من أَلْحَدَ ، وقرأ ابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش : [يَلْحَدُونَ] بفتح الياء والحاء من لَحَدَ .

واختلف المفسرون في الإلحاد الذي أُشير إليه ، ما هو ؟ فقال قتادة وغيره : الإلحادُ بالتكذيب ، وقال مجاهد وغيره : الإلْحاد بالمُكاء والصفير واللغو الذي ذهبوا إليه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما :

إلحادهم هو أن يوضع الكلام غير موضعه ، ولفظة الإلحاد تعم هذا كله .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أي : فنحن بالمرصاد لهم وسنعذبهم ، ثم قررهم تعالى على هذين القسمين أيهما خير؟ وهذا التقرير هم المراد به ، أي : فقل لهم يا محمد : [أَفَمَنْ] ، قال مقاتل : نزلت هذه الآية في أبي جهل ، وفي عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقيل : في عمار بن ياسر رضي الله عنه ، وحَسُن التفضيلُ هنا بين الإلقاء في النار والأَمن يوم القيامة ـ وإنْ كانا لا يشتركان في صفة الخير ـ من حيث كان الكلام تقريراً لا مجرد خبر ، لأَن المُقَرِّر قد يُقَرِّرُ خصمه على قسمين أَحدهما بَيِّن الفساد حتى يرى جوابه ، فعساه يقع في الفاسد المعنى فَيَبينُ جهله ، وقد تقدم نظيرُ هذه الآية واستيعابُ القول في هذا المعنى ، ولا يتَّجه هنا أَن يقال : خاطبَ على معتقدهم كما يتَّجه ذلك في قوله تعالى : ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ فتأَمله (١) .

وقوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وعيد في صيغة الأَمر بإجماع من أَهل العلم ، ودليل الوعيد ومُبَيِّنُه قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ، يريد تعالى قريشاً ، و «الذِّكْرُ» : القرآن بإجماعٍ ، واختلف الناس في الخبر عنهم ، أَين هو ؟ فقالت فرقة : هو في قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة (الفرقان) : ﴿أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (١) ، ذكر النقاش أن بلال بن أَبي بُردة (٢) سأَل عن هذا في مجلسه وقال : لم أَجد لها نفاذاً ، فقال أَبو عمرو بن العلاءِ (٣) : إنَّه منك لقريب ، ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويَرُدُّ هذا النظر كثرةُ الحائل ، وأَن هناك قوماً قد ذكروا يَحْسُنُ ردُّ قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ ﴾ عليهم . وقالت فرقة : الخبر مضمر تقديره : إنَّ الذين كفروا بالذِّكر لما جاءَهم هلكوا أَو ضلُّوا ، وقال بعض نحاة الكوفة : الجواب في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ ، حكى ذلك الطبري ، وهو ضعيف لا يتَّجه ، وسأَل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن هذا فقال عمرو : معناه في التفسير : إن الذين كفروا بالذكر لما جاءَهم كفروا به وإنه لكتابٌ عزيزٌ ، فقال عيسى بن عمر : أَجَدْتَ يا أَبا عثمان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والذي يَحْسُن في هذا هو إضمار الخبر ، ولكنه عند قوم في غير هذا الموضع الذي قدَّره هؤلاءِ فيه ، وإنما هو بعد ﴿ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ،

---

(١) ستأْتي في الآية (٤٤) .

(٢) هو بلال بن أَبي بُردة بن أَبي موسى الأشعري ، قاضي البصرة ، مقل ، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب : « من الخامسة ، مات سنة نيف وعشرين » .

(٣) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العُريان المازني النحوي ، اسمه زيَّان ، أو يحيى ، أو العريان ، أو جزْء ، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب : ثقة ، من علماء العربية ، من الخامسة ، مات سنة أربع وخمسين وهو ابن ست وثمانين سنة .

وهو أشدُّ إظهاراً لِمَذَمَّة الكفار به ؛ وذلك لأَن قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ ﴾ داخلٌ في صفة الذكر المكذَّب به فلم يتم ذِكْر المخبر عنه إلَّا بعد استيفاءِ وصفه ، وهذا كما تقول : أَتخالف زيداً وهو العالم الودود الذي من شأْنه ومن أَمره ، فهذه كلها أَوصاف . ووصف تعالى الكتاب بالعزَّة لأَنه بِصِحَّة معانيه ممتنعٌ الطعنُ فيه والإزراءُ عليه ، وهو محفوظ من الله تعالى ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : كريم على الله تعالى ، وقال مقاتل : منيع من الشيطان ، وقال السدي : غير مخلوق .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ ، قال قتادة ، والسدي : يريد الشيطان ، وظاهر اللفظ يعم الشيطانَ وأَن يجيءَ أَمْرٌ يُبطل منه شيئاً ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه ﴾ معناه : ليس فيما تقدمه من الكتب ما يُبطل شيئاً منه ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أَي : ليس يأْتي بعده من نظر ناظرٍ وفكرة عاقل ما يُبطل شيئاً منه ، والمراد باللفظة على الجملة : لا يأْتيه الباطل من جهة من الجهات . وقوله تعالى : [تَنْزِيلٌ] خبر ابتداءٍ ، أَي : هو تنزيل .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يحتمل معنيين : أَحدهما أَن يكون تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن مقالات قومه ، أَي : ما تلقى يا محمد من المكروه منهم ولا يقولون لك من الأَقوال المؤلمة إلَّا ما قد قيل ولقي به من تقدمك من الرسل ،

فَلْتَتَأَسَّ بهم ، وَلْتَمْضِ لأَمر الله تعالى ولا يهملك شأْنهم ، والمعنى الثاني أَن تكون الآية تلخيصاً لمعاني الشرع ، أَي : ما يقال لك من الوحي وتُخاطب به من جهة الله تعالى إِلَّا ما قد قيل للرسل من قبلك ، ثم فسَّر الله تعالى ذلك الذي قيل لجميعهم وهو : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ للطائعين ، ﴿وَذُو عقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ للكافرين ، وفي هذه الكلمات جماع الزَّجر والنهي والموعظة ، وإِليها يرجع كل نظر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

الأَعجميُّ هو الذي لا يُفصح عربيًّا كان أَو غير عربي ، والعجميُّ : الذي ليس من العرب فصيحاً كان أَو غير فصيح ، وهذه الآية نزلت بسبب تخليط كان من قريش في أَقوالهم من أَجل الحروف التي وقعت

في القرآن وهي ممّا عُرِّب من كلام العجم كالسِّجِّين والإستبرق ونحوه ، فقال عزَّ وجلَّ : ولو جعلنا هذا القرآن أَعجميًّا لا يبين لقالوا واعترضوا : لولا بُيِّنَت آياته ، واختلف القراءُ في قوله : ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ ، فقراءة الجمهور على الاستفهام وهمزة ممدودة قبل الألف ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، والأعمش : [أَأَعْجَمِيٌّ] بهمزتين ، وكأَنهم كانوا ينكرون ذلك فيقولون : لولا بُيِّن ، أَأَعجميٌّ وعربيٌّ مختلط ؟ هذا لا يَحْسُن ، وتأَول ابن جبير أَنَّ معنى قولهم : أَتَجِيئُنا عُجْمَةٌ ونحن ومحمد عرب ؟ ما لنا وللعُجْمَة ، وقرأَ الحسن البصريُّ ، وأَبو الأَسود ، والجحدري ، وسلام ، والضحاك ، وابن عباس ، وابن عامر – بخلاف عنهما – : [أَعْجَمِيٌّ] دون استفهام وبسكون العين ، كأَنهم قالوا : أَعُجْمَةٌ وإعرابٌ ؟ إن هذا لشاذٌّ ، أَو كأَنهم قالوا : لولا فُصل فصلين فكان بعضه أَعجميًّا يفهمه العجم وبعضه عربيًّا يفهمه العرب ؟ وهذا تأْويل لابن جبير أَيضاً ، وقرأَ عمرو بن ميمون : [أَعَجَمِيٌّ] بهمزة واحدة مقصورة وبفتح العين ، فأَخبر الله تبارك وتعالى عنهم أنه لو كان على أَيِّ وجه تُخُيِّل لكان لهم قولٌ واعتراضٌ فاسد ، هذا مقصد الكلام .

وأَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أَن يقول لهم : إن القرآن هُدًى وشفاءٌ للمؤمنين المبصرين للحقائق ، وإنَّه على الذين لا يؤمنون ولا يُصرِّفون نظرهم في المصنوعات عَمًى ؛ لأَنهم في آذانهم وقر ،

وعلى قلوبهم أقفال ، وعلى أعينهم غشاوة . واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ـ فقالت فرقة : يريد بـ [هُوَ] القرآن ، وقالت فرقة : [هُوَ] يريد به الوَقْر ، والوَقْر : الثِّقل في الأُذن المانعُ من السمع ، وهذه كلُّها استعارات ، أي : هم لما لم يفهموا ولا حصَّلوا كالأعمى وصاحب الوَقر . وقرأ ابن عباس ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص : ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٍ﴾ بكسر الميم مُنَوَّنة ، وقال يعقوب : لا أدري أنَوَّنُوا أم فتحوا الياءَ على الفعل الماضي ، وبغير ياءٍ رواها عمرو بن دينار ، وسليمان بن قَتَّة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذه القراءَة أيضاً فيها استعارة(١) ، وكذلك قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ يحتمل معنيين ، وكلاهما مقول للمفسرين : أحدهما أنها استعارة لقلة فهمهم ، شبَّههم بالرجل يُنَادَى على بُعْد يُسمع منه الصوت ولا تفهم تفاصيله ولا معانيه ، هذا تأْويل مجاهد ، والآخر أن الكلام على الحقيقة ، وأن المعنى : إنهم يوم القيامة يُنادون بكفرهم وقبيح أفعالهم من بُعْد حتى يسمع ذلك أهل الموقف فتعظم السُّمعة عليهم ويجل المصاب ، وهذا تأْويل الضحاك بن مزاحم .

ثم ضرب الله تعالى أمر موسى للنبي عليهما الصلاة والسلام ولقريش ، أي : فِعْلُ أُولئك كأَفعال هؤلاءِ حين جاءَهم مثل ما جاءَ هؤلاءِ ،

(١) اختار أبو عبيدة القراءة الأولى لأن الناس أجمعوا عليها كما قال القرطبي ، ولأنها تناسب قوله تعالى : ﴿هُدًى وشِفاءٌ﴾ ، ولو كان « هادٍ وشافٍ » لكان الكسر في « عَمٍ » أجود ليكون نعتاً مثلهما .

و «الكلمة السابقة» هي حتم الله تأْخير عذابهم إلى يوم القيامة ، والضمير في قوله تعالى : ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ يحتمل أن يعود على موسى عليه السلام أَو على كتابه .

وقوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾ الآيَة .... نصيحةٌ بَيِّنَةٌ للعالم وتحذير وترجية وصدْعٌ بأَن الله تعالى لا يَضَعُ شيئاً من عقوبات عباده في غير موضعها ، بل هو العادلُ المتفضل الذي يجازي كل عَبْد بتكسُّبه .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

المعنى أَنَّ علم وقت الساعة ومجيئها يردُّه كلُّ مؤمن متكلم فيه إلى الله عزَّ وجلَّ ، وذكر تعالى الثِّمار وخروجها من الأَكمام وحَمْل

الإِناث مثالاً لجميع الأَشياءِ ؛ إِذ كُلُّ شيءٍ خفي فهو في حكم هذيْن ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، والحسن ، وطلحة ، والأَعمش : ﴿مِنْ ثَمَرَة﴾ بالإِفراد على أَنه اسم جنس ، وقرأَ نافع ، وابن عامر : ﴿مِنْ ثَمَرَات﴾ بالجمع ، واختلف عن عاصم ، وهي قراءَة أَبي جعفر ، وشيبة ، والأَعرج ، والحسن - بخلاف - وفي مصحف عبد الله : «في ثَمرة» . و «الأَكمام» جمع كُمٍّ[1] ، وهو غلاف الثمر قبل ظهوره .

وقوله تعالى : ﴿ويَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ تقديره : واذكر يوم يناديهم ، والضمير في [يُنَادِيهِمْ] ظاهره والأَسبق فيه أَنه يريد به الكفار عَبَدَةَ الأَوثان ، ويحتمل أَن يريد به كل من عبد من دون الله تبارك وتعالى من إِنسان وغيره ، وفي هذا ضعف . وأَمَّا الضمير في قوله تعالى : ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ فلا احتمال لعودته إِلَّا على الكفار . و [آذَنَّاكَ] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : معناه : أَعْلَمْناكَ ما مِنَّا مَنْ يشهد

---

(١) جاء في اللسان : «والكُمُّ للطَّلْع ، وقد كُمَّت النخلةُ .. وكُمُّ كُلِّ نَوْرٍ : وعاؤُه ، والجمع أَكْمامٌ وأَكاميم» ، وبالضَّمِّ ثم ضَبْطُه أيضاً في المحكم والتهذيب ، ولكن قال في المصباح والقاموس والنهاية : «كِمُّ الطَّلْع وكُلِّ نَوْرٍ بالكسر» ، وفي القرطبي : «فالأَكمامُ أوعية الثمرة ، واحدها كُمَّة ، وهي كل ظرف لمالٍ أو غيره ، ولذلك سُمِّي قشر الطَّلْع أعني كُفُرَّاهُ الذي ينشق عن الثمرة كُمَّة ، وقال ابن عباس : الكُمَّةُ : الكُفُرَّى قبل أن تنشق ، فإذا انشقت فليست بكُمَّة» .

ولا شهد بأَن لك شريكاً . و ﴿ضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي نَسُوا ما كانوا يقولون في الدنيا ويدعون من الآلهة والأَصنام ، ويحتمل أَن يريد : وضلَّ عنهم الأَصنام ، أَي تَلِفَت عنهم فَلَم يجدوا منها نصراً وتَلَاشى لهم أَمرها . وقوله تعالى : [وَظَنُّوا] يحتمل أَن يكون متصلاً بما قبله ويكون الوقف عليه ، ويكون قوله سبحانه : ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ استئناف ، نَفَى أَن يكون لهم منجى وموضع روغان ، تقول : حاصَ الرجل إذا راغ يطلب النجاة من شيءٍ ، ومنه في الحديث : (فحاصُوا حَيْصَة حُمُر الوحش إلى الأَبواب)(١) ، ويكون الظن – على هذا التأْويل – على بابه ، أَي : ظنُّوا أَن هذه المقالة ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ منجاةٌ لهم أَو أَمرٌ يُمَوِّهُون به . ويحتمل أَن يكون الوقف في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ، ويكون [وَظَنُّوا] متصلاً بقوله تعالى : ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيص﴾ ، أَي

(١) جاء هذا في حديث طويل رواه الإمام البخاري في بدء الوحي ، وفي تفسير سورة النساء ، ورواه أبو داود في الجهاد ، وكذلك الترمذي رواه في الجهاد ، ورواه أحمد في مسنده ٣–٧٠ ، ١٠٠ ، وهو عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : إن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام ، وأن هرقل سألهم عن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن أتباعه ، وعن صفاته ... وفي آخر الحديث أن هرقل اجتمع بعظماء الروم في دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغُلِّقت ، ثم اطلع فقال : « يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرُّشد وأن يَثْبُتَ مُلْكُكُم فتبايعوا هذا النبيَّ . فحاصوا حيصَة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقت ، فلما رأى هرقل نَفْرَتَهُمْ وأيِسَ من الإيمان قال : رُدُّوهم عليَّ ، وقال : إنِّي قلتُ مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيتُ ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل » .

ظنُّوا ذلك ، ويكون الظن ـ على هذا التأْويل ـ بمعنى اليقين ، وبه فسَّر السدي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه عبارة يطلقها أَهل اللسان على الظَّنِّ ، ولست تجد ذلك إلَّا فيما علم علماً قويًّا وتقرَّر في النفس ولم يَتَلَبَّس به بُعْد ، وإلَّا فمتى تَلَبَّس بالشيء وحصَل تحت إدراك الحواسِّ فلستَ تجدهم يوقعون عليه لفظة الظن .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَسْأَمُ ٱلإِنْسَانُ﴾ آياتٌ نزلت في كفارٍ ، قيل : في الوليد بن المغيرة ، وقيل : في عُتبة بن ربيعة ، وجُلُّ الآية يعطي أَنها نزلت في كفار وإن كان أَولها يتضمن خُلُقاً[(١)] ربما شارك فيها بعض المؤمنين ، و « دُعَاءُ الْخَيْرِ » إضافته إضافة المصدر إلى المفعول ، والفاعل محذوف تقديره : من دعاءِ الخير هو ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : « مِن دعاءٍ بالخير »[(٢)] والخير في هذه الآية : المالُ والصحة ، وبذلك تليق الآية بالكافرين ، وإن قدرناه خير الآخرة

(١) الخُلُق مؤنثة ؛ لأنها حال للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خَيْر أو شرٍّ من غير حاجة إلى فكر وروية . (مجمع اللغة العربية) .

(٢) هكذا أيضاً في البحر المحيط ، وقد أكده حين قال : بإدخال الباء على الخير ، أما القرطبي فقد قال : وفي قراءة عبد الله : « لا يسأمُ الإنْسانُ مِنْ دُعاءِ المال » .

فهو للمؤمنين ، وأما اليأْس والقَنَط (١) على الإِطلاق فمن صفة الكافر وحـــده .

وقوله : ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي بفعلي وبما سعيتُ ، ولا يرى أن النعم إنما هي بتفضُّل من الله تعالى ، ﴿وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ قولٌ بَيِّنٌ فيه الجحد والكفر ، ثم يقول هذا الكافر : ولئن كان ثَمَّ رجوع كما يقولون ليكونَنَّ لي حالٌ تُرضيني من غنًى ومال وبنين ، فتوعدهم الله تعالى بأنه سَيُعَرِّفهم بأَعمالهم الخبيثة مع إذاقتهم العذاب عليها ، فهو عذابٌ وخِزي ، وغِلْظَة العذاب : شِدَّتُه وصعوبتُه ، وقال الحسن ابن محمد بن أَبي طالب رضي الله عنهم : للكافر أُمنيتان : أما في الدنيا فهذه : ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾ ، وأما في الآخرة فـ ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾ (٢) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والأَمـــاني على الله تعـــالى وتركُ الجدِّ في الطاعة مذمـــوم لكُلِّ أَحد ، فقد قال عليه الصـــلاة والسلام : (الكَيِّس من دان نفسه ،

---

(١) في اللسان : « قَنَطَ يَقْنِطُ ويَقْنُط قُنُوطاً ، مثل جلَس يَجْلِس جلوساً ، وقَنِطَ قَنَطاً ... وفيه لغة ثالثة قَنِطَ يَقْنَطُ قَنَطاً ، مثل تَعِبَ يَتْعَب تَعَباً » ، فالقَنَطُ ــ على هذا ــ مصدر مثل القنوط .

(٢) من الآية (٤٠) من سورة (النَّبأ) .

وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتْبع نفسه هواها ، وتَمَنَّى على الله الأَماني)(١).

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾

ذكر الله تعالى الخُلُق الذميمة من الإنسان جملة ، وهي في الكفار بَيِّنَةٌ متمكِّنة ، وأما المؤمن في الأغلب فيشكر عند النعمة ، وكثيراً ما يصبر عند الشدة . وقرأ جمهور القراء والناس : [وَنَأَى] ، الهمزة عين الفعل ، وقرأ ابن عامر : [وَنَاءَ] ، الهمزة لام الفعل ، وهي قراءة أبي جعفر ، والمعنى فيهما واحد ، قال أبو علي : ناءَ قلْب نأَى ، (رَجع فَعَلَ فَلَعَ) ، ومنه قول الشاعر :

(١) أخرجه الترمذي في القيامة ، وابن ماجه في الزهد ، وأحمد في مسنده ٤-١٣٤ ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه .

وكُلُّ خليلٍ رَاءَني فَهْوَ قَـائلٌ   من ٱجْلِكِ هذا هامَةُ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ (١)

ومنه قول الآخر :

وَقَدْ شَاءَني أَهْلُ السِّباقِ وأَمْعَنُوا   . . . . (٢)

و « نـاءَ » معناه : بَعُد ولم يَمِلْ إلى شكر ولا طاعة .

وقوله تعالى : ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ ، أي طويل أيضاً ، فاستغنى بالصفة الواحدة عن لزيمتها إذ العَرْض يقتضي الطول ويتضمنه ،

---

(١) البيت لكثيِّر عزَّة ، وهو كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن أبي جمعة ، وعزَّة صاحبته ، وقد نُسب إليها ، وهي من ضَمْرَة ، وبشعره فيها أصبح من عشَّاق العرب المشهورين ، والبيت في الديوان ، وفي اللسان (هوم) ، والخليل : الصديق الخالص (فعيل بمعنى مفاعل) وراءني: مقلوب رآني ، وهو موضع الشاهد هنا ، والعرب تقول : رَآني فلان بوزن رَعَاني ، وتقول : رَاءَني بوزن راعَني ، كما تقول : نأى فلانٌ عنِّي يَنْأَى إذا بَعُد ، وناءَ عنِّي بوزن باعَ علَى القَلْب . (راجع اللسان في المادتين) ، والهامةُ : الرأسُ ، والجمع : هَامٌ ، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يُدْرَك بثأره تصير هامة فتزْقو عند قبره وتقول : اسقوني ، اسقوني ، فإذا أُدرك بثأره طارت ؛ وكانوا يقولون : إن القتيل تخرج هامةٌ من هامته فلا تزال تقول : اسقوني ، اسقوني حتى يقتل قاتله ، ومنه قول ذي الإصبع العدواني :

يا عَمْرُو إلاَّ تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتِي   أَضْرِبْكَ حَتَّى تقولَ الهَامَةُ اسْقُوني

ويقال : هذا هامةُ اليوم أو غدٍ ، أي يموت اليوم أو غَداً ، وهذا معنى قول كثير في البيت : (هذا هامةُ اليوم أوغد) ، والمعنى : إن كل صديق مخلص رآني يقول : إني لا محالة سأموت اليوم أو غداً .

(٢) يستشهد ابن عطية بهذا الشطر من الشعر على أن (شاءني) مقلوب (شآني) . وهذا موجود في القاموس المحيط . قال « شَاءَني : سَبَقَني ... يَشُوءُ ويَشِيءُ ، قَلْبُ شآني » ، ونفهم من هذا أن معنى (شاءَني) هو سبقني ، وأنه مقلوب (شآني) على وزن رَعَاني ، وأنكر صاحب التاج عليه حكاية القلب هذه فقال : « وزَعَم أنه مقلوب لـ شأَى يَشْئَى — على وزن رَمَى يَرْمِي — وهذا غلط لأن مادة (شأى) مهموز العين » . هذا ولم نجد هذا الشطر في كتب المفسرين ولا في كتب اللغة التي بين أيدينا — ولم نقف على قائله .

ولم يقل : «طويل» لأن الطويل قد لا يكون عريضاً ، فعريضٌ أدلُّ على الكثرة .

ثم أمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يقف قريشاً على هذا الاحتجاج وموضع تقريرهم بأنفسهم فقال تعالى : قُلْ أَرَأَيتم إن كان هذا الشرع من عند الله وبأمره وخالفتموه أنتم ، أَلَسْتُم على هَلَكَة من الله تعالى ؟ فمن أضل ممن يبقى على مثل هذا الغرر مع الله تعالى ؟ وهذا هو الشقاق .

ثم وعد الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بأنه سَيُري الكفار آياته ، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿ فِي ٱلْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ - فقال أبو المنهال(١) ، والسدي ، وجماعة : هو وعد بما يفتحه الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم من الأقطار حول مكة وفي غير ذلك من الأرض كخيبر ونحوها ، و ﴿ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أراد به فتح مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تأويل حسن ينتظم الإعلام بغيب ظهر وجوده كذلك بعد ، ويجري مع لفظ الاستئناف الذي في الفعل(٢) ، وقال الضحاك ، وقتادة :

(١) الذي في القرطبي أنه « المنهال بن عمرو » ، فإن كان هو الصحيح فاسمه المنهال بن عمرو الأسدي الكوفي ، قال عنه في تقريب التهذيب : « صدوقٌ ، من الخامسة » .

(٢) الفِعْلُ هو « سَنُرِي » ، ودلَّ على الاستئناف فيه السِّينُ .

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ﴾ هو ما أَصاب الأُمم المكذبة في أَقطار الأَرض قديماً ، ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يوم بدر ، وقال ابن زيد ، وعطاءٌ : «الآفاق» هي آفاق السماءِ ، وأَراد به الآيات في الشمس والقمر والرياح وغير ذلك ، و «في أَنفسهم» عبرة الإِنسان بجسمه وحواسِّه وغريب خلقته وتدريجه في البطن ونحو ذلك .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه آياتٌ قد كانت مرتبة فليس المعنى يجري مع قوله تعالى : [سَنُرِيهِمْ] ، والتأْويل الأَول أَرجحها ، والله أَعلم .

والضمير في قوله تعالى : ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ عائد على الشرع والقرآن ، فبإِظهار الله تعالى إِياه وفتح البلاد عليه يَتَبيَّن لهم أَنه الحق ، ثم قال تعالى وعْداً لنبيِّه عليه الصلاة والسلام : ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ ، التقدير : أَو لم يكف ربك ؟ والباءُ زائدة للتأْكيد ، و [أَنَّ] يحتمل أَنه في موضع رفع على البدل من الموضع ؛ إِذ التقدير : أَو لم يكف ربك ؟ ويحتمل أَن يكون في موضع خفض على البدل من اللفظ ، وهذا كله بدل الاشتمال ، ويصح أَن تكون في موضع نصب على إِسقاط حرف الجرِّ ، أَي : لأَنه . وقرأَ الجمهور : [أَنَّهُ] بفتح الأَلف ، وقرأَ بعض الناس : [إِنَّهُ] بكسرها على الاعتراض أَثناءَ القول .

وقوله تعالى : [أَلَا] استفتاحٌ يقتضي إقبال السامع على ما يقال له ، فاستفتح الإخبار عن أَنهم في شك وريب وضلال أَدَّاهم إلى الشك في البعث . وقرأَ جمهور الناس : ﴿في مِرْيَةٍ﴾ بكسر الميم ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن ، والحسن : ﴿في مُرْيَةٍ﴾ بضم الميم ، والمعنى واحد ، ثم استفتح تعالى الإخبار بإحاطته لكل شيءٍ على معنى الوعيد لهم ، وإحاطتُه هي بالقدرة والسلطان ، لا إلٰه إلَّا هو العزيز الحكيم .

كمل تفسير سورة (حم السجدة) والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٤٢) سورة الشورى مكية وآياتها ثلاث وخمسون

هذه السورة مكِّيَّة بإجماع من أكثر المفسرين(١)، وقال مقاتل: فيها مدني [قوله تعالى:](٢) ﴿ذَلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾(٤)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الثعلبي: إنَّ ﴿حمٓ ، عٓسٓقٓ﴾

(١) هذا قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مكيَّة إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ إلى آخرها، قاله القرطبي.

(٢) ما بين العلامتين [....] زيادة لتوضيح المعنى.

(٣) وهما الآيتان (٢٣، ٢٤) من السورة.

(٤) وهي الآيات (٣٩، ٤٠، ٤١) من السورة.

هذه الحروف بأعيانها نزلت في كل كتب الله تعالى المُنْزَلة على كل نبي أُنْزِلَ عليه كتاب ، ولذلك قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ٱللَّهُ﴾ .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

فُصِلَت [حمٓ] من [عٓسٓقٓ] ولم يفعل ذلك بـ [كٓهيعٓصٓ] لتجري هذه مجرى الحواميم أخواتها ، وقرأ الجمهور : ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ ، وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس رضي الله عنهما ﴿حمٓ سٓقٓ﴾ بسقوط (عيٓن) ، والأقوال في هذا كالأقوال في أوائل السُّور ، وروى حذيفة حديثاً في هذا مُضَمَّنه أنه ستكون في هذه الأُمة مدينتان يشقهما نهر بالمشرق ، تَهْلِك إحداهما ليلاً ثم تصبح الأُخرى سالمة ، فيجتمع فيها جبابرة المدينتين مُتعجِّبين من سلامتها ، فَتَهْلِك في الليلة القابلة ، وأن [حمٓ] معناه : حُمَّ هذا الأمر ، و (عيٓن) معناه : عدلاً من الله ، و (سين)

سيكون ذلك ، و (قاف) معناه : يقع ذلك بهم[١]. ورُوي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يستفيد علم الفتن والحروب من هذه الحروف التي في أوائل السُّور.

والكاف من قوله تعالى : [كَذَٰلِكَ] نعتٌ لمصدر محذوف ، والإشارة بـ [ذَٰلِكَ] تختلف بحسب الأقوال في الحروف ، وقرأ جمهور القراءِ : [يُوحِي] بالياءِ على إسناد الفعل إلى الله تعالى ، وهي قراءَة الحسن ، والأَعرج ، وأَبي جعفر ، والجحدري ، وعيسى ، وطلحة ، والأَعمش ، وقرأَ أَبو حيوة ، والأَعشى عن أَبي بكر عن عاصم : [نُوحِي] بنون العظمة ، ويكون قوله تعالى : [ٱللَّهُ] ابتداءً وخبره [ٱلْعَزِيزُ] ، ويحتمل أَن يكون خبره : ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ، وقرأَ ابن كثير وحده : [يُوحَى] بالياءِ وفتح الحاءِ على بناءِ الفعل للمفعول ، وهي قراءَة

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، ونعيم بن حماد ، والخطيب . ذكر ذلك السيوطي في (الدُّرّ المنثور) ، وفي تفسير الطبري أن هذا الخبر عن أرطاة بن المنذر ، وفي أوّله أن رجلا جاءَ إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، فقال له — وعنده حذيفة بن اليمان — : أخبرني عن تفسير قول الله: ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ فأطرق ثم أعرض عنه — ثلاث مرات — فقال حذيفة للرجل : أنا أنبئك بها ... الخ ، قال القرطبي : «ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البجلي ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (تُبنى مدينة بين دِجلَة ودُجَيل وقُطْرَبُلّ والصَّراة ، يجتمع فيها جبابرة الأرض ، تجبى إليها الخزائن يُخسف بها — وفي رواية بأهلها — فَلَهِيَ أسرع ذهاباً في الأرض من الوَتد الجيِّد في الأرض الرخوة) ، ولكن ابن كثير قال عن خبر حذيفة : «وقد رَوى ابن جرير هنا أثراً غريباً عجيباً مُنكراً» .

مجاهد ، والتقدير : يُوحَى إليك القرآن ، يوحيه اللهُ تعالى ، وهذا كما قال الشاعر :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارعٌ لِخُصُومَـــةٍ . . . . (١)

ومنه قوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ، رِجَالٌ﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يريد : من الأَنبياءِ الذين نزلت عليهم الكتب .

وقوله تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي المُلْك والخلق والاختراع ، و [الْعَلِيُّ] من عُلُوِّ القدر والسلطان ، و [الْعَظِيمُ] كذلك ، وليس بِعُلُوِّ مسافة ولا عِظَم جِرْم ، تعالى الله عن ذلك . وقرأَ نافع ، والكسائي : [يكَادُ] بالياءِ ، وقرأَ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، وأَبو عمرو ، وعاصم : [تكَادُ] بالتاءِ ، وقرأَ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، ونافع ، وابن عباس ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، وقتادة :

---

(١) هذا هو الشطر الأول من بيت نسبه سيبويه للحارث بن نُهَيْك ، ونسبه صاحب خزانة الأدب لِنَهْشل بن حريٍّ ، والبيت بتمامه :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَـــارِعٌ لِخُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوائِـــحُ

وقد سبق الاستشهاد به عن تفسير قوله تعالى في سورة النور : ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾ راجع الجزء العاشر صفحة (٥١٥ هامش ٤) من هذا التفسير . والشاهد في البيت أن (ضارعٌ) فاعل لفعل مقدر يفهم من قوله : (لِيُبْكَ) ، كما أن قوله تعالى [رِجَالٌ] في آية سورة النور فاعل لِفِعل مضمر دلَّ عليه الظاهر ، تقديره : يُسَبِّحه رجالٌ .

(٢) من الآيتين (٣٦ ، ٣٧) من سورة (النور) .

[يَتَفَطَّرْنَ] من «التَّفَطُّر»، وهو مطاوع «فَطَّر» ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، والحسن ، والأعرج ، وأبو رجاءٍ ، والجحدري : [يَنْفَطِرْنَ] من «الانفطار» ، وهو مطاوع «فَطَرَ» ، والمعنى فيهما : يتصدَّعْنَ ويتشقَّقن من سرعة جريهن خضوعاً وخشية من سلطان الله تعالى ، وتعظيماً له وطاعة ، وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثقل ونحوه مردود ، وذلك لأن الله تعالى لا يوصف به ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي : من أعلاهن ، وقال الأخفش عليٌّ بن سليمان : الضمير للكفار .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمعنى : من فوق الفِرَق والجماعات الملحدة التي من أجل أقوالها تكاد السموات يتفطرن(١) ، فهذه الآية ـ على هذا ـ كالآية التي في [كٓهيعٓصٓ](٢) ، وقالت فرقة : معناه : من فوق الأرضين إذْ قد جرى ذكر الأرض ، وذكر الزجاج أنه قرئ : «يَتَفَطَّرْنَ بِمَنْ فَوْقَهُنَّ» .

وقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قيل : معناه : يقولون سبحان الله ، وقيل : معناه : يُصَلُّونَ لربهم ، وقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ

(١) إنما قدَّر ابن عطية هذا التقدير لأن الضمير مؤنث في [فَوْقِهِنَّ] ، وهو عائد على مذكر في هذا القول ـ وهم الكفار ـ وقد استبعد مكيٌّ هذا القول لهذا السبب ، ومال أبو حيان إلى كلامه هذا ، راجع البحر المحيط (٧ـ٥٠٨) .

(٢) وهي قوله تعالى في الآية (٩٠) من سورة (مريم) : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾ .

لِمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ، قالت فرقة . هذا منسوخ بقوله تعالى في آية أخرى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف ؛ لأن النَّسْخَ لا يتصور في الأَخبار .

وقال السدي ما معناه : إن ظاهر هذه الآية العموم ، ومعناها الخصوص في المؤمنين ، فكأَنه تعالى قال : ويستغفرون لمن في الأَرض من المؤمنين ، إذ الكفار عليهم لعنة الله تعالى والملائكة والناس أجمعين ، وقالت فرقة : بل هي على عمومها ، لكن استغفار الملائكة ليس بطلب غفران الله تعالى للكفرة على أن يبقوا كفرة ، وإنما استغفارهم لهم بمعنى طلب الهداية التي تؤدي إلى الغفران لهم ، وكأَن الملائكة تقول : اللّهم اهد أَهل الأَرض واغفر لهم ، ويؤيد هذا التأْويل تأْكيده صفة الغفران والرحمة لنفسه بالاستفتاح ، وذلك قوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ، أَي : لما كان الاستغفار لجميع من في الأَرض يبعد(٢) أَن يجابَ رَجَّى عزَّ وجلَّ بأَن استفتح الكلام تهيئةً لنفس السامع ، فقال تعالى : أَلَا إن الله تعالى يُطلب هذا منه إذْ هذه أَوصافه ، وهو سبحانه أَهل المغفرة .

(١) من الآية (٧) من سورة (غافر) .
(٢) في بعض النسخ : « مُعَدٌّ أن يُجَاب » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾

هذه آية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، ووعيد للكفار ، وإزالةٍ عن النبي عليه الصلاة والسلام جميع الكُلَف (١) سوى التبليغ فقط ، لِئَلَّا يهتم بعدم إيمان قريش وغيرهم ، فقال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : إنَّ الذين اتخذوا الأَصنام والأَوثان أولياءَ من دون الله هو الحفيظ عليهم كفرهم ، المُحْصي لأَعمالهم ، المُجازي لهم عليها بعذاب الآخرة ، وأَنت فلَسْتَ عليهم بوكيل ولا ملازم لأَمرهم حتى يؤمنوا ، و «الوكيل» : القيم على الأَمر ، وما في هذا اللفظ من موادعة فهو منسوخ بآية السيف .

---

(١) الكُلَف : التكاليف . (اللسان — كلف) .

ثم قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ، أي : وكما قضينا أَمرك هذا وأَمضيناه في هذه الصورة ، كذلك أَوحينا إِليك قرآناً عربياً مبيناً لهم ، لا يحتاجون معه إلى آخر سواه ؛ إِذْ فهمه مُتَأَتٍّ لهم ، ولم نُكلِّفك إِلَّا إِنذار من ذُكر ، و «أُمَّ ٱلْقُرَىٰ» هي مكة ، والمراد أَهل مكة ، ولذلك عطف [مَنْ] عليها ، وهي في الأَغلب لمن يعقل ، و «يَوْمُ ٱلْجَمْعِ» هو يوم القيامة ، واقتصر في [تُنْذِرَ] على المفعول الأَول لأَن المعنى : وتُنذر أُمَّ القرى العذابَ وتُنذر الناسَ يومَ الجمع ، لاجتماع أَهل الأَرض بأَهل السماءِ ، أَو لاجتماع بني آدم للعرض ، وقوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَي في نفسه وذاته ، وارتياب الكفار به لا يُقَيِّد .

وقوله تعالى : [فَرِيقٌ] مرتفع على خبر الابتداءِ المضمر ، كأَنه تعالى قال : هم فريق في الجنة وفريق في السَّعير .

ثم قوَّى تبارك وتعالى تسلية نبيِّه صلى الله عليه وسلم بأَن عرَّفه بأَن الأَمر موقوف على مشيئة الله تعالى من إِيمانهم أَو كفرهم ، وأَنه تعالى لو أَراد كونهم أُمَّةً واحدة على دين واحد لجمعهم عليه ، ولكن يُدخل من سبقت له السعادة عنده في رحمته ، ويُبَشِّره في الدنيا لعمل أَهل السعادة ، وإِن الظالمين بالكفر المُيَسَّرينَ لعمل أَهل الشِّقوة ما لهم من ولي ولا نصير .

وقوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا ﴾ كلام منقطع مما قبله ، وليست بمعادلة ، ولكن الكلام كأنه أضرب عن حُجَّة لهم أو مقالة مقررة فقال : بل اتخذوا ، هذا مشهور قول النحويِّين في مثل هذا ، وذهب بعضهم إلى أن «أم» هذه بمنزلة ألف الاستفهام دون تقدير إضراب ، ثم أثبت تعالى الحكم بأنه عزَّ وجلَّ هو الولي الذي تنفع ولايته ، وأنه هو الذي يحيي الموتى ويحشرهم إلى الآخرة ويبعثهم من قبورهم ، وأن قدرته على كل شيء تعطي هذا وتقتضيه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١١) لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾

المعنى : قل يا محمد : وما اختلفتم فيه أيها الناس من تكذيب وتصديق وإيمان وكفر وغير ذلك ، فالحكم فيه والمجازاة عليه ليست إليَّ ولا بيدي ، وإنما ذلك إلى الله تعالى الذي صفاته ما ذكر من إحياء

الموتى والقدرة على كل شيءٍ ، ثم قال : ذلكم الله ربِّي ، عليه توكلي ، وإليه إنابتي ورجوعي ، وهو فاطر السموات والأَرض ، أَي مخترعهما وخالقهما ، شقَّ بعضهما من بعض .

وقوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ يريد تعالى زوج الإِنسان الأُنثى ، وبهذه النعمة اتفق الذَّرْءُ ، وليست الأَزواج ها هنا الأَنواع ، وأَما الأَزواج المذكورة مع الأَنعام فالظاهر أَيضاً والمُتَّسِق أَنه يريد إِناث الذكران ، ويحتمل أَن يريد الأَنواع ، والأَول أَظهر . وقوله تعالى : ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أَي يخلقكم نسلاً بعد نسل ، وقرناً بعد قرن ، قاله مجاهد والناس ، فلفظة «ذَرَأَ» تزيد على لفظة «خَلَقَ» معنى آخر ليس في «خَلَقَ» ، وهو توالي الطبقات على مرِّ الزمان ، وقوله : [فِيهِ] الضمير على «الْجَعْلِ» الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾، وهذا كما تقول : كلَّمتُ زيداً كلاماً أَكرمته فيه ، وقال العتبي : الضمير للتزويج ، ولفظة «في» مشتركة على معانٍ وإِن كان أَصلها الوعاءُ ، وإِليه يردُّها النظر في كل وجه .

وقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، الكاف مؤكدة للتشبيه ، فَنَفْيُ التشبيه أَوْكد ما يكون ، وذلك أَنك تقول : زيدٌ كعمرو ، وزيد مثل عمرو ، فإِذا أَردت المبالغة التامَّة قلت : زيدٌ كَمِثْل عمرو ،

ومن هذا قول أَوس بن حجر :

وقَتْلَى كَمِثْلِ جُذوعِ النَّخيلِ تَغشَّاهُمُ مُسْبِلٌ مُنْهَمِـــرْ (١)

ومنه قول الآخر :

سَعْدُ بنُ زَيْد إذا أَبْصَرْتَ فَضْلَهُمُ ما إنْ كَمِثْلِهِمُ في النَّاسِ مِنْ أَحَدِ(٢)

فجرت الآية في هذا الموضع على عُرْف كلام العرب ، وتفترق الآية مع هذه الشواهد في أَن الشواهد متى أَردت أَن تتبع بذهنك اللفظ فتقدِّر للجذوع مِثْلاً موجوداً وتشبِّه القتلى بذلك المِثْل أَمكنك ، ولا يمكنك هذا في جهة الله تعالى إلَّا أَن تجعل له ما يتحصل في الذهن من العلم بالله تعالى ، إذ المثْل والمثال واحد .

---

(١) البيت من قصيدة قالها أَوْسُ بن حجر في حرب كانت بين قومه من بني تميم وبين أسَدٍ وغِنَي ، وفيه يصف نتيجة المعركة التي تركت القتلى من بني أسَد كجذوع النخل التي غطاها السيل المنهمر من المطر ، والجذوع جمع جذع وهو ساق النخلة ، ومعنى تَغَشَّاهُم : غطَّاهم وغمرهم ، والمُسْبِل : المطر ، وفي الحديث : (فجاد بالماء جَوْنِيٌّ له سبَل) أي مَطَرٌ جوْدٌ هاطل ، وابن عطية يستشهد بالبيت على أن التشبيه يكون بالكاف وبكلمة مِثْل معاً عند إرادة المبالغة التَّامة ، وذلك أنه يجوز أن تُشَبِّه فتقول : قَتْلى كجذوع النخيل ، ويجوز أن تقول : قتلى مثل جذوع النخيل ، فإذا أردت المبالغة التامة قلت : قَتْلى كَمِثْل جذوع النخيل . وهذا هو ما جاء في الآية الكريمة ، إذ اجتمع في التشبيه الكاف ومِثْل زيادة في المبالغة مع نفي ذلك ، فالنَّفْيُ هنا أوكد ما يكون .

(٢) وهذا أيضاً شاهد على أنه يُجْمَع في الكلام بين لفظين يؤديان معنىً واحداً للتأكيد ، وفي هذا البيت أدخل الشاعر على «ما» وهي حرف جَحْدٍ «إنْ» وهي حرف جَحْدٍ أيضاً ، وساغ ذلك لاختلاف لفظ كلٍّ منهما عن الآخر ، وإن اتفق المعنى . والشاعر في البيت يمدح «سعد بن زيد» ، وينفي أن يكون في الناس أحد مثلهم .

وذهب الطبريُّ وغيره إلى أَن المعنى : «ليس كهو شيءٌ» ، وقالوا : لفظة «مِثْل» في الآية توكيدٌ وواقعةٌ موقع هو (١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومِمَّا يؤيد دخول الكاف توكيداً أَنها قد تدخل على الكاف نفسها ، وأَنشد سيبويه :

* وصالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْنْ * (٢)

---

(١) الفرق بين القولين أن كلمة « مِثْل » فيما ذكر الطبريُّ هي التي دخلت للتوكيد ، وأداة التشبيه الأصلية هي الكاف ، أما القول الأول ففيه أن « الكاف » هي التي دخلت للتوكيد ، وأداة التشبيه الأصلية هي «مثل» ،على أن الطبريَّ قد ذكر القولين ، واستشهد لكلٍّ منهما ، وقد اختلفت الرؤية بالنسبة للشواهد ، فما اعتبره بعضهم شاهداً للقول الأول اعتبره غيره شاهداً للقول الثاني ، والشواهد تصلح لذلك .

هذا وقد ذكر صاحب البحر المحيط أن العرب تقول : : « مثلك لا يفعل كذا » ، يريدون به المخاطب ، كأنهم إذا نَفَوْا الوصف عن مثل المخاطب كان نفياً عن المخاطب نفسه ، وهو من باب المبالغة ، فجرت الآية في ذلك على نهج العرب من إطلاق المِثل على الشيء نفسه ، ثم علَّق على كلام الطبري الذي جعل كلمة « مِثْل » زائدة للتوكيد ، وجعلها كالكاف في قول الشاعر : (وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيَنْ) – علَّق على هذا بقوله : « ليس بجيد ، لأن « مِثْلا » اسمٌ والأسماءُ لا تُزاد ، بخلاف الكاف فإنها حرف فتصلح للزيادة .

(٢) هذا بيت من أبيات من بحر السريع ، نسبها في خزانة الأدب إلى خِطام المُجاشعي ، ونسبها الصقلي – في شرحه أبيات الإيضاح للفارسي – وكذلك الجوهري في الصحاح ، نسبها إلى هِمْيَان بن قُحافة ، والأبيات في خزانة الأدب ، وفي هوامش الجزء الأول من (سرِّ صناعة الإعراب) لابن جني . وقد قال محقق تفسير الطبري : إنها من مشطور الرَّجز ، وقال في خزانة الأدب : « ربما حسب من لا يحسن العَروض أنها من الرَّجز ؛ لأن الرَّجز لا يكون فيه مَفعُولات فيُرَدُّ إلى فَعُولات » . والصَّاليات : أراد بها الأثافيَّ لأنها صليت بالنار ، أي أُحرقت حتى اسودَّتْ ، وقد رُوي البيت « وماثلات » بدلا من « وصاليات » ، ومعنى ما ثلات : منتصبات . و « يُؤَثْفَيَنْ » وزنه « يُؤَفْعَلَنْ » والهمزة زائدة ، وقيل : وزنه « يُفَعْلَيَنْ » فالهمزة أصلٌ ، ومعنى الكلمة: يُجْعَلْن أثافيَّ للقدر ، وهي جمع أُثْفِيَةٍ . وموضع الشاهد =

و «المَقَالِيدُ» : المفاتيح ، قاله ابن عباس ، والحسن . وقال مجاهد : أَصلها بالفارسية ، وهي هنا استعارة لوقوع كل أَمر تحت قدرته ، وقال السدي : المقاليد : الخزائن ، وفي العبارة — على هذا — حذف مضاف ، قال قتادة : من ملك مقاليد خزائن فالخزائن في ملكه ، وبَسْط الرزق وقدره بيِّنٌ ، وقد مضى تفسيره غير مرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾

= في البيت قوله : «كَكَمَا» ؛ والكاف الأولى جارَّةٌ والثانية مؤكِّدَةٌ لها ، وقال الزمخشري : «وعلى هذا يجوز أن يكون الكافان اسميْن أوحرفيْن» ، وقال ابن السيد في شرح أدب الكاتب : «أجرى الكاف الجارة — وهي الثانية — مُجرَى «مثل» فأدخل عليها كافاً ثانية ، فكأنه قال : «كَمِثْل ما يُؤَثْفَيْنَ» و «ما» مع الفعل بتقدير المصدر ، كأنه قال : كمثل إثْفائِها ، أي : إنها على حالها حين أُثْفِيَتْ ، ويرى الفارسي أنها يجوز أن تكون موصولة ، وخلاصة القول أن الكاف دخلت على الكاف للتوكيد ، والذي أنشد البيت شاهداً على ذلك هو سيبويه في الكتاب .

المعنى : شرع الله تعالى لكم وبَيَّن من المعتقدات والتوحيد ما وصَّى به نوحاً من قبل ، وقوله تعالى : [وَٱلَّذِي] عطف على [مَا] ، وكذلك ما ذكر بعد من إقامة الدين مشروع اتَّفقت النبوَّات فيه ، وذلك في المعتقدات أَو في جملة أَمرها من أَن كل نُبُوَّة فإنما مُضَمَّنُها معتقدات وأَحكام ، فيجيءُ المعنى على هذا : شرع لكم شِرْعَة هي كشِرْعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام في أَنها ذات المعتقدات المشهورة التي هي في كل نبوَّة ، وذات أَحكام كما كانت تلك كلها ، وعلى هذا يتخرج ما حكاه الطبري عن قتادة فقال : ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ يريد به الحلالَ والحرامَ ، وعليه رُوي أَن نوحاً عليه السلام أَول من أَتى بتحريم البنات والأُمهات ، وأَمَّا الأَحكام بانفرادها فهي في الشرائع مختلفة ، وهي المراد في قوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾(١) . و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ﴾ يجوز أَن تكون في موضع نصب بدلاً من [مَا] ، أَو في موضع خفض بدلاً من الضمير في [بِهِ] ، أَو في موضع رفع على خبر ابتداءٍ تقديره : ذلك أَنْ ، و [يجوز](٢) أَن تكون مفسِّرة بمعنى «أَي» لا موضع لها

---

(١) من الآية (٤٨) من سورة (المائدة) .

(٢) مابين العلامتين [...] زيادة لتوضيح المعنى ، وكذلك زدنا ألفاً على الواو في قوله : «وفي موضع خفض ، وفي موضع رفع» حتى يصح التعبير .

من الإعراب ، و «إقامة الدين» هو(١) توحيد الله تعالى ورفض ما سواه .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ نهي عن المُهْلك من تفَرُّق الأَنحاء والمذاهب ، والخيْرُ كلُّه في الأُلفة واجتماع الكلمة ، ثم أخبر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام بصعوبة موقع هذه الدعوة إلى إقامة الدين على المشركين بالله تعالى ، العابدين للأَصنام ، قال قتادة : كبُر عليهم «لا إله إلَّا الله» ، وأَبى الله تعالى إلَّا نصرها وإظهارها .

ثم سلَّاه تعالى عنهم بقوله : ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِي﴾ أي يختارُ ويصطفي ، قاله مجاهد وغيره ، و [يُنِيبُ] معناه : يرجع عن الكفر ، ويُحَرِّض على الخير ويطلبه .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ عبارة يجمع خِطابُها كفارَ العرب واليهودَ والنصارى وكلَّ مدعوٍّ إلى الإسلام ، فلذلك حسُن أن يقال : «مَا تَفَرَّقُوا» ، يعني بذلك أَوائل اليهود والنصارى ، و «العِلْمُ» الذي جاءَهم» هو ما كان حصل في نفوسهم من علم كُتُب الله تعالى ، فبغى بعضهم على بعض ، وأَدَّاهم(٢) ذلك إلى الاختلاف في الرأْي ، و «الكلمة السابقة» قال المفسرون : هي حتمه تعالى القضاءَ بأَن مجازاتهم إنما تقع في الآخرة ، فلولا ذلك لفَصَلَ بينهم في الدنيا وغلب المحقُّ على المبطل .

---

(١) جعل الضمير للمذكر مراعاة لما بعده وهو التوحيد .

(٢) أدَّاهم : أوصلهم إلى الاختلاف .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَابَ﴾ إشارة إلى معاصري محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى ، وقيل : هي إشارة إلى العرب ، و « الكِتَابُ » هو القرآن ، والضمير في قوله تعالى : ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ يحتمل أن يعود على [الكِتاب] ، أو على محمد صلى الله عليه وسلم ، أو على « الأَجل المُسَمَّى » ، أي في شكٍّ من البعث على قول من رأى أن الإشارة إلى العرب ، ووَصْفُ الشك بـ [مُرِيب] مبالغة فيه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾

اللام في قوله تعالى : [فَلِذَلِكَ] قالت فرقة : هي بمنزلة « إلى » كما قال تعالى : ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾(١) ، أي إليها ، كأنه قال :

(١) الآية (٥) من سورة (الزلزلة) .

فإلى ما وصَّى به الأنبياءُ من التوحيد فادْعُ ، وقالت فرقة : بل هي بمعنى : «من أجل» ، كأنه قال : فمن أجل أن الأمر كذا ولكونه كذا فادْعُ أنت إلى ربك وبلِّغ ما أُرْسِلْتَ به .

وخوطب صلى الله عليه وسلم بأمر الاستقامة وهو عليه الصلاة والسلام قد كان مستقيماً بمعنى : دُمْ على استقامتك ، وهكذا الشأن في كل مأمور بشيءٍ هو متلبس به إنما معناه الدوام ، وهذه الآية ونحوها كانت نصب عينِ النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت شديدة الموقع من نفسه ، أعني قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ لأنها جملة تحتها جميع الطاعات وتكاليف النبوَّة ، وفي هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : (شَيَّبَتْني هودٌ وأخواتها) ، فقيل له : لم ذلك ؟ فقال : لأن فيها ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾(١) ، وهذا الخطاب له صلى الله عليه وسلم بحسب قوته في أمر الله تعالى ، وقال هو عليه الصلاة والسلام لأُمته بحسب ضعفهم : (اسْتَقِيمُوا ولن تُحْصُوا) (٢) .

---

(١) أخرجه الترمذي في سورة (الواقعة) .

(٢) أخرجه في الطهارة ابن ماجه ومالك في موطئه ، وأخرجه الدارمي في الوضوء ، وأحمد في مسنده (٥–٢٧٧ ، ٢٨٢) ، وهو عن ثوبان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (استقيموا ولن تُحْصُوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) . قال ابن الأثير في النهاية : «أي : استقيموا في كل شيء حتى لا تميلوا ، ولن تطيقوا الاستقامة) من قوله تعالى : ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ ، أي لن تُطيقوا عدَّه وضبطه» .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني قريشاً فيما كانوا يَهْوَوْنَهُ من أن يعظِّم محمد صلى الله عليه وسلم آلهتهم وغير ذلك ، ثم أمره الله تبارك وتعالى أن يؤمن بالكتب المنزلة قبله من عند الله تعالى ، وهو أمر يعم سائر أمته . وقوله تعالى : ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ قالت فرقة : اللام في [لِأَعْدِلَ] بمعنى «أَنْ» ، لأَن التقدير : أُمرتُ بأَن أعدل بينكم ، وقالت فرقة : المعنى : وأُمرتُ بما أُمرتُ من التبليغ والشرع لكي أَعدلَ ، فحذف من الكلام ما يدل الظاهر عليه . وقوله تعالى : ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ إلى آخر الآية منسوخ ما فيه من موادعة بآية السيف ، وقوله : ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أَي : لا جدال ولا مناظرة ، قد وضح الحق وأَنتم تعاندون ، وفي قوله : ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وعيدٌ .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد : إِنها نزلت في طائفة من بني إِسرائيل همَّت بردِّ الناس عن الإِسلام وإِضلالهم ومجادلتهم بأَن قالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبيُّنا قبل نبيِّكم ، وديننا أَفضل ، فنزلت الآية في ذلك ، وقيل : بل نزلت في قريش لأَنها كانت أَبداً تجادل هذا المعنى ، وتطمع في ردِّ الجاهلية ، و ﴿يُحَاجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ معناه : في توحيده ، أَي بالإِبطال والإِلحاد وما أَشبهه ، والضمير في ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ﴾

يحتمل أَن يعود على الله تعالى ، أَي : بعد ما دخل الناسُ في دينه ، ويحتمل أَن يعود على الشرع والدين ؛ ويحتمل أَن يعود على محمد صلى الله عليه وسلم ، و [دَاحِضَةٌ] معناه : زاهقة ، والدَّحْضُ : الزَّلق (١) ، وباقي الآية وعيدٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

لمَّا أَنهى الله تعالى القول على الذين يحاجُّون في توحيد الله تعالى ويرومون إِخفاءَ نوره ، صدع في هذه الآية بصفته تعالى من إِنزال الكتاب الهادي للناس ، والكتابُ هنا اسم جنس يعم جميع الكتب

---

(١) ويقال : دحضت رجله : زلقت ، ودحضت حُجَّته: بطلت . ودحضت الشمس: زالت عن كبد السماء كأنها زلقت .

المنزلة ، وقوله تعالى : [بِالْحَقِّ] يحتمل أَن يكون المعنى : بأَن كان ذلك حقًّا واجباً للمصلحة والهدى ، ويحتمل أَن يكون المعنى : مُضَمَّناً الحق ، أَي : بالحق في أَحكامه وأَوامره ونواهيه . و [ٱلْمِيزَان] هنا : العدل ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والناس ، وحكى الثعلبي عن مجاهد أَنه قال : هو هنا الميزان الذي بأَيدي الناس .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولا شك أَنه داخل في القول وجزءٌ منه ، وكل شيءٍ من الأُمور فالعدل فيه إِنما هو بتقدير ووزن مستقيم ، فيحتاج في الأَجرام إِلى آلة وهي العمود والكفتان التي بأَيدي البشر ، ويحتاج في المعاني إِلى هيئات في النفوس وفهوم توازن بين الأَشياءِ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ وعيد للمشركين ، أَي : فانظر في أَيِّ غَرَرٍ هُمْ ، وجاءَ لفظ [قَرِيبٌ] مذكَّراً من حيث تأْنيث الساعة غير حقيقي ؛ وإِذ هي بمعنى الوقت . ثم وصف تعالى حالة الجهلة المكذبين بها ، فهم لذلك يستعجلون بها ، أَي يطلبون تعجيلها لِيَبِينَ العجزُ ممن تحقَّقَها ، فالمصدِّق بها مشفقٌ خائف ، والمكذِّب مستعجل مقيم لِحُجَّته على تكذيبه بذلك المستعجل به . ثم استفتح تعالى الإِخبار عن المُمَارين في الساعة في أَنهم في ضلال قد بعُدَ بهمْ ،

فرجوعهم عنه صعب متعذِّر ، وفي هذا الاستفتاح مبالغة وتأْكيد وتهيئة لنفس السامع .

ثم رجَّى تبارك وتعالى عباده بقوله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ ، و [لَطيفٌ] هنا بمعنى رفيقٌ مُتَحَفٍّ (١) ، والعباد هنا : المؤمنون ومن سَبَق له الخلود في الجنة ، وذلك أن الأَعمال بخواتمها ، ولا لُطف إلّا ما آل إلى الرحمة ، وأَما الإِنعام على الكافر في الدنيا فليس بلُطْف بل هو إملاءٌ واستدراج ، قال الجنيد : لطف بأَوليائه حتى عرفوه ، ولو لطف بالكفــار لما جحــدوه ، وقيل : لطيفٌ بأَن نشر عنهم المناقب وستر عنهم المثالب (٢) ، وقيل : هو الذي لا يخاف إلّا عدله ، ولا يُرْجى إلّا فضله .

وقوله تعــالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾ معنــاه : إرادةَ عاملٍ مستعدٍّ عارفٍ لا إرادة مُتَمنٍّ لم يُدِن نفسه ، و « الحَرْثُ » هنا عبارة عن السعي والتَّكَسُّب والإِعداد ، ولما كان حرث الأَرضِ أَصلاً من أُصول المكاسب استُعير لكلِّ تكَسُّب ، ومنه قول ابن عمر رضي الله عنهما : « احرث لدنياك كأَنك تعيش أَبداً ، واعمل لآخرتك كأَنك تموت غداً » ، وقوله تعالى : ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ وعْدٌ منتجز ، وقوله تعالى في حرث

---

(١) من التَّحَفِّي وهو الاهتمام والإكرام ، وفي اللسان : اللُّطف : البِرُّ والتَّكْرِمَةُ والتَّحَفِّي .

(٢) المناقب : الأفعال الكريمة والصفات الحميدة التي يَفْتَخر بها الإنسان ، والمثالب : العيوب والصفات القبيحة التي يُذم بها .

الدنيا: ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ معناه: ما شئنا ولمن شئنا، فرُبَّ مُمْتحن مُضيَّق عليه حريص على حرث الدنيا مريد له لا يُحِسُّ بغيره، نعوذ بالله من ذلك، وهذا الذي لا يعقل غير الدنيا هو الذي نُفي أَن يكون له نصيب في الآخرة. وقرأ سلام: [نُؤْتِهُ] برفع الهاء، وهي لغة أَهل الحجاز، ومثله قراءة أَهل الحجاز: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهُ ٱلْأَرْضَ ﴾(١)، برفع الهاء فيها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

[أَمْ] هذه منقطعة لا معادلة، وهي بتقدير «بل وأَلف الاستفهام»، و «الشركاءُ» في هذه الآية يحتمل أَن يكون المراد بهم الشياطين

(١) من الآية (٨١) من سورة (القصص).

والمُغْوِينَ من أَسلافهم ، ويكون الضمير في [لَهُمْ] للكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أَي : شرع الشركاءُ لهم ما لم يأْذن به الله ، فالاشتراك هنا هو في الكفر والغواية ، وليس بشركة الإشراك بالله تعالى ، ويحتمل أَن يكون المراد بالشركاءِ الأَصنام والأَوثان على معنى : أَم لهم أَصنام جعلوها شركاءَ لله في أُلوهيته ؟ ويكون الضمير في [شَرَعُوا] لهؤلاءِ المعاصرين من الكفار ولآبائهم ، والضمير في [لَهُمْ] للأَصنام الشركاءِ ، أَي : شرع هؤلاءِ الكفار لأَصنامهم وأَوثانهم ما لم يأْذن به الله تعالى ، و [شَرَعُوا] معناه : أَثبتوا ونهجوا ورسموا . و «الدين» هنا : العوائد(١) والأَحكام والسيرة ، ويدخل في ذلك أَيضاً المعتقدات ؛ لأَنهم في جميع ذلك وضعوا أَوضاعاً ، فأَما في المعتقدات فقولهم : إن الأَصنام آلهة ، وقولهم : إنهم يعبدون الأَصنام زُلْفَى ، وغير ذلك ، وأَما في الأَحكام فكالْبَحِيرَةِ والْوَصِيلَة والْحَامِي ، وغير ذلك من السوائب ونحوها ، و «الإِذْنُ» في هذه الآية : الأَمر .

و «كلمة الفصل» هي ما سبق من قضاءِ الله تعالى بأَن يؤخر عذابهم إلى الآخرة ، و «القضاءُ بينهم» هو عذابهم في الدنيا ومجازاتهم . وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ بكسر الهمزة على القطع والاستئناف ،

---

(١) العوائد : جمع عادة ، وهي كل ما اعتاد الناس وألفوه فأصبحوا يفعلونه بغير جهد .

وقرأ مسلم بن جندب بفتح الهمزة ، وهي في موضع رفع عطف على [كَلِمَةُ] ، المعنى : وأن الظالمين لهم في الآخرة عذاب .

وقوله تعالى : ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ هي رؤية بصر ، و [ٱلظَّـٰلِمِينَ] مفعول ، و [مُشْفِقِينَ] حال ، وليس لهم في هذا الإشفاق مدح ؛ لأنهم إنما أشفقوا حين نزل بهم ووقع ، وليسوا كالمؤمنين الذين هم في الدنيا مشفقون من الساعة كما تقدم ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ وَاقِـعٌ بِهِمْ﴾ في موضع الحال ، و « الرَّوْضَاتُ » : المواضع المُونقة النَّضرة ، وهي مرتفعة في الأغلب من الاستعمال ، وهي الممدوحة عند العرب وغيرهم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾(١) ، ومن ذلك تفضيلهم روضات الحَزْن (٢) لجودة هوائها ، قال الطبري : ولا تقول العرب لموضع الأشجار : رياض .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ﴾ إشارة إلى قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾(٣) . وقرأ جمهور الناس : [يُبَشِّرُ] بضم الياء وفتح الباء وشدِّ الشين مكسورة ،

---

(١) من الآية (٢٦٥) من سورة (البقرة) .

(٢) الحَزْنُ : ما غَلُظ من الأرض ، وقال الأصمعي : الحُزُن : الجبال الغليظة ، والمراد بالغلظة الخشونة .

(٣) من الآية (٤٧) من سورة (الأحزاب) .

وذلك على التعدية والتضعيف ، وقرأ مجاهد ، وحُمَيْد : [يُبْشِرُ] بضم الياء وسكون الباء وكسر الشِّين ، على التعدية بالهمزة ، وقرأ ابن مسعود ، وابن يَعْمَر ، وابن أَبي إسحق ، والجحدري ، والأعمش ، وطلحة : [يَبْشُرُ] بفتح الياء وضم الشين ، ورويت عن ابن كثير ، وقال الجحدري في تفسيرها : ترى النضرة في الوجوه .

قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَى﴾ ، اختلف الناسُ في معناه – فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : هي آية مكية نزلت في صدر الإسلام ، ومعناها اسْتِكْفاف شرِّ الكفار ، ودفع أذاهم ، أَي : ما أَسأَلكم على القرآن والدعاءِ إلى الله تعالى إلَّا أَن تَوَدُّوني لقرابةٍ بيني وبينكم ، فتكفوا عنِّي أَذاكم ، قال ابن عباس ، وابن إسحق ، وقتادة : ولم يَكُن في قريش بطن إلَّا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه نسبٌ أَو صِهْر (١) فالآية – على هذا – هي استعطافٌ مَّا ، ودَفْع أَذى ، وطلبُ سلامة منهم ، وذلك كله منسوخ بآية السيف .

---

(١) أخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه ، من طريق طاوس ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سُئل عن قوله : ﴿إِلاَّ ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَى﴾ ، فقال سعيد بن جبير رضي الله عنه : قُربى آل محمد ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : عَجِلْتَ ، إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلاَّ أن تَصِلوا ما بيني وبينكم من القرابة .

ويحتمل هذا التأْويل أَن يكون معنى الكلام استدعاءَ نصرهم ، أَي : لا أَسأَلكم غرامةً ولا شيئاً إِلَّا أَن تَوَدُّوني لقرابتي منكم ، وأَن تكونوا أَولى من غيركم ، وقال مجاهد : إِلَّا أَن تَصلوا رحمي باتِّباعي ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً ما يقتضي أَنها مدنية ، وسببها أَن قوماً من شباب الأَنصار فاخروا المهاجرين ، ومالوا بالقول على قريش ، فنزلت الآية بذلك على معنى : إِلَّا أَن تودُّوني فتراعوني في قرابتي وتحفظوني فيهم ، وقال بهذا المعنى في الآية علي بن الحسن بن علي ابن أَبي طالب رضي الله عنهم ، واستشهد بالآية حين سيق إِلى الشام أَسيراً ، وهو تأْويل ابن جبير ، وعمرو بن شعيب ، وعلى هذا التأْويل قال ابن عباس رضي الله عنهما : قيل : يا رسول الله ، مَنْ قرابتك الذين أُمرنا بمودتهم ؟ فقال : (عليٌّ وفاطمة وابناهما)(١)، وقيل : هم ولد عبد المطلب .

(١) أخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه بسند ضعيف ، من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور) ، وذكر ابن كثير في تفسيره أيضاً أن إسناده ضعيف ، فيه مُبهم لا يُعرف عن شيخ شيعي مخترق وهو حُسَين الأشقر ، ولا يُقبل خبره في هذا المحل ، وذكْر نزول الآية في المدينة بعيد ، فإنها مكية ، ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله تعالى عنها أولاد بالكلية ، فإنها لم تتزوج بعلي رضي الله عنهما إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقريش كلها عندي قُرْبى وإن كانت تتفاضل ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من مات على حبِّ آل محمد مات شهيداً ، ومن مات على بُغضهم لم يشم رائحة الجنة)(١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً في كتاب الثعلبي : سبب هذه الآية أن الأنصار جمعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مالاً وساقته إليه ، فردَّه عليهم ونزلت الآية في ذلك ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : معنى الآية مِنْ قُرْبَى الطاعة والتَّزَلُّف إلى الله تعالى ، كأَنه قال : إلَّا أن تَوَدُّوني لأَني أَقربكم من الله تعالى ، وأُريد هدايتكم وأَدعوكم إليها ، وقال الحسن بن أبي الحسن : معناه : إلَّا أن تتودَّدوا إلى الله تعالى بالتقرُّب إليه ، وقال عبد الله بن القاسم في كتاب الطبري : معنى

---

(١) هذا الحديث ذكره الثعلبي ، ونقله عنه القرطبي بأطول من هذا ، ففيه (من مات على حُبِّ آل محمد مات شهيداً ، ومن مات على حُبِّ آل محمد جعل الله زُوَّار قبره الملائكة والرحمة ، ومن مات على بُغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه : أيِس اليوم من رحمة الله ، ومن مات على بُغض آل محمد لم يَرَحْ رائحة الجنة ، ومن مات على بُغض آل محمد فلا نصيب له في شفاعتي) ، وذكر هذا الخبر بأطول من هذا الزمخشري في تفسيره ، والأحاديث الكثيرة مذكورة في حُبِّ آل البيت ، وأشهرها ما قاله ﷺ في إحدى خطبه : (إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الإرض ، والآخر عِتْرة أهل بيتي ، ولن يفترقا حتى يَرِدا على الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما) ، أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم ، وكذلك أخرجه عنه الإمام أحمد في مسنده ، وفيه زيادة .

الآية : إلَّا أَن تتودُّوا بعضكم إلى بعض وتصلوا قرابتكم ، فالآية ـ على هذا ـ أَمر بصلة الرحم .

وذكر النقاش عن ابن عباس ، ومقاتل ، والسدي ، والكلبي أَن الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة سبأْ : ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾(١)، والصواب أَنها مُحْكَمة ، وعلى كلِّ قول فالاستثناءُ منقطع ، و [إلَّا] بمعنى «لكن»(٢) .

و [يَقْتَرِفْ] معناه : يكتسب ، ورجلٌ قرفة إذا كان محتالاً كسوباً ، وقرأَت فرقة : [يَزِدْ] على إسناد الفعل لله تعالى ، وقرأَ جمهور الناس : [نَزِدْ] على نون العظمة ، وزيادة الحُسْنِ هو التضعيف الذي وعد الله تعالى به مؤمني عباده ، قاله الحسن بن أَبي الحسن ، و [غَفُورٌ] معناه : ساترٌ عيوب عبيده ، و [شَكُورٌ] معناه : مجاز على الدقيقة من الخير ، لا يضيع عنده عمل العامل .

---

(١) من الآية (٤٧) من سورة (سبأ) .

(٢) قال الطبري : «فالمعنى : قل لا أسألكم عليه أجراً ، لكني أسألكم المودة في القربى»، وقال : «وأولى الأقوال بالصواب قول من قال : معناه : قل لا أسألكم عليه أجراً يا معشر قريش إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم ، وتصلوا الرَّحم التي بيني وبينكم ... وفي دخول [في] في الكلام أوضح الدليل على أن معناه : إلاَّ مَوَدَّتي في قرابتي منكم» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ * وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

[أَمْ] هذه أَيضاً مقطوعة مُضَمَّنة إِضراباً عن كلام متقدم ، وتقريراً على هذه المقالة منهم . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ ﴾ معناه في قول قتادة وفرقة من المفسرين : يُنْسِيكَ القرآن ، والمرادُ الرَّدُّ على مقالة الكفار وبيان إِبطالها ، وذلك كأَنه يقول : وكيف يصح أَن تكون مفترياً وأَنت بمرأًى من الله تعالى ومسمع ، وهو قادر لو شاءَ أَن يختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمرُّ افتراؤُك ، فمقصد اللفظ هذا المعنى ، وحذف ما يدل عليه الظاهر اختصاراً واقتصاراً ، وقال مجاهد في كتاب الثعلبي وغيره : المعنى : فإِن يشإِ الله يختم على

قلبك بالصبر لأَذى الكفار ، ويربط عليه بالجَلَد ، فهذا تأْويلٌ لا يتضمن الرَّدَّ على مقالتهم .

وقوله تعالى : ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ﴾ فعل مستقبل(١) ، خبر من الله تعالى أَنه يمحو الباطل ولا بد ، إما في الدنيا وإما في الآخرة ، وهذا بحسب نازلة نازلة ، وكتبت [يَمْحُ] في المصحف بحاءٍ مرسلة كما كتبوا ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنْسَانُ﴾(٢) إلى غير ذلك مما ذهبوا فيه إلى الحذف والاختصار(٣). وقوله تعالى : [بِكَلِمَاتِهِ] معناه : بما سبق في قديم علمه وإرادته من كون الأَشياء ، فالكلماتُ : المعاني القائمة القديمة . وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ خبرٌ مُضَمَّنه وعيد .

ثم ذكر تعالى النعمة في تفضله بقبول التوبة عن عباده ، وقبولُ التوبة فيما يستأْنف العبد من زمنه وأَعماله مقطوع به بهذه الآية ، وأَمَّا ما سلف من أَعماله فينقسم : فأَمَّا التوبة من الكفر فماحيةٌ كل ما تقدمها من مظالم العباد الفانية ، وغير ذلك ، وأَما التوبة من المعاصي فلأَهل السُّنَّة فيها قولان : هلْ تذهب المعاصي السابقة للعبد بينه وبين خالقه سبحانه ؟ فقالت فرقة : هي مُذْهبة لها ، وقالت فرقة : هو

(١) في بعض النسخ : « فعل مستأنف » .
(٢) من الآية (١١) من سورة (الإسراء) .
(٣) ومنه قوله تعالى في الآية (١٨) من سورة (العلق) : ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ .

في مشيئة الله تعالى ، وأجمعوا على أنها لا تُذْهِب مظالم العباد ، وحقيقة التوبة : الإقلاعُ عن المعاصي والإقبالُ والرجوع إلى الطاعات ، ويلزمها الندم على ما فات والعزم على ملازمة الخيرات ، وقال سري السقطي : التوبةُ : العزمُ على ترك الذنوب والإقبالُ بالقلب إلى علّام الغيوب سبحانه وتعالى ، وقال يحيى بن معاذ : التائب من كسر شبابه على رأسه ، وكسر الدنيا على رأس الشيطان ، ولزم الفطام حتى أتاه الحِمام . وقوله تعالى : ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ بمعنى : من عباده ، وكأنه تعالى قال : التوبة الصادرة عن عباده ، وقرأ جمهور القراء ، والأعرج ، وأبو جعفر ، والجحدري ، وقتادة : [يَفْعَلُونَ] بالياءِ على الكناية عن غائب ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وابن مسعود ، وعلقمة : [تَفْعَلُونَ] بالتاءِ على المخاطبة ، وفي الآية توعُّد .

وقوله تعالى : [وَيَسْتَجِيبُ] ، قال الزجاج ، وغيره : معناه : يُجيب ، والعربُ تقول : أَجابَ واستجابَ بمعنى ، ومنه قول الشاعر :

وداعٍ دَعَا يا مَن يُجيبُ إلَى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذاكَ مُجيبُ (١)

---

(١) هذا البيت لكَعب بن سعد الغَنَوي ، وهو من قصيدة طويلة ذكرها الأصمعي في الأصمعيات مُقَسَّمة إلى قصيدتين ، وفي جمهرة أشعار العرب منسوبة إلى « محمد بن سعد الغَنَوي» ، وهو خطأ واضح ، وقد قالها كعب في رثاء أخيه أبي المغوار الذي قتل في وقعة ذي قار ، وفيها كلام كثير ، قال عنها الأصمعي : « ليس في الدنيا مثلها » ، وقال أبو هلال العسكري : « ليس للعرب مرثية أجود منها » ، – راجع الموشَّح – وديوان المعاني ، والأصمعيات ، =

و [ٱلَّذِينَ] – على هذا القول – مفعولٌ بـ [يَسْتَجِيبُ] ، وروي هذا المعنى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه (١) ، ونحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقالت فرقة : المعنى : ويستدعي الذين آمنوا الإجابة من ربهم بالأعمال الصالحة ، – ودلَّ قوله تعالى : ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ على أن المعنى : «فَيُجِيبهم» – ، وحملت هذه الفرقة «استجاب» على المعهود من باب «استفعل» ، أي طَلَبَ الشيء ، و [ٱلَّذِينَ] – على هذا القول – فاعل بـ [يَسْتَجِيبُ] . وقالت فرقة : المعنى : ويُجيب المؤمنون ربهم ، فـ [ٱلَّذِينَ] فاعل بمعنى : يجيبون دعوة شرعه ورسالته ، والزيادة من فضله هي تضعيف الحسنات ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (هي قبولُ الشفاعات في المؤمنين والرضوانُ)(٢) .

= والجمهرة ، ومنتهى الطلب ، والسِّمْط ، وغيرها – والبيت في لسان العرب ، وبعده يقول :

فَقُلْتُ ادْعُ أُخْرَى وارْفَعِ الصَّوْتَ دَعْوَةً لَعَلَّ أَبَا المِغْوَارِ مِنْكَ قَرِيبُ

قال في اللسان : «والإجابة : رجع الكلام ، تقول : أَجَابَهُ إجَابَةً واسْتَجَابَهُ واسْتَجَابَ له ، قال كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار ... ثم ذكر البيت» .

(١) روى ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، من حديث الأعمش ، عن سلمة بن سبرة ، قال : خطبنا معاذٌ رضي الله تعالى عنه بالشام فقال : «أنتم المؤمنون ، وأنتم أهل الجنة ، والله إني لأرجو أن يدخل اللهُ تعالى مَنْ تَسْبُون من فارس والروم الجنَّة ، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له – يعني أحدهم – عملا قال : أحْسَنْت رحمك الله ، أحْسَنْت بارك الله فيك ، ثم قرأ : ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ، ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره ، وزاد السيوطي في الدر المنثور نسبة الحديث إلى ابن المنذر ، والحاكم ، وقال : إنه صحح الحديث .

(٢) ذكر ابن كثير في تفسيره أن ابن أبي حاتم أخرجه من طريق الأعمش عن شقيق ، عن عبد الله رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: =

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، قال عمرو بن حُرَيْثٍ (١) وغيره : إنها نزلت لأن قوماً من أهل الصُّفة طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُغنيهم الله تعالى ، ويبسط لهم الأرزاق والأموال ، فأعلمهم تعالى أنه لو جاءَ الرزق على اختيار البشر واقتراحهم لكان سبب بغيهم وإفسادهم ، ولكنه عزَّ وجلَّ أعلم بالمصلحة في كل أحد ، وله بعبيده خبرةٌ وبَصَرٌ بأخلاقهم ومصالحهم ، فهو ينزل لهم من الرزق القدر الذي به صلاحهم ، فربَّ إنسان لا يصلح ولا تكتف عاديته إلَّا بالفقر ، وآخر بالغنى ، وروى أنس بن مالك في هذا المعنى والتقسيم حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال أنس رضي الله عنه : اللَّهم إنِّي من عبادك الذين لا يصلحهم إلَّا الغنى فـلا تفقرني (٢). وقال خبَّـاب بن الأرتِّ : فينا نزلت لأنا نظرنا

= ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ قال: « الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم معروفاً في الدنيا » .

(١) هو عمرو بن حُرَيْث بن عمرو بن عثمان بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، القرشي ، المخزومي ، صحابي صغير ، قال عنه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني : « مات سنة خمس وثمانين » . (تقريب التهذيب) .

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره دون ذكر الراوي ، وذكَرَهُ القرطبي بأطول من هذا ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى ، قال : (من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة ، وإني لأسرع شيءٍ إلى نُصرة أوليائي ، وإني لأغضب لهم كما يغضب اللَّيث الحَرِد ، وما تردَّدتُ في شيءٍ أنا فاعله تردُّدي في قبض روح عبدي المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره إساءته ، ولابُدَّ له منه ، وما تقرَّب إليَّ عبدي المؤمن بمثل أداءِ ما افترضت عليه ، وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه ، فإذا أحببتهُ =

إلى أحوال بني قُريظة وبني النَّضير وبني قَيْنُقَاع فتمنيناها (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

كُنتُ له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيداً ، فإن سألني أعطيته ، وإن دعاني أجبته ، وإنَّ من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليم أن لو أعطيته إيَّاه لدخله العُجْب فأفسده ، وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلاَّ الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر ، وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلاَّ الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى ، وإني لأدبِّر عبادي بقلوبهم فإني عليم خبير) ، ثم قال أنس : « اللّهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرني برحمتك » .

وقد روى الجزء الأول من هذا الحديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الرقاق، وأحمد في مسنده ٦-٢٥٦ عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، وتنتهي روايتهما عند قوله : (وأنا أكره إساءته) ، وإن كان اللفظ فيهما : (أكره مساءته) .

(١) ذكر الواحدي في « أسباب النزول » هذا السبب عن خباب بن الأرت بدون سند ، وذكره أيضاً كلٌّ من الخازن والبغويّ في تفسيرهما عن خبَّاب بدون سند أيضاً ، وروى ابن جرير عن عمرو بن حُرَيْث أنه قال : « يقولون : إنما نزلت في أهل الصُّفَّة » . وخبَّابٌ رضي الله عنه صحابي جليل ، من السابقين إلى الإسلام ، عُذِّب في الله فكان من الصابرين ، ومات بالكوفة سنة سبع وثلاثين .

هذا تعديد نعم الله تعالى الدَّالة على وحدانيته ، وأنه الإلٰه الَّذي يستحق أَن يعبد دون ما سواه من الأَنداد ، وقرأ : [يُنَزِّلُ] بالتثقيل جمهور القراء ، وقرأ [يُنْزِلُ] مخففة ابنُ وثاب ، والأَعمش ، ورويت عن أَبي عمرو ، ورجحها أَبو حاتم ، وقرأ جمهور الناس : [قَنَطُوا] بفتح النون ، وقرأ يحي بن وثاب عن الأَعمش بكسر النون ، وقد تقدم ذكرها ، وهما لغتان ، يقال : قنَط وقنِط ، وروي أَنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له : أَجدبت الأَرض وقنط الناس ، فقال : مُطِرُوا إذًا ، بمعنى : إن الفرج عند الشدة .

واختلف المتأَولون في قوله تعالى : ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ _ فقالت فرقة : أَراد بالرحمة المطر ، وعدَّد النعمة بعينها بلفظين الثاني منهما يؤكد الأَول ، وقالت فرقة : الرحمة في هذا الموضع : الشمس ، فذلك تعديد نعمة غير الأُولى ، وذلك أَن المطر إذا أَلمَّ بعد القنط حسُن موقعه ، فإذا دام سُئِم فتجيءُ الشمس بعده عظيمة الموقع . وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أَي : مَن هذه أَفعاله فهو الذي ينفع إذا والى ، وتُحمد أَفعاله ونعمه ، لا كالذي لا يضر ولا ينفع من أَوثانكم .

ثم ذكر تعالى الآية الكبرى ، والصنعة الدالة على الصانع ، وذلك خلقه السموات والأَرض ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ يتخرج على وجوه : منها أَن يريد أَحدهما فيذكر الاثنين ، كما قال

تبارك وتعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾(١)، وذلك إنما يخرج من الملح وحده ، ومنها أَن يكون تعالى قد خلق السموات وبثَّ دوابَّ لا نعلمها نحن ، ومنها أَن يريد الحيوانات التي توجد في السحاب وقد تقع أَحياناً كالضفادع ونحوها ، فإن السحاب داخل في اسم السماء ، وحكى الطبري عن مجاهد أَنه قال في تفسير ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دابَّةٍ ﴾ هم الناسُ والملائكة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبعيد غير جارٍ على عُرف اللغة أَن تقع الدابة على الملائكة .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ ﴾ يريد : يوم القيامة عند الحشر من القبور .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ ، قرأَ جمهور القراءِ : [فَبِمَا] بفاءٍ ، وكذلك هي في جُلِّ المصاحف ، وقرأَ نافع ، وابن عامر ، وأَبو جعفر ، وشيبة : [بِمَا] دون فاءٍ ، وحكى الزجاج أَن أَبا جعفر وغيره(٢) من المدنيين أَثبت الفاءَ ، قال أَبو علي الفارسي : [أَصَابَ] من قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَ ﴾ يحتمل أَن تكون في موضع

(١) الآية (٢٢) من سورة (الرحمن) .
(٢) في بعض النسخ : « أن أبا جعفر وحده » .

جزم وتكون [ما] شرطية ، وعلى هذا لا يجوز حذف الفاءِ عند سيبويه ، وجوَّز حذفها أَبو الحسن الأَخفش وبعض البغداديين على أَنها مُرادة في المعنى(١) ، ويحتمل أَن يكون قوله : [أَصابَ] صِلَةً لـ[مَا] ، وتكون [مَا] بمعنى « الذي » ، وعلى هذا يجوز حذف الفاءِ وثبوتها ، لكن معنى الكلام مع ثبوتها بالتلازم ، أَي : لولا كَسْبُكُم لما أَصابتكم مصيبة ، والمصيبة إنما هي بسبب كسْب الأَيدي ، ومعنى الكلام مع حذفها يجوز أَن يكون التلازم ، ويجوز أَن يُعَرَّى منه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَما في هذه الآية فالتلازم مطرد مع الثبوت والحذف ، وأَما معنى الآية فاختلف الناس فيه - فقالت فرقة : هي إِخبارٌ من الله تعالى ، فإِن الرزايا واالمصائب في الدنيا إنما هي مجازاة من الله تعالى على ذنوب المرءِ ، وتمحيص لخطاياه ، وإِنَّ الله تعالى يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يصيب ابن آدم خدش عود أَو عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو عنه أَكثر)(٢) ، وقال عمران بن حصين وقد سئل عن مرضه : « إِنَّ أَحبَّه

---

(١) ودليلهم على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ بدون فاءٍ في [إِنَّكُمْ] .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور ، وهناد ، وعَبْد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن الحسن البصري رضي الله عنه ، ولفظه كما في الدر المنثور : قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: =

إليَّ أَحبَّه إلى الله تعالى ، وهذا مما كسبت يداي ، وعفو ربِّي سبحانه كثير » ، وقال مُرَّة الهمذاني : رأيت على ظهر كف شريح قُرْحة ، فقلت ما هذا ؟ فقال : « هذا بما كسبت يدي ، ويعفو عن كثير » ، وقيل لأَبي سليمان الداراني : ما بالُ الفضلاءِ لا يلومون من أساءَ إليهم ؟ فقال : لأَنهم يعلمون أَن الله تعالى هو الذي ابتلاهم بذنوبهم ، وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله أكرم من أن يُثَنِّي على عبده العقوبة إذا أَصابته في الدنيا مصيبة بما اكتسبت يداه)(١) ، وقال الحسن بن أَبي الحسن : معنى الآية في الحدود ، أَي : ما أَصابكم من حدٍّ من حدود الله تبارك وتعالى - وتلك مصيبة تنزل بشخص الإنسان ونفسه - فإنما هي بكسب أَيديكم ، ويعفو الله سبحانه عن كثير فيستره على العبد حتى لا يُحَدَّ عليه .

ثم أَخبر تعالى عن قُصور ابن آدم وضعفه ، وأَنه في قبضة القدرة ، ولا يعجز طلب ربه عزَّ وجلَّ ، ولا يمكنه الفرار منه .

= (والذي نفسي بيده ما مِنْ خدش عود ، ولا اختلاج عرق ، ولا نكبة حجر ، ولا عثرة قدم إلاَّ بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر) .

(١) أخرج أحمد ، وابن راهويه ، وابن منيع ، وعبد بن حميد ، والحكيم الترمذي ، وأبو يَعْلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ ، وسأُفسِّرها لك ياعلي ، ما أصابك من مرض أو عقوبة أو بلاءٍ في الدنيا فبما كسبت أيديكم ، والله أكرم من أن يُثَنِّي عليكم العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه . (الدر المنثور) .

و « الجواري » : جمع جارية ، وهي السفينة ، وقرأ : [ٱلْجَوَارِي] بالياء نافعٌ ، وعاصمٌ ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، ومنهم من أَثبتها في الوصل ووقف على الراءِ ، وقرأَ أَيضاً عاصم بحذف الياءِ في وصل ووقف ، وقال أَبو حاتم : نحن نُثْبتها في كل حالٍ ، و « الأَعلامُ » : الجبالُ ، ومنه قول الخنساءِ :

وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الْهُـــدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نَـــارُ (١)

ومنه المثل : « إذا قطعن عَلَماً بدا عَلَم » (٢) ، فَجَرْيُ السفن في الماءِ آيةٌ عظيمة ، وتسخير الريح لذلك نعمة منه تعالى ، وهو لو شاءَ أَن يُسْكن الرياح عنها لركدت ، أَي أَقامت وقرَّت ولم يتمَّ منها غرض . وقرأَ

---

(١) هذا البيت مَثَل في الشُّهرة ، وهو من قصيدة مشهورة قالتها الخنساءُ ، وهي أُم عمرو ، تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، ويروى الشطر الأول : (أَغرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ) ، والعَلَم : الجَبَل ، وجمعه أعلام ، وهو موضع الاستشهاد هنا .

(٢) جاء في (مجمع الأمثال) للميداني : « إذا قَطَعْنَا عَلَماً بدا عَلَمٌ » ، الجَبَل يقال له : عَلَم ، أي : إذا فرغنا من أمر حدث أمرآخر » ، هكذا بألف بعد النون في (قَطَعْنَ) .
(وفي المستقصى في أمثال العرب) للزمخشري : « إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَمٌ » هو من قول جرير :

أَقْبَلْنَ من ثَهْلانَ أو وَادي خِيَمْ عَلى قلاصٍ مِثْل خيطان السَّلَـــم
إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَـــمْ حتَّى أَنَخْنَاهَا على باب الحَكَمْ
خليفَةِ الحَجَّاج غيْرِ المُتَّهَـــمْ في ضِئْضِئِي المَجْدِ وبُحْبُوحِ الكَرَم

والضمير للأبل ، وكلام الزمخشري أدق وأضبط من كلام الميداني ، وثَهْلان : جبل ، والقلاصُ : جمع قلوص وهي الناقة التي سمنت في سنامها ، وكذلك الجمل ، أو هي الفتيَّة من الإبل ، والضِّئْضِئُ : الأصل ، يقال : هو من ضِئْضِئِ كريم .

أبو عمرو ، وعاصم : [الرِّيحَ] واحدة ، وقرأ : [ٱلرِّياحَ] نافع ، وابن كثير ، والحسن . وقرأ الجمهور : [فَيَظْلَلْنَ] بفتح اللام ، وقرأ قتادة : [فَيَظْلِلْنَ] بكسر اللام . وباقي الآية بَيِّنٌ ، فيه الموعظة ، وتشريف الصبَّار الشكور بالتخصيص ، والصبر والشكر فيهما الخير كله ، ولا يكونان إلَّا في عالِمٍ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أَوْبَقتُ الرجل : إذا أَنشبته في أَمر يهلك فيه ، فالإِيباق في السُّفن هو تغريقها ، والضمير في [كَسَبُوا] هو لركَّابها من البَشَر ، أَي : بذنوب البشر ، ثم ذكر تعالى ثانية ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ مبالغةً وإِيضاحاً ، وقرأَ نافع ، وابن عامر ، والأَعرج ، وأَبو جعفر ، وشيبة :

[وَيَعْلَمُ] بالرفع على القطع والاستئناف ، وحسن ذلك إذا جاءَ بعد الجزاءِ ، وقرأَ الباقون والجمهور : [وَيَعْلَمَ] بالنصب على تقدير (أَن) ، وهذه الواو ونحوها هي التي يسميها الكوفيون «وَاوَ الصَّرْفِ»(١) ؛ لأَن حقيقة واو الصرف هي التي تريد بها عطف فعل على اسمٍ فتقدر (أَنْ) لتكون مع الفعل بتأْويل المصدر فيجيءُ عطفه على الاسم(٢) ، وذلك نحو قول الشاعر :

. . . . تَقَضِّي لُبَانَاتٍ وَيَسْأَمَ سَائِمُ(٣)

---

(١) معنى الصرف أنه كان على جهة فصُرف إلى غيرها فتَتَغَيَّر الإعرابُ لأجل الصرف ، قال ذلك أبو عبيد ، ومثَّل له بقوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ ، وقال : إن العطف لا يعيِّن الاقتران في الوجود كالعطف في الاسم نحو (جاء زيد وعمرو) ، ولو نصب فقيل : (وَعَمْرواً) اقتضى الاقتران ، وكذلك « واو الصرف » تفيد معنى الاقتران . ولذلك أُجمع على النصب في قوله تعالى : ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ ، أي : ويعلم المجاهدين والصابرين معاً .

(٢) نقل أبو حيان الأندلسي هذا الكلام ثم علَّق عليه بقوله : « وليس قوله تعليلا لقولهم : « واو الصَّرف » إنما هو تقدير لمذهب البصريين ، وأمَّا عند الكوفيين فإن « واو الصرف» ناصبة بنفسها لا بإضمار (أن) بعدها » .

(٣) هذا عجز بيت قاله الأعشى من قصيدة له يهجو يزيد بن مسهر الشيباني ، والبيت بتمامه :

لَقَدْ كانَ في حَوْلٍ ثَوَاءٍ ثَوَيْتُـهُ تَقَضِّي لُبَاناتٍ ويَسْأَمَ سَـائِمُ

وهو في الديوان ، وابن الشجري ، وابن يعيش ، وشرح شواهد المغْني ، وكتاب سيبويه ، والثَّواءُ : طول الإقامة ، ثَوَى يَثْوِي ، ولُبانات : جمع لُبانة وهي الحاجة ، وقضاءُ اللُّبانة هو تحقيق الغرض والغاية التي يسعى إليها الإنسان ، وقيل : اللُّبانة : الحاجة من غير فاقة ولكن من هِمَّة ، والسأَمُ : المَلَلُ ، والشاهد فيه أن (تَقَضِّي) اسم بمعنى قضاء ، ولهذا نصبوا الفعل (يَسْأَمَ) ليمكن العطف على الاسم ، ويكون تقدير الكلام : لقد كان في هذا الحول الذي ثويته قضاءُ لُبانات وسآمةُ سائم ، قال هذا في شرح الأخفش ، وقد روي البيت في كتاب سيبويه: (تُقَضَّى لباناتٌ ويَسْأَمُ سائمٌ) على أن (تُقَضَّى) فعل مبني للمفعول =

فكأنه أراد : وسَآمَةُ سائِم ، فتقدر «وأن يسأم» ليكون ذلك بتأويل المصدر الذي هو «سآمة» ، قال أبو علي : حسن النصب إذا كان قبله شرط وجزاءٌ وكل واحد منهما غير واجب .

وقوله تعالى : ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ هو معلومهم الذي أراد أن يعلمه المجادلون في آياته عزَّ وجلَّ ، و «المحيص» : المنْجى وموضع الروغان ، يقال : حاصَ إذا راغ ، وفي حديث هرقل : (فَحاصوا حَيْصَةَ حُمُر الوحش إلى الأَبواب) (١). ثم وعظ تعالى عباده وحقَّر عندهم أَمر الدنيا وشأْنها ، ورَغَّبهم فيما عنده من نعيمهم والمنزلة الرفيعة لديه ، وعظَّم قدر ذلك في قوله تعالى : ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية.

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٢)، وقرأ جمهور القراءِ : [كَبَائرَ] على الجمع ، قال الحسن :

= و (لباناتٌ) نائب فاعل بها ، و (يسأمُ) فعل مرفوع وهو معطوف على (تُقَضَّى) ، ويكون الشاهد هو رفع (يَسْأَمُ) لأنه خبر واجب معطوف على (تُقَضَّى) ، واسم (كان) مضمر فيها ، والتقدير : لقد كان الأمر تقضى لبانات في الحول الذي ثويت فيه ويسأم من أقام فيه لطوله ، وعلى هذا فلا شاهد فيه في بحثنا هنا .

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه البخاري في كتاب بدء الوحي ، وفي تفسير سورة النساء ، وأبو داود ، والترمذي في الجهاد ، وأحمد في مسنده (٢–٧٠ ، ١٠٠) ، عن أبي سفيان بن حرب ، وقد كان في تجارة مع بعض العرب في الشام ، وعلم هرقل بأمره وأمر أصحابه فجمعهم وسألهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، عن أصله ونسبه ودعوته ومبادئه ، واقتنع بها فجمع أهل حمص ، وجمع عظماء الروم ، ثم أمر بدسكرة له فغُلِّقت أبوابها عليهم ، ودعاهم إلى متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما جاء في الحديث (فحاصوا حيصة حُمر الوحش ، فلما رأى هرقل هذا منهم أخبرهم أنه كان يختبرهم) . راجع صفحة ١٢٩ من هذا الجزء .

(٢) فهو في موضع جرٍّ .

هي كلُّ ما تُوُعِّدَ فيه بالنار ، وقال الضحاك : أَو كان فيه حدٌّ من الحدود ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : الكبائر من أَول سورة النساءِ إلى رأْس ثلاثين آية ، وقال علي بن أَبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهم : هي كل ما ختمه الله تعالى بنارٍ أَو غضب أَو لعنة أَو عذاب ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وعاصم(١) : [كَبِيرَ] على الإِفراد الذي هو اسم الجنس ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كبير الإِثم هو الشِّرك والفواحش ، وقال السدي : الزنى ، وقال مقاتل : موجبات الحدود ، ويحتمل أَن يكون [كَبِيرَ] اسم جنس بمعنى « كبائر » فتدخل فيه الموبقات السبع على ما قد تفسَّر من أَمرها في غير هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ حضٌّ على كسر الغضب والتدرب في إطفائه ؛ إذ هو جمرة من جهنم ، وباب من أَبوابها ، وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أَوصني ، قال : (لا تغضب) ، قال : زدني ، قال : (لا تغضب)(٢) ، ومن جاهد هذا العارض من نفسه حتى غلبه فقد كُفي همًّا عظيماً في دنياه وآخرته .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ مدحٌ لكلِّ من آمن بالله تعالى وقبل شرعه ، ومدح تعالى القوم الذين أَمْرهم شورى بينهم

---

(١) أي في رواية أبي بكر عنه ؛ لأن رواية حفص عنه بالجمع [كَبَائِرَ] كما هي ثابتة في المصحف الشريف .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ، والترمذي في البر ، ومالك في حسن الخلق ، وأحمد في مسنده (٥-٣٤ ، ٢-١٧٥ ، ٣٦٢ ، ٣-٤٨٤) ، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي البخاري أنه كرر ذلك مراراً .

لأَن في ذلك اجتماع الكلمة ، والتَّحابُّ واتصال الأَيدي ، والتعاضد على الخير ، وفي الحديث (ما تشاور قوم قط إلَّا هدوا لأَحسن ما بحضرتهم) (١) ، وقوله تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ معناه : في سبيل الله وبرسم الشرع وعلى حدوده في القوام الذي مدحه الله تعالى في غير هذه الآية .

وقال ابن زيد : قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ الآية نزلت في الأَنصار ، والظاهر أَن الله تعالى مدح كلَّ من اتَّصف بهذه الصفة كائناً من كان ، وهل حصل الأَنصار في هذه الصفة إلَّا بعد سبق المهاجرين إليها ؟ رضي الله تعالى عن جميعهم بِمَنِّه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾

مدح الله تعالى في هذه الآية قوماً بالانتصار من البغي ، ورجَّح ذلك قومٌ من العلماءِ ، وقالوا : الانتصار بالواجب تَغْييرُ

(١) قال في الدر المنثور : «أخرج عبد بن حميد ، والبخاري في الأدب ، وابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه ، قال : ما تشاور قوم قط إلاَّ هدوا وأرشد أمرهم ، ثم تلا ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ » ، ومعنى هذا أنه غير مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

منكر ، ومن لم ينتصر مع إمكان الانتصار فقد ترك تغيير المنكر .

واختلف الناس في المراد بالآية بعد اتِّفاقهم على أن من بُغي عليه وظُلم فجائز له أن ينتصر بيد الحق وحاكم المسلمين - فقال مقاتل : الآية في المجروح ينتصف من الجارح بالقصاص .

وقالت فرقة : إنها نزلت في بغي المشرك على المؤمن ، فأَباح الله تعالى له الانتصار منه دون تَعَدٍّ ، وجعل العفو والإصلاح مقروناً بأَجْر ، ثم نسخ جميع ذلك بآية السيف ، وقالت هذه الفرقة - وهي الجمهور - : إن المؤمن إذا بغى على مؤمن وظلمه فلا يجوز للآخر أَن ينتصف منه بنفسه ويُجازيه على ظُلْمه ، مثال ذلك أَن يخون إنسان آخر ، ثم يتمكن الآخر من خيانة الأَول ، فمذهب مالك رحمه الله تعالى أَلَّا يفعل ، وهو مذهب جماعة عظيمة معه ، ولم يروا هذه الآية من هذا المعنى ، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (أَدِّ الأَمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك)(١) ، وهذا القول أَنْزَهُ وأَقرب إلى الله تبارك وتعالى .

---

(١) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، والدارمي في البيوع ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي مسند أحمد عن رجل من أهل مكة يقال له: يوسف ، قال: كنت أنا ورجل من قريش نلي مال أيتام ، قال : وكان رجل قد ذهب منِّي بألف درهم ، قال: فوقعت له في يدي ألفُ درهم ، قال : فقلتُ للقرشي : إنه قد ذهب لي بألف درهم ، وقد أصبت له ألف درهم ، قال : فقال القرشي : حدثني أبي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخُن من خانك) .

وقالت طائفة من أهل العلم : هذه الآية عامَّة في المشركين والمؤمنين ، ومن بُغي عليه وظُلم فجائز له أن ينتصف لنفسه ، ويخون من خانه في المال حتى ينتصر منه ، وقالوا : إن الحديث (ولا تَخُن من خانك) إنما هو في رجل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل يزني بِحُرْمَة من زنى بِحُرْمَتِه ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ذلك يريد به الزنى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكذلك ورد الحديث في معنى الزِّنى ، ذكر ذلك الرواة ، أما إنَّ عمومه ينسحب في كل شيءٍ .

وقوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ ، قال الزجاج : سمَّى العقوبة باسم الذنب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا إذا أخذنا السيئة في حق الله تعالى بمعنى المعصية ، وذلك أن المجازاة من الله تعالى ليست سيئة إلَّا إن سُمِّيت باسم موجبتها ، وأمَّا إن أخذنا السيِّئة بمعنى المصيبة (١) في حق البشر ، أي : يسوءُ هذا هذا ويسوؤُه الآخر ، فلسنا نحتاج إلى أن نقول : «سَمَّى العقوبة باسم الذنب» ، بل الفعل الأَول والفعل الآخر سيئة ، وقال ابن أبي نجيح ، والسدي : معنى هذه الآية أن الرجل إذا شُتم بشتمة فله أن

(١) في بعض النسخ : «بمعنى المعصية» ، ولا معنى لها هنا .

يردها بعينها دون أن يتعدى ، وقال الحسن بن أبي الحسن : ما لم تكن حدًّا أو عوراء جدًّا ، واللَّام في قوله : ﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ ﴾ لام التقاء القَسَم(١) . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يريد : من سبيل حَرَج ولا سبيل حُكْم ، وهذا بلاغ في إباحة الانتصار والخلاف فيه ، هل هو بين المؤمن والمشرك أو بين المؤمنين على ما تقدَّم ؟

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

المعنى : إنما سبيل الحكم والإثم على الذين يظلمون الناس ، أي الذين يضعون الأشياء غير مواضعها ، من القتل وأَخْذ المال والأذى باليد

(١) أي اللام التي يُتَلَقَّى بها القَسَم ، والقَسَم قبلها محذوف .

وباللسان ، و «البَغْيُ بغير الحقِّ» هو نوع من أَنواع الظلم خصَّه بالذكر تنبيهاً على شدَّته وسوءِ حال صاحبه ، ثم توعدهم تعالى بالعذاب الأَليم في الآخرة . وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ اعتراض بين الكلامين ، ثم عاد في قوله تعالى : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ إلى الكلام الأَول ، كأَنه تعالى قال : «ولَمَن انتصر بعد ظُلْمه فأُولئك ما عليهم من سبيل، ولمن صبَرَ وَغَفَر» ، واللام في قوله تعالى : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ يصحُّ أَن تكون لام القَسَم ، ويصح أَن تكون لام الابتداءِ ، و [مَنْ] ابتداءٌ ، وخبره في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾(١). و «عَزْمُ ٱلْأُمُورِ» : مُحْكمها ومُتْقنها والحميد العاقبة منها .

ومن رأَى أَن هذه الآية هي فيما بين المؤمنين والمشركين وأَن الصبر للمشركين كان أَفضل قال : إن الآية نُسخت بآية السيف ، ومن رأَى أَن الآية إنما هي بين المؤمنين قال : هي محكمة ، والصبرُ والغفران أَفضل إجماعاً ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : من كان له على الله أَجر فليقم ، فيقوم عُنُق(٢) من

---

(١) وَضَّح أبو حيان في البحر المحيط الإعراب عن ابن عطية ، فقال : « واللام في [وَلَمَنْ] يجوز أن تكون اللام الموطئة للقَسَم المحذوف ، و [مَنْ] شرطية ، وجواب القَسَم قوله : [إنَّ ذَلِكَ] ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القَسَم عليه ، ويجوز أن تكون اللام لامَ الابتداءِ ، و [مَنْ] موصولة مبتدأ ، والجملة المؤكدة بـ [إنَّ] في موضع الخبر » .

(٢) جماعةٌ من الناس .

الناس كثير ، فيقول : ما أجركم؟ فيقولون : نحن الذين عفونا عمَّن ظلمنا في الدنيا) (١) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ تحقير لأمر الكفرة فلا يبالي بهم أحد من المؤمنين ، فقد أصارهم كفرهم وإضلال الله تعالى إيَّاهم إلى ما لا فلاح لهم معه ، ثم وصف تعالى لنبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم حالهم في القيامة عند رؤيتهم العذاب ، فاجتزأ من صفتهم وصفة حالهم بأنهم يقولون : ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ، وهذه المقالة تدل على سوءِ ما اطَّلعوا عليه ، و «الْمَرَدُّ» : موضع الرَّدِّ إلى الدنيا ، والمعنى الذي قصدوه أن يكون ردٌّ فيكون منهم استدراكٌ للعمل والإيمان ، والرؤية في هذا رؤية عين .

والضمير في قوله تعالى : [عَلَيْهَا] عائد على النار ، وعاد الضمير مع أنها لم يتقدم لها ذكر من حيث دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿رَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾ ،

(١) أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه زيادة على ما هنا (وذلك قول الله : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة بإذن الله) . وأخرج مثله ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أنس رضي الله عنه، وأخرج مثله ابن مردويه عن الحسن رضي الله عنه . والأحاديث في حسن الجزاء للعافين عن الناس كثيرة ، وقد سبق الكلام عنها في سورة آل عمران عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ ، (الآية ١٣٤) . راجع الجزء الثالث صفحة ٣٢٧ .

وقوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ يحتمل أن يتعلق بـ [خَاشِعِينَ] ، ويحتمل أن يتعلق بما بعده من قوله تعالى : [يَنْظُرُونَ] ، وقرأ طلحة بن مصرف : ﴿مِنَ ٱلذِّلِّ﴾ بكسر الذال ، و «ٱلْخُشُوعُ» : الاستكانة ، وقد يكون محموداً ، وإنما يخرجه إلى حالة الذَّمِّ قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ ، فيقوى – على هذا – تعلق [مِنْ] بـ [خَاشِعِينَ] .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ يحتمل ثلاثة معان ، قال ابن عباس ومجاهد : [خَفِيٍّ] : ذليل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لمَّا كان نظرهم ضعيفاً ولَحْظُهم بمهانة وُصف بالخفاءِ ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ . . . . (١)

---

(١) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة يهجو بها الراعي النميري ، وقال النقاد القدامى : إنه أهجى بيت قاله شاعر ، والبيت بتمامه :

فَغُضَّ الطَّـرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِـــلابا

وغَضَّ طرفه : خفضه استحياءً وخزياً ، والطَّرْفُ : البصر ، وفي الكامل للمبرد : فَغُضِّ بكسر الضاد ، وفي خزانة الأدب : بالكسر والفتح والضم ، ونُمَيْر وكَعْب وكلاب : قبائل عربية ، وهو يحقِّر الأولى ويذمها ويمدح الأخيرتين ، قال بعد ذلك البيت :

أتَعْدِلُ دِمْنَـــةً خَبُثَتْ وقَلَّتْ إلى فَرْعَيْن قَدْ كَثُرَا وطَـــابا ؟

يريد بالدِّمنة الخبيثة نميْراً ، وبالفرعين الطيِّبين كعباً وكلاباً ، ويستنكر أن تكون هناك مساواة بينها في المكانة والعدد .

وقــال قوم ـ فيما حكى الطبــري ـ : لمَّا كانوا يُحشرون عُمْيــاً وكان نظرهم بعيــون قلوبهم جعله طرْفــاً خفيًّا ، أي لا يبــدو نظرهــم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا التأْويل تكلُّف.

وقال قتادة والسدي : المعنى : يسارقون النظر ، لمَّا كانوا من الهمِّ وسوءِ الحال لا يستطيعون النظر بجميع العين وإنما ينظرون من بعضها قال : ﴿ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أي قليل ، فالطَّرف هنا ـ على هذا التأْويل ـ يحتمل أن يكون مصدراً ، أي : يطرف طرفاً خفيًّا .

و «قول الذين آمنوا» هو في يوم القيامة عندما عاينوا حال الكفار وسوءَ منقلبهم ، و «خُسران الأَهلين» يحتمل أَن يراد به أَهلوهم الذين كانوا في الدنيا ، ويحتمل أَن يراد به أَهلوهم الذين كانوا يكونون لهم في الجنة إن لو دخلوها ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ يحتمل أَن يكون من قول المؤمنين يومئذ ، حكاه الله تعالى ، ويحتمل أَن يكون استئنافاً من قول الله تعالى وإخباره لمحمد صلى الله عليه وسلم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ إنحاءٌ على الأَصنام والأَوثان التي أَظهر الكفار ولايتها ، واعتقدوا ذلك دينا ، المعنى : فما بالهم يُوالون هذه التي لا تضر ولا تنفع ، ولكن من يُضْلِل الله فما له من سبيل هدى ونجاة .

ثم أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يأْمرهم بالاستجابة لدعوة الله تعالى وشريعته ، وحذرهم إتيان يوم القيامة الذي لا يُردُّ أَحدٌ بعده إلى عمل ، والذي لا ملجأً ولا منجى لأَحد فيه ، إلَّا إلَى العِلْم بالله تعالى والعمل الصالح في الدنيا ، فأَخبرهم أنه لا ملجأً لهم ولا نكير ، و « النَّكيرُ » مصدر بمعنى الإنكار ، وهو بمنزلة « عذير

الحيِّ »(١) ونحوه من المصادر ، ويحتمل أن يكون من أَبنية اسم الفاعل من « نَكِرَ » ، وإن كان المعنى يبعد به ؛ لأَن « نكِرَ » إنما معناه : لم يُمَيِّز وظن الأَمر غير ما عَهِدَ.

وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ تأْنيس لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وإزالة لهمِّه بهم ، وأَعلمه أَنه ليس عليه إلّا البلاغ إليهم وتوصيل الحجة ، ثم جاءَت عبارة في باقي الآية هي بمنزلة ما تقول : والقومُ قوم عُتُوٍّ وتناقض أَخلاق واضطرابٍ ، إذا أُذيقوا رحمةً فرحوا بها وبطروا ، وإن تُصِبْهم سيِّئة – أَي مصيبة – تَسُوؤُهم في أَجسادهم أَو في نفوسهم – وذلك بذنوبهم وقبيح فعلهم – فإنهم كُفُرٌ عند ذلك غير صُبُر ، وعبَّر بالإِنسان الذي هو اسم عامٌّ ليدخل في الآية المتقدمة جميعُ الكفرة من المجاورين يومئذ ومن غيرهم ، وجمع الضمير في قوله تعالى : [تُصِبْهُمْ] وهو عائد على لفظ « الإِنسان » من حيث هو اسم جنس يعم كثيراً .

---

(١) قيل : هو بمعنى : هاتِ عُذْراً فيما فَعَلَ ، قال ذو الإصبع العدواني :

عَذيرَ الحَيِّ مِنْ عَدْوا نَ كانوا حَيَّةَ الأَرْضِ
بَغَى بَعْضُهُمُ عَلَى بَعْضٍ فَلَمْ يَرْعَوْا عَلَى بَعْضِ
فَقَدْ أَضْحَوْا أَحَاديثَ بِرَفْعِ القَوْلِ والخَفْضِ

أي : هات عُذْراً فيما فعل بعضهم ببعض من التباعد والتباغض حتى صاروا أحاديث للناس بعد أن كانوا حيَّة الأرض التي يخشاها كل الناس ، وقد ذكر ابن عطية أن « النكير » مصدر مثل « عذير » ونحوه من المصادر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

الآيةُ الأُولى آيةُ اعتبارٍ دالةٌ على القدرة والملك المحيط بالخلق ، وأن مشيئَتَهُ تعالى وجلَّ نافذة في جميع خلقه ، وفي كل أمرهم ، وهذا لا مدخل لصنم فيه ، فإن الذي يخلق ما يشاءُ ويخترع إنما هو الله سبحانه ، وهو الذي يُقَسِّم الخلق ، فيهب الإناث لمن شاءَ أن يجعل نَسْلَهُ(١) نساءً ، ويهب الذكور لمن شاءَ على هذا الحدِّ ، أو ينوعهم : مرَّةً يهب ذكراً ، ومرَّة أخرى أُنثى ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ أَوْ

(١) في بعض النسخ : « أن يجعل بنيه نساءً » .

يُزَوِّجُهُمْ ﴾ ، وقال محمد بن الحنفية : يريد بقوله : ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ﴾ التَّوْأَم ، أَي يجعل في بطن زوجاً من الذرية ذكراً وأُنثى . و « العقيم » : الذي لا يُولد له ، وهذا كلُّه مُدبَّر (١) بالعلم والقدرة ، وهذه الآية تقضي بفساد وجود الخنثى المشكل .

وبدأ تعالى في هذه الآية بذكْر الإناث تأْنيساً بهن وتشريفاً لهن ، لِيُتَهَمَّم بصونهن والإحسان إليهن ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : (من ابتلي من هذه البنات بشيءٍ فأَحسن إليهن كنَّ له حجاباً من النار) (٢) ، وقال واثل بن الأَسقع : « من يُمْن المرأة تبكيرها بالأُنثى قبل الذَّكر ؛ لأَن الله تعالى بدأ بالإناث » ، حكاه عنه الثعلبي ، وقال إِسحق بن بشر : نزلت هذه الآية في الأَنبياءِ عليهم السلام ثم عُمِّمت ، فلوطٌ عليه السلام أَبو بنات لم يولد له ذكر ، وإبراهيم عليه السلام ضده ، ومحمد عليه الصلاة والسلام وُلد له الصنفان ، ويحي بن زكريا عليهما السلام عقيم .

---

(١) في بعض النسخ : « وهذا كلُّه مؤيد بالعلم والقدرة » .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ، ومسلم والترمذي في كتاب البر ، وأحمد في مسنده (٦ — ، ٨٨ ، ١٦٦) ، ولفظه كما في مسند أحمد عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : جاءت امرأة ومعها ابنتان لها تسألني ، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة فأعطيتها إياها ، فأخذتها فشقتها اثنتين بين ابنتيها ، ولم تأكل منها شيئاً ، ثم قامت فخرجت هي وابنتاها ، فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثته حديثها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من ابتلي من البنات بشيءٍ فأحسن إليهنّ كُنّ له سِتْراً من النار) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ الآيَةَ .... نزلت بسبب خَوْضٍ كان للكفار في معنى تكليم الله تعالى موسى عليه السلام ونحو ذلك ، ذهبت قريش واليهود في ذلك إلى تجسيم ونحوه ، فنزلت الآية مُبَيِّنَةً صورة تكليم الله تبارك وتعالى عباده كيف هو ، فبيَّن تعالى أنه لا يكون لأَحد من الأَنبياءِ عليهم الصلاة والسلام ولا ينبغي له ولا يمكن فيه أَن يكلِّمه الله تبارك وتعالى إلَّا بأَن يوحي إليه أَحد وجوه الوحي من الإِلهام ، قال مجاهد : والنَّفْثُ في القلب(١) ، وقال النقاش : أَو وحْيٍ في منام ، وقال إبراهيم النَّخَعي : كان من الأَنبياءِ عليهم السلام من يُخَطُّ له في الأَرض ونحو هذا ، أَو بأَن يُسْمعه كلامه دون أَن يعرف هو للمتكلم جهة ولا خبراً كموسى عليه السلام ، وهذا معنى ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ، أَي : من خفاءٍ عن المكلَّم لا يحدُّه ولا يتصوَّر بذهنه عليه ، وليس كالحجاب في الشاهد ، أَو بأَن يرسل إليه مَلَكاً يشافهه بوحي الله تبارك وتعالى .

وقرأَ جمهور القراءِ والناسُ : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ ﴾ بالنصب [فَيُوحِيَ] بالنصب أَيضاً ، وقرأَ نافع ، وابن عامر ، وأَهل المدينة : ﴿ أَوْ يُرْسِلُ ﴾

---

(١) كقوله صلى الله عليه وسلم : (إن روح القدس نَفَثَ في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب) ، رواه ابن حبَّان .

بالرفع [فَيُوحِي] بسكون الياءِ ورفع الفعل ، فأَمَّا القراءَة الأُولى فقال سيبويه : سأَلت الخليل عنها فقال : هي محمولة على «أَنْ» غير التي في قوله تعالى : ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ ؛ لأَن المعنى كان يفسد لو عطف على هذه ، وإنما التقدير في قوله تعالى : [وَحْياً] : إِلَّا أَن يُوحي وحياً» ، وقوله تعالى : ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [مِنْ] متعلقة بفعل يدل عليه ظاهر الكلام ، تقديره : أَوْ يُكَلِّمه من وراءِ حجاب ، ثم عطف تعالى ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ على هذا الفعل المقدر. وأما القراءَة الثانية فعلى أَنَّ [يُرْسِلُ] في موضع الحال أو على القطع ، كأَنه تعالى قال : «أَو هو يرسلُ» ، وكذلك يكون قوله تعالى : ﴿إِلَّا وَحْياً﴾ مصدراً في موضع الحال ، كما تقول : أَتيتُك ركْضاً وعَدْواً ، وكذلك قوله تعالى : ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ في موضع الحال أَيضاً ، كما هو قوله تعالى : ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾(١) في موضع الحال ، وكذلك [مِنْ] وما عملت فيه في هذه الآية أَيضاً ، ثم عطف تعالى قوله : ﴿أَوْ يُرْسِلُ﴾ على هذه الحال المتقدمة ، وفي هذه الآية دليلٌ على أَن الرسالة من أَنواع التكليم ، وأَن الحالفَ المُرْسِلَ حانثٌ إذا حلف أَلَّا يكلم إِنساناً فأَرسل وهو لا ينوي المشافهة وقت يمينه (٢) .

---

(١) الآية (٤٦) من سورة (آل عمران) .

(٢) إنما كان حانثاً لأن الله تعالى سمَّى المُرْسِلَ في الآية : مُكَلِّماً للمُرْسَل إليه ، أما إذا نوى عند الحلف المشافهة فإنه لا يحْنث .

قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ، المعنى : وبهذه الطُّرق ومن هذا الجنس أَوحينا إليك ، أي كالرُّسُل ، و «الرُّوحُ» في هذه الآية : القرآن وهدى الشريعة ، سمَّاه روحاً من حيث يُحيي به البشر والعالم ، كما يحيي الجسد بالروح ، فهذا على جهة التشبيه . وقوله تعالى : ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي واحد من أُمورنا ، ويحتمل أَن يكون «الأَمر» بمعنى الكلام ، و [مِنْ] لابتداءِ الغاية . وقوله تعالى : ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ﴾ توقيف على مقدار النعمة ، والضمير في [جَعَلْنَاهُ] عائد على [ٱلْكِتَابُ] ، و «نَهْدِي» معناه : نُرْشد ، وقرأَ جمهور الناس : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ بفتح التاءِ وكسر الدال ، وقرأَ حوشب (١) : ﴿وَإِنَّكَ لَتُهْدَى﴾ بضم التاءِ وفتح الدال على بناءِ الفعل للمفعول ، وفي حرف أُبَيٍّ : «وَإِنَّكَ لَتَدْعُو» (٢) ، وهي تعضد قراءَة الجمهور ، وقرأَ ابن السميفع ، وعاصم الجحدري : ﴿وَإِنَّكَ لَتُهْدِي﴾ بضم التاءِ وكسر الدال .

وقوله تعالى : ﴿صِرَاطِ ٱللَّهِ﴾ يعني صراط شرع الله تعالى ورحمته ، فبهذا الوجه ونحوه من التقدير أُضيف الصراطُ إلى الله تعالى ، واستفتح

---

(١) وهي أيضاً قراءة عاصم الجحدري ، قال ذلك القرطبي .

(٢) قال النحاس : «وهذا لا يقرأ به ؛ لأنه مخالف للسواد ، وإنما يحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير» .

تعالى القول في الإخبار بصيرورة الأُمور إلى الله تعالى مبالغةً وتخفيفاً وتثبيتاً ، والأُمور صائرة على الدوام إلى الله تعالى ، ولكن جاءت هذه العبارة مستقلة تقريعاً لمن في ذهنه أن شيئاً من الأُمور إلى البشر ، وقال سهل بن أَبي الجعد : احترق مصحف فلم يبق منه إلَّا قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمورُ ﴾ .

كمل تفسير سورة الشورى والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٤٣) سورة الزخرف مكية
وآياتها تسع وثمانون

هذه السورة مكيَّة بإجماع من أهل العلم(١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

(١) ــ وقال مقاتل : « إلاَّ قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ » ، وهي الآية (٤٥) من السورة (الزُّخرف).

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السُّور ، وقوله تعالى : [وَٱلْكِتَابِ] خفض بواو القَسَم ، و [ٱلْمُبِينِ] يحتمل أن يكون من «أبانَ» الذي هو بمعنى «بان» أي ظهر ، فلا يحتاج إلى مفعول ، ويحتمل أن يكون مُعَدّى من «بانَ» ، فهذا لابُدَّ من مفعول تقديره : المُبين الهدى والشرع ونحوه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ معناه : سمَّيناه وصيَّرناه ، وهو إخبارٌ عليه وقع القَسَم ، والضمير في [جَعَلْنَاه] عائد على [ٱلْكِتَاب] ، و [عَرَبِيًّا] معناه : بلسانكم لئلا يبقى لكم عذر ، وقوله تعالى : [لَعَلَّكُمْ] ترجٍّ بحسب معتقد البشر ، أي : إذا أبصر المُبْصر من البشر هذا الفعل منَّا يُرجى منه أن يعقل ويفهم الكلام .

وقوله تعالى : [وَإِنَّهُ] عطف على قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ ، وهذا الإخبار الثاني واقع أيضاً تحت القَسَم ، و «أُمُّ الكِتاب» : اللوح المحفوظ ، وهذا فيه تشريف للقرآن وترفيع ، واختلف المتأولون، كيف هو في «أُمِّ الكتاب» ؟ ـ فقال قتادة ، وعكرمة ، والسدي ، وعطية ابن سعيد : القرآن بأجمعه فيه منسوخٌ ، وكان جبريل صلى الله عليه وسلم ينزل ، وهنالك هو عليٌّ حكيم ، وقال جمهور الناس : إنما في اللوح المحفوظ ذِكْرُهُ ودرجتهُ ومكانتهُ من العُلُوِّ والحكمة ، وقرأ جمهور الناس : ﴿فِي أُمِّ ٱلْكِتَابِ﴾ بضم الهمزة ، وقرأها

بكسر الهمزة يوسف بن عُمَر والي العراق ، وعيسى بن عُمَر (١) .

وقوله تعالى : [أَفَنَضْرِبُ] بمعنى : أَفَنَتْرك ، تقول العرب : أَضربتُ عن كذا وضربتُ إذا أَعرضتَ عنه وتركته ، و «الذِّكْرُ» هو الدعاءُ إلى الله تعالى والتذكيرُ بعذابه والتخويفُ من عقابه ، قال أَبو صالح : «الذكر» هنا أَراد به العذابَ نفسه ، وقال مجاهد ، والضحاك : «الذكرُ» : القرآن ، وقوله تعالى : [صَفْحاً] انتصابه كانتصاب ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ (٢) ، فيحتمل أَن يكون بمعنى العفو والغَفْر للذنب ، فكأَنه تعالى يقول : أَفنترُكُ تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم وغفْراً لإِجرامكم أَنْ كُنْتُمْ ، أَو من أَجْل أَن كنتم قوماً مسرفين ؟ هذا لا يصلح ، وهذا هو قول ابن عباس ، ومجاهد . ويحتمل قوله تعالى : [صَفْحاً] أَن يكون بمعنى : مَغْفُولًا عنه ، أَي نتركه يَمُرُّ (٣) لا تؤخذون بقوله ولا بِتَدَبُّره ، ولا تُنَبَّهون عليه ، وهذا المعنى نظير قول الشاعر :

تَمُرُّ الصَّبَا صفحاً بِساكِنِ ذي الْغَضَى ويَصْدَعُ قَلْبِي أَن يَهُبَّ هُبُوبُها (٤)

---

(١) هو عيسى بن عُمر الأسدي الهَمْداني ، أبو عمرو ، الكوفي القارئ ، مات سنة ست وخمسين ، وليس المراد عيسى بن عمر النحوي ، أو عيسى بن عمر التيمي .

(٢) من الآية (٨٨) من سورة (النمل) .

(٣) في بعض النسخ : « نتركه مهمولاً » ، والمُهْمَلُ من الكلام : المتروك الذي لا يستعمل .

(٤) هذا البيت شاهد هنا على أن معنى [صَفْحاً] : مغفولٌ عنه متروكٌ ، والصَّبَا : ريح مَهَبُّهَا من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار ، وهي مؤنث ، والغَضَى : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب ، وجَمْره يبقى زمناً طويلا لا ينطفئ ، واحدته : غضاة ، =

أي : تَمُرُّ مغفولاً عنها ، فكأَن هذا المعنى : أَفَنَتْرُكُكُم سُدًى ؟ وهذا هو مَنْحى قتادة وغيره ، ومن اللفظة قول كُثَيِّر :

صَفُوحاً فَمَا تَلْقَاكَ إلَّا بَخِيلَـــةً فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتِ (١)

وقرأَ السميط بن عمرو ، والسدوسي : [صُفْحاً] بضم الصاد .

وقرأَ نافع ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ﴾ بكسر الأَلف ، وهو جزاءٌ دلَّ ما تقدم على جوابه ، وقرأَ الباقون ، والأَعرج ، وقتادة : ﴿ أَنْ كُنْتُمْ ﴾ بفتح الأَلف ، بمعنى : من أَجل أَن كنتم (٢) ، وفي قراءَة

= والمراد هنا مكان معيَّن ، سمِّي بذلك لكثرة ما فيه من أشجار الغضى ، والأرض الكثيرة أشجار الغضى يقال لها : غضياءُ ، ويصدع معناه : يشُقُّ ، والصّدْع هو الشّقُّ في الشيء الصلب كالزجاجة والحائط ونحوها ، ومعنى البيت أن ريح الصَّبا تمر على الحبيب في ذي الغضى فلا تؤثر فيه ، أما أنا فإن مجرد هبوبها يحطم قلبي ويشقُّه ، يقارن بين حاله وحال المحبوب ، ويذكر إهماله في حبه وإعراضه عنه .

(١) البيت لكُثَيِّر عزَّة ، وهو في الديوان ، وفي اللسان (صفح) ، قاله يصف امرأةً أعرضت عنه ، قال صاحب اللسان نقلا عن الأزهري : « يقال : صَفَح عنِّي فلان ، أي أعْرض عنِّي مُولِّياً ، ومنه قول كثيِّر » ، فمعنى (صَفُوحا) في البيت : كثيرة الإعراض أو دائمة الإعراض ، وهي لا تَلْقَى أحداً من الرجال إلا بالبخل في المودة وأنس اللقاء . وهذه طبيعتها ، فمن ملَّ منها هذه الصفة ملَّتْه .

(٢) قال الفراءُ في (معاني القرآن) : « وقرأ عاصم والحسن : ﴿ أَنْ كُنْتُمْ ﴾ بالفتح كأنهم أرادوا شيئاً ماضياً ، ومثله ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ ﴾ ، وأنشدوني :

أَتَجْزَعُ أَنْ بانَ الْخَليطُ الْمُـودِّعُ وحبل الصّفا مِن عَزَّةَ الْمُتَقَطِّـعُ ؟

ففي كلٍّ ذلك الكسر والفتح » اهـ بتصرف .

ابن مسعود : «إِذْ كُنْتُمْ» ، و «الإِسْرَافُ» في الآية هو الكفر والضلال البعيد في عبادة غير الله تعالى والتشريك به .

وقوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الآيات تسليةٌ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذِكْرُهُ أُسْوَةٌ له ووعيدٌ لهم وتهديدٌ بأَن يصيبهم ما أَصاب مَن هو أَشد بطشاً منهم ، و «الأَوَّلُونَ» هم الأُمم الماضية كقوم نوح وعادٍ وثمود وغيرهم ، والضمير في قوله تعالى : ﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ظاهره العموم ، والمراد به الخصوص فيمن استهزءُوا ، وإِلَّا فقد كان في الأَولين من لم يستهزئ ، والضمير في [مِنْهُمْ] عائد على قريش ، وقوله تعالى : ﴿وَمَضَى مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ : سَلَفَ أَمرهم وسُنَّتهم وصاروا عبرةً غابر الدهر .

وقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ الآيةَ .... ابتداءُ احتجاج على قريش يوجب عليهم التناقض في أَمرهم ، وذلك أَنهم يُقِرُّونَ أَن الخالق الموجد لهم وللسموات والأَرض هو الله تعالى ، وهم مع ذلك يعبدون أَصناماً ويدعونها آلهتهم ، ومُقتضى جواب قريش أَن يقولوا : خلقهن الله ، فلما ذكر تعالى المعنى جاءَت العبارة عن الله تعالى بـ «العزيز العليم» ليكون ذلك توطئة لما عدد بعد ذلك من أَوصافه التي ابتدأَ الإِخبار بها وقطعها من الكلام الذي حكى معناه عن قريش .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

هذه أوصاف فعل ، وهي نِعَم من الله تعالى على البشر تقوم بها الحجة على كل كافر مشرك بالله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ ليس من قول المسئولين ، بل هو ابتداءُ إخبار من الله تعالى ، وقرأ جمهور الناس : [مِهاداً] ، وقرأ ابن مسعود ، وطلحة ، والأعمش : [مَهْداً] ، والمعنى واحد ، أي يُتَمَهَّد ويُتَصَرَّف فيها ، و «السُّبُل» : الطُّرُق ، و [تَهْتَدُونَ] معناه : في المقاصد من بلد إلى بلد ومِن قُطْر إلى قُطْر ، ويحتمل أن يريد : تهتدون بالنظر والاعتبار .

وقوله تعالى : ﴿نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً﴾ هو المطر بإجماع ، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : [بِقَدَرٍ] ـ فقالت فرقة : معناه : بقضاءٍ

وحتْم في الأَزل ، وقال آخرون : المعنى : بقدر في الكفاية للصَّلاح ، لا إِكثار فيُفْسد ، ولا قِلَّة فيقصر ، بل غيثاً مُغيثاً سيلاً نافعاً ، وقالت فرقة : معناه : بتقدير وتحديد ، أَي : قدراً مَّا معلوماً ، ثم اختلف قائلوا هذه المقالة ـ فقال بعضهم : يُنْزل كل عام ماءً قدراً واحداً ، لا يَفْضُل عامٌ عاماً لكن يكثر مرة هنا ومرة هنا ، وقالت فرقة : بل يُنزل الله تعالى تقديراً ما في عام ، ويُنزل في آخر تقديراً بحسب ما سبق به قضاؤُه لا إِله غيره . و «أَنْشَرْنَا» معناه : أَحْيَيْنَا ، يقال : نَشَرَ الميتُ وأَنشره غيره ، و [بَلْدَةً] اسم جنس ، ووصفها بـ [مَيْتاً] دون ضمير من حيث هي واقعة موقع «قُطْر» ونحوه ؛ إِذ التأْنيث فيها غير حقيقي ، وقرأَ الجمهور : [مَيْتاً] بسكون الياءِ ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع : [مَيِّتاً] بياءٍ مكسورة مشدَّدة ، وهي قراءَة عيسى ابن عمر ، والأُولى أَرجح لِشَبَه لفظها بـ «زوْرٍ وعَدْل» ، فَحَسُن وصف المؤنث بها ، وقرأَ أَكثر السبعة ، والأَعرج ، وأَبو جعفر : ﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ بضم التاءِ وفتح الراءِ ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، وابن وثاب ، وعبد الله بن جُبَيْر ، وعيسى : ﴿ كَذَلِكَ تَخْرُجُونَ ﴾ بفتح التاءِ وضم الراءِ(١) .

---

(١) هذا يوافق ما في كتب القراءَات ، وما في البحر المحيط ، ولكن في القرطبي : ﴿ كَذَلِكَ يَخْرُجُونَ ﴾ بفتح الياءِ ، ولعله خطأ مطبعي .

و «ٱلْأَزْوَاج» : الأنواع من كل شيءٍ ، و [مِن] في قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَامِ﴾ للتبعيض ، وذلك أنه لا يُركب من الأنعام غير الإبل ، وتدخل البغال والخيل والحمير فيما يُركب بالمعنى ، واللام في قوله تعالى : ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ لام الأمر ، ويحتمل أن تكون لام «كي» ، و [مَا» في قوله تعالى : ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ واقعة على النوع المركوب ، والضمير في [ظُهُورِهِ] عائد على النوع الذي وقعت عليه [مَا] ، وقد بَيَّنَت آيةٌ أُخرى ما يقال عند ركوب الفُلك وهو ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١) ، وإنما هذه خاصة فيما يركب من الحيوان ، ويقال عند النزول منها : اللّهم أَنزلنا منزلاً مباركاً وأَنت خير المنزلين .

والسُّنَّة للراكب إذا ركب أَن يقول : الحمد لله على نعمة الإسلام ، أَو على النعمة بمحمد عليه الصلاة والسلام ، أَو على النعمة في كل حال ، وقد روى هذا اللفظ علي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، ثم يقول : ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (هود) .

(٢) حديث عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه رواه الإمام أحمد عن علي بن ربيعة ، ورواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي من حديث أبي الأحوص ، وقال الترمذي : حَسَنٌ صحيح ، وزاد النسائي ومنصور عن علي بن ربيعة الوالبي به ، وزاد الإمام السيوطي نسبته إلى الطيالسي ، وعبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ،=

الآية ، وركب أبو مِجلَز لاحق بن حميد وقال : ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي﴾ الآية ، ولم يذكر نعمة ، وسمعه الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال : ما هكذا أُمرتم ، فقال أَبو مجلز : فقلت له : فكيف أقول ؟ قال : قل : الحمد الله الذي هدانا للإسلام ، أَو نحو ذلك ، ثم تقول بعد ذلك : ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي﴾ الآية ، وكان طاوس إذا ركب قال : اللَّهم هذا من منِّك وفضلك ، ثم يقول : ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي﴾ الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإن قدَّرنا أَن ذكْر النعمة بالقاب والتذكُّر بدأ الراكب بـ ﴿سُبْحَان ٱلَّذِي﴾ ، وهو يرى نعمة الله تعالى في ذلك وفي سواه ، و «الْمُقْرِنُ» : الغالبُ الضابطُ المستولي على الأَمر المُطيق له ، وقد روي أَن بعض الأَعراب ركب جملاً فقيل له قل : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ، فقال : أَما والله إنِّي لَمُقْرِنٌ تيَّاهٌ ، فضرب به الجمل فوقصه فقتله .

= والحاكم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، والحديث كما ذكره السيوطي : عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أُتيَ بدابَّة ، فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال : الحمد لله ، ثلاثاً ، والله أكبر ، ثلاثاً ، سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كُنَّا له مُقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، سبحانك لا إلـهَ إلا أنت ، قد ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك ، فقلت : مِمَّ ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كما فعلت ثم ضحك ، فقلت : يا رسول الله مِمَّ ضحكت ؟ فقال : يعجب الربُّ من عبده إذا قال ربِّ اغفر لي ، ويقول : علِم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ أَمْرٌ بالإقرار بالبعث وترداد القول به ، وذلك داعية إلى استشعار النظر فيه ، ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان إذا ركب ولم يقل ما في هذه الآية جاءَ الشيطانُ فقال له : تَغَنَّه ، فإن كان يحسن تَغَنَّى ، وإلَّا قال له : تَمَنَّه ، فيتمنى الأَباطيل ويقطع زمنه بذلك(١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

الضمير في [جَعَلُوا] لكفار قريش والعرب ، والضمير في [لَهُ] لله تعالى ، و « الجُزْءُ » : القطع من الشيءِ ، وهو بعض الكلِّ ، فكأَنهم جعلوا جزءًا من عباده نصيباً له وحظًّا ، وذلك في قول مجاهد وكثير

(١) ذكر القرطبي هذا الحديث مختصراً عما هنا ، وقال : « رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد » ، ثم قال : « ذكره النحاس » .

من المتأَولين قولُ العرب : الملائكة بناتُ الله ، وقال بعض أَهل اللغة : الجزءُ : الإناثُ ، يقال : أَجْزَأَتِ المرأَةُ إذا ولدت أُنثى ، ومنه قول الشاعر :

إنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يوْماً فَـلَا عَجَبٌ قَدْ تُجْزِئُ الحُرَّةُ المِذْكَارُ أَحْيَاناً(١)

وقد قيل : إن هذا البيت موضوع ، وقال قتادة : المراد بالجزءِ الأَصنامُ وفرعون وغيره ممن عُبد من دون الله ، أَي جُزْءًا نِدًّا ، فَعَلَى هذا فتعنيف الكفرة في فصلين : في أَمر الأَصنام ، وفي أَمر الملائكة . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أَتى بلفظ الجنس العام والمراد بعض الإنسان وهو هؤلاء الجاعلون ومن أَشبههم ، و [مُبينٌ] في هذه الآية غير مُتَعَدٍّ(٢).

---

(١) هذا بيت من الشعر يسوقه ابن عطية للاستشهاد به على أن الجُزْء يكون بمعنى : الإناث ، والبيت في اللسان ، جاء فيه : « قال أبو إسحق : وقد أنشدتُ بيتاً يدل على أن معنى « جُزْءًا » معنى الإناث ، ولا أدري البيت هو قديم أمْ مصنوع » ، وكان الزمخشري صريحاً قاطعاً في نفي البيت ، قال : « ومن بِدَع التفاسير تفسير الجُزْءِ بالإناث ، وادعاءُ أن الجُزْء في لغة العرب اسم للإناث ، وما هو إلاَّ كذبٌ على العرب ، ووضع مستحدث متحول ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه : أجزأت المرأة ، ثم صنعوا بيتاً وبيتاً :

إنْ أجزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْماً فَـلا عَجَبٌ قَدْ تُجْزِئُ الحُرَّةُ المِذْكارُ أحْيَانـاً

زُوِّجْتُهَا مِن بَنَاتِ الأوْسِ مُجْزِئَةً للعَوْسَجِ اللَّدْنِ في أبْيَاتِهَا زَجَلُ

وابن عطية يذكر أيضاً أنه قد قيل إن البيت مصنوع . ومعنى البيت أن الحُرَّة قد تلد البنات ولا عجب في ذلك ، ومعنى البيت الثاني أنه تزوج امرأة من بنات الأوس تلد البنات ، وتغزل بمغازل سوِّيت من شجر العوسج .

(٢) قال أبو حيان : « وليس يتعين ما ذكره ، بل يجوز أن يكون معناه ظاهراً لكفران النعم ومظهراً لجحوده » .

وقوله تعالى : ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ إضرابٌ وتقرير ، وهذه حجة بالغة عليهم ؛ إذ المحمود من الأَولاد والمحبوب قد خوَّله الله تعالى بني آدم فكيف يتَّخذ هـو لنفسه النصيب الأَدنى ؟ و [أَصْفَاكُمْ] معنـاه : خصَّكم وجعل ذلك لكم صفوة .

ثم قامت الحجة عليهم في هذا المعنى وكانت بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ الآية ، و [مُسْوَدًّا] خبر [ظَلَّ] ، و «ٱلْكَظِيمُ» : الممتلئُ غيظاً قد ردَّ غيظه إلى جوفه فهو يتجرَّعه ويروم ردَّه ، وهذا محسوسٌ عند الغيظ ، ثم زاد توبيخهم وإفساد رأْيهم بقوله تعالى : ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ﴾ ، و [مَنْ] في موضع نصب بفعل يدل عليه [جَعَلُوا] ، كأَنه تعالى قال : أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحلية جعلتم أَو اتخذتم ؟ ويجوز أَن يكون في موضع رفع كأَنه تعالى قال: أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحلية هو الذي خصصتم به الله تعالى ؟ ونحو هذا ، والمراد بـ [مَنْ] النساءُ ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، و [يُنَشَّأُ] معناه : ينبت ويكبر ، وقرأَ جمهور القراءِ : [يَنْشأُ] بفتح الياءِ وسكون النون ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما : [يُنْشأُ] بضم الياءِ وسكون النون على تعدية الفعل بالهمزة ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وعاصم – في رواية حفص– : [يُنَشَّأُ] بضم الياءِ وفتح النون وشد الشين على التعدية بالتضعيف ، وهي قراءة

ابن عباس أَيضاً ، والحسن ، ومجاهد ، وفي مصحف ابن مسعود : «أَوَ مَنْ لَا ينشأُ إِلَّا في الحِلْيَة» ، و «الحِلْيَةُ» : الحلي من الذهب والفضة والأَحجار ، و «الخِصامُ» : المحاجَّة ومجاذبة المحاورة ، وقلَّما تجد امرأَة إِلَّا تفسد الكلام وتخلط المعاني ، وفي مصحف ابن مسعود : «وهو في الكلام غيرُ مبين» ، و [مُبِينٌ] في هذه الآية مُتَعَدٍّ ، والتقدير : غير مُبين غَرَضاً أَو مَنْزَعاً أَو نحو هذا ، وقال ابن زيد : المراد بـ ﴿مَن يُنَشَّأُ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ الآية : الأَصنامُ والأَوثان ؛ لأَنهم كانوا يتخذون كثيراً من الذهب والفضة ، وكانوا يجعلون الحليَّ على كثير منها .

ولما فرغ تَعْنِيفُهم على ما أَتَوْه في جهة الله تعالى بقولهم : «الملائكة بنات الله سبحانه» بيَّن الله تعالى فساد مقالتهم ، فعينها بجهة أُخرى من الفساد ، وذلك شنيع قولهم في عبادٍ لله تعالى مختصين مُقَرَّبين : «إِنهم إِناث» ، وقرأَ أَكثر السبعة ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وابن جبير ، وعلقمة : ﴿عِبَادُ ٱلرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾ ، وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والحسن ، وأَبو رجاءٍ ، وأَبو جعفر ، والأَعرج ، وشيبة ، وقتادة ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه : ﴿عِنْدَ ٱلرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾ ، وهذه القراءَة أَدلُّ على رفعة المنزلة وقُرْبها في التكرمة ، كما قيل : «مَلَكٌ مُقَرَّب» ، وقد تصرَّف المعنيان في كتاب الله تعالى

في الملائكة في غير هذه الآية ، فقال تعالى : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾(١) ، وقال سبحانه في أُخرى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾(٢). وفي مصحف ابن مسعود : «وَجَعَلُوا الملائكةَ عِبَادَ ٱلرَّحْمَنِ إِناثاً» .

وقرأ نافع وحده : [أَأُشْهِدُوا] بهمزتين وبلا مدٍّ بينهما وبفتح الأُولى وضم الثانية وتسهيلها بين الهمزة والواو ، ورواها المفضَّل عن عاصم بتخفيف الهمزتين ، وقرأ المسيِّي عن نافع بمدة بين الهمزتين ، وقرأ أبو عمرو ، ونافع أيضاً ، وعليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد : [أَوُشْهِدُوا] بتسهيل الثانية بلا مَدٍّ ، وقرأ جماعة من القراءِ بتسهيل الثانية ومدَّة بينهما ، وقرأ آخرون : [أُشْهِدُوا] بهمزة واحدة بغير استفهام ، وهي قراءَة الزهري ، وهي في صفة الإِناث ، أَي : أَشهدوا خلقهم ؟ ومعنى الآية التوبيخ وإِظهار فساد دعواهم وأَنها مجردة من الحجة ، وهذا نظير الآية الرَّادة على المُنَجِّمين وأَهل الطبائع في قوله تعالى : ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٣) .

وقرأ جمهور الناس : ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ برفع (شهادة) وبناء الفعل للمفعول ، وقرأ الأَعرج ، وابن عباس ، وأَبو جعفر ، وأَبو حيوة : ﴿سَنَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ﴾ بنون الجمع ، و [شَهَادَتَهُمْ] بالنصب ،

(١) من الآية (٢٦) من سورة (الأنبياء) .
(٢) من الآية (٢٠٦) من سورة (الأعراف) .
(٣) من الآية (٥١) من سورة (الكهف) .

وقرأت فرقة : [سَيَكْتُبُ] على معنى : سيكتب اللهُ شهادتَهم بالنصب ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَاتُهُمْ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول وجمع الشهادات ، وفي قوله تعالى : [وَيُسْأَلُونَ] وعيد مفصح ، و [أَشَهِدُوا] في هذه معناه : أَحَضَرُوا ؟ وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني التي يطلب أَن تُؤَدَّى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ذكر الله تعالى احتجاج الكفار بمذاهبهم ليبيِّن فساد منزعهم ، وذلك أنهم جعلوا إمهال الله تعالى لهم وإنعامه عليهم ـ وهم يعبدون الأَصنام ـ دليلا على أنه يرضى عبادة الأَصنام ديناً ، وذلك كالأَمر

به ، فنفى الله تعالى عن الكَفَرة أن يكون لهم علمٌ بهذا ، وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك ، وإنما هم يظنون ويحدسون ويُخَمِّنون ، وهذا هو الخَرْصُ والتَّخَرُّص .

وقرأ الجمهور : ﴿ عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ بضم الهمزة ، وهي المِلَّة والديانة ، والآية - على هذا - تعيب عليهم التقليد ، وقرأ مجاهد ، والجحدري ، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : ﴿ عَلَىٰٓ إِمَّةٍ ﴾ بكسر الهمزة ، وهي بمعنى النعمة ، ومنه قول الأعشى :

وَلَا الْمَلِكُ النُّعْمَانُ يَوْمَ لَقِيتُـــهُ بإِمَّتِهِ يُعطي القُطُوطَ ويَأْفِـــقُ (١)

ومنه قول عدي بن زيد :

ثمَّ بَعْدَ ٱلْفَـــلَاحِ والْمُلْكِ وَالإِ مَّةِ وَارَتْهُمُ الْقُبُـــــــور(٢)

---

(١) البيت من قصيدته المعروفة التي يمدح بها المحلّق بن خنتم ، والتي يقول في مطلعها : (أَرِقْتُ وما هـٰذا السُّهادُ المُؤَرِّقُ) ، والملك النعمان هو النعمان الثالث أبو قابوس ، والإمّةُ : النعمة ، وهي موضع الاستشهاد هنا ، والقُطُوط : الحظوظ والأنصبة ، واحدها قط بمعنى نصيب ، ويأفِقُ : يُعطي بعضاً أكثر من بعض .

(٢) هو عديُّ بن زيد العبادي ، والبيت من قصيدة له تُعد من روائع الشعر العربي ، وقد بدأها بقوله :

أَرْوَاحٌ مُوَدِّعٌ أَمْ بُكُـــــورُ لك ؟ فاعْمِدْ لأيِّ حالٍ تصـــيرُ

وفيها يصور الحياة وكيف انتهت بالملوك إلى الفناء بعد النعمة والعزة ، يقول : أين كسرى وبنو الأصفر وصاحب الحصن العظيم المسمَّى بالحَضْر ؟ ثم يصل إلى بيت الشاهد فيقول : إنهم بعد الفلاح والمُلْك والعَيْش في غضارة ونعمة قد ذهبوا ووارتهم القبور ، والشاهد أن الإمَّة بكسر الهمزة هي : النعمة وغضارة العيش . هذا والبيت في اللسان .

فالآية - على هذا المعنى - استمرارٌ في احتجاجهم ؛ لأنهم يقولون : وجدنا آباءنا في نعمة من الله تعالى وهم يعبدون الأصنام ، فذلك دليل رضاه عنهم ، وكذلك اهتدينا نحن بذلك على آثارهم ، وذكر الطبري عن قوم أن «الإمَّة» : الطريقة ، من قولك : أَمَمْتُ كذا إِمَّةً .

ثم ضرب الله تعالى المثل لنبيِّه صلى الله عليه وسلم ، وجعل له الأُسوة فيمن مضى من النُّذُر والرُّسل عليهم السلام ، وذلك أن المُتْرفين من قومهم - وهم أهل النِّعَم والمال - قد قابلوهم بمثل هذه المقابلة .

وقرأ جمهور القراء : ﴿قُلْ أَوَ لَوْ﴾ ، والمعنى : قُلْنَا للنذير : «قُلْ أَوَ لَوْ» ، وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿قَالَ أَوَ لَوْ﴾ ، ففي [قَالَ] ضمير يعود على النذير ، وباقي الآية يدلُّ على أن [قُلْ] في قراءة من قرأها ليست بأمرٍ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما هي حكاية لما قيل للنذير (١) ، وقوله تعالى : ﴿أَوَ لَوْ﴾ هي ألف الاستفهام دخلت على واو عطفت جملة كلام على جملة متقدمة ، و [لَوْ] في هذا الموضع كأنها شرطية بمعنى «إن» ، كأن معنى الآية : أَوَ إنْ جِئْتُكُمْ بِأَبْيَن وأوضح مما كان عليه آباؤكم يصحبكم لجاجُكم وتقليدكم ؟ فأجاب الكفار حينئذ لنُذُرهم : ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ .

---

(١) ذكر أبو حيان الأندلسي كلام ابن عطية هذا في البحر المحيط ، ثم علَّق عليه بقوله : «ولا يتعين ما قاله ، بل الظاهر أن الضمير في [قال] أو [قُلْ] للرسول صلى الله عليه وسلم ، أي : قل يا محمد لقومك : أتتَّبعون آباءكم ولو جئتكم بدين هو أهدى من الدين الذي وجدتم عليه آباءكم ؟ وهذا تجهيل لهم حيث يقلِّدون ولا ينظرون في الدلائل» .

وقوله تعالى : ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ الآيَةَ .... وعيدٌ لقريش ، وضربُ مَثَل بمن سلف من الأُمم المعذَّبة المكذِّبة بأَنبيائها ، كما كذبت هي بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقرأ جمهور الناس : ﴿ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ ﴾ ، وقرأ أبو جعفر ، وأبو شيخ [الهَنَائِي] (١) ، وخالد : ﴿ أَوَ لَوْ جِئْنَاكُمْ ﴾ ، وقرأ الأَعمش : ﴿ قُلْ أَوَ لَوْ أُوتِيتُمْ ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المعنى : واذكر إِذْ قال إبراهيم ، ولمَّا ضرب تعالى المثل لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنُّذُر وجعلهم أُسوةً له ، خصَّ إبراهيم عليه السلام بالذِّكر لِعِظَم منزلته ، وذكَّر محمداً عليه الصلاة والسلام بمنابذة إبراهيم عليه السلام لقومه ، أَي : فافعل أَنت فعله ، وتجلَّد تجلُّده ، و [بَرَاءٌ] صفةٌ تجري على الواحد والاثنين والجمع ، كعَدْل وزَوْرٍ .

(١) ما بين العلامتين [......] زيادة للتوضيح وتحديد المراد .

وقرأ جمهور الناس : [بَرَاءٌ] بفتح الباءِ ، وقرأت فرقة : [بُرَاءٌ] بضم الباءِ ، وفي مصحف عبد الله وقراءَة الأعمش : [إِنِّي] بنون واحدة [بَرِيءٌ] ، قال الفراءُ : «ومن الناس من يكتب شكل الهمزة المخففة أَلِفاً في كل موضع ولا يراعي حركة ما قبلها» ، قال : «فربما كان خط مصحف عبد الله بأَلف كما في مصحف الجماعة لكن كان يلفظ بها بكسر الراء.

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ قالت فرقة : الاستثناءُ متصل ، وكانوا يعرفون الله تعالى ويعظمونه ، إِلَّا أَنهم كانوا يشركون معه أَصنامهم ، فكأَن إبراهيم عليه السلام قال لهم : أَنا لا أُوافقكم إِلَّا على عبادة الله الفاطر ، وقالت فرقة : الاستثناءُ منقطع ، والمعنى : لكن الذي فطرني معبودي ، وعلى هذا فلم يكونوا يعبدون الله تعالى لا قليلا ولا كثيراً ، وعلَّل إبراهيم عايه السلام لقومه عبادته لله تعالى بأَنه الهادي المنجي من العذاب ، وفي هذا استدعاءٌ لهم وترغيب لهم في الله تعالى وتطميع في رحمته .

والضمير في قوله تعالى : [وَجَعَلَهَا] قالت فرقة : ذلك عائد على كلمته بالتوحيد في قوله : ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ ، وقال مجاهد ، وقتادة ، والسدي : ذلك مراد به «لَا إِلٰه إِلَّا الله» ، وعاد الضمير عليها وإن كانت

لم يجر لها ذِكر لأَن اللفظ يتضمنها ، وقال ابن زيد : المراد بذلك الإسلام ولفظته ، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾(١) ، وقوله : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾(٣).

و «الْعَقِبُ» : الذُّرِّيَّة وولد الولد ما امتدَّ فرعهم .

وقوله تعالى : ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ الآيَةَ .... كلامٌ متصل بما قبله لأَنه لما قال تعالى : ﴿في عَقِبِهِ﴾ وكانت قريش من عَقِبه اقتضى الكلام أَن يقدر فيه : لكن هؤلاءِ ليسوا ممن بقيت الكلمة فيهم بل متَّعتهم ، والمعنى في الآية : بل أَمهلتُ هؤلاءِ ومتعتهم بالنعمة مع كفرهم حتى جاءَهم الحق ورسول مبين ، وذلك هو شرع الإِسلام والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، و [مَتَّعْتُ] بضم التاءِ هي قراءَة الجمهور ، وقرأَ قتادة : [مَتَّعْتَ] بفتح التاءِ الأَخيرة على معنى : قل يا ربِّ بل متعتَ ، ورواها يعقوب عن نافع ، وقرأَ الأَعمش : ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ وهي تعضد قراءَة الجمهور ، و [مُبِينٌ] في هذه الآية يحتمل التعدي وترك التعدي .

---

(١) من الآية (١٢٨) من سورة (البقرة) .

(٢) الآية (١٣١) من سورة (البقرة) .

(٣) من الآية (٧٨) من سورة (الحج) .

ثم أخبر تعالى عنهم على جهة التقريع بأنهم قالوا للقرآن : هذا سحر ، وأنهم كفروا به ، وإنما جعلوه بزعمهم سحراً من حيث كان عندهم يفرق بين المرء وولده وزوجه ، فجعلوه لذلك كالسحر ، ولم ينظروا إلى الفرق في أن المفارق بالقرآن يفارق عن بصيرة في الدِّين ، والمفارق بالسحر يفارق عن خلل في دينه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)
أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ
وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ
رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن
يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)
وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا
مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾

الضمير في [قَالُوا] لقريش ، وذلك أنهم استبعـدوا أولاً أن يرسل الله تعالى بَشَراً ، فلما تقرَّر أَمْر موسى ، وعيسى ، وإبراهيم عليهم

السلام ولم يكن لهم في ذلك مدفع رجعوا(١) يناقضون فيما يخص محمداً صلى الله عليه وسلم بعينه فقالوا : لم كان محمداً – عليه الصلاة والسلام – ولم يكن نزول الشرع على رجل من إحدى القريتين عظيم ؟ وقدر المبرد قولهم : على رجل من رجلين من القريتين ، والقريتان : مكة والطائف ، ورجل مكة الذي أشاروا إليه ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، وقال مجاهد : هو عتبة بن ربيعة ، وقال قتادة : بلغنا أنه لم يبق فخذ من قريش إلَّا ادعاه ، ورجل الطائف ، قال قتادة : هو عُروة بن مسعود ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : حبيب بن عبد بن عمير(٢)، وقال مجاهد : كنانة ابن عبد يا ليل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما قصدوا إلى من عَظُم ذكره بالسِّن والقِدَم ؛ وإلَّا فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان حينئذ أَعظم من هؤلاءِ لكن لمَّا عظُم أُولئك قبل مُدَّة النبي صلى الله عليه وسلم وفي صباه استمرَّ ذلك لهم .

ثم وقف تعالى – على جهة التوبيخ لهم – بقوله : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ، المعنى : أَعلى اختيارهم وإرادتهم تنقسم الفضائل

---

(١) في بعض النسخ : « جعلوا يناقضون » .

(٢) الصواب : حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي كما جاء في كل التفاسير .

والمكانة عند الله تعالى ؟ و «الرَّحمةُ» اسم يعُمُّ جميع هذا ، ثم أخبر تعالى خبراً جازماً بأَنه تعالى قاسم المعايش والدرجات في الدنيا ليسخر بعض الناس بعضاً ، المعنى : وإذا كان اهتمامنا بهم أَن نقسم هذا الحقير الفاني فالأَحرى أَن نقسم الأَهمَّ الخطير ، وفي قوله تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ تزهيد في السعايات ، وعون على التوكل على الله تعالى ، ولله درُّ القائل :

لمَّا أَتَى «نحن قسمنا بينهم» زال المِرا(١)

وقرأَ الجمهور : [مَعِيشَتَهُمْ] ، وقرأَ ابن مسعود ، والأَعمش : [مَعَايِشَهُمْ] . وقرأَ جمهور الناس : [سُخْرِيًّا] بضم السين ، وقرأَ أَبو رجاءٍ ، وابن محيصن : [سِخْرِيًّا] بكسر السين ، وهما لغتان في معنى التسخير ، ولا مدخل لمعنى الهُزْءِ في هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ، قال قتادة ، والسدي يعني الجنة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

لاشك أَن الجنة هي الغاية ، ورحمة الله تبارك وتعالى في الدنيا بالهداية والإِيمان خير من كل مال ، وهذا اللفظ تحقير للدنيا ، ثم

(١) المِراءُ : الشك والريب ، ويترتب عليهما الجدال .

استمرَّ القول في تحقيرها بقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية ، وذلك أَن معنى الآية أَن الله تعالى أَبقى على عباده وأَنعم بمراعاة بقاءِ الخير والإِيمان وشاءَ حِفْظَهُ على طائفة منهم بقية الدهر ، ولولا كراهية أَن يكون الناس كفاراً كلهم وأَهل حب في الدنيا وتجرُّد لها لوسَّع الله تعالى على الكفار غاية التوسعة ومكَّنهم من الدنيا ؛ إذ حقارتها عنده تقتضي ذلك ؛ لأَنها لا قدر لها ولا وزن لفنائها وذهاب رسومها ، فقوله تعالى : ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ معناه : في الكفر ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والحسن ، والسدي ، ومن هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماءٍ)(١) ، ثم يتركب معنى الآية على معنى هذا الحديث ، واللام في قوله تعالى : ﴿لِمَنْ يَكْفُرُ﴾ لام المِلْك ، واللام في قوله تعالى : [لِبُيُوتِهِمْ] لام تخصيص ، كما تقول : هذا الكِساءُ لزيد لدابته ، أَي : هو لدابَّته حِلْسٌ(٢) ولزيد مِلْك ، قال المهدوي : ودلت هذه الآية على أَن السقف لربِّ البيت الأَسفل ؛ إذ هو منسوب إلى البيوت .

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه ، وابن ماجه ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٢) الحِلْس : كل ما وليَ ظهرَ الدابة تحت الرحل والقَتَب والسَّرج .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تفقُّه واهن .

وقرأ جمهور القراء : [سُقُفاً] بضم السين والقاف ، وقرأ مجاهد : [سُقْفاً] بضم السين وسكون القاف ، وهذان جمعان ، وقرأ ابن كثير ، وأبو جعفر : [سَقْفاً] بفتح السين وسكون القاف على الإفراد ، و «المعارجُ» : الأدراج التي يطلع عليها ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والناس ، وقرأ طلحة : [وَمَعَارِيجَ] بزيادة ياءٍ ، و [يَظْهَرُونَ] معناه : يَعْلون ، ومنه حديث عائشة رضي الله تعالى عنها : (والشمسُ في حجرتها قبل أن تظهر)(١) ، و «السُّرُرُ» جمع سرير ، واختلف الناس في «الزُّخْرُف» — فقال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي : الزُّخْرف : الذهبُ نفسه ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إيَّاكم والحمرة فإنها من أحب الزينة إلى الشيطان)(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت ، ومسلم في المساجد ، وأبو داود ، والدارمي ، ومالك — في الموطأ — في الصلاة ، والحديث طويل كما جاء في البخاري ، وفيه أن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه أخر الصلاة يوماً فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيرة بن شعبة أخر الصلاة يوماً وهو بالعراق فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري يلومه ، وفي آخر الحديث يقول عروة لعمر بن عبد العزيز : ولقد حدثتني عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي العصر والشمس في حُجْرتها قبل أن تظهر .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره بقوله : وذُكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول ... الحديث .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

الحُسْن أَحمر والشهواتُ تتبعه . وقال ابن زيد : الزُّخرفُ : أَثاثُ البيت وما يتخذ له من الستور والنمارق (١) ونحوه ، وقالت فرقة : الزُّخرفُ : التَّزاويق والنقش ونحوه من التَّزيين ، وشاهد هذا القول ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾(٢) . وقرأَ جمهور القراء : ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَا﴾ بتخفيف الميم من [لَمَا] ، فتكون [إِنْ] مخففة من الثقيلة ، واللام في [لَمَّا] داخلة لِتَفْصِلَ بين النفي والإِيجاب ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ، وهشام ـ بخلاف عنه ـ والحسن ، وطلحة ، والأَعمش ، وعيسى : [لَمَّا] بتشديد الميم من [لَمَّا] ، فـ [إِنْ] نافية بمعنى (ما) ، و [لَمَّا] بمعنى (إِلَّا) ، وقد حكى سيبويه : «نشدتك إِنْ لمَّا فعلت» ، وحمله على (إِلَّا) ، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب : «وما ذلك إِلَّا متاع الحياة الدنيا» ، وقرأَ أَبو رجاءٍ : [لِمَا] بكسر اللام وتخفيف الميم ، فـ [مَا] بمعنى (الذي) والعائد عليها محذوف ، والتقدير : وإِنْ كلُّ ذلك لِلَّذي هو متاع الحياة الدنيا ، وفي قوله تعالى : ﴿وَٱلْآخِرَةُ

---

(١) النَّمارق : جمع نُمْرق ، وهي الوسادة الصغيرة يتكأُ عليها ، وفي التنزيل العزيز : ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ .

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (يونس) .

عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وعدٌ كريم وتحريضٌ على التقوى إذ في الآخرة هو التَّبايُن في المنازل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

[مَنْ] في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾ شرطية ، و (عَشَا يَعْشُو) معناه : قلَّ الإبصار ، كالذي يعتري في الليل وكالذي هو الأَعْشَى من الرجال ، يقال : عَشَا الرجلُ يعشو عَشْواً إذا فسد بصره فلم يرَ ، أو لم يرَ إلَّا قليلا ، وقرأ قتادة ، ويحي بن سلام البصري : ﴿وَمَنْ يَعْشَ﴾ بفتح الشين ، وهي من قولهم : عَشِيَ يَعْشَى ، والأكثر عَشَا يَعْشُو ، ومنه قول الشاعر :

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ   تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ(١)

(١) هذا البيت للحطيئة ، أبو مليكة جرول بن أوس — ، وهو من قصيدة له يمدح بها قيس بن شماس ، والبيت في ديوانه ، وفي الكتاب ، ومجالس ثعلب ، وأمالي ابن الشجري ، =

وفي شعر آخر :

. . . . تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً ونَاراً تَـأَجَّجَا (١)

وقرأ الأعمش : «وَمَنْ يَعْشُ عنِ الرَّحْمَنِ» ، وسقط «ذِكْر» ، فالمعنى في الآية : ومن يقل نظره في شرع الله تعالى ويغمض جفونه عن النظر في ذكر الرحمن ، أي فيما ذكَّر به عباده ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل ، ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً﴾ ، أي نُيَسِّر له ، وهذا هو العقاب على الكفر بالحَتْم والطبع وعدم الفلاح ، وهذا كما يقال : إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالتَّزَيُّد في المعاصي ، ويُجازي على الحسنات بالتَّزَيُّد

=وابن يعيش ، والعيني ، واللسان ، والصحاح ، والتاج ، ومجاز القرآن ، وغريب القرآن ، وهو هنا شاهد على أن (تعشو) بمعنى : تضعف عينك فلا ترى إلاَّ قليلا ، وقد نقل صاحب اللسان خلافاً بين الفراء والقتيبي والأزهري في تحديد معنى (يعشو) ، كما نقل رأي أبي عبيدة ، وليس مجاله هنا ، والنحويون يستشهدون بالبيت على أن (تعشو) جاء مرفوعاً لاعتراضه حالاً بين الشرط والجزاء ، وقد وقع كذلك بين مجزومين هما (تأتِ وتَجِدْ) .

(١) هذا عجز بيت لعُبَيْد الله بن الحُرِّ ، والبيت بتمامه :

مَتَى تَأتِنَا تُلْمِمْ بِنَا في دِيارِنَا تَجِدْ حَطَباً جَزْلا وناراً تَأجَّجَا

وهو في كتاب سيبويه ، وخزانة البغدادي ، وفي الهمع ، والأشموني ، وابن يعيش ، والإنصاف ، وقول ابن عطية : «وفي شعر آخر» إشارة مهذبة إلى ما وقع من خطإ في رواية البيت في الطبري ، حيث جاء ببيت مركب من شطرين من بيتين مختلفين ، الصدر فيه من بيت الحطيئة السابق ذكره هنا ، والعجز فيه هو العجز المذكور هنا من شعر ابن الحرِّ ، والصواب ما ذكرناه هنا ، والشاهد في هذا البيت كالشاهد في البيت السابق كما ذكر النحويون ، حيث جزم الفعل (تُلْمِمْ) لأنه بدلٌ من قوله : (تَأتِ) ، ولو أمكن رفعه على تقدير الحال لجاز ، كما رفع الفعل (تَعْشُو) في بيت الحطيئة على حال من وقوعه بين فعلين مجزومين ، بهذا يستشهد النحويون بهذا البيت ، أما هنا فلا شاهد فيه ، وقد ذكره ابن عطية فقط ليبيِّن أنه بيت آخر غير بيت الحطيئة .

في الحسنات ، وقد رُوي هذا المعنى مرفوعاً . وقرأ الجمهور : [نُقَيِّضْ] بالنون ، وقرأ عاصم(١) ، والأعمش ، وأبو عمرو - بخلاف عنه - : [يُقَيِّضْ] بالياء [شَيْطَاناً] ، أي : يُقَيِّض اللهُ ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿يُقيَّضْ لَهُ شَيْطَانٌ﴾ بفتح الياء الثانية وشدها ورفع النون من [شَيْطَانٌ] .

والضمير في [وَإِنَّهُمْ] عائد على الشياطين ، وفي [لَيَصُدُّونَهُمْ] عائد على الكفار ، و «السَّبِيلُ» هي سبيل الهدى والفوز ، والضمير في [يَحْسَبُونَ] للكفار ، وقرأ نافع ، وابن كثير ، وعاصم - في رواية أبي بكر - وابن عامر ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وقتادة ، والزهري ، والجحدري : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَانَا﴾ على التثنية ، يريد العاشي والقرين ، قاله سعيد الحريري ، وقتادة ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، والحسن ، وابن محيصن ، والأعرج ، وعيسى ، والأعمش ، وعاصم (٢) : [جَاءَنَا] ، يريد العاشي وحده ، وفاعل [قَالَ] هو العاشي .

وقوله تعالى : ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها أن يريد : بُعْد المشرق من المغرب ، فسماهما مشرقين ، كما يقال : القمران ، والعُمَران ، قال الفرزدق :

---

(١) أي : في رواية أبي بكر عنه .
(٢) أي : في رواية حفص عنه .

. . . . لَنَا قَمَرَاهَا والنُّجُومُ الطَّوَالِـعُ (١)

والثاني أَن يريد مشرق الشمس في أَطول يوم ومشرقها في أَقصر يوم ، فكأَنه أَخذ نهايتي المشارق ، والثالث أَن يريد : بُعْد المشرقين من المغربين فاكتفى بذكر المشرقين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ الآية .... حكايةٌ عن مقالة تقال لهم يوم القيامة ، وهي مقالةٌ موحشة حَرَمَتْهُم روح التَّأَسِّي ؛ لأَنه يوقفهم بها على أنه لا ينفعهم التَّأَسِّي ، وذلك لِعِظَم المصيبة وطول العذاب واستمرار مدته ؛ إذ التَّأَسِّي راحةٌ لكل مصاب في الدنيا في الأَغلب ، أَلا ترى إلى قول الخنساءِ :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَـوْلِي   عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِـي وَلَـكِنْ   أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بالتَّأَسِّي (٢)

---

(١) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة له في الفخر بآبائه ، والبيت بتمامه :

أَخَذْنا بآفاقِ السمـاءِ عَلَيْكُمُ   لَنَا قَمَرَاهَا والنُّجُومُ الطَّوَالِـعُ

ويريد بالقمريْن الشمسَ والقمرَ ، ثنَّاهما تغليباً ، وهذا هو موضع الشاهد هنا ، والآفاق : جمع أُفق وهو الناحية ، وقد استشهد الفراءُ بهذا البيت في (معاني القرآن) ، والتغليب أن يُجمع بين الاسميْن على تسمية أشهرهما ، وقد كثُر ذلك في العربية ، فمنه ما ذكر هنا وهو القَمَرَان للشمس والقمر ، ومنه العُمَرَان لأبي بكر وعُمر ، والبَصْرتان للبصرة والكوفة ، والعَصْران للغَدَاة والعصر ، قال الفراءُ : وأنشدني رجلٌ من طَيِّئٍ :

فَبَصْرَةُ الأَزْدِ مِنَّا والعِرَاقُ لَنَـا   والمَوْصِلانِ ، ومِنَّا مِصْرُ فالحَـرَمُ

يريد : الجزيرة والموصل .

(٢) هذان البيتان من قصيدة تُعَدُّ من محاسن شعر الخنساء ، وقد قالتها ترثي أخاها صخراً ، ومطلعها :

يُؤَرِّقُني التَّـذَكُّر حينَ أُمسي   فأُصْبِحُ قَدْ بُليتُ بِفَـرْطِ نُكْسِ =

فهذا التأَسِّي قد كفاها مئونة قتل النفس ، فنفى الله تعالى عنهم الانتفاع بالتَّأَسِّي ، وفي ذلك تعذيب لهم ويأسٌ من كل خير ، وفاعل [يَنْفعكُمْ] الاشتراك .

وقرأ جمهور القراءِ : [أَنَّكُمْ] بفتح الأَلف ، وقرأ ابن عامر وحده : [إِنَّكُمْ] بكسر الأَلف ، وقد يجوز أَن يكون فاعل [يَنْفَعكُمُ] التَّبَرُّؤُ الذي يدل عليه قوله : ﴿ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ ، وعلى هذا يكون [أَنَّكُمْ] في موضع نصب على المفعول من أَجله ، وتخرج الآية عن معنى نفي الأُسوة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾
فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا
عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن
قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

= والبيتان غير متوَاليين ، بل بينهما بيتان آخران حذفهما ابن عطية ليصل إلى موضع الاستشهاد ، ومعنى أُعزِّي : أُصبِّر وأُسلِّي ، والتأسي : التَّصبُّر ، قال المبرد : التأسي أن يرى ذو البلاء من به مثل بلائه فيكون قد ساواه فيه فيُسكِّن ذلك من وجْده .

لما ذكر الله تعالى حالة الكفار في الآخرة وما يقال لهم وهم في العذاب اقتضى ذلك أن تُشفق النفوس ، وأن ينظر كل سامع لنفسه ويسعى في خلاصها ، فلما كانت قريش مع هذا الذي سمعت لم تزل عن عُتُوِّها وإعراضها عن أمر الله تعالى رجعت المخاطبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم على جهة التسلية له عنهم ، وشَبَّهَهُم بالصمِّ والعمي إذ كانت حواسهم لا تفيد شيئاً .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يريد بذلك قريشاً بأنفسهم ، ولذلك لم يقل : «أو من كان» ، بل جاء بالواو العاطفة كأنه تعالى يقول : «وهؤلاء» ، ويؤيد ذلك أيضاً عود الضمير عليهم في قوله تعالى : ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ﴾ ، ولم يَجْرِ لهم ذكرٌ إلّا في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَانَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ﴾ الآيَةَ .... آيةٌ تتضمن وعيداً واقعاً ، وذهب جمهور العلماء إلى أن المُتَوَعَّدين هم الكفار ، وأن الله تعالى أرى نبيَّه صلى الله عليه وسلم الذي وعدهم في بدر والفتح وغير ذلك ، وذهب الحسن ، وقتادة إلى أن المُتَوَعَّدين هم في هذه الأُمة ، وأن الله تعالى أكْرم نبيَّه صلى الله عليه وسلم عن أن ينتقم منهم بحضرته وفي حياته فوقعت النقمة منهم بعد أن ذهب به ، وذلك في الفتن

الحادثة في صدر الإسلام مع الخوارج وغيرهم ، وقال الحسن وقتادة : أَكْرَمَ الله تبارك وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم عن أن يرى في أُمته ما يكره كما رأى الأنبياءُ صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم ، فكانت النقمة بعد ذهابه صلى الله عليه وسلم ، وقد رُوي حديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ فقال : (بعلي بن أبي طالب)(١) ، والقول الأول في توعُّد الكفار أكثر .

ثم أمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالتمسُّك بما جاءه من عند الله تعالى من الوحي المَتْلُوِّ وغيره ، و « الصِّراط » : الطريق . وقرأ الجمهور : [أُوحِيَ] على بناءِ الفعل للمفعول ، وقرأ الضحاك : [أَوْحَى] على بناءِ الفعل للفاعل ، أي : أَوْحَى اللهُ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ ﴾ يحتمل أن يريد تبارك وتعالى : وإنَّه لشَرَف وحَمْد في الدنيا - والقوم على هذا - قريش ثم العرب ، وهذا قول ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، والسدي ، وابن زيد ،

---

(١) قال السيوطي في (الدر المنثور) : « أخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ : (نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل ، فإذا قالوا له : لِمَن يكون الأَمر بعدك ؟ سكت ، حتى إذا نزلت هذه الآية فكان إذا سُئل عن ذلك قال : لقريش ، فكانت العرب لا تقبل ذلك حتى قبلته الأَنصار رضي الله عنهم (١) ، وروى ابن عمر رضي الله عنهما أَن النبي صلى الله عايه وسام قال : (لا يزال هذا الأَمر في قريش ما بقي منهم اثنان) (٢) ، وروى أَبو موسى الأَشعري عنه عليه الصلاة والسـلام أَنه قال : (لا يزال هذا الأَمر في قريش ما داموا إذا حكمـوا عـدلوا ، وإذا استُرحمـوا رحموا ، وإذا عاهدوا وفوا ، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أَجمعين) (٣) ، وروى معاوية أَنه صلى الله عليه وسلم قال : (لا يزال

(١) أخرجه ابن عديّ ، وابن مردويه ، عن علي بن أبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام والمناقب ، ومسلم في الإمارة ، عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في أكثر من موضع من مسنده ، عن بكير بن وهب الجزري قال : قال لي أنس بن مالك : أُحدثك حديثاً ما أُحدِّثه كلَّ أحد ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على باب البيت ونحن فيه فقال : (الأئمة من قريش ، إن لهم عليكم حقـّاً ولكم عليهم حقـّاً مثل ذلك ما إن استرحموا رحموا ، وإن عاهدوا وفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) ، وفي رواية أُخرى أنَّ أنَساً قال : «كنا في بيت رجل من الأنصار ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف فأخذ بعضادة =

هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين)(١)، ويحتمل أن يريد تعالى : وإنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ وموعظة ، و «القوم» ـ على هذا ـ أُمَّته بأجمعها ، وهذا قول الحسن بن أبي الحسن ، وقوله تعالى : ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : معناه : عن أوامر القرآن ونواهيه ، وقال الحسن بن أبي الحسن : معناه : عن شكر النعمة فيه : واللفظ يحتمل هذا كله ويعمه .

واختلف المفسرون في المراد بالسؤال في قوله تعالى : ﴿وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ ـ فقالت فرقة : أراد تعالى أن اسأل جبريل عليه السلام ، ذكر ذلك النقاش .

= الباب» ، فليس المقصود إذاً بالبيت ما يتبادر إلى الذهن من أنه الكعبة ، وبدليل قوله في الحديث : «ونحن فيه» .

(١) قال ابن كثير في تفسيره : «أورد الترمذي هنا حديث الزهري ، عن محمد بن جبير ابن مطعم ، عن معاوية رضي الله عنه» ، وبعد أن ذكر الحديث قال : «رواه البخاري» . ونصُّ الحديث كما رواه البخاري في كتاب الأحكام عن الزهري ، قال : كان محمد بن جبير ابن مطعم يُحدِّث أنه بلغ معاوية ـ وهو عنده في وفد من قريش ـ أن عبد الله بن عمرو يُحدِّث أنه سيكون ملك من قحطان ، فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أمَّا بعد فإنه بلغني أن رجالاً منكم يُحدِّثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأولئك جهالكم، فإيَّاكم والأماني التي تضل أهلها ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : : (إن هذا الأمر في قريش ، لا يعاديهم أحد إلاَّ كبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفيه بُعْد ، وقال ابن زيد ، وابن جبير ، والزهري : أراد تعالى : واسأَل الرُّسلَ إذا لقيتهم ليلة الإسراءِ ، أما إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسأَل الرُّسل عليهم السلام ليلة الإسراءِ عن هذا لأَنه صلى الله عليه وسلم كان أثبت يقيناً من ذلك ولم يكن في شك ، وقالت فرقة : أراد تعالى : واسأَلني أو اسْأَلنا عمن أرسلنا ، والأَوْلى - على هذا التأْويل - أن يكون ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ استفهاماً أمره أن يسأَل به ، كأَن سؤاله : يارب من أرسلتَ قَبْلي من رُسُلك؟ أجعلت في رسالته الأَمر بآلهة يُعبدون ؟ ثم ساق السؤال محكيَّ المعنى فردَّ المخاطبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ ، وقال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وعطاءٌ : أراد تعالى : واسْأَل تُبَّاع من أرسلنا وحَمَلَةَ شرائعهم ؛ لأَن المفهوم أنه لا سبيل له إلى سؤاله الرُّسل إلَّا بالنظر في آثارهم وكتبهم وسؤال من حفظها ، وفي قراءَة ابن مسعود ، وأُبيٍّ بن كعب : «واسْأَل الذين أَرْسَلْنا إليهم قبلك رسلنا» ، فهذه القراءَة تؤيد هذا المعنى ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾(١) مفهومٌ أنه لا يسأَل إلَّا أهلها ، ومما ينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى :

---

(١) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف) .

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(١)، فمفهومٌ أَن الرَّدَّ إنما هو إلى كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأَن المحاورة في ذلك إنما هي لِتُبَّاعِهِم وحفظة الشَّرع. وقوله تعالى: [يُعْبَدُونَ] أَخرج الضمير على حدٍّ من يعقل مراعاةً للَفْظ الْآلهة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

هذه آية ضرب مَثَل وأُسوة لمحمد بموسى صلى الله وسلم عليهما، ولكفار قريش بقوم فرعون ومَلَئِه، والآياتُ التي أُرسل بها موسى عليه السلام هي التِّسع وغير ذلك مما جاءت به الروايات، وخصَّ الله تعالى الملأَ بالذكر لأَنهم يَسُدُّون مسدَّ جميع الناس، ثم وصفهم

(١) من الآية (٥٩) من سورة (النساء).

تعالى بالضحك من آيات موسى عليه السلام كما كانت قريش تضحك وتسخرمن أَخبار محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم وصف تعالى صورة عرض الآيات عليهم وأَنها كانت شيئاً بعد شيءٍ ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ عبارة عن شِدَّة موقعها في نفوسهم بِجِدَّة أَمرها وحدوثه ، وذلك أَن أَول آية عرضها موسى عليه السلام هي العصا واليد ، وكانت أَكبر آية ، ثم كل آية بعد ذلك تقع فتعظم عندهم لحينها وتكبر لأَنهم قد كانوا أُنْسُوا التي قبلها بها ، كما قال الشاعر :

عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو الْكُلُــــومَ وَإِنَّمَا تُوَكَّلُ بالأَدْنَى وإنْ جَلَّ مَا يمضِي (١)

وذهب الطبري إلى أَن الآيات هنا هي الحُجَجُ والبيِّنات . ثم ذكر تعالى أَخذهم بالعذاب في القُمَّل والضفادع والدَّم وغير ذلك ، وهذا كما أَخذ قريشاً بالسنين والدخان . وقوله تعالى : [لَعَلَّهُمْ] تَرَجٍّ بحسب معتقد البشر وظنِّهم ، و [يَرْجِعُونَ] معناه : يتوبون ويُقلعون .

---

(١) يستشهد المؤلف بهذا البيت على أن الإنسان قد يُشغل بالأمر الجديد ولو كان هَيِّناً وينسى الأمر القديم ولو كان عظيماً ؛ لأن الجديد له وَقْعُه وحدوثه ولم تعتد عليه النفس بعد ، والكلوم : الجِراح ولعله يريد بها هنا كلَّ ما يؤلم الإنسان حِسيّاً كان أو معنوياً ، وتَعْفُو : تذهب بها وتزيل آثارها ، يقال : عفت الديار إذا درست ، والأدنى : القريب أو الأقل قيمةً أو أثراً ، وَجَلَّ : عَظُم ، والتوكُّلُ بالأمر : الالتزام به والقيام عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلسَّاحِرُ﴾ ، جائز أن يكون قائل ذلك من أعلامهم بكفر السحرة فيكون قوله استهزاءً وهو يعلم قدر السِّحر وانحطاط منزلته ، ويكون قوله : [عِنْدَكَ] بمعنى في زعمك وعلى قولك ، ويحتمل أن يكون القائل ليس من المتمرِّدين الحُذَّاق منهم ، ويطلق لفظ الساحر لأحد وجهين : إمَّا لأن السِّحر كان عند عامَّتهم علم الوقت ، فكأنه قال : يـأيُّها العالم ، وإمَّا لأن هذه الاسْمية قد كانت انطلقت عندهم على موسى عليه السلام لأول ظهوره فاستصحبها هذا القائل في مخاطبته قِلَّة تحرير وغباوة ، ويكون القول ـ على هذا التأْويل ـ جدًّا من القائل ، ويكون قوله : ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ بمعنى : إن نفعتنا دعوتك ، وهذا التأْويل أرجح ، أعني أن كلام هذا القائل مقترنٌ بالجد . وقرأ ابن عامر وحده : [يَـأَيُّهُ] بهاءٍ مضمومة فقط (١) .

ثم أخبر تعالى عنهم أنه سبحانه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ، ولو كان الكلام هزلاً من أوله لما وقع نكث .

---

(١) علَّتها أن الهاء خُلطت بما قبلها وأُلزمت ضمَّ الياء ، والياءُ مضمومة وجوباً لأنها منادى مفرد ، وأنشد الفراءُ على ذلك :

يـأَيُّهُ القَلْبُ اللَّجُـوجُ النَّفس أفِقْ عَن البِيضِ الحِسَانِ اللُّعْسِ

فقد ضم الشاعر الهاء حملا على ضمِّ الياء ، واللُّعْس : جمع لَعْساء ، واللَّعَسُ : سوادٌ مُسْتَحسن في باطن الشَّفة .

قوله عزّ وجلّ :

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

نداءُ فرعون يحتمل أن يكون بلسانه في ناديه ، ويحتمل أن يكون بأن أمر من ينادي في الناس ، ومعنى هذه الحجة التي نادى بها أنه أراد أن يُبَيِّن فضله على موسى عليه السلام ؛ إذْ هو ملك مصر وصاحب الأنهار والنِّعم ، وموسى ـ عليه السلام ـ خاملٌ متعلِّل لا دُنيا له ، قال : فلو أن إلٰه موسى يكون حقًّا كما يزعم لما ترك الأَمر هكذا ، ومِصْر من بحر الإسكندرية إلى أسوان بطول النيل ، والأَنهار التي أشار إليها هي الخلجان الكبار الخارجة من النيل ، وعُظمها نهر الإسكندرية وتَنِّيس ودمياط ونهر طولون(١) .

(١) في بعض النسخ : « ونهر ميزلون » .

وقوله : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ ، قال سيبويه : [أَمْ] هذه المعادلة ، والمعنى : «أفأنتم لا تبصرون أم تبصرون» ؟ فوضع موضع قوله : «أَمْ تبصرون» الأمر الذي هو حقيق أن يُبصر عنده وهو أنه خير من موسى عليه السلام ، و [لَا] ـ على هذا النظر ـ نافية ، وقالت فرقة : المعنى : أفلا تبصرون أم لا تبصرون؟ ثم اقتصر على [أَمْ] لدلالة ظاهر الكلام على المحذوف منه ، وابتدأ قوله : «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» إخباراً منه ، فقوله : ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ـ على هذا النظر ـ بمنزلة «هَلَّا» و «لولا» على معنى التحضيض ، وقالت فرقة : [أَمْ] بمعنى «بلْ» (١) .

وقرأ بعض الناس : ﴿أَما أَنَا خَيْرٌ﴾ ، حكاه الفراءُ (٢) ، وكان مجاهد يقف على [أَمْ] ثم يبتدئ «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» ، قال قتادة : وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب رضي الله تعالى عنه «أَمْ أَنَا خَيْرٌ أم هذا» .

---

(١) هذا رأي السدي وأبي عبيدة ، فيكون المعنى أنه انتقل من هذا الكلام إلى إخباره بأنه خير ممن ذكر ، وهذا كقول الشاعر :

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمسِ في رَوْنَقِ الضُّحَى وصورَتِها ، أم أنتِ في العَيْنِ أَمْلَحُ

(٢) قال الفراء في (معاني القرآن) : «وقد أخبرني بعض المشيخة ـ أظنه الكسائي ـ أنه بلغه أن بعض القراء قرأ : «أمَا أنا خيرٌ» ، وقال لي هذا الشيخ : لو حفظت الأثر فيه لقرأتُ به ، وهو جيد في المعنى» ، وقد علّق الطبري على هذه القراءة فقال : «ولو كانت هذه القراءة قراءة مستفيضة في قراءة الأمصار لكانت صحيحة ، وكان معناها حسناً ، غير أنها خلاف ما عليه قُرَّاءُ الأمصار فلا أستجيز القراءة بها» .

و [مَهِينٌ] معناه : ضعيف ، وقوله : ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إشارة إلى ما بقي في لسان موسى عليه السلام من أَثر الجمرة ، وذلك أَنها كانت أَحدثت في لسانه عقدة ، فلما دعا في أَن تُحَلَّ لِيُفْقَه قولُه أُجيبت دعوته ، لكن بقي أَثر كان البيان يقع معه ، لكن فرعون عَيَّر به ، وقوله : ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ يقتضي أَنه كان يُبين ، وقرأَ أَبو جعفر محمد ابن علي [يَبِينُ] بفتح الياءِ الأُولى .

وقوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ﴾ يريد : من السماءِ تكرمةً له ، وقرأَ الجمهور [أُلْقِيَ] على بناءِ الفعل للمفعول ، وقرأَ الضحاك : [أَلْقَى] بفتح الهمزة والقاف على بناءِ الفعل للفاعل [أَسَاوِرَةً] نصباً ، وقرأَ جمهور القراءِ : [أَسَاوِرَةٌ] ، وقرأَ حفص عن عاصم : [أَسْوِرَةٌ] ، وهي قراءَة الأَعرج ، والحسن ، وقتادة ، وأَبي رجاءٍ ، ومجاهد ، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب : [أَسَاوِرُ] ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : [أَسَاوِيرُ] ، ويقال : سِوَارٌ وإِسْوَارٌ لما يجعل في الذراع من الحلي ، حكى أَبو زيد اللغتين ، وأَبو عمرو بن العلاءِ ، وهو كالْقُلْبِ (١) ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والناس ، وكانت عادة الرجال يومئذ

---

(١) القُلْبُ : السِّوارُ يكون نظماً واحداً . « المعجم الوسيط » .

حَبْس ذلك والتَّزَيُّن(١) به ، و «أَسَاوِرُ» جمع «إِسْوَارٍ» ، ويجوز أن يكون جمع «أَسْوِرَة» كَأَسْقِيَة وَأَسَاقي ، وكذلك «أَسَاوِرَة» جمع «إِسْوَارٍ» والهاءُ في «أَسَاوِرة» عِوَض عن الياءِ المحذوفة ؛ لأَن الجمع إِنَّما هو «أَساوير» كما في مصحف ابن مسعود ، فحذفوا الياءَ وجعلوا الهاءَ عِوَضاً منها ، كما قالوا ذلك في زنادقة وبطارقة (٢) وغير ذلك ، و «أَسْوِرَةٌ» جمع «سِوَارٍ» . وقوله : [مُقْتَرِنِينَ] أي : يحمونه ويشهدون له ويقيمون حجته.

ثم أَخبر تعالى عن فرعون أَنه استخف قومه بهذه المقالة ، أيْ طلب خِفَّتهم وإجابتهم إلى غرضه ، وأَجابوه إلى ذلك وأَطاعوه في الكفر لفسقهم ولِمَا كانوا بسبيله من الفساد .

و [آسَفُونَا] معناه : أَغضبونا ، بلا خلاف ، وإغضاب الله تعالى هو أَن تعمل الأَعمال الخبيثة التي تظهر من أَجلها أَفعاله الدالة على إرادة السوءِ بمن شاءَ ، والغضب ـ على هذا ـ صفة فعل ، وهو مما يتردد ، فإِذا كان مما يظهر من الأَفعال فهو صفة فعل ، وإذا رُدَّ إلى الإِرادة فهو صفة ذات ، وفي هذا نظر .

---

(١) يقال في اللغة : «حَبَّس الشيءَ بالشيء : سَتَره وأحاطه به ، فهو محبوسٌ وحبيسٌ» ، وجاء في بعض نسخ الأصول : «والتَّزَيِّي به» بدلا من «والتَّزَيُّن به» .

(٢) حيث يقال فيهما : «زناديق وزنادقة وبطاريق وبطارقة» .

وقرأ جمهور القراءِ : [سَلَفاً] بفتح السين واللام ، جمع سالف كحارسٍ وَحَرَسٍ ، والسَّلَف هو الفارطُ من الأُمم المتقدمُ ، أي جعلناهم متقدمين للأُمم الكافرة عظةً ومثلاً لهم يعتبرون بهم أو يقعون فيما وقعوا فيه ، ومن هذه اللفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يذهبُ الصالحون أَسلافاً)(١) ، وقوله في ولده إبراهيم عليهما السلام : (ندفنه عند سلفنا الصالح عثمان بن مظعون) ، وقرأ حُميد الأَعرج ، وحمزة ، والكسائي : [سُلُفاً] بضم السين واللام ، وهي قراءة عبد الله وأصحابه ، وسعيد بن عياض ، وابن كثير ، وهو جمع سَلِيف ، وذكر الطبري عن القاسم بن معن أَنه سمع العرب تقول : مضى سليفٌ من الناس ، بمعنى السَّلَف (٢) ، وقرأ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وحُميد الأَعرج أَيضاً : [سُلَفاً] بضم السين وفتح اللام ، كأَنه جمع سُلْفَةٍ بمعنى الأُمة والقطعة (٣) ، و «الْآخِرُونَ» هم من يأْتي مِنَ البشر إلى يوم القيامة .

---

(١) أخرجه الدارمي في كتاب الرقاق ، عن الأسلمي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يذهب الصالحون أسلافاً ويبقى حثالة كحثالة الشعير) .

(٢) قال الفراء : سُلُف جمع سليف نحو سُرُر وسرير ، وقال أبو حاتم : سُلُف جمع سَلَف نحو خُشُب وخَشَب ، وثُمُر وثَمَر .

(٣) نحو غُرْفة وغُرَف ، وطُرْفة وطُرَف ، وظُلْمة وظُلَم . وفي اللسان : جاء القوم سُلْفةً سُلْفة ، إذا جاء بعضهم في أثر بعض .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيره في تفسير هذه الآية أنه لمَّا نزلت : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ الآية (١) ونزل مع ذلك ذكر عيسى عليه السلام وحاله وكيف خُلق من غير فحل ، قالت فرقة : ما يريد محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ذكر عيسى إلَّا أَن نعبده كما عبدت النصارى عيسى ـ عليه السلام ـ ، فهذا كان صدودهم من ضربه مثلا . وقرأَ نافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وأَبو جعفر ، والأَعرج ، والنَّخَعي ، وأَبو رجاءٍ ، وابن وثاب : [يَصُدُّونَ] بضم الصاد بمعنى يُعرضون ، وقرأَ الباقون ، وابن عباس ، وابن جبير ، والحسن ، وعكرمة : [يَصِدُّونَ] بكسر الصاد بمعنى يضجُّون ، قاله

(١) من الآية (٥٩) من سورة (آل عمران) .

ابن عباس وغيره ، وأنكر ابن عباس رضي الله عنهما ضم الصاد ، ورويت عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وقال الكسائي : هما لغتان بمعنى واحد مثل يعرِشون ويعرُشون .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ ابتداءُ معنى ثان ، وذلك أنه لمَّا نزلت : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾(١) جاءَ عبد الله بن الزِّبَعْري ونُظراؤُه ، فقالوا : نحن نخصم محمداً ، أَآلهتنا خير أم عيسى ؟ وعلموا أن الجواب أن يقال لهم : عيسى قالوا : وهذه آية الحصب لنا أَوْ لِكُلِّ الأُمم من الكفار ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (بل لكل من تقدم وتأَخر من الكفار) ، قالوا : نحن نرضى أَن تكون آلهتنا مع عيسى إذ هو خير منها ، وإذْ قد عُبد فهو من الحَصَب إذن ، فقال الله تعالى : ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً﴾(٢) ، أَي : ما مثَّلوا لك هذا التمثيل إلَّا جَدلاً منهم ومغالطة ، ونَسوا أَن عيسى صلى الله عليه وسلم لم يُعبد برضى منه ولا عن إرادة ، ولا له في ذلك ذنب .

---

(١) من الآية (٩٨) من سورة (الأنبياء) .

(٢) أخرج حديث ابن الزِّبعرى هذا أبو داود في ناسخه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه من وجه آخر ابن مردويه ، والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ، وذكره الواحدي في أسباب النزول ، وكذلك ذكره البغوي بدون سند ، وذكره الخازن أيضاً بدون سند ، وعبارات المفسرين تجمع على ذلك .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [أآلِهتُنَا] بهمزة استفهام وهمزة بعدها بيْن بيْن وألف بعدها ، وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي بهمزتين مُحَقَّقَتين بعد الثانية ألف ، وقرأ ورشٌ عن نافع بغير استفهام : [آلِهَتُنَا] على مثال الخبر ، وقرأ قالون عن نافع : [آلِهَتُنَا] بهمزة واحدة بعدها مدَّة ، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب : «خَيْرٌ أَمْ هَذَا» ، فالاشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وخُرِّجت هذه القراءة على التأْويل الأَول الذي فسَّرناه ، وكذلك قالت فرقة ممن قرأ : ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ : إن الإرادة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قول قتادة ، وقال ابن زيد ، والسدي : المراد بـ [هُوَ] عيسى عليه السلام . وهذا هو المترجح .

و «الجِدَالُ» عند العرب : المحاورة بمغالطة أَو تحقيق أَو ما اتفق من القول ، إنما القصد به أَن يَغْلِب صاحبُه في الظاهر لا أَن يتطلَّب الحق في نفسه ، وروى أَبو أُمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلَّا أُوتوا الجدل) ، ثم قرأ : ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً﴾(١) ، قال أَبو أُمامة : ورأَى النبي صلى الله

(١) رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن جرير الطبري ، وزاد الإمام السيوطي في الدر المنثور نسبته إلى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي ، في شعب الإيمان ، عن أبي أُمامة رضي الله عنه .=

عليه وسلم قوماً يتنازعون في القرآن فغضب حتى كأنما صُبَّ على وجهه الخَلُّ ، وقال : (لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، فما ضلَّ قوم إلَّا أُوتوا الجدل)(١). ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم أهل خصام ولَدَد.

وأخبر تعالى عن عيسى عليه السلام أنه عبد أنعم الله عليه بالنُّبوَّة والمنزلة العالية ، وجعله مثلاً لبني إسرائيل ، [وقوله : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ الآية](٢)، أي : لا تستغربوا أن يُخلق عيسى من غير فحل فإن القدرة تقتضي ذلك وأكثر منه .

وقوله تعالى : ﴿لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ معناه : لجعلنا بدلاً منكم ، أي : لو شاءَ الله تعالى لجعل بدلاً من بني آدم ملائكة يسكنون الأرض ويخلفون بني آدم فيها ، وقال ابن عباس ، ومجاهد : يخلف بعضهم بعضاً .

= وقال ابن كثير في تفسيره: « وقد رُوي من وجه آخر عن أبي أُمامة رضي الله عنه بزيادة » ، ثم ذكر أن هذه الرواية هي (ما ضلَّت أُمة بعد نبيِّها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر ، وما ضلَّت أُمة بعد نبيِّها إلا أعطوا الجدل ، ثم قرأ : ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ .

(١) نقله ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير الطبري ، عن جعفر ، عن القاسم ، عن أبي أُمامة رضي الله عنه .

(٢) هكذا وردت الفِقْرَةُ كلها في الأصول ، ونعتقد أن ما وضعناه بين العلامتين [......] زيادة من النساخ لأن النهي عن الاستغراب في خلق عيسى عليه السلام من غير أب مرتبط بقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ ، ولا علاقة لقوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ به ، فهو حديث عن بني آدم ، وأن الله تعالى لو شاء لجعل في الأرض ملائكة بدلا من بني آدم .

والضمير في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ قال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، والضحاك ، وابن زيد : الإشارة به إلى عيسى عليه السلام ، وقالت فرقة : إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال أيضاً الحسن ، وقتادة : إلى القرآن ، وقرأ جمهور الناس : [لَعِلْمٌ] بكسر العين وسكون اللام ، وقرأ ابن عباس ، وأبو هريرة ، وقتادة ، وأبو مالك الغفاري ، ومجاهد ، وأبو نضرة المنذر ابن كعب ، ومالك بن دينار : ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ﴾ بفتح العين واللام ، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿وَإِنَّهُ لَلْعِلْمُ﴾ بلامين ، وقرأ أُبيٌّ بن كعب : «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ للسَّاعَة» ، فمن قال إن الإشارة لعيسى عليه السلام حَسُن مع تأْويله «عِلْمٌ» و «عَلَم» ، أي هو إشعار بالسَّاعة وشَرْط من أشراطها ، يعني خروجه في آخر الزمان ، وكذلك من قال الإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم إذ هو آخر الأَنبياءِ عليهم السلام ، فقد تميزت الساعةُ به نوعاً وقدراً من التمييز وبقي التحديد التام الذي انفرد الله تعالى بعلمه ، ومن قال الإشارة إلى القرآن حَسُن قوله في قراءَة من قرأَ : [لَعِلْمٌ] بكسر العين وسكون اللام ، أَي : يُعلمكم بها وبأَهوالها وصفاتها ، وفي قراءَة من قرأَ : [لَذِكْرٌ] .

وقوله تعالى : ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾ ، أَي : قل لهم يا محمد : لا تشكُنَّ فيها ، وقوله تعالى : ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى الشَّرع ، ثم أَمره بتحذير العباد من الشيطان وإغوائه ، ونبَّههم على عداوته .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

« البَيِّنَاتُ » التي جاءَ بها عيسى عليه السلام هي إحياءُ الموتى وإبْرَاءُ الأكمه والأبرص إلى غير ذلك ، وقال قتادة : الإنجيل (١) ، و « الحِكْمَةُ » : النُّبوَّة ، قاله السدي وغيره .

وقوله تعالى : ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فيهِ﴾ قال أبو عبيدة : [بَعْضَ] بمعنى « كل » ، وهذا ضعيف تردُّه اللغة ، ولا وجه له ولا حجَّة من قول لبيد :

. . . . أَو يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفوسِ حِمَامُهَا (٢)

(١) إلى هنا ينتهي قول قتادة .

(٢) هذا عجز بيت قاله لبيد بن ربيعة العامري ، وهو من معلقته التي أنشدها أمام النابغة فقال له : اذهب فأنت أشعر العرب ، والبيت بتمامه :

تَرَّاكُ أمكِنَةٍ إذا لَمْ أرْضَهَا أوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا =

لأَنه أَراد نفسه ونفس من معه ، وتلك بعض النفوس ، وإنما المعنى الذي ذهب إليه الجمهور أَن الاختلاف بين الناس هو في أُمور كثيرة لا تُحصى عدداً ، منها أُمور أُخروية ودينيَّة ، ومنها مالا مدخل له في الدين ، فكل نبي إنما يبعث ليبيِّن أَمر الأَديان والآخرة ، فذلك بعض ما يختلف فيه ، وقوله تعالى : ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ حكاية عن عيسى عليه السلام إذ أَشار إلى شرعه .

و «الأَحزابُ» المذكورون ، قال جمهور المفسرين : أَراد تعالى : اختلفت بنو إسرائيل وتحزَّبوا ، فمنهم من آمن به وهو قليل ، وكفر الغير ، وهذا إذا كان معهم حاضراً ، وقال قتادة : الأَحزاب هم الأَربعة الذين كان لهم الرأي ، والمناظرة صرفت إليهم في أَمر عيسى عليه السلام ، وقال ابن حبيب وغيره : الأَحزاب : النصارى ،

= ويروى (أو يرتبط) بدلا من (أو يعتلق) ، ويروى أيضاً: (أو يعتقي) ، ويعتقي : يحبس ، وهذا المعنى يفهم أيضاً من (يرتبط) ، والحِمامُ : قضاء الموت وقدره ، وقوله : (بعض النفوس) أراد نفسه لأنها بعض أنفس الناس ، وقال أبو عبيدة : معناه : كل النفوس ؛ لأن الموت لا ينزل ببعض النفوس ولكنه ينزل بالنفوس كلِّها . وفي شرح الزوزني للمعلقات السبع يقول : « إني تراك أماكن إذا لم أرضها إلا أن يرتبط نفسي حمامُها فلا يمكنها البراح ، وأراد ببعض النفوس هنا : نفسه ، هذا أوجه الأقوال وأحسنها ، ومَن جعل بعض النفوس بمعنى كل النفوس فقد أخطأ ؛ لأن (بعضاً) لا يفيد العموم والاستيعاب ، وتحرير المعنى : إني لا أترك الأماكن أجتويها وأقْليها إلاّ أن أموت » ، وبهذا يتضح ما قصده ابن عطية بقوله ردّاً على أبي عبيدة : « ولا وجه له ولا حجة من قول لبيد » . والفعل (يعتلق) في محلّ رفع ، وفي جزمه تأويلات .

افترقت مذاهبهم فيه بعد رفعه عليه السلام ، فقالت فرقة : هو الله ، وهم اليعقوبية ، قال الله عزَّ وجلَّ عنهم : ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾(١) ، وقالت فرقة : هو ابن الله ، وهم النسطورية ، فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾(٢) ، وقالت فرقة : هو ثالث ثلاثة ، وهم الملكانية ، قال الله تعالى فيهم : ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِين قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾(٣) ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ بمعنى : من تلقائهم ومن أنفسهم ثار شرُّهم ولم يدخل عليهم الاختلاف من غيرهم .

والضمير في [يَنْظُرُونَ] لقريش ، والمعنى : ينتظرون ، و [بَغْتَةً] معناه : فجأة دون مقدمة ولا إنذار بها ، ثم وصف تعالى بعض حال القيامة وأنها - لهول مطلعها والخوف المطيف بالناس فيها - يتعادى ويتباغض كل خليل كان في الدنيا على غير تقى ؛ لأنه يرى أن الضرر دخل عليه مِن قِبَل خليله ، وأمَّا المتقون فيرون أن النفع دخل من بعضهم على بعض ، هذا معنى كلام علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم.

---

(١) من الآية (٧٢) من سورة (المائدة) .

(٢) من الآية (٣٠) من سورة (التوبة) .

(٣) من الآية (٧٣) من سورة (المائدة) .

وقوله تعالى : ﴿يا عِبادِ﴾ ، المعنى : يقال لهم ، أي للمتقين ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر : ﴿يَا عِبادِيَ﴾ بفتح الياء ، وهذا هو الأَصل ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿يا عِبَادِي﴾ بسكون الياء ، وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : ﴿يَا عِبَادِ﴾ بحذف الياء ، قال أَبو علي : وحذفها أَحسن لأَنها في موضع تنوين وهي قد عاقبته ، فكما يحذف التنوين في الاسم المفرد المنادى كذلك تحذف الياءُ هنا لسكونها على حرف كما أَن التنوين كذلك ، ولأَنها لا تنفصل عن المضاف كما لا ينفصل التنوين من المُنَوَّن ، وذكر الطبري عن المعتمر (١) ، عن أَبيه أَنه قال : سمعتُ أَن الناس حين يُبعثون ليس منهم أَحدٌ إِلَّا فزع ، فينادي منادٍ : «يا عبادي لا خَوْفٌ عليكم اليَوْم ولَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ» ، فيرجوها الناس كلهم ، قال : ويتبعها «ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتنا وكانُوا مُسْلِمين» ، قال : فَيَيْأَس منها جميع الكفار .

وقرأ الحسن ، والزهري ، وابن أَبي إِسحق ، وعيسى بن عمر ، ويعقوب : ﴿لَا خَوْفَ﴾ بنصب الفاءِ من غير تنوين ، وقرأ ابن محيصن : ﴿لَا خَوْفُ﴾ برفع الفاء من غير تنوين .

---

(١) هو المعتمر بن سليمان التيمي ، أبو محمد ، البصري ، يُلَقَّب بالطفيل ، ثقة ، من كبار التاسعة ، مات سنة سبع وثمانين ، وقد تجاوز الثمانين ، (تقريب التهذيب) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

[ٱلَّذِينَ] نعتٌ للعباد في قوله تعالى : ﴿ يَا عِبَادِ ﴾ ، ثم ذكر تعالى أمره إياهم بدخول الجنة هم وأزواجهم ، و [تُحْبَرُونَ] معناه : تُنَعَّمون وتُسَرُّون ، والحَبرة والحبور : السرور ، و «الأَكوابُ» : ضرب من الأَواني كالأَباريق إِلَّا أَنها لا آذان لها ولا مقابض .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم ، وأَبو جعفر ، وشيبة : ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ ﴾ بإثبات الهاءِ الأَخيرة ، وكذلك في مصحف المدينة ومصاحف الشام ، وقرأ الباقون ، وأبو بكر عن عاصم ، والجمهور: ﴿ مَا تَشْتَهِي ﴾ بحذف الهاءِ ، وكذلك وقع في أَكثر المصاحف ، وحذفها من الصلة لطول القول حسنٌ، وذلك كثير في التنزيل ، كقوله تعالى : ﴿ أَهَذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللهُ رَسُولاً ﴾(١)، وقوله تعالى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ

(١) من الآية (٤١) من سورة (الفرقان) .

ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰ ﴾(١)، وغير ذلك، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ وَتَلَذُّهُ ٱلأَعْيُن» بالهاء فيهما.

وقوله تعالى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليس المعنى أن الأَعمال أَوجبت على الله إدخالهم الجنة، وإنما المعنى أَن حظوظهم منها على قدر أَعمالهم، وأَما نفس دخول الجنة وأَن يكون المرءُ من أَهلها فبفضل الله تعالى وهداه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

لما ذكر الله تعالى حال أَهل الجنـــة وما يقال لهم عقَّب ذلك بذكر حال الكفرة من الخلود في النار والإبلاس؛ ليُبيِّن الفرق ولتتَّضح

(١) من الآية (٥٩) من سورة (النمل)، إذ الأصل فيهما: «بَعَثَه الله» و «الَّذين اصطفاهم».

الأُمور التي منها النِّذارة . و «المجرمون» في هذه الآية : الكفار ؛ بدليل الخلود وما تضمنته أَلفاظ الآية من مخاطبة مالك وغير ذلك ، و «المُبْلِسُ» : المُبْعَد اليائس من الخير ، قاله قتادة وغيره ، وقرأَ ابن مسعود : «وهم فيها مُبْلِسُونَ» ، أَي في جهنم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ ، أَي : ما وضعنا العذاب فيمن لا يستحقه ، ولكن هم ظلموا في أَن وضعوا العبادة فيمن لا يستوجبها ، ووضعوا الكفر والتفريط في جنب الله تعالى . وقرأَ الجمهور : ﴿كَانُوا هُمُ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على الفصل(١) ، وقرأَ ابن مسعود : ﴿كَانُوا هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ على الابتداءِ والخبر ، وأَن تكون الجملة خبر [كَانَ] .

ثم ذكر تعالى عن أَهل النار أَنهم ينادون مالك خازن النار فيقولون – على معنى الرغبة التي هي في صيغة الأَمر – : ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ، أَي : لِيُمِتْنَا مدَّةً حتى لا يتكرر عذابنا ، وقرأَ النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر : ﴿يَا مَالِكُ﴾ (٢) بالكاف ، وهي قراءَة الجمهور ، وقرأَ ابن مسعود ، ويحيى ، والأَعمش : ﴿يَا مَالِ﴾ بالترخيم ، ورويت

---

(١) أي على أن [هُم] ضمير الفصل ، وعلى قراءة ابن مسعود فإن [هُم] مبتدأٌ .

(٢) أخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، وابن الأنباري في المصاحف ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن يَعْلى بن أُمية ، قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ ، وأخرج ابن مردويه عن عليٍّ رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ .

عن علي رضي الله عنه ، ورواها أبو الدرداءِ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم . و «القَضَاءُ» ـ في هذه الآية ـ بمعنى الموت ، كقوله تعالى : ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾(١) ، وروي في تفسيرها عن ابن عباس رضي الله عنهما أن مالكاً يقيم بعد سؤالهم ألف سنة ـ وقيل : ثمانين سنة ، وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه : أَربعين سنة ـ ثم يقول لهم : ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ﴾ الآية ، يحتمل أن يكون من قول مالك لأَهل النار ، ويكون قوله : [جِئْنَاكُمْ] على حدِّ ما يُدْخل أَحَدٌ ـحمَّله الرئيس كتابه ـ نَفْسَه في فعل الرئيس ، فيقول : غلبناكم وفعلنا بكم ونحو هذا ، ثم ينقطع كلام مالك في قوله : [كَارِهُونَ] ، ويحتمل أن يكون قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ﴾ من قول الله تعالى لقريش بعقب حكاية أمر الكفار مع مالك ، وفي هذا توعُّدٌ وتخويف فصيح ، بمعنى : انظروا كيف يكون حالكم ، ثم تتصل الآية ـ على هذا ـ بما بعدها من أمر قريش .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً﴾ يريد : هل أَحكموا أَمْراً من أُمور مكرهم وتدبيرهم على محمد صلى الله عليه وسلم كما فعلوا في

(١) من الآية (١٥) من سورة (القصص) .

اجتماعهم على مثله في دار الندوة إلى غير ذلك ، و [أَمْ] – في هذه الآية – المنقطعة ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ ، أَي : فإِنَّا مُحْكِمُو نصره وحمايته ، و « الإِبْرَامُ » أَن تجمع خيْطيْن ثم تفتلهما فَتْلاً متقناً ، و « البريم » خيط فيه لونان .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ ﴾ الآية ، قال محمد بن كعب القرظي : نزلت لأَن كثيراً من العرب كانوا يعتقدون أَن الله تعالى لا يسمع السرار ، ومنه حديث الثقفي والقرشيَّيْن الذين سمعهم ابن مسعود رضي الله عنه يقولون عند الكعبة : أَترى الله يسمعنا ؟ فقال أَحدهم : يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أَخفينا... الحديث (١) ، فأَخبر الله تعالى في هذه الآية أَنه يسمع – أَي يدرك – السِّرَّ والنجوى ، وأَن رسله الحفظة من الملائكة يكتبون أَعمال البشر مع ذلك ، وتُعَدُّ للجزاء يوم القيامة .

---

(١) أخرجه ابن جرير ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها ، قرشيَّان وثقفيٌّ ، أو ثقفيَّان وقرشي ، فقال واحد منهم : ترون الله يسمع كلامنا ؟ فقال واحد : إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع ، فنزلت : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ ، وقد ذكره النيسابوري في (أسباب النزول) عن أبي منصور البغدادي بسنده عن ابن مسعود في قوله تعالى في سورة (فصلت) : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾ الآية ، وكذلك رواه عن محمد بن عبد الرحمن الفقيه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه .

واختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ﴾ ـ فقالت فرقة : «العابدون» هو من العبادة ، ثم اختلفوا في معنى الآية بعد ذلك ـ فقال قتادة ، والسدي ، والطبري : المعنى : قل لهم يا محمد : إن كان للرحمن ولد ـ كما تقولون ـ فأَنا أَول من يعبد على ذلك ، ولكن ليس له شيءٌ من ذلك تعالى وجلّ ، قال الطبري : هذا إلطاف في الخطاب ، ونحوه قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقوله تعالى في مخاطبة الكفار : ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾(٢) .

وقال مجاهد : المعنى : إن كان لله تعالى ولد في قولكم فأَنا أَول من عبد الله وحده وكذّبكم ، وقال قتادة أَيضاً ، وزهير بن محمد ، وابن زيد : [إنْ] نافية بمعنى «ما» ، فكأَنه تعالى قال : «قُلْ ما كان للرحمن ولدٌ» ، وهنا هو الوقف على هذا التأْويل ، ثم يبتدئ : ﴿فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ﴾ ، قاله أَبو حاتم ، وقالت فرقة : العابدون : من عَبِد

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة (سبأ) .

(٢) تكرر ذلك في الآيات (٢٧) من سورة (النحل) ، و (٦٢) ، (٧٤) من سورة (القصص) ، و (٤٧) من سورة (فصلت) .

الرجلُ إذا أَنف وأَنكر الشيءَ ، قال الشاعر :

مَتَى ما يَشَأْ ذو الوُدِّ يصْرِمْ خَلِيلَهُ وَيَعْبَدْ عَلَيْهِ لا مَحالَةَ ظَالِماً (١)

ومنه حديث عثمان وعلي رضي الله عنهما في المرجومة حين قال علي : وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، قال : فما عَبِد عثمان أَن بعث إِليها لتُرَدَّ (٢) ، والمعنى : إِن جعلتم للرحمن ولداً وكان ذلك في قولكم فأَنا أَول الآنفين المنكرين لذلك .

وقرأَ الجمهور : [وَلَدٌ] بفتح الواو واللام ، وقرأَ ابن مسعود ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش : [وُلْدٌ] بضم الواو وسكون اللام ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن : ﴿أَوَّلُ ٱلْعَبِدِينَ﴾ ، وهي على هذا المعنى ، قال أَبو حاتم : العَبِد – بكسر الباءِ – الشديد الغضب ، وقال أَبو

---

(١) هذا البيت شاهد على أن (عَبِد) تكون بمعنى أَنِف وكَرِه ، فكلمة (يَعْبَد) فيه بمعنى : يأنف ويكره ، ولم أقف على قائل هذا البيت فيما بين يدي من المراجع ، ومعنى (يَصْرِمْ خليله) : يقطع الوُدَّ بينه وبين صديقه . وفي اللسان (عَبَدَ) عن الكسائي في قول الله تعالى : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴾ : أي الآنِفين ، رجلٌ عابدٌ وعَبِدٌ ، وآنِفٌ وأَنِفٌ ، أي الغضاب الآنفين من هذا القول .

(٢) أخرج هذا الخبر ابن جرير الطبري في تفسيره ، عن بعجة بن زيد الجهني ، وفيه أن امرأة منهم دخلت على زوجها ، وهو رجل منهم أيضاً ، فولدت له في ستة أشهر ، فذكر لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، فأمر بها أن ترجم ، فدخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ ، وقال : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ ، قال : فوالله ما عَبِدَ عثمان أن بعث إليها تُرَدُّ ، قال يونس : قال ابن وهب : ما عَبِد : ما استنكف .

عبيدة : معناه : أول الجاحدين ، والعرب تقول : «عَبَدَني حَقِّي» أي جحدني (١) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

لمَّا قال : ﴿فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ﴾ نزَّه الربَّ تعالى عن هذه المقالة التي قالوها ، و [سُبْحَانَ] تنزيه ، وخصَّ السموات والأَرض والعرش لأَنها أعظم المخلوقات ، وقوله تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ مهادنةٌ مَّا وتَرْكٌ وهي منسوخة بآية السيف ، وقرأَ الجمهور : ﴿حَتَّى يُلَاقُوا﴾ ، وقرأَ أَبو جعفر ، وابن محيصن : ﴿حَتَّى يَلْقَوْا﴾ ، وقال الجمهور :

(١) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إعرابيين اختصما إليه ، فقال أحدهما: إن هذا كانت لي في يده أرض ، فعبدنيها ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : الله أكبر ، فأنا أول العابدين الجاحدين أن لله ولداً .

اليوم الذي توعدهم به هو يوم القيامة ، وقال عكرمة وغيره : هو يوم بدر .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ آية حكم بعظمته وإخبارٌ بأُلوهيته ، أَي : هو النافذ أَمره في كلّ شيءٍ . وقرأَ عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وأُبيٌّ بن كعب ، والحكم ابن أَبي العاص ، وجابر بن زيد ، وأَبو شيخ ، وبلال بن أَبي بردة ، ويحيى بن يَعْمَر ، وابن السميفع : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ ٱللَّهُ وَفِي ٱلْأَرْضِ ٱللَّهُ﴾ ، و «الحكيم» : المحكم .

و [تَبَارَكَ] تفاعل ، من البركة ، أَي تزيَّدت بركاته ، و ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ حصر لجميع الموجودات المحسوسة ، و ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ معناه : علم تحديد قيامها والوقوف على تعيينه وحصره ، وهذا هو الذي استأْثر بعلمه ، وإلَّا فنحن عندنا علم الساعة أَنها واقعة ذات أَهوال وصفات مَّا ، والمصدر في قوله تعالى : ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ مضاف إلى المفعول ، وقرأَ أَكثر القراء : ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ بالياء من تحت ، وقرأَ نافع ، وعاصم ، وأَبو عمرو : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء من فوق مضمومة ، وقرأَ الأَسود ، والأَعمش : [يُحْشَرُونَ] بالياء من تحت .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ﴾ الآية مخاطبةٌ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، و [ٱلَّذِينَ] هم المعبودون ، والضمير في [يَدْعُونَ] هو للكفار الذين عبدوا غير الله تعالى ، فأعلم تعالى أَن كلَّ من عُبِد من دون الله فإنه لا يملك شفاعة عند الله يوم القيامة ، وقرأ الجمهور : [يَدْعُونَ] بالياءِ من تحت ، وقرأ ابن وثاب : [تَدْعُونَ] بالتاءِ من فوق. ثم استثنى تعالى من هذا الإِخبار ، واختلف النَّاسُ في المستثنى – فقال قتادة : استثنى ممن عُبد من دون الله عيسى وعُزيراً والملائكة عليهم السلام ، والمعنى : فإِنهم يملكون شفاعةً بأَن يُمَكِّنَهُم الله تعالى إيَّاها ؛ إذ هم ممن شهد بالحق وهم يعلمون في كل أَحوالهم ، فالاستثناءُ – على هذا التأْويل – متصل ، وقال مجاهد وغيره : استثنى في المشفوع فيهم ، كأَنه قال : لا يشفع هؤلاءِ الملائكة وعُزَيْر وعيسى إلَّا فيمن

شهد بالحق وهم يعلمون بالتوحيد ، فالاستثناءُ ـ على هذا التأْويل ـ منفصل ، كأَنه تعالى قال : لكن من شهد بالحق يشفع فيهم هؤلاءِ ، والتأْويل الأَول أَصوب ، والله تعالى أَعلم .

ثم أَظهر تعالى الحجة عليهم من أَقوالهم وإقرارهم بأَن الله تعالى هو خالقهم وموجدهم بعد العدم ، ثم وقفهم ـ على جهة التقرير والتوبيخ ـ بقوله : ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ، أَي : فلأَيٍّ جهة يصرفون ؟ وقرأَ جمهور القراءِ : ﴿وَقِيلَه يا رَبِّ﴾ بالنصب ، وهو مصدرٌ كالقول ، والضمير فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وحكى مكي قولاً أَنه لعيسى عليه السلام ، وهو ضعيف ، واختلف الناسُ في الناصب له ـ فقالت فرقة : هو معطوف على قوله تعالى : ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ ، وقالت فرقة : العامل فيه [يكْتُبُونَ] ، أَي : أَقوالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ وَقِيلَهُ (١) ، وقالت فرقة : الناصب له ما في قوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ من قوة الفعل ، أَي : ويعلم قِيلَهُ ، ونزل قوله تعالى : ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾ بمنزلة : وشكوى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ واستغاثته من كفرهم وعُتُوِّهم ، وقرأَ عاصم ، وحمزة ، وابن وثاب ، والأَعمش : ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾ بالخفض عطفاً على [ٱلسَّاعَةِ](٢) ، وقرأَ الأَعرجُ ، وأَبو قلابة ، ومجاهد :

(١) فهو معطوف على مفعول [يَكْتُبُونَ] .

(٢) قال الزمخشري : « والذي قالوه من العطف ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه . وأقوى من ذلك والوَجْهُ أن يكون النصب والجر على إضمار حرف القَسَم وحذفه » .

﴿وَقِيلُهُ يَا رَبِّ﴾ بالرفع على الابتداء ، والخبر في قوله : ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، أي : قِيلُه هذا القول ، أَو يكون التقدير : وقيلُهُ يا ربِّ مسموعٌ ومُتَقَبَّل، فـ ﴿يَا رَبِّ﴾ ـ على هذا ـ منصوب الموضع بـ [قِيلُهُ] . وقرأ أَبو قُلابة : ﴿يَا رَبَّ﴾ بفتح الباءِ المشددة ، وأَراد : يا رَبَّا ، على لغة من يقول : يا غُلَامَا ، ثم حذف الأَلف تخفيفاً واتباعاً لِخَطِّ المصحف .

وقوله تعالى : ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ موادَعَةٌ منسوخة بآية السيف ، وقوله تعالى : [سَلَامٌ] تقديره : قُلْ أَمري سلامٌ ، أَي مُسَالَمَةٌ ، وقالت فرقة : المعنى : وقل سلامٌ عليكم على جهة الموادعة والمُلاينة ، والنَّسخ قد أَتى على هذا السلام ، سواءٌ كان تحية أَو عبارة عن الموادعة . وقرأَ جمهور القراءِ : [يَعْلَمُون] بالياءِ ، وقرأَ نافع ، وابن عامر ـ في رواية هشام عنه ـ والحسن ، والأَعرج ، وأَبو جعفر : [تَعْلَمُونَ] بالتاءِ من فوق .

كمل تفسير سورة الزخرف والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٤٤) سورة الدخان مكية
وآياتها تسع وخمسون

هذه السورة مكيَّة ، لا أحفظ خلافاً في شيء منها (١).

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا
كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا
مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ
رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾
فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ ﴾

---

(١) قال بعض العلماء : إلاَّ قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًا ﴾ . وهي الآية رقم (١٥) من السورة .

تقدم القول في [حمٓ] ، وقوله تعالى : ﴿وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾ قَسَم أقسم الله تبارك وتعالى به ، و [ٱلْمُبِينِ] يحتمل أن يكون من الفعل المتعدي ، أي يبين الهدى والشرع ونحوه ، ويحتمل أن يكون من غير المتعدي ، أي هو مبين في نفسه ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يحتمل أن يقع القَسَم عليه ، ويحتمل أن يكون ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ في وصف الكتاب فلا يحسن وقوع القَسَم عليه ، وهو اعتراضٌ يتضمن تفخيم الكتاب ويُحَسِّن القَسَم به ، ويكون الذي وقع القَسَم عليه ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ .

واختلف الناسُ في تعيين الليلة المباركة . فقال قتادة ، وابن زيد ، والحسن : هي ليلة القدر ، وقالوا : إنَّ كُتب الله تعالى كلها إنما نزلت في رمضان ، التوراة في أوله ، والإنجيل في وسطه ، والزبور في نحو ذلك ، ونزل القرآن في آخره في ليلة القدر ، ومعنى هذا النزول أن ابتداءَ نزوله كان في ليلة القدر ، وهذا قول الجمهور ، وقالت فرقة : بل أنزله الله تعالى جملة ليلة القدر إلى البيت المعمور ، ومن هناك كان جبريل عليه السلام يتلقاه ، وقال عكرمة وغيره : الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان (١).

---

(١) قال القاضي أبو بكر بن العربي : «وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر ، ومنهم من قال : إنها ليلة النصف من شعبان ، وهو باطلٌ لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع : =

وقوله تعالى : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ معناه : يفصل من غيره ويتخلص ، وروي عن عكرمة في تفسير هذه الآية أن الله تعالى يفصل للملائكة في ليلة النصف من شعبان ، وقال الحسن ، وعمر مَوْلى غفرة ، ومجاهد ، وقتادة : في ليلة القدر يفصل كل ما في العام المقبل من الأَقدار والآجال والأَرزاق وغير ذلك ، ويكتب ذلك لهم إلى مثلها من العام المقبل ، قال هلال بن يساف : كان يقال : انتظروا القضاءَ في شهر رمضان . وروي في بعض الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أَن الرجل يتزوج ويُعَرِّس وقد خرج اسمه في الموتى لأَن الآجال تقطع في شعبان (١)، وقرأَ الحسن ، والأَعرج ، والأَعمش : [يَفْرُقُ] بفتح الياءِ وضم الراءِ ، و [حَكِيمٍ] بمعنى : محكم .

وقوله تعالى [أَمْراً] نصب على المصدر ، و ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ صفة لقوله تعالى : [أَمْراً] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ يحتمل أَن

=﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ ، فنَصّ على أن ميقات نزوله رمضان ، ثم عيّن من زمانه الليل ها هنا بقوله : ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ ، فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفرية على الله ، وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يُعوّل عليه لا في فضلها و لا في نسخ الآجال فيها ، فلا تلتفتوا إليها » .

(١) أخرجه ابن زنجويه ، والديلمي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرج مثله ابن جرير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن الزهري ، عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس . (الدر المنثور) .

يريد الرُّسل والأَنبياءَ عليهم الصلاة والسلام ، ويحتمل أَن يريد الرحمة التي ذَكَرَ بَعْدُ ، وعلى التأْويل الأَول نصب قوله تعالى : [رَحْمَةً] على المصدر ، ويحتمل أَن يكون نصبها على الحال .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ تقرير وتثبيت ، أَي : إن كنت موقناً فهذا يكون يقينك ، كما تقول لإِنسان يقيم نفسه : العلم غرضك إِن كنت رجلا . وقوله تعالى : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَي : مالككم ومالك آبائكم .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر : ﴿رَبُّ ٱلسَّمَوَاتِ﴾ بالرفع على القطع والاستئناف ، وهي قراءَة الأَعرج ، وابن أَبي إِسحق ، وأَبي جعفر ، وشيبة . وقرأَ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بالكسر على البدل من [رَبِّ] المتقدم ، وهي قراءَة ابن محيصن ، والأَعمش ، وأَما قوله تعالى : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ﴾ فالجمهور على رفع الباءِ ، وقرأَ الحسن بالكسر ، ورواها أَبو موسى عن الكسائي .

وقوله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إِضرابٌ قبله نفيٌ مقدر ، كأَنه يقول : ليس هؤلاءِ ممَّن يؤمن ولا ممَّن تنفعه وصاة ، بل هم في شك يلعبون في أَقوالهم وأَعمالهم .

واختلف الناس في الدخان الذي أمر الله تعالى بارتقابه ـ فقالت فرقة منها علي بن أَبي طالب ، وزيد بن علي ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأَبو سعيد الخدري ، والحسن بن أَبي الحسن رضي الله تعالى عنهم : هو دخان يجيءُ مقبل يوم القيامة ، يصيب المؤمن منه مثل الزُّكام ، وينضج رُءُوس المنافقين والكافرين حتى تكون كأَنها مصليَّة حنيذة(١) ، وقالت فرقة منها عبد الله بن مسعود ، وأَبو العالية ، وإبراهيم النَّخَعي : هو الدخان الذي رأَته قريش حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم بسبع كسبع يوسف عليه السلام ، فكان الرجل يرى من الجدب والجوع دخاناً بينه وبين الناس ، وما يأْتي من الآيات يقوي هذا التأْويل ، وقال ابن مسعود : خمسٌ قد مضين : الدُّخان واللِّزام والبَطشة والقمر والرُّوم ، وذكر الطبري حديثاً عن حذيفة أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن أَول آيات الساعة الدخان ، ونزول عيسى بن مريم ، ونارٌ تخرج من قعر عدن)(٢) ، وضعف الطبري سند هذا الحديث ،

(١) المصليَّة : المشويَّة في النار ، والحنيذ : المشوي الذي يسيل منه الدهن ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ .

(٢) الحديث في تفسير الطبري ، وقد رواه عصام بن روَّادٍ ، عن أبيه ، عن سفيان الثوري ، ولفظه أطول مما ذكر ابن عطية هنا ، وقد ذكر الطبري أنه لم يشهد للحديث بالصحة لأن روَّاداً قال : إنه لم يسمعه من سفيان ، ولم يقرأه عليه ، ولم يقرأه أحد من الناس على سفيان =

واختار قول ابن مسعود في الدخان ، ويحتمل - إن صحَّ حديث حذيفة - أن يكون قد مرَّ دخان ، ويأتي دخان آخر .

= بمسمع من روّاد، وإنما حدثه به قوم وعرضوه عليه ، ثم ذهبوا فحدثوا به عنه ، ولهذا اختار الطبري قول ابن مسعود في الدخان ، لكن القرطبي ذكر أن في صحيح مسلم عن أبي الطفيل عن حُذَيفة بن أسيد الغفاري ، قال : اطّلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر ، فقال : (ما تذكرون) ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : (إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات - فذكر - الدخان والدَّجّال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم) ، ونلحظ أن حذيفة الذي ذكر الطبري هو حذيفة بن اليمان ، وهو غير حذيفة بن أسيد المذكور هنا ، وكذلك ذكر القرطبي رواية عن حذيفة - ولم يحدد من هو - وقال : إن الثعلبي خرَّج هذا الحديث أيضاً عن حذيفة ، ثم ذكر نصَّ الحديث الذي ذكره ابن جرير الطبري وضَعَّفَه ، ومن هذا نفهم أنه حذيفة بن اليمان . ومع ذلك فإن القرطبي يقوي رأي ابن مسعود لأنه قال : إن الله تعالى قد كشف الدخان عنهم ، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم ، وحديث ابن مسعود رضي الله عنه في صحيح البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وهو عن مسروق ، قال : قال عبد الله : إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصت على النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كَسِنِي يوسف ، فأصابهم قحطٌ وجَهْد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ، يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، قال : فأُتِيَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقيل : يا رسول الله ، استَسْقِ لمضر فإنها قد هلكت ، قال : (لِمُضَرَ ! إنَّكَ لجريءٌ) ، فاستَسْقَى فسُقُوا ، فنزلت ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ ، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ ، قال : يعني يوم بدر ، وقد قال الشوكاني في « فتح القدير » : ولا منافاة بين كون الآية نازلة في الدخان الذي كان يتراءى لقريش من الجوع ، وبين كون الدخان من آيات الساعة وعلاماتها ، فقد وردت أحاديث صحاح وحسان وضعاف في ذلك ، وليس فيها أنه سبب نزول الآية .

(راجع القرطبي ، والطبري ، والبخاري ومسلم ، وفتح القدير) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾

[يَغْشَى] معناه : يغطّي ، وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يحتمل أن يكون إخباراً من الله تعالى كأنه يعجب منه ، على نحو من قوله تعالى لما وصف قصة الذبح : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴾(١) ، ويحتمل أن يكون ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ من قول الناس ، كأن تقدير الكلام : يقولون هذا عذاب أليم ، ويؤيد هذا التأويل سياقه تعالى حكاية عنهم أنهم يقولون : ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ ، وَعَلِمَ الله تبارك وتعالى أن قولهم في حال الشدة ﴿ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ إنما هو عن غير(٢) حقيقة منهم فدل على ذلك بقوله : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أي : من

(١) الآية (١٠٦) من سورة (الصَّافات) .
(٢) في بعض النسخ : « إنما هو عن « خبَر » حقيقة منهم » .

أَين لهم أَن يتذكَّروا وهم قد تركوا الذِّكرى وراءَ ظهورهم بأَن جاءَهم رسولٌ مبين وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به ؟ و ﴿ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أَي أَعرضوا وقالوا : إنه يُعَلَّم هذا الكلام الذي يتلو ، وإنه مجنون . وإخباره تعالى بأَنه يكشف العذاب عنهم قليلاً إخبارٌ عن إقامة الحجة عليهم ومبالغة في الإملاءِ لهم . ثم أَخبر تعالى بأَنهم عائدون إلى الكفر ، وقال قتادة : هو توعُّدٌ بمعاد الآخرة ، ثم أَخبر تعالى بأَنه ينتقم منهم بسبب هذا كله في يوم البطشة ، وقدم اليوم وذِكْرَه على الذي عَمل فيه تهمُّماً به وتخويفاً منه ، والعامل فيه [مُنْتَقِمُونَ] ، وقد ضعف البصريون هذا من حيث هو خبر [إنَّ] ، وأَبعدوا أَن يعمل خبرها فيما قبلها ، وقالوا : العاملُ فعل مضمرٌ يدل عليه [مُنْتَقِمُونَ] .

واختلف الناس في يوم البطشة الكبرى ـ فقال ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، وقتادة : هو يوم القيامة ، وقال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس أَيضاً ، وأُبيُّ بن كعب ، ومجاهد : هو يوم بدر . وقرأَ جمهور الناس : [نَبْطِشُ] بفتح النون وكسر الطاءِ ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن بضم الطاءِ ، وقرأَ الحسن أَيضاً ، وأَبو رجاءٍ ، وطلحة بن مصرف بضم النون وكسر الطاءِ ، ومعناها : نُسَلِّط عليهم من يبطش بهم .

ثم ذكر تعالى قوم فرعون على جهة المثال لقريش ، و [فَتَنَّا] معناه : امتحنَّا واختبرنا ، و «الرسول الكريم» قال قتادة : هو موسى

عليه السلام ، ومعنى الآية يعطي ذلك بِلاَ خلاف ، وهنا متروك يدل عليه الظاهر : تقديره : قل لهم أَدُّوا ، وهذا مأْخوذٌ من الأَداءِ ، كأَنه يقول : أَن ادفعوا إِليَّ وأَعطوني ومكِّنوني ، واختلف المتأَولون في الشيءِ المؤدَّى في هذه الآية ، ما هو؟ فقال مجاهد ، وابن زيد ، وقتادة : طلب منهم أَن يؤدوا إِليه بني إِسرائيل ، وإِياهم أَراد بقوله : ﴿ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : اتبعوني إِلى ما أَدعوكم إِليه من الحق ، فقوله : ﴿ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ منادي مضاف ، والمؤدَّى هو الطَّاعة والإِيمان والأَعمال .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والظاهر من شرع موسى عليه السلام أَنه بُعث إِلى دعاءِ فرعون إِلى الإِيمان ، وأَن يُرسل بني إِسرائيل ، فلما أَبَى أَن يؤمن بقيت المكافحة في أَن يرسل بني إِسرائيل ، وفي إِرسالهم قوله : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ ، أَي بني إِسرائيل ، ويقوي ذلك قوله بَعْدُ: ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُون ﴾ ، وهذا قريب نَصٌّ في أَنه إِنما يطلب بني إِسرائيل فقط ، ويؤيد ذلك أَيضاً قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ ، فكنَّى عنهم ب [عِبَادِي] ، فيظهر أَنه إِياهم أَراد موسى عليه السلام بقوله : ﴿ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ معناه : على وحي الله تعالى أُؤَدِّيه إِلى عباده .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

المعنى : كانت رسالتُهُ وقولُهُ : أَنْ أَدُّوا وأَلَّا تَعْلُوا ، وعبَّر بالعُلُوِّ عن الطغيان والعُتُوِّ على الله تعالى وعلى شرعه ورسوله . وقرأ الجمهور : ﴿ إِنِّي آتيكُمْ ﴾ بكسر الأَلف من [إِنِّي] على الإِخبار المؤكد ، و « السلطان »: الحُجَّة ، فكأَنه قال : لا تكفروا فإِن الدليل المؤدي إِلى الإِيمان بَيِّن ، وقرأَت فرقة : ﴿ أَنِّي آتِيكُمْ ﴾ بفتح الأَلف ، و [أَنَّ] في موضع نصب ، بمعنى : لا تكفروا من أَجل أَني آتيكم بسلطان مبين ، فكأَن مقصد الكلام التوبيخ ، كما تقول لإِنسان : لا تغضب أَنَّ الحق قيل لك .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ ﴾ الآية كلامٌ قاله موسى عليه السلام لخوف لحقه من فرعون وملائه ، و [عُذْتُ] معناه : استَجَرْتُ وتحرَّمت ،

وأَدغم الذال في التاءِ الأَعرج ، وأَبو عمرو ، واختلف الناس في قوله : ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ ـ فقال قتادة وغيره : أَراد الرجم بالحجارة المؤدي إلى القتل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وأَبو صالح : أَراد الرجم بالقول من السباب والمخالفة ونحوه ، والأَول أَظهر ؛ لأَنه أُعيذ منه ولم يُعَذ من الآخر ، بل قيل فيه عليه السلام وله ، وقوله : ﴿تُؤْمِنُوا لِي﴾ معناه : تؤمنوا بي ، والمعنى : تصدقوا ، وقوله : [فَاعْتَزِلُونِ] مُتاركة صريحة ، قال قتادة : أَراد : خَلُّوا سبيلي.

وقوله تعالى : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ قبله محذوف من الكلام تقديره : فما كفُّوا عنه ، بل تطرَّقوا إِليه ، وعَتَوْا عليه وعلى دعوته فدعا ربَّه ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ، وعيسى : ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ بكسر الأَلف من [إِنَّ] ، على معنى : قال إِنَّ ، وقرأَ جمهور الناس ، والحسن أَيضاً : ﴿أَنَّ هَؤُلاءِ﴾ بفتح الأَلف ، والقراءَتان حسنتان ، وحكم عليهم بالإِجرام المُضَمَّن للكفر حين يئس منهم ، وهنا أَيضاً محذوف من الكلام تقديره : فقال الله تعالى له : فَأَسْرِ بعبادي ، وهذا هو الأَمر الذي أَنفذه الله تعالى إلى موسى عليه السلام بالخروج من ديار مصر ببني إِسرائيل ، وقد تقدم شرحه وقَصَصُه في سورة الأَنبياءِ عليهم السلام وغيرها ، وقرأَ جمهور الناس : [فَأَسْرِ] موصولة الأَلف ، وقرأَ :

[فَأَسْرِ] بقطع الألف الحسنُ ، وعيسى ، ورُويت عن أبي عمرو (١) ، وأعلمه تعالى بأنهم مُتَّبَعُونَ ، أي : يتبعهم فرعون وجنوده .

واختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْواً﴾ ، متى قالها سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام ؟ فقالت فرقة : هذا كلام متصل ، إنكم مُتَّبَعون واترك البحر إذا انفرق لك رَهْواً ، وقال قتادة وغيره : خوطب عليه السلام به بعد أن جاز البحر وخشي أن يدخل فرعون وقومه وراءه ، وأن يخرجوا من المسالك التي خرج منها بنو إسرائيل ، فَهَمَّ موسى عليه السلام بأن يضرب البحر عسى أن يلتئم ويرجع إلى حاله فقيل له عند ذلك : ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْواً﴾ .

واختلفت عبارة المفسرين في تفسير الرَّهْوِ ـ فقال مجاهد وعكرمة : معناه : يَبَساً ، من قوله تعالى : ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي ٱلْبَحْرِ يَبَساً﴾(٢) ، وقال الضحاك بن مزاحم : معناه : دَمِثاً لَيِّناً ، وقال عكرمة أيضاً : جُدَداً (٣) ، وقال ابن زيد : سهلاً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : ساكناً ، أي كما جُزْتَه ، وهذا القول الأخير هو الذي تؤيده

---

(١) وهي قراءة عاصم برواية حفص عنه كما هو ثابت في المصحف الشريف .

(٢) من الآية (٧٧) من سورة (طه) .

(٣) الجُدَدُ : جمع جُدَّة ، وهي جزءُ الشيءِ يخالفُ لونه لونَ سائره ، وهذا ينطبق على كل فِرْق انفلق عنه البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه .

اللغة ؛ فإن العيش الرَّاهي هو الذي في خَفْضٍ ودَعَة وسكون ، حكاه المبرد وغيره ، والرَّهْوُ في اللغة هو هذا المعنى ، ومنه قول عُمَيْر بن شُيَيْم القُطامي :

يَمْشِينَ رَهْواً فَلَا الأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الأَعْجَازِ تَتَّكِلُ (١)

فإنما معناه : يمشين اتئاداً وسكوناً وتماهُلاً ، ومنه قول الآخر :

. . . . أَوْ أُمَّةٌ خَرَجَتْ رَهْواً إلى عيدِ (٢)

---

(١) هذا بيت من قصيدة لِلْقُطامي اختارها صاحب الجمهرة ، ومطلعها يقول :

إنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَـلُ وإنْ بَلِيتَ وَإنْ طَالَتْ بِكَ الطِّـوَلُ

والبيت المختار هنا في وصف الإبل التي أضناها السفر الطويل ، والرَّهْوُ : السَّيْر السهل المُتَأنِّي ، والأعجَازُ : جمع عَجُز ، وهو مؤخر الناقة ، والصُّدور : جمع صدر ، وهو مُقَدَّم الشيء ، والمراد هنا صدر الناقة ، وخاذلةٌ : غير مساعدة ، والبيت في اللسان (رَهَا) ، وقد نقل عن أبي عبيد أن الرَّهْو هو السَّير الخفيف ، وعن الجوهري أنه السير السهل ، وقال أيضاً : هو مشيٌ في سكون .

(٢) هذا عجز بيت لم يعرف قائله ، وقد استشهد به وببيتٍ قبله الفراءُ في (معاني القرآن) ، قال : وأنشدني أبو ثروان :

كَأَنَّما أهلُ حُجْرٍ يَنْظُرُونَ مَتَى يَرَوْنَنِي خارجاً طَيْرٌ يَنَادِيـد
طَيْرٌ رَأَتْ بازِياً نَضْحُ الدِّمَـاءِ بِهِ أَوْ أُمَّةٌ خَرَجَتْ رَهْواً إلى عِيدِ

واستشهد بهما الطبري أيضاً في تفسير هذه الآية ، لكن الرواية فيه : (وأُمُّهُ خرجت) ، وهو تحريف ، ولعلَّ بعضهم ظنَّ أن اللفظ يراد به أُمُّ البازي ، ولكن الشاعر هنا يشبه أهل حُجْر حين وقفوا ينتظرون خروجه بالطير المتفرقة التي رأت صقراً قدْ تناثرت الدماءُ عليه من كثرة ضحاياه ، ويشبههم أيضاً بالجماعة من الناس التي خرجت في سهولة ورفق إلى عادتها ، والبيت الأول في اللسان ، ذكره شاهداً على معنى « يناديد » ، قال : « وطيْرٌ يناديد وأناديد : متفرقة ، قال : كأنما أهل حُجْر... البيت » ، وقد ضبط حُجْراً بضم الحاء ، قال الحموي =

أَي : خرجوا في سكون وتماهل ، فقال لموسى عليه السلام : اترك البحر ساكناً على حاله من الافتراق ليقضي الله أمراً كان مفعولًا ، والرَّهْوُ من أَسماءِ الكُرْكـيِّ الطائر (١) ، ولا مدخل له في تفسير الآية ، ويشبه عندي أَنه سُمِّي رهْواً لسكونه وأنه أَبداً على تماهل .

وقوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ الآيةَ ... قَبْلَهُ محذوف تقديره : فغرقوا وقطع الله دابرهم ، ثم أَخذ الله تعالى يعجب من كثرة ما تركوا من الأُمور الرفيعة العظيمة في الدنيا ، و [كَمْ] خبر للتكثير ، والجناتُ والعيونُ رُوي أَنها كانت متصلة على ضفتي النيل جميعاً من رشيد إلى أَسوان ، وأَمَّا العيون فيحتمل أَنه أَراد الخلجان الخارجة من النيل فشبَّهها بالعيون ، ويحتمل أَنه كانت ثَمَّ عيونٌ ونضبت كما يعتري في كثير من بقاع الأَرض ، وقرأَ قتادة ، ومحمد بن السميفع اليماني ، ونافع - في رواية خارجة عنه - : [وَمُقَام] بضم الميم ، أَي مَوضع

= في (معجم البلدان) : «وحُجْر بالضم قرية باليمن من مخاليف بدر ... » والطير اليناديد : المتفرقة ، والبازي : نوع من الصقور ، ونضح الدماء به : آثار الدماء تناثرت عليه ، ويروى بالخاء المعجمة ، والنضخ : الأثر ، ومن معاني العيد أنه عادة الإنسان ، أو ما يعتاده من همٍّ وحُزن ، فهو يقول : إنها خرجت إلى عادتها أو إلى أمر يهمُّها ويحزنها ، هذا وفي البيتين إقواءٌ كما ترى .

(١) الرَّهْوُ : طائر معروف يقال له الكُرْكيُّ ، وقيل : هو من طير الماء يُشبهه وليس به ، وقال ابن بَرِّي : هو طائر غير الكُرْكي . (راجع لسان العرب) .

إقامة ، وكذلك قرأ اليماني في كل القرآن إلّا في مريم ﴿خَيْرٌ مَقَاماً﴾ (١) ، فكأن المعنى : كم تركوا من موضع حسن كريم في قدره ونفعه ، وقرأ جمهور الناس ، ونافع : ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ بفتح الميم ، أي موضع قيام ، فعلى هذه القراءة قال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير : أراد المنابر ، وعلى ضم الميم في [مُقَامٍ] قال قتادة : أراد المواضع الحسان من المساكن وغيرها ، والقول بالمنابر يَهِي جدًّا (٢) .

و « النَّعْمَةُ » ــ بفتح النون ــ : غضارة العيش ولذاذة الحياة ، و « النِّعمة » ــ بكسر النون ــ : أَعَمُّ من هذا؛ لأَن النَّعمة بالفتح هي من جملة النِّعم بالكسر ، وقد تكون الأَمراضُ والآلام والمصائب نِعَماً ، ولا يقال فيها نَعْمة بالفتح ، وقرأ أبو رجاءٍ : [وَنَعْمَةً] بالنصب ، وقرأ جمهور الناس : [فَاكِهِينَ] بمعنى : ناعمين ، والفَاكهُ : الطَّيِّب النفس، أَو يكون بمعنى : أَصحاب فاكهة كلابنٍ وتامرٍ ، وقرأ أَبو رجاءٍ ، والحسن ــ بخلاف عنه ــ وابن القعقاع : [فَكِهِينَ] ، ومعناه قريب من الأَول ، لكن الفَكِهَ يُستعمل كثيراً في المستخف المستهزئ ، فكأَنه ها هنا يقول : كانوا في هذه النَّعمة مُسْتَخفِّين بشكرها والمعرفة بحقهـــا .

---

(١) من الآية (٧٣) من سورة (مريم) .

(٢) من قولهم : « وَهَى الشيءُ يهي » بمعنى : ضعف .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ معناه : الأَمر كذلك ، وسَمَّاه وراثة من حيث كانت أَشياءَ أَناس وصلت إلى آخرين بعد موت الأَولين ، وهذه حقيقة الميراث في اللغة ، وربطها الشرع بالنسب وغيره من أَسباب الميراث ، و « الآخرون » : من مَلَك مصر بعد القبط ، وقال قتادة : القوم الآخرون هم بنو إسرائيل ، وهذا ضعيف لأَنه لم يُرْوَ في التواريخ أَن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيءٍ من ذلك الزمان ولا ملكوها قط ، إلَّا أَن يريد قتادة أَنهم ورثوا نوعها في بلاد الشام . وذكر الثعلبي عن الحسن أَن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

نفت هذه الآية أَن تكون السماءُ والأَرض بكت على قوم فرعون ، فاقتضى اللفظ أَن للسماءِ والأَرض بكاءً ، واختلف المتأَولون في معنى ذلك ــ

فقال علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير رضي الله تعالى عنهم : إن الرجل المؤمن إذا مات بكى عليه من الأَرض موضع عباداته أربعين صباحاً ، وبكى عليه من السماءِ موضع صعود عمله ، قالوا : فلم يكن في قوم فرعون مَنْ هذه حاله ، فهذا معنى الآية . وقال السدي ، وعطاءٌ : بكاءُ السماءِ حُمْرَةُ أطرافها ، وقالوا : إنَّ السماءَ احمرَّت يوم قتل الحسين بن علي بن أَبي طالب رضي الله عنهما ، وكان ذلك بكاءً عليه ، وهذا هو معنى الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمعنى الجيد في الآية أنها استعارة بارعة فصيحة تتضمن تحقير أمرهم ، وأنهم لم يتغيَّر عن هلاكهم شيءٌ ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾(١) على قراءة من قرأ : [لِتَزُولَ] بكسر اللاَّم ونصب الفعل وجَعْل [إنْ] نافيةً ، ومثل هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يَنْتَطِحُ فيهـا عنزان)(٢) فإنه يتضمن

(١) من الآية (٤٦) من سورة (إبراهيم) .

(٢) هذا الحديث جرى مجرى المثل ، وقد ذكره الميداني في (مجمع الأمثال) ، وقال : معناه : لا يكون له تغيير ولا له نكير ، وذكره الزمخشري في (المستقصى في أمثال العرب) ، وقال يضرب للأمر الذي لا غير له ولا يدرك به ثأر . وذكره الميداني في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر) ، وقال : أي لا يلتقي فيه اثنان ضعيفان ؛ لأن النطاح من شأن التيوس والكباش لا العنوز ، وهو إشارة إلى قضية مخصوصة لا يجري فيها خلف ونزاع .

التحقير ، لكن هذه الألفاظ هي بحسب ما قيلت فيه وهو قتل المرأة الكافرة التي كانت تؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ، وعُظْم قصة فرعون وقومه يجيءُ بحسبها جمال الرصف وبهاءُ العبارة في قوله تعالى : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ، ومن نحو هذا أن نعكس قول جرير :

لَمَّا أَتَى خَبَـرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُورُ الْمَدِينَةِ والجِبَالُ الْخُشَّعُ(١)

فيقال في التحقير : «مات فلانٌ فما خشعت الجبال» ونحو هذا ، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما ماتَ مؤمن في غربة غابت عنه فيها بَوَاكيه إلَّا بَكَت عليه السماءُ والأَرض ، ثم قرأ هذه الآية وقال : إنهما لا يبكيان على كافر)(٢)، ومن التفخيم

---

(١) هذا البيت من قصيدة لجرير يهجو الفرزدق وجميع الشعراء ، ويقول في مطلعها :

بانَ الخَليطُ بِرامَتَيْنِ فَوَدَّعُـوا أوَ كُلَّمَا رَفَعُوا لِبَيْنٍ تَجْـزَعُ ؟

وهي في النقائض ، وهو يذم الفرزدق لأن قومه لم يدافعوا عن الزبير وتركوه للقتل ، بل إنه بعد ذلك يصمهم بالغَدْر والخيانة ويسجل عليهم أنهم تركوا جارهم ، وأنه لو حلَّ جارهم هذا إليه لَمَنَعَه بالحيل ، وقوله : «والجبال الخُشَّعُ» معناه : والجبال خُشَّع لهذا الحدث، فجعل الخُشَّع خبراً .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلا، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً، ألا لا غُربة على مؤمن ، ما مات مؤمن في غُربة غابت عنه فيها بوَاكيه إلاَّ بكت عليه السماءُ والأرض ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ، ثم قال : إنهما لا يبكيان على كافر) .

ببكاءِ المخلوقات العظام قول يزيد بن مُفَرِّغ :

فَالرِّيحُ تَبْكِـي شَجْوَهَـــــا   والْبَرْقُ يَلْمَعُ في الْغَمَـــامَهْ (١)

وقول الفرزدق :

فالشَّمسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَـــةٍ   تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ والْقَمرَا (٢)

و [مُنْظَرِينَ] معناه : مُؤَخَّرين ومهملين .

---

(١) هذا البيت لابن مفرِّغ واحد من أبيات قالها في بيعه جارية له تُسمَّى الأراكة وغلاماً يُسمَّى بُرْداً ، وكانا أعز عليه من نفسه ، وقد أرغمه عبَّاد بن زياد على بيعهما ، والقصة في الأغاني ، وخزانة الأدب ، وأمالي الزجاجي ، والوفيات ، والبيت في (مشكل القرآن) ، و (الأضداد) للأنباري . وقد ورد البيت في الأصول محرفاً ، والتصويب عن الخزانة ، والوفيات ، ومن أبيات ابن مُفَرِّغ هذه :

وَشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَنِــــي   مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَـــهْ
أوْ بومَةً تَدْعو صَـــدًى   بيْنَ المُشَقَّرِ والْيَمَامَـــهْ
فالرِّيحُ تَبْكِي شَجْوَهَـــا   والبَرْقُ يَلْمَعُ في الْغمَامَـــهْ
والعَبْدُ يُقْـرَعُ بِالْعَصَـا   والحُرُّ تكفيه المَلامَـــهْ

والشاهد هنا التفخيم ببكاء الريح ولمعان البرق في الغمام لأنه باع غلامه بُرْداً ، و (شَرَى) هنا بمعنى (باعَ) .

(٢) هكذا في الأصول : « وقول الفرزدق » ، والصحيح أن البيت لجرير ، قاله يرثي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وهو في الديوان ، والصحاح ، واللسان ، والتاج ، ومشكل القرآن ، وهو ثالث أبيات ثلاثة ، هي :

تَنْعي النُّعاةُ أميرَ المُؤمِنينَ لَنَــا   يا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بيتَ الله واعتَمرَا
حُمِّلْتَ أمراً عظيماً فاصْطَبَرْتَ لَهُ   وقُمْتَ فيهِ بأمرِ اللهِ يا عُمَرَا
فالشَّمسُ كاسفةٌ لَيْسَتْ بطالِعَةٍ   تبكي عليْكَ نجومَ اللَّيلِ والقَمَرَا =

ثم ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل في إنجائهم من فرعون وقومه ، و «ٱلْعَذَابُ ٱلْمُهِين» هو ذبح الأَبناء والتَّسخير في المِهَنِ كالبنيان والحفر ونحوه ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : «مِن عَذَاب ٱلْمُهين» بسقوط التعريف بالأَلف واللام من [ٱلْعَذَابِ] . وقوله تعالى : ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ، و [مِنْ] بكسر الميم هي قراءة الجمهور ، وروى قتادة أَن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقرؤُها : [مَنْ] بفتح الميم [فِرْعَوْنُ] برفع النون .

وقوله تعالى : ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ أي على شيءٍ قد سبق عندنا فيهم وثبت في علمنا أَنه سينفذ ، وقوله تعالى : ﴿عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ يريد : على جميع الناس ، هذا على التأْويل المتقدم في العلم ، والمعنى : لقد اخترناهم لهذا الإِنجاءِ وهذه النِّعم على سابق علم لنا فيهم ، وخصصناهم بذلك دون العالم ، ويحتمل قوله تعالى : ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ أَن يكون : على علم لهم وفضائل فيهم ، والمعنى : اخترناهم للنبوات والرِّسالات ،

= وقوله: يا عُمَرَا ، أراد : يا عُمراه على النُّدبة ، ورواية البيت موضع الشاهد : (فَالشَّمس كاسفَةٌ) على عكس ما في ابن عطية، أراد أن الشمس كاسفةٌ تبكي عليك الشهر والدهرَ ، وهذا قول الكسائي ، وقيل : إن المعنى أن الشمس كسفت نجوم الليل والقمرَا وهي تبكي عليك ، وفيه بُعْد لأن النجوم والقمر لا ينكسفان طول الدهر ، والشاهد هنا تفخيم الأمر وتهويله بكسوف الشمس وبكائها على الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

فيكون قوله تعالى : ﴿عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ ـ في هذا التأويل ـ معناه : على عالَم زمانهم ، وذلك بدليل فضل أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم لهم وعليهم ، وأن أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم هي خير أُمَّة أُخرجت للنَّاس ، وقوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ ٱلْآيَات﴾ لفظ جامع لمعجزات موسى عليه السلام ، والعِبَر التي ظهرت في قوم فرعون من الجراد والقُمَّل والضفادع وغير ذلك ، ولِمَا أَنعم به على بني إسرائيل من تظليل الغمام والمَنِّ والسَّلوى وغير ذلك ، فإن لفظ الآيات يعُمُّ جميع هذا . و «الْبَلَاءُ» ـ في هذا الموضع ـ : الاختبار والامتحان ، وهذا كما قال تعالى : ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (١) ، و [مُبِينٌ] هنا بمعنى بَيِّن .

ثم ذكر تعالى قريشاً وحكى عنهم ـ على جهة الإنكار لقولهم حين أَنكروا فيه ما هو جائز في العقل ـ فقال تعالى : ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ، إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَى﴾ ، أَي : ما آخر أَمرنا ومُنْتَهى وجودنا إِلَّا عند موتنا ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ أَي بمبعوثين ، يقال : أَنْشَرَ الله الميت فَنَشَر هُوَ . وقول قريش : ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، إِلَّا أَنه من حيث كان النبي صلى الله

(١) من الآية (٣٥) من سورة (الأنبياء) .

عليه وسلم مسنداً في أقواله وأفعاله إلى الله تعالى وبواسطة ملك خاطبوه كما تخاطب الجماعة وهم يريدونه وربَّه تعالى وملائكته ، واستدعى الكفار في هذه الآية أن يحيي لهم بعض آبائهم - وسَمُّوا قُصَيًّا - لكي يسألوهم عمَّا رأَوْا في آخرتهم ، ولم يستقص في هذه الآية الرَّدَّ عليهم لبيانه وإثباته في غير ما آية من كتاب الله تعالى ، فإن الله تعالى قد جزم البعث من القبور في أجل مسمًّى لا يتعدَّاه أحد، وقد بيَّنت الأَمثلةُ من الأَرض الميتة وحال النبات أَمْرَ البعث من القبور .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ تقرير فيه وعيدٌ ، وتُبَّعٌ ملِك حِمْيري ، وكان يقال لكل ملِك فيهم : تُبَّع ، إلَّا أن المشار إليه في هذه الآية رجل صالح من التَّبابعة ، قال كعب

الأَحبار : ذمَّ الله تعالى قومه ولم يَذُمَّه ، ونهى العلماءُ عن سبِّه ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق سهل بن سعد أَنَّ تُبَّعاً هذا أسلم وآمن بالله تعالى ، ورُوي أَن ذلك كان على يد أَهل كتاب كانوا بحضرته (١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان تُبَّع نبيًّا ، وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما أَدري أَكان تُبَّع نبيًّا أَو غير نبيٍّ) (٢) ، وقال ابن جبير رضي الله عنه : هو الذي كسا الكعبة ، وقد ذكره ابن إسحق في السِّيرة ، والله أَعلم . وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يريد : بالكفر ، وقرأَت فرقة : [أَنَّهُمْ] بفتح الأَلف ، وقرأ الجمهور بكسرها .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآيَةَ ... إخبارٌ فيه تنبيه وتحذير ، وقوله : ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يريد : بالواجب المفضي إلى الخيرات وفيض الهبات . و «يَوْمُ الْفَصْلِ» هو يوم القيامة ،

---

(١) أخرجه أحمد ، والطبراني ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، وذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور ، ولفظه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تسبُّوا تُبَّعاً فإنه كان قد أسلم) .

(٢) ترجم الحافظ بن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة لتُبَّع ، وذكر أنه ملك دمشق ، ثم ساق عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما أدري ، الحدود طهارة لأهلها أمْ لا ؟ ولا أدري تُبَّعٌ لعيناً كان أم لا ؟ ولا أدري ذو القرنين نبيّاً كان أم ملكاً) ، وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن محمد بن حماد الظهراني ، عن عبد الرزاق ، وقال عبد الرزاق أيضاً : أخبرنا معمر عن ابن أبي ذؤيب عن المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما أدري تُبَّع نبيّاً كان أم غير نبي) .

وهذا هو الإخبار بالبعث ، وهو أمر جوَّزه العقل وأثبته الشَّرع بهذه الآية وغيرها ، و «المولى» في هذه الآية يعُمُّ جميع الموالي من القرابات وموالي العتق وموالي الصَّداقة ، وقوله تعالى : ﴿وَلَاهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ إن كان الضمير يراد به العالم فيصح أن تكون [مَنْ] في قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ ٱللَّهُ﴾ في موضع نصب على الاستثناء المتصل، وإن كان الضمير يراد به الكفَّار فالاستثناءُ منقطع ، ويصح أن يكون في موضع رفع على الابتداء والخبر مقدَّر ، تقديره : فإنه يغني بعضهم عن بعض بالشفاعة ونحوها ، أو يكون تقديره : فإنَّ الله ينصره(١) .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَةَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ ، رُوي عن ابن زيد أن [ٱلْأَثِيمِ] المشار إليه هو أبو جهل ، ثم هي - بالمعنى - تتناول كل أثيم وكل تاجر يكتسب الإثم ، ورُوي عن همَّام أن أبا الدرداء أقرأ أعرابيًّا فكان يقول : «طعام اليتيم» ، فردَّ عليه أبو الدرداء مراراً فلم يُلَقَّن ، فقال له : قل : طعام الفاجر ، فقرئت كذلك ، وإنما هي على التفسير ، وهي الشجرة الملعونة في القرآن ، وهي تنبت

(١) وقيل : إن [مَنْ] رفع على البدل من المضمر في [يُنْصَرُونَ] ، أو على البدل من [مَوْلىً] الأول ، كأنه قال : لا يغني إلاَّ من رحم الله ، والقول بأن [مَنْ] في موضع نصب على الاستثناء المنقطع هو قول الكسائي والفراء ، ولكن نقل الطبري عن بعضهم أنه لا يجوز أن يكون بدلاً مما في [يُنْصَرُونَ] لأن [إلاَّ] مُحقَّق ، والأول منفي ، والبدل لا يكون إلاَّ بمعنى الأول ، وأنه لا يجوز أن يكون مُسْتأنفاً لأنه لا يُسْتأنف بالاستثناء ، واختار الطبري - بعد هذا كله - أن يكون [مَنْ] في موضع رفع بمعنى : يوم لا يغني مولىً عن مَوْلىً شيئاً إلاَّ من رحم الله منهم فإنه يُغني عنه بأن يشفع له عند ربه .

في أصل الجحيم ، وروي أن أبا جهل لمَّا نزلت هذه الآية وأشار الناس بها إليه صنع عجوة بزُبْد ثم دعا إليها ناساً فقال لهم : تزقَّموا فإن الزقوم هو عجوة يُثْرَدُ بالزبد وهو طعامي الذي حدَّث به محمد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما قصد بذلك ضرباً من المغالطة والتَّلبيس على الجهلة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قال ابن عباس ، وابن عمر رضي الله عنهم : «المُهْل» : درديُّ الزيت وعكره ، وقال ابن مسعود ، وابن عباس أيضاً رضي الله عنهم :

المُهْلُ: ما ذاب من ذهب أَو فضة أَو حديد أَو رصاص ونحوه، قال الحسن: كان ابن مسعود على بيت المال لعمر رضي الله عنه بالكوفة، فأَذاب يوماً فضَّةً مكسَّرة، فلمَّا انماعت قال: يدخل من بالباب، فدخلوا فقال لهم: هذا أَشبه ما رأَينا في الدُّنيا بالمُهْل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى أَن هذه الشجرة إذا طَعِمَها الكافر في جهنم صارت في جوفه تفعل كما يفعل المُهْل السخن من الإحراق والفساد، وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية أَبي بكر: [تَغْلِي] بالتَّاءِ، أَي الشَّجرة، وهي قراءَة عمرو بن ميمون، وأَبي رزين، والحسن، والأَعرج، وأَبي جعفر، وشيبة، وابن محيصن، وطلحة. وقرأَ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص: [يَغْلِي] باليَّاءِ على معنى الطعام، وهي قراءَة مجاهد، والحسن -بخلاف عنه- و [ٱلْحَمِيمِ]: الماءُ السخن الذي يتطاير من غليانه.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ الآيَةَ -معناه: يقال يومئذ للملائكة عن هذا الأَثيم: خذوه فاعتلوه، و «الْعَتْلُ»: السَّوْق بعنف وإهانة ودفْع قوي متصل، كما يُساق أَبداً مرتكب الجرائم، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [فَاعْتُلُوهُ] بضم التَّاءِ، والباقون بكسرها،

وقد رُوي الضم عن أَبي عمرو ، وكذلك روي الوجهان عن الحسن ، وقتادة ، والأَعرج ، و «السَّوَاءُ» : الوسط ، وقيل : المُعْظَم ، وذلك متلازم ، المُعْظَم أَبداً من مثل هذا إنما هو في الوسط ، وفي الآية ما يقتضي أَن الكافر يُصَبُّ على رأْسه من حميم جهنَّم ، وهو ما يغلي فيها من ذَوْب ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾(١) ، وإلى هذا نظر بعض ولاة المدينة ، فإنه كان يصب الخمر على رأْس الذي شربها أَو توجد عنده عقوبةً له وأَدباً ، ذكر ذلك ابن حبيب في الواضحة .

وقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ مخاطبة على معنى التقريع ، ويروى عن قتادة أَن أَبا جهل قال لمَّا نزلت ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ ٱلزَّقُّومِ ، طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ : أَيتهَدَّدُني محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأَنا ما بين جَبَلَيْهَا أَعزُّ مني ولا أَكرم ؟ فنزلت هذه الآيات وفي آخرها ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ ، أَي: على قولك ، وهذا كما قال جرير :

أَلَمْ يَكُنْ ـ في وُسُومٍ قَدْ وَسَمْتُ بِهَا ... مَنْ حانَ ـ موعظة يا زَهْرَةَ اليَمَنِ ؟

يقولها للشاعر الذي سمَّى نفسه به ، وذلك في قوله :

أَبْلِـغْ كُلَيْباً وَأَبْلِـغْ عَنْكَ شَاعِرَهَا ... أَنِّي الْأَعَزُّ وَأَنِّي زَهْرَةُ الْيَمَنِ (٢)

---

(١) من الآية (١٩) من سورة (الحج) .

(٢) كان جرير قاسياً في هجائه ، وقد تجمع عليه عدد كبير من الشعراء يهجونه ويُعيِّرونه بفقره ، لكنه غلبهم وأخزاهم ، وهذا شاعر من بني الحارث بن كعب قال شعراً يذم فيه كليباً =

فجاءَ بيت جرير على جهة الهُزْءِ . وقرأَ الجمهور : [إِنَّكَ] بكسر الأَلف ، وقرأَ الكسائي وحده : [أَنَّكَ] بفتح الأَلف ، والمعنى واحد في المقصد وإِن اختلف المأْخذ إِليه ، وبفتح الأَلف قرأَها على المنبر الحسين بن علي بن أَبي طالب رضي الله عنهما ، أَسندها إِليه الكسائي واتَّبعه فيها .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ عبارةٌ عن قول يقال للكفرة عند عذابهم ، أَي : هذه الآخرة وجهنم التي كنتم تشكُّون فيها .

ثم ذكر تعالى حالة المتَّقين بعقب ذكر حالة الكفار ليبين الفرق ، وقرأَ نافع ، وابن عامر : ﴿ في مُقَامٍ أَمينٍ ﴾ بضم الميم ، وهي قراءَة أَبي جعفر ، وشيبة ، وقتادة ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، والحسن ،

= قبيلة جرير ، ويقول له: إنّي أنا الأعزُّ وإنّي زهرة اليمن، وردَّ عليه جرير بسبعة أبيات أولها هذا البيت الذي استشهد به ابن عطية ، والأبيات في الديوان ، والرواية فيه : (يا حارث اليمن) بدلاً من (يا زهرة اليمن) ، والوَسْمُ : أثر الكيِّ بالنَّار ، وحان الرجلُ : هلك، والمقصود به هنا الشاعر الذي يهجوه جرير ، يقول له : ألم تكن لك موعظة في الشعر الذي هجوتك به من قبل فكان كالنار التي أكويك بها وأقضي عليك يا من تسمي نفسك زهرة اليمن ؟ ثم يقول له فيما بعد ذلك من أبيات : إن قصائدي قد ملأت الدنيا وامتدت فيما بين مصر وعدن ، إلى أن يقـــول :

أَمسى سَرَاةُ بني الدَّيَّـــانِ ناصيَةً والـلُّؤْمُ يَأْوِي إِلَيْكُمْ يا بَني قَطَنِ

وبنو قطن : قوم من بني الحارث بن كعب . والشاهد في البيت المذكور هنا هو المخاطبة على معنى التقريع والسُّخرية .

والأَعرج ، وقرأَ الباقون : ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ بفتح الميم ، وهي قراءَة أَبي رجاءٍ ، وعيسى ، ويحيى ، والأَعمش ، و [أَمين] معناه : تؤمن فيه الغِيَر ، فكأَنه فعيل بمعنى مفعول ، أَي : مأْمون فيه ، وكسر عاصم العين من [عِيُونٍ] (١) ، قال أَبو حاتم : وذلك مردود عند العلماءِ ، ومثله : شِيُوخٌ وبِيُوتٌ بكسر الشِّين والباءِ . و «السُّنْدُسُ» : رقيق الحرير ، و «الإِسْتَبْرَقُ» : خَشِنُه ، وقرأَ ابن محيصن : [وَٱسْتَبْرَقَ] بالوصل وفتح القاف ، وقوله : [مُتَقَابِلِينَ] وصف لمجالس أَهل الجنَّة ؛ لأَنَّ بعضهم لا يستدبر بعضاً في المجالس .

وقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ تقديره : الأَمر كذلك ، وقرأَ الجمهور: [عِينٍ] ، وهو جمع عَيْنَاءَ(٢) ، وقرأَ ابن مسعود: «بِعِيسٍ عِينٍ» ، وهو جمع عَيْسَاءَ ، أَي بيضاءَ(٣) ، وكذلك هي من النوق ، وقرأَ عكرمة : ﴿بِحُورِ عِينٍ﴾ بغير تنوين في [حُور] ، وأَضافها إِلى [عِينٍ] ، قال أَبو الفتح : الإِضافة هنا تفيد ما تفيد الصِّفة ،

---

(١) أي في رواية أبي بكر عنه ، أما رواية حفص فهي : [عُيُون] بضم العين كما هو ثابت في المصحف .

(٢) الْعَيَنُ : عِظَم سواد العين وسَعَتُها ، يقال : هو أَعْيَن ، والأنثى : عيناء .

(٣) الْعِيسُ : بياضٌ يخالطه شيءٌ من شُقرة ، ورَجُلٌ : أَعْيَس ، والأنثى : عيساءُ .

وروى أَبو قِرْصَافَةَ (١) عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (إِخراج القمامة من المسجد من مهور الحور العين) . وقوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ معناه : يدعون الخدمة والمتصرفين .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلأُولَى ﴾ ، قدَّر قوم [إِلَّا] بـ « سِوَى » ، وضعَّف ذلك الطبري وقدَّرها بـ « بَعْد » ، وليس تضعيفه بصحيح ، بل يصح المعنى بِسِوَى ويتَّسق (٢) ، وأَمَّا معنى الآية فبَيِّنٌ أَنه تعالى نفى عنهم ذوق الموت ، وأَنه لا ينالهم من ذلك غير ما تقدَّم في الدُّنيا .

---

(١) أبو قِرْصافة – بكسر القاف – هو جَنْدرة – بفتح الجيم وسكون النون ثم دال مهملة مفتوحة – ابن خَيْشَنَة ، صحابيٌّ جليل ، نزل الشام ، مشهور بكنيته . (تقريب التهذيب) . والحديث ذكره القرطبي في تفسيره ولم يخرجه .

(٢) حُجَّة الطبري في ذلك أنك إذا قلت : « لا أذوق اليوم طعاماً إلا الطعام الذي ذقته قبل اليوم » فإنك تريد الخبر أن عندك طعاماً أنت اليوم ذائقه وطاعمه دون غيره من الأطعمة ، وإذا كان هذا هو الأغلب في المعنى فإن قوله تعالى في الآية الكريمة : ﴿ إلاَّ ٱلْمَوْتَةَ ٱلأولَى ﴾ قد أثبت مَوْتَةً أخرى من نوع الموتة الأولى التي هم ذائقوها ، ومعلوم أن ذلك لن يكون ؛ لأن الله تعالى قد آمن أهل الجنة من الموت بعد دخولها . وإنما جاز أن توضع « إلاَّ » موضع « بعد » لتقارب معنى كل منهما من معنى الأخرى ، ثم مضى في كلام طويل يثبت فيه أن العرب قد اعتادت أن تضع الكلمة موضع أخرى إذا تقارب المعنيان ، فيضعون الرَّجاءَ موضع الخوف لما في معنى الرجاء من الخوف ، ويضعون الظن موضع العلم الذي أُدرك استدلالاً ولم يدرك من قِبَل العيان، قال : وهذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ ، فإن المعنى : بعد الذي سَلَف ، ولا يصح أن تضع هنا « سِوَى » في موضع « إلاَّ » ؛ لأن ذلك يكون ترجمة عن المكان وبياناً عنها بما هو أشدُّ التباساً على من أراد علم معناها منها . والزمخشري يرى أن معنى الآية : « لا يذوقون فيها الموت البَتَّةَ » ، أي لا يذوقون الموت أبداً إلا الموتة الأولى التي كانت قبل دخول الجنة ، وهذا هو المعنى الذي ذكره ابن عطية ، وهو الواضح المفهوم من الآية .

والضمير في قوله تعالى : [يَسَّرْنَاهُ] عائد على القرآن ، وقوله : [بِلِسَانِكَ] معناه : بلغة العرب ، ولم يُرد الجارحة (١) ، وقوله تعالى : ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ معناه : فارتقب نصرنا لك إنهم مرتقبون - فيما يظنُّون - الدوائر عليك ، وفي هذه الآية وعْدٌ له صلى الله عليه وسلم ووعيدٌ لهم ، وفيها مُتاركة ، وهذا وما جرى مجراه منسوخ بآية السيف .

كمل تفسير سورة الدخان والحمد لله رب العالمين

(١) فالمراد باللِّسان هنا اللغة ، كقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ ، أي بِلُغَةِ قومه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أَشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(٤٥) سورة الجاثية مكية
إلا آية ١٤ فمدنية
وآياها ٣٧ نزلت بعد الدخان

هذه السورة مكِّيَّة بلا خلاف في ذلك(١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿حم ﴿١﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿٢﴾ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴿٣﴾ وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴿٤﴾ واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴿٥﴾ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴿٦﴾﴾

(١) جاء في (القرطبي) وفي (فتح القدير) أن السُّورة مكيَّة في قول الحسن ، وجابر ، وعكرمة ، وروي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : إلاَّ آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿قُلْ للَّذينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا للَّذينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ — الآية ١٤ — ، فقد نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ذكر ذلك الماوردي ، وقال المهدوي والنحاس : إن رجلا شتم عمر رضي الله عنه بمكة فأراد عمر أن يبطش به فنزلت الآية ، ثم نسخت بقوله تعالى : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ ، فالسُّورة — على هذا — كلها مكيَّة من غير خلاف كما ذكر ابن عطية .

تقدَّم القول في الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور ، و [تَنْزِيلُ] رفع بالابتداءِ أو على خبر ابتداءٍ مضمر ، و [ٱلْعَزِيز] معناه عامٌّ في شدَّة أَخْذه إذا انتقم ، ودفاعه إذا حَمَى ونصر ، وغير ذلك ، و [ٱلْحَكِيم] : المُحْكِمُ للأَشياءِ ، وذكر تعالى الآيات التي في السموات والأَرض مُجْمَلَةً غير مفصَّلة ، فكأَنها إحالة على غوامض تثيرها الفكر ، ويخبر بكثير منها الشَّرْعُ ، فلذلك جعلها للمؤمنين ؛ إذ في ضمن الإيمان العقلُ والتصديق . ثم ذكر تعالى خلق البشر والحيوان وكأَنه أَغمض مما أَحال عليه أَوَّلًا وأَكثر تلخيصاً ، فجعله للموقنين الذين لهم نظر يؤديهم إلى اليقين في معتقداتهم ، ثم ذكر اختلاف اللَّيل والنَّهار والعبرة بالمطر والرِّياح فجعل ذلك لقوم يعقلون ؛ إذْ كلُّ عاقل يحصِّل هذه ويفهم قدرها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإن كان هذا النظر ليس بلازم ولا بد فإن اللَّفظ يعطيه .

و [يَبُثُّ] معناه : ينشر في الأَرض ، و «الدَّابة» : كلُّ حيوان يدبُّ أَو يمكن فيه أَن يدبَّ ، يدخل في ذلك الطير والحوت ، شاهد الطير في قول الشاعر :

. . . . صَوَاعِقُهَـــا لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ (١)

---

(١) هذا عجز بيت قاله علقمة بن عبدة من قصيدته المعروفة التي بدأها بقوله :
(طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الْحِسَانِ طَرُوبُ) ، والبيت بتمامه :
كَأَنَّهُمُ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ صَوَاعِقُهَا لِطَيْرِهِـــنَّ دَبِيبُ =

وقول الآخر :

. . . . دَبِيبَ قَطَا الْبَطْحَاءِ في كلِّ مَنْهَل (١)

وشاهد الحوت قول أبي موسى : « وقد ألقى البحرُ دابَّةً مثل الظَّرِب » (٢) ، ودوابُّ البحر لفظ مشترك في اللُّغة .

= وصابت : أمطرت ، والدبيب : المشيُ الضعيف الخفيف ، والمعنى أن الممدوح إذا هجم على الأعداء كان كالسحابة التي تتفجَّر بالصواعق وتنزل كالطير عجزت عن التحليق فدبَّت على الأرض تطلب النجاة ، وقد سبق الاستشهاد بالبيت في الجزء السابع من هذا التفسير ، صفحة (٢٤٣) .

(١) وهذا أيضاً عجز بيت قاله الأعشى من قصيدة له يقول في مطلعها :

صَحَا الْقَلْبُ مِنْ ذِكْرَى قُتَيْلَةَ بَعْدَمَا يكُونُ لَهَا مِثْلَ الأسِيرِ الْمُكبَّلِ

والبيت بتمامه :

نِيَافٌ كَغُصْنِ الْبَانِ تَرْتَجُّ إنْ مَشَتْ دَبِيبَ قَطَا الْبَطْحَاءِ في كُلِّ مَنْهَلِ

وقد ورد الشاهد في الأصل هنا مُحرَّفاً ، والنِّياف : الطويلة التَّامة الحسن ، والْقَطَا : جمع قطاة ، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء ، ويتَّخذ أفحوصه في الأرض ، ويطير في جماعات ، ويقطع مسافات شاسعة ، وبيضه مرقَّط ، ومشيته فيها بطءٌ مع رشاقة ، والمنهل : المورد ، أي الموضع الذي فيه الشرب ، وقد سبق الاستشهاد أيضاً بهذا البيت في سورة هود ، راجع الجزء السابع ، صفحة (٢٤٢) .

(٢) هذا جزءٌ من حديث شريف أخرجه البخاري في الشركة والمغازي ، والإمام أحمد في مسنده (٣–٣٠٦) ، وأخرجه مالك في الموطأ في « صفة النبي » ، ولفظه كما جاء في مسند أحمد عن جابر رضي الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سريَّةً ثلاثمائة ، وأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فنفذ زادنا ، فجمع أبو عبيدة زادهم فجعله في مزود ، فكان يُقيتنا حتى كان يصيبنا كل يوم تمرة ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ، وما كانت تغني عنكم تمرة ؟ قال : قد وجدنا فقدها حين ذهبت ، حتى انتهينا إلى الساحل فإذا حوتٌ مِثل الظَّرِب العظيم ، قال : فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة ، ثم أخذ أبو عبيدة ضلعين من أضلاعه فنَصَبهما ثم أمر براحلته فمرت تحتهما فلم يصبها شيءٌ) . والظَّرِبُ : الجبل المنبسط ، أو الجبيل (بالتصغير) كما قال في أساس البلاغة واللسان .

وقرأ حمزة ، والكسائي : [آيَاتٍ] بالنصب في الموضعين الأخيريْن ، وهي قراءة الجحدري ، والأعمش ، وقرأ الباقون والجمهور : [آيَاتٌ] بالرفع فيهما ، فأمَّا من قرأ : [آيَاتٍ] بالنصب فحمل [آيَاتٍ] في الموضعين على نصب [إنَّ] في قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ﴾ ، ولا يعرض في ذلك العطف على عاملين الذي لا يُجيزه سيبويه وكثير من النحويِّين لأَنا نقدر (في) معادَةً في قوله تعالى : ﴿وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود «وفي ٱخْتِلَافِ» ، فكأَنه تعالى قال – على قراءة الجمهور – : وفي اختلاف الليل ، وذلك أَن ذكرها قد تقدم في قوله تعالى : ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ ، فلما تقدم ذكر الجار جاز حذفه من الثاني ويُقَدَّر مثبتاً ، كما قَدَّر سيبويه في قول الشاعر :

أَكُلَّ ٱمْرِئٍ تَحْسبينَ ٱمْــــرَءًا وَنَارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَــارَا ؟ (١)

---

(١) هذا البيت من شواهد سيبويه ، وقد نسب لجارية بن الحجاج ، وحارثة بن حمران ، وعدي بن زيد العبادي ، والصحيح أنه لأبي دُؤَاد الإيادي ، وهو في أمالي ابن الشجري ، وفي الكامل للمبرد ، وفي مغني اللبيب لابن هشام ، والشاهد في البيت أن « نارٍ » مجرورة بِكُلٍّ أُخرى مقدرة ، كأنه قال : « وكُلَّ نارٍ تَوَقَّدُ بالليل تحسبينها ناراً » ، وقال بعض النحويين : إن هذا البيت كقولهم : « ما كل سوداءَ تَمْرَةً ولا بيضاءَ شحمةً » ، وهو عطفٌ على عامليْن ، وذلك أن « بيضاءَ » جُرَّ عطفاً على « سوداءَ » ، والعامل فيها « كل » ، و «شحمةً » نُصب عطفاً على « تمرَةً » خبر « ما » ، وسيبويه لا يجيز ذلك ، وتأول المثال فقال : إن « بيضاءَ » مجرورة بـ « كل » أُخرى مقدرة بعد « لا » وليست بمعطوفة على « سوداء » . وقد ساعد على تقدير « كل » في البيت ذكرها في أوله ، وقِلَّةُ التباس الأمر على المخاطب . =

أي : وكُلَّ نارٍ ، وكما قال الآخر :

أَوْصَيْتُ مِنْ بَرَّةَ قَلْبـــاً حُــرًّا بالكَلْبِ خَيْراً وَٱلْحَمَاةِ شَرًّا(١)

أي : وبالحماة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الاعتراض كلُّه إنما هو في [آيَاتٍ](٢) الثاني ؛ لأَن الأَول قبله حرف الجرِّ ظاهر ، وفي قراءَة أُبيٍّ بن كعب ، وابن مسعود رضي الله عنهما في الثلاثة المواضع : «لآيَاتٍ» ، قال أَبو علي : وهذا يدل على أَن الكلام محمول على [إِنَّ] في قراءَة من أَسقط اللَّامات في الآيتين الأَخيرتين .

وأَمَّا من رفع [آيَاتٌ] في الموضعين فوجهه العطف على موضع [إِنَّ] وما عملت فيه لأَن موضعها رفع بالابتداء ، ووجه آخر وهو

= والزمخشري يرى أن الآية الكريمة من العطف على عاملين سواءٌ نَصَبْتَ أو رَفَعْتَ ، فالعاملان — إذا نَصَبْتَ — هما [إنّ] و [في] أقيمت الواو مقامهما فعملت الجرَّ في ﴿ ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ، والنصب في [آيَاتٍ] ، وبالتالي فإنه يرى البيت كذلك ، والذين يرفضون العطف على عاملَيْن يقولون : إن حروف العطف تنوب مناب العامل ، ولا يقوى أن تنوب مناب عاملَيْن مختلفين ؛ إذْ لو ناب الحرف مناب عامل رافع وعامل ناصب لكان رافعاً ناصباً في وقت واحد ، وهذا قبيح مردود .

(١) هذا البيت أيضاً شاهد على تقدير جارٍّ آخر هو الباءُ ، أي : أوصيتُها بالكلب خيراً وبالحماةِ شرّاً ، ومعنى هذا أنه يرى أن الكلب خير من الحماة ، ولم أقف على قائل هذا البيت فيما بين يديَّ من المراجع .

(٢) هذا كله في قراءة النصب التي قرأ بها حمزة والكسائي ، أمَّا قراءة الرفع فستأتي بعد ذلك .

أَن يكون قوله تعالى : ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ مُسْتَأْنفاً ، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة ، وقال بعض الناس : يجوز أَن يكون جملة في موضع الحال فلا تكون غريبة على هذا .

و «اختلاف اللَّيل والنهار» إمَّا بالنُّور والظلام وإمَّا بكونهما خلفة ، و «الرِّزق المُنَزَّل من السماءِ» هو المطر ، سماه رزقاً بمآله لأَن جميع ما يُرتزق فَعَن المطر هو ، و «تصريف الرِّياح» هو بكونها صَباً ودبوراً وجنوباً وشمالًا ، وأَيضاً بكونها مرة رحمةً ومرة عذاباً ، قاله قتادة ، وأَيضاً بلينها وشدَّتها وحرِّها وبردها . وقرأَ طلحة وعيسى : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ بالإفراد ، وكذلك في جميع القرآن إلَّا ما كان فيه مبشِّرات ، وخالف عيسى في الحِجْر فقرأَ : ﴿ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱللهِ﴾ إشارة إلى ما ذكر ، وقوله : [نَتْلُوهَا] فيه حذف مضاف ، أَي : نتلوا شأْنها وتفسيرها وشرح العبرة بها ، ويحتمل أَن يريد بـ «آيات الله» القرآنَ المنزَّل في هذه المعاني ، فلا يكون في [نَتْلُوهَا] حذف مضاف . وقوله : [بِالْحَقِّ]

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٢) من سورة (الحِجْر) : ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ .

معناه : بالصدق والإعلام بحقائق الأُمور في أَنفسها . وقوله : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ الآيَةَ ... توبيخٌ وتقريع ، وفيه قوة التهديد .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، والأَعرج ، وشيبة ، وقتادة : [يُؤْمِنُونَ] بالياءِ من تحت ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم أَيضاً ، والأَعمش : [تُؤْمِنُونَ] بالتاءِ على مخاطبة الكفار ، وقرأ طلحة بن مصرف : [تُوقِنُونَ] بالتَّاءِ من فوق ، من اليقين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

«الْوَيْلُ» في كلام العرب ، : المصائب والحزن والهمُّ والشِّدَّة من هذه المعاني ، وهي لفظة تستعمل في الدعاءِ على الإنسان ، ورُوي في

بعض الآثار أن في جهنم وادياً اسمه ويْلٌ (١) ، وذهب الطبري إلى أن المراد بالآية ومقتضى اللُّغة أنه الدُّعاءُ على أَهل الإِفك والإِثم بالمعاني المتقدمة . و «الأَفَّاكُ» : الكذَّاب الذي يقع منه الإِفك مراراً . و «الأَثيمُ» بناءُ مبالغة ، اسم فاعل من : أَثِمَ يَأْثَمُ .

وروي أن سبب هذه الآية أَبو جهل ، وقيل : النضر بن الحارث ، والصواب أَن سببها ما كان المذكوران ـ وغيرهما ـ يفعلان ، وأَنها تعُمُّ كل من دخل تحت الأَوصاف المذكورة إلى يوم القيامة .

و [يُصِرُّ] معناه : يثبتُ على عقيدته من الكفر ، وقوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ، حَسُنَ ذلك لَمَّا أَفصح عن العذاب ، ولو كانت البشارة غير مُقَيَّدَة بشيءٍ لما حملت إلَّا على المحابِّ .

وقرأ جمهور الناس : ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ بفتح العين وتخفيف اللام ، والمعنى : وإذا أُخبر بشيءٍ من آياتنا فعلم نفس الخبر لا المعنى الذي تضمنه الخبر ، ولو علم المعاني التي تتضمنها أَخبار الشرع وعرف

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأنبياء ، وأحمد في مسنده (٣-٧٥) ، ولفظه كما في المسند : عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (وَيْلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره ، والصَّعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً يهوي به كذلك فيه أبداً) .

حقائقها لكان مؤمناً ، وقرأ قتادة ، ومَطَرٌ الورَّاق(١) : ﴿وَإِذَا عُلِّمَ﴾ بضم العين وتشديد اللام ، وقوله تعالى : [أُولَئِكَ] على لفظ ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ لأنه اسم جنس له الصفات المذكورة بَعْدُ .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ قال فيه بعض المفسرين : معناه : من أمامهم ، وهذا كالخلاف الذي في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ (٢) ، ولحظ قائل هذه المقالة الأمر من حيث تأَوَّل أن الإنسان كأَنه من عمره يسير إلى جنَّة أو نارٍ ، فهما أَمامه ، وليس لفظ «الوراءِ» في اللغة كذلك ، وإنما هو ما يأْتي خلف الإنسان ، وإذا اعتبر الأَمرُ بالتقدُّم والتأَخُّر في الوجود على أَن الزَّمان كالطَّريق للأَشياءِ استقام الأَمر ، فما يأْتي بعد الشيءِ في الزَّمان فهو وراءَه ، فكان الملك وأَخذه السَّفينة وراءَ ركوب أُولئك إيَّاها ، وجهنَّم وإحراقها للكفَّار يأْتي بعد كفرهم وأَفعالهم ، وهذا كما تقول : افعل كذا وأَنا من ورائك عضداً ، أَو كما تقول ذلك على التهديد : أَنا من وراءِ التَّقصِّي عليك ، ونحو هذا . وقوله تعالى : ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا﴾ يعني بذلك الأَوثان .

(١) مَطَر — بفتحتين — ابن طهمان الورَّاق ، أبو رجاءٍ السلمي — مولاهم — الخراساني ، سكن البصرة ، صدوق ، كثير الخطأ ، وحديثه عن عطاءٍ ضعيف ، من الطبقة السادسة ، مات سنة خمس وعشرين ، ويقال : سنة تسع . (تقريب التهذيب) .

(٢) من الآية (٧٩) من سورة (الكهف) .

وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ إشارة إلى القرآن ، وقرأ ابن كثير ، وعاصم - في رواية حفص - : [أَلِيمٌ] على النعت لـ [عَذَابٌ] ، وهي قراءة ابن محيصن ، وابن مُطَرِّف وأهل مكة ، وقرأ الباقون : [أَلِيمٍ] على النعت لـ [رِجْزٍ] ، وهي قراءة الحسن ، وأبي جعفر ، وشيبة ، وعيسى ، والأعمش . و «الرِّجْزُ» : أَشدُّ العذاب ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ ﴾ بمنزلة قولك : لهم حظٌّ ، فمن هذه الجهة ومِنْ جهة تغاير اللفظتين حسُنَ قوله تعالى : ﴿ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ ﴾ إذ الرِّجْزُ هو العذاب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

هذه آية عبرة في جريان السُّفن في البحر ، وذلك أَن الله تعالى سخَّر هذا المخلوق العظيم لهذا المخلوق الحقير الضعيف ، وقوله تعالى :

[بِأَمْرِهِ] ، أَناب القدرَة والإِذن مناب أَن يأْمر البحر والنَّاس بذلك ، و «الابتغاءُ من فضل الله تعالى» هو بالتِّجارة في الأَغلب ، وكذلك مقاصد البرِّ من حجٍّ وجهادٍ هي أَيضاً ابتغاءُ فضل ، والتَّصيُّد (١) فيه أَيضاً هو ابتغاءُ فضل .

و «تَسْخير ما في السَّموات» هو تسخير الشمس والقمر والنجوم والسَّحاب والرِّياح والهواءِ والملائكة الموكلة بهذه كلها ، ويروى أَن بعض الأَخيار نزل به ضيف فقدم إِليه رغيفاً ، فكأَن الضَّيف احتقره ، فقال له المضيف : لا تحتقره فإِنه لم يستدر حتى سُخِّر فيه من المخلوقات والملائكة ثلاثمائة وستون بَيْن من ذكرنا من مخلوقات السَّماءِ وبيْن الملائكة وبيْن صناع بني آدم الموصِّلين إلى استدارة الرَّغيف . و «تسْخير ما في الأَرض» هو تسخير البهائم والمياه والأَودية والجبال وغير ذلك .

ومعنى قوله تعالى : ﴿جَمِيعاً مِنْهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : كل إِنعام فهو من الله تعالى ، وقرأَ جمهور الناس : [مِنْهُ] وهو وقف جيِّد ، وقرأَ مَسْلَمة بن مُحارب : [مَنُّهُ] بفتح الميم وشدِّ النون المضمومة ، بتقدير : هو مَنُّه (٢) ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما : [مِنَّةً] بكسر

---

(١) التَّصيُّد : طلب الصيد ، وهو أيضاً : الاحتيال للصَّيد .

(٢) هذا قول أبي حاتم ، قال أبو الفتح ابن جني : «ويجوز عندي أن يكون مرفوعاً بفعله هذا الظاهر ، أي: سَخَّرَ لكم ذلك مَنُّهُ ، كقولك : أحياني إقبالك عليَّ ، وسدَّد =

الميم وفتح النون المشَدَّدَة ونصب التَّاءِ على المصدر(١)، وقال أبو حاتم : سَنَدُ هذه القراءَة إلى ابن عباس رضي الله عنهما مُظْلم ، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، والجحدري ، وعبد الله ابن عُبَيْد بن عُمَيْر ، وقرأ مَسْلَمة بن مُحارب أيضاً : [مِنَّةٌ] بكسر الميم وبالرفع في التَّاءِ .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآيَةَ نزلت في صدر الإسلام ، أمر الله تعالى المؤمنين فيها أن يتجاوزوا عن الكفار ، وألَّا يعاقبوهم بذنب ، بل يأْخذون أنفسهم بالصبر لهم ، قاله محمد بن كعب القرظي ، والسدي . قال أكثر الناس : هذه آية منسوخة بآية القتال ، وقالت فرقة : الآية مُحكمة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والآية تتضمن الغفران عموماً ، فينبغي أن يقال : إن الأُمور العظام كالقتل والكُفْر مجاهرةً ونحو ذلك قد نسخ غُفْرانُه بآية

= أمري حُسْنُ رأيك فيَّ. فتَعْمِلُ فيه هذا اللفظ الظاهر ، ولا تحتاج إلى إبعاد التناول واعتقاد ما ليس بظاهر » .

(١) هذا هو رأي ابن جني ، يقول : « هو منصوب على المصدر بما دلَّ عليه قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ ؛ لأن ذلك مِنْه ـ عزَّ اسْمُه ـ مِنَّةً مَنَّها عليهم ، فكأنه قال : مَنَّ عَلَيْه مِنَّةً ، ومن نصب « وميضَ البرق » من قولهم : « تبَسَّمَت وميضَ البرق » بنفس « تبَسَّم » لكونه بمعنى « أوْمَضْتُ » ، نصب أيضاً [مِنَّةً] بنفس ﴿ سَخَّرَ لَكُمْ ﴾ ، على ما مضى » .

السيف والجزية وما أحكمه الشرع لا محالة ، وإنَّ الأُمور المحقَّرة كالجفاءِ في القول ونحو ذلك يحتمل أَن تبقى محكمة وأَن يكون العفو عنها أَقرب إلى التقوى .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لمَّا أُنزلت ﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضَاً حَسَناً﴾(١) قال فنحاص اليهودي : احتاج ربّ محمد ، تعالى الله عزَّ وجلَّ عن قوله ، فأَخذ عمر رضي الله عنه سيفه ومرَّ ليقتله ، فردَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : إنَّ ربَّك يقول : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ الآية .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهذا احتجاجٌ بها مع قدم نزولها ، وقد ذكر مكِّيٌّ وغيره أَنها نزلت بمكة في عمر رضي الله عنه لما أَراد أَن يبطش بمشرك شتمه ، وأَمَّا الجزم في قوله تعالى : [يَغْفِرُوا] فهو جواب شرط مقدر ، وتقديره : قُل للذين آمنوا يغفروا ، فإن يجيبوا يغفروا ، وأَخصر من هذا عندي أَنَّ [قُلْ] هي بمثابة : اندب المؤمنين إلى الغَفْر(٢) .

---

(١) من الآية (٢٤٥) من سورة (البقرة) ، وتكررت في الآية (١١) من سورة (الحديد) .

(٢) ومثل هذه الآية قوله تعالى في الآية (٥٣) من سورة (الإسراء) : ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا﴾ ، وقوله تعالى في الآية (٣١) من سورة (إبراهيم) : ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ ، والفراءُ يرى أنه مجزوم بالتشبيه بالجزاء والشرط .

وقوله تعالى : ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قالت فرقة : معناه : أيام إنعامه ونصره وتنعيمه في الجنة وغير ذلك ، فـ [يَرْجُونَ] – على هذا – هو على بابه ، وقال مجاهد : أيامُ الله تعالى هي أيام نِعَمه وعذابه ، فـ [يَرْجُونَ] – على هذا – هي التي تتنزَّل منزلة «يخافون» ، وإنما تنزَّلت منزلتها من حيث الرجاءُ والخوف متلازمان ، لا نجد أَحدهما إلَّا والآخر معه مقترن ، وقد تقدَّم شرح هذا غير مرة .

وقرأ جمهور القراءِ : [لِيَجْزِيَ] بالياءِ على معنى : ليجزيَ اللهُ ، وقرأَ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، والأَعمش ، وأَبو عبد الرحمن ، وابن وثاب : [لِنَجْزِيَ] بالنون ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع – بخلاف عنه – : [لِيُجْزَى] على بناءِ الفعل للمجهول [قَوْماً] ، وهذا على أَن يكون التقدير : ليُجْزَى الجزاءُ قوماً (١) ، وباقي الآية وعيدٌ .

---

(١) هذا تقدير الكسائي ، ونظيره في ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُجِّيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على قراءة ابن عامر ، وأبي بكر ، ومثل هذا جاء في قول جرير يهجو الفرزدق ويُعيِّره بأُمِّه قُفَيْرَة :

وَلَوْ وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَ كَلْبٍ لَسُبَّ بِذَلِكَ الْجَرْوِ الكِلابَا

إذ التقدير : لَسُبَّ السَّبُّ . ولكن الجمهور لا يجيز ذلك ، ولهذا قال أبو عمرو عن هذه القراءة : « هذا لَحْنٌ ظاهر » ، وهناك تأويلات أخرى نجدها في كتب التفسير لتخريج هذه القراءة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

لمَّا تقرر في الآية التي قبل هذه أَن الله تعالى يجزي قوماً بكسبهم ويعاقبهم على ذنوبهم واجترامهم أَكَّد ذلك بقوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾ ، وقوله تعالى : [فَلِنَفْسِهِ] هي لام الحظِّ ؛ لأَن الحظوظ والمحابَّ إنما تستعمل فيها اللام التي هي كَلَام المِلْك ، تقول : «الأُمور لي ولزيد مُتَأَتِّيَة» ، ويستعمل في ضد ذلك «عَلَى» ، فتقول : «الأُمور على فلان مُسْتَعْصية» ، وتقول : «لِزَيْد مالٌ وعليه دَيْن» ، وكذلك جاءَ العمل الصالح في هذه باللَّام والإساءَة بِعَلَى ، وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ معناه : إلى قضائه وحُكْمه .

والكتابُ في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ﴾ هو التَّوراةُ ، و «الحكمُ» هو السُّنَّة والفِقْه ، فيقال : إنه لم يتَّسع فِقْه الأَحكام على لسان نبيٍّ ما اتَّسع على لسان موسى عليه السلام ، و «النُّبُوَّة» هي ما تكرر فيهم من الأَنبياء عليهم السلام . وقوله تعالى :

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ ﴾ يعني من المسْتَلَذَّات الحلال ، وبهذا تتم النعمة ويحسن تعديدها ، وهذه إشارة إلى المنِّ والسَّلوى وطيِّبات الشَّام بَعْدُ ؛ إذ هي الأَرض المباركة ، وقد تقدَّم القول في معنى الطَّيِّبات وتلخيص قول مالك والشَّافعي في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ يريد : على عالَم زمانهم .

و « البَيِّنَات من الأَمر » هي الوحي الذي فُصِّلت لهم به الأُمور ، ثم بيَّن تعالى خطأَهم وعَظَّمَهُ بقوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ ، وذلك أَنهم لو اختلفوا اجتهاداً في طلب الصواب لكان لهم عذر في الاختلاف ، وإنما اختلفوا بغياً بينهم وهم قد تَبَيَّنُوا الحقائق ، ثم توعَّدهم تعالى بوقف أَمرهم على قضائه بينهم يوم القيامة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

المعنى : ثم جعلناك على شريعة فلا محالة أَنه سَيُخْتَلَف عليك كما تقدَّم لبني إسرائيل ، فاتَّبع شريعتك ، والشريعة في كلام العرب

الموضعُ الذي يَرِدُ فيه النَّاسُ في الأَنهار والمياه ، ومنه قول الشاعر :

وفي الشَّرائع مِنْ جَيْلَانَ مُقْتَنِصٌ رَثُّ الثِّيَابِ خَفِيُّ الشَّخْصِ مُنْسَرِبُ (١)

فشريعة الدِّين من ذلك ، كأَنها من حيث يرد النَّاس أَمر الله ورحمته والقرب منه ، وقال قتادة : الشَّرائع : الفرائض والحدود والأَمر والنهي . وقوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ يحتمل أَن يكون واحد الأُمور ، أَي : من دين الله تعالى ونُبُوَّاتِهِ التي بثَّها في سالف الزَّمان ، ويحتمل أَن يكون مصدراً من أَمر يأْمر ، أَي : على شريعة من الأَوامر والنَّواهي ،

(١) هذا البيت شاهد على أن الشريعة هي الموضع الذي يرد فيه الناس إلى الأنهار والمياه فيشربون ويستقون ، وهو في اللسان (زرب) ، وقد نسبه إلى ذي الرُّمَّة ، والرواية فيه :

وَبِالشَّمَائِلِ من جَـلَّانَ مُقْتَنِصٌ رَذْلُ الثِّيَـابِ خَفِيُّ الشَّخْصِ مُنْزَرِبُ

قال : « والزَّرْبُ والزَّرِيبَةُ » : بئر يحتفرها الصائد ، يكمن فيها للصيد ، وفي الصِّحَاح : انْزَرَبَ الصَّائِد في قُتْرَتِهِ : دَخَلَ : قال ذو الرُّمَّة : « وبالشَّمائل من جلَّان ... » البيت ، وَجَلَّان : قبيلة » اهـ . وعلى هذا فلا شاهد فيه هنا ، أما على رواية « وفي الشرائع » فإن الشَّريعة هي الموضع الذي يُنْحَدَرُ منه إلى الماء ، جاء في اللسان (شرع) : « شَرَعَ الوارد يَشْرَعُ شَرْعاً وشُرُوعاً : تناول الماء بفيه ، وشرعت الدواب في الماء : دخلت ، والشريعة والشِّراع والمَشْرعة : المواضع التي يُنْحَدَرُ إلى الماء منها ، قال الليث : وبها سُمِّي ما شرع الله للعباد شريعة » اهـ . وجَيْلان – بفتح الجيم وبياء ساكنة كما ضبطه الحموي في معجم البلدان – هم قوم من أبناء فارس انتقلوا إلى نواحي اصطخر فنزلوا بطرف من البحرين فغرسوا وزرعوا وحفروا وأقاموا هناك ، فنزل عليهم قوم من بني عِجْل فدخلوا فيهم ، وهذا يتفق مع قول اللسان : جَلَّان : قبيلة . والمقتنص : الصائد ، والشَّخص : كل جسم له ارتفاعٌ وظهور ، وغلب في الإنسان ، وانسرب : اختفى في شيء ، يقول : إن في موارد المياه صائد من قبيلة جلان يخفي شخصه ، ويدخل في قُتْرته ويبقى في انتظار فرائسه . هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في تفسير قوله تعالى في الآية (٤٨) من سورة (المائدة) : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ . راجع الجزء الرابع صفحة (٤٧٠) .

فسمّى الله تعالى جميع ذلك أمراً ، و «ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» هم الكفّار الذين كانوا يريدون صرف محمد صلى الله عليه وسلم إلى إرادتهم . و [يُغْنُوا] من الغَنَاء ، أي لن يكون لهم عنك دفاع ، ثمّ حقّر تعالى شأن الظّالمين مشيراً بذلك إلى كفّار قريش ، ووجْه التّحقير أنه تبارك وتعالى قال : وهؤلاء يتولى بعضهم بعضاً ، والمتّقون يتولاهم الله تعالى ، فخرجوا عن ولاية الله تعالى وتبرَّأْت منهم ، ووكل الله تعالى بعضهم إلى بعض .

وقوله تعالى : ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يريد القرآن ، و «البَصائِرُ» جمع بصيرة ، وهي المعتقد الوثيق في الشيء ، كأنه مصدر من إبصار القلب ، فالقرآن فيه بيِّنات ينبغي أن تكون بصائر ، و «البصيرة» في كلام العرب : الطريقة من الدَّم ، ومنه قول الشَّاعر :

رَاحُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتَدٌ وَأَي (١)

(١) البيت للأسْعَر الجُعْفيِّ ، وهو في اللسان (بصر) ، والرواية في القرطبي : «جاءُوا بصائرهم» ، والبصيرة : الثَّأرُ ، وقيل : البصيرة من الدَّم ما لم يَسِلْ ، وقيل : البصيرة : دم البِكْرِ ، ذكر ذلك كلَّه صاحب اللسان ، وروى البيت ثم قال : «يعني بالبصائر دم أبيهم ، يقول : تركوا دم أبيهم خلفهم ولم يثأروا به وطلبته أنا ، وفي الصِّحاح : وأنا طلبتُ ثأري ، وكان أبو عبيدة يقول : البصيرة في هذا البيت : التُّرس أو الدِّرع ، وكان يرويه : حملوا بصائرهم ، وقال ابن الأعرابي : راحوا بصائرهم يعني ثِقْل دمائهم على أكتافهم لم يثأروا بها ، والبصيرة : الدِّيَة ، والبصائر : الدِّيَات في أول البيت ، قال : أخذوا الدِّيَات فصارت عاراً ، وبصيرتي أي ثأري قد حملتُه على فرسي لأطالب به ، فبَيْني وبينهم فرق» ، والعَتَد — =

وفسَّر النَّاس هذا البيت بطريقة الدَّم ؛ إذا كانت عادة طالب الدَّم عندهم أَن يجعل طريقة من دم خلف ظهره ليُعْلَم بذلك أَنه لم يُدرك ثأْره وأَن يطلبه ، [ويظهر فيه أَنه يريد بصيرة القلب ، أَي : قد اطَّرح هؤلاءِ بصائرهم وراءَ ظهورهم](١) .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الآيَةَ قولٌ يقتضي أَنه نزل بسبب افتخارٍ كان للكفَّار على المؤمنين ، قالوا : «لئن كانت آخرةٌ كما تزعمون لَنُفَضَّلَن فيها عليكم كما فُضِّلْنا في الدنيا» . و [أَمْ] هذه ليست بمعادلة ، وهي بمعنى «بَلْ» مع أَلف الاستفهام ، و [ٱجْتَرَحُوا] معناه : اكتسبوا ، ومنه جوارحُ الإِنسان وجوارحُ الصَّيد ، وتقول العرب : «فلان جارحة أَهله» أَي كاسبهم . وقرأَ أَكثر القرَّاءِ : [سَوَاءٌ]

= بفتح التاء وكسرها ـ: الفَرَسُ التَّام الخَلْق السريع الوثبة المُعَدُّ للجري ، ليس فيه اضطرابٌ ولا رخاوة ، وقوله : «وَأي» بواو مفتوحة بعدها همزة يريد به الفرس السريع المقتدر ، وهكذا ضبطه في اللسان وفي الأصمعيَّات بهمزة مفتوحة دون مَدٍّ ، يقول الشاعر : إنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم ، أي لم يثأروا له ، وأنا طلبتُ ثأري ، وقد سبق الاستشهاد بالبيت في سورة الأنعام ، راجع الجزء الخامس صفحة (٣٠٩) .

هذا وقد ورد اسم الشاعر في اللسان محرفاً الأشْعر ـ بالشِّين المعجمة ـ والصواب ما ذكرناه هنا ، وهو شاعر جاهلي اسمهُ مِرْثد بن أبي حِمْران ، والأسْعر ـ بالسِّين ـ لقبٌ لُقِّب به لقـولـه :

فلا يدعني قومي لسَعْـد بن مالك إذا أنا لَمْ أسعـــر عليهم وأثقب

(١) ما بين العلامتين [.....] سقط من كثير من النسخ ، وهو مثبت في النسخة التونسية .

بالرَّفع ﴿ مَحْيَاهُمْ ومماتهم ﴾ بالرَّفع ، وهذا على أن [سَوَاءٌ] رفع بالابتداء(١) ، و ﴿ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ خبره ، و [كَالَّذِينَ] في موضع المفعول الثاني لـ « نَجْعَلَ » ، وهذا على أحد معنيين ، إمَّا أن يكون الضمير في [مَحْيَاهُمْ] يختص بالكفار المجترحين ، فتكون الجملة خبراً عن أن حالهم في الزمنيْن حال سوءٍ ، والمعنى الثاني أن يكون الضمير في [مَحْيَاهُمْ] يعُمُّ الفريقين ، والمعنى أن مَحْيَا هؤلاءِ ومماتهم سواءٌ ، وهو كريم ، ومَحْيَا هؤلاءِ ومماتهم سواءٌ ، وهو غير كريم ، ويكون اللَّفظ قد لَفَّ هذا المعنى وذِهْنُ السَّامع يُفَرِّقه ؛ إذ قد تقدَّم إبعاد أن يجعل الله تعالى هؤلاءِ كهؤلاءِ ، قال مجاهد : والمؤمن يموت مؤمناً ويُبعث مؤمناً ، والكافر يموت كافراً ويُبعث كافراً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

مقتضى هذا الكلام أن لفظ الآية خبر ، ويظهر لي أن قوله تعالى : ﴿ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ داخل في المحسبة المُنْكرة السيئة ، وهذا احتمال حسن(٢) ، والأول أيضاً جيِّد . وقرأ طلحة ، وعيسى - بخلاف

---

(١) قال أبو حيان الأندلسي : « ولا مسوِّغ لجواز الابتداء به ، بل هو خبر مقدم وما بعده المبتدأ ، والجملة خبر مستأنف » .

(٢) عقَّب أبو حيَّان الأندلسي على هذا بعد أن نقله بقوله : « ولم يُبَيِّن كيفية تشبُّث الجملة بما قبلها حتى يدخل في المحسبة » .

عنه - [سَوَاءً] بالنصب ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالرَّفع ، وهذا يحتمل وجهين : أَحدهما أَن يكون قوله تعالى : [كَالَّذِينَ] في موضع المفعول الثاني لـ «نَجْعَلَ» كما هو في قراءة الرَّفع ، وينصب قوله تعالى : [سَوَاءً] على الحال من الضمير في [نَجْعَلَهُمْ] ، والوجه الثاني أَن يكون قوله تعالى : [كَالَّذِينَ] في نيَّة التأْخير ، ويكون قوله تعالى : [سَوَاءً] مفعولًا ثانياً لـ «نَجْعَلَ» ، وعلى كلا الوجهين ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مرتفع بـ [سَوَاءً] على أنه فاعل . وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم(١) ، والأَعمش : [سَوَاءً] بالنصب ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتَهُمْ﴾ بالنصب ، وذلك على الظرف ، أَو على أَن يكون [مَحْيَاهُمْ] بدلًا من الضمير في [نَجْعَلَهُمْ] ، أَي : نجعل محياهم ومماتهم سواءً ، وهذه الآية متناولةٌ بلفظها حال العصاة من حال أَهل التقوى ، وهي موقف للعارفين يبكون عنده ، وروي عن الرَّبيع بن خيثم أَنه كان يرددها ليلة جمعاء ، وكذلك عن الفضيل بن عياض ، وكان يقول لنفسه : ليت شعري من أَي الفريقين أَنت ؟ وقال الثعلبي : كانت هذه الآية تسمَّى مبكى العابدين .

---

(١) قراءة حفص عن عاصم كما هي في المصحف الشريف : ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالنصب في [سَوَاءً] والرفع في ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأما لفظها فيعطي أنه اجتراح الكفر بدليل معادلته بالإيمان ، ويحتمل أن تكون المعادلة بين الاجتراح وعمل الصالحات ويكون الإيمان في الفريقين ، ولهذا بكى الخائفون رضي الله عنهم . وأمّا مفعولا [حَسِبَ] فقوله تعالى : ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ يسدُّ مسدَّ المفعولين . وقوله تعالى : ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [مَا] مصدرية ، والتقدير : ساءَ الحُكْمُ حُكْمُهُم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

المعنى : وخلق الله السموات والأَرض ، فإن خلقها حق واجب متأكد في نفسه لما فيه من فيض الخيرات ، ولتدل عليه تعالى ، ولتكون صنعة حاكمة بصانع ، وقيل لبعض الحكماء: لم خلق الله السموات

والأَرض؟ فقال: ليظهر جودة صنعه، واللام في قوله سبحانه : [وَلِتُجْزَى] يظهر أَن تكون لام كَيْ، فكأَن الجزاء من أَسباب خلق السموات والأَرض، ويحتمل أَن تكون لام الصيرورة، أَي : وصار الأَمر فيها من حيث اهتدى بها قوم وضلَّ عنها آخرون لأَن يجازى كل أَحد بعمله وبما اكتسب من خير أَو شر .

قوله تعالى : [أَفَرَأَيْتَ] ، سهَّل بعض القرَّاءِ الهمزة وحقَّقها قوم، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود مخفَّفة، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه «أَفَرَيْتَ» دون همز، وهذه الآية تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم عن الكفار المعرضين عن الإِيمان ، أَي : لا تحفِل بهم ولا تهتم بأَمرهم ، فليس فيهم حيلة لبشر لأَن الله أَضلَّهم، قال ابن جبير : ﴿إِلٰهَهُ هَوَاهُ﴾ إشارة إِلى الأَصنام ؛ إِذ كانوا يعبدون ما يَهْوَوْن من الحجارة ، وقال قتادة : المعنى : لا يهوى شيئاً إِلَّا ركبه لا يخاف الله تعالى ، فهذا كما يقال : الْهَوَى إِلٰه معبود، وقرأَ الأَعرج ، وابن جبير : ﴿إِلٰهَةً هَوَاهُ﴾ على التأْنيث في «إِلٰهَة» ، وهذه الآية وإِن كانت نزلت في هوى الكفر فهي متناولة جميع هوى النفس الأَمَّارة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما ذكر الله تعالى هوىً إِلَّا ذَمَّه ، وقال الشعبي : سُمِّي هوًى لِهُوِيِّه بصاحبه ، وقال النبي

صلى الله عليه وسلم : (والعاجزُ من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)(١)، وقال سهل التُّستُري : «هواك داؤُك ، فإن خالفته فدواؤُك» ، وقال وهب : «إذا شككتَ في خيْر أمريْن فانظر أبعدهما من هواكَ فأْته»، ومن حكمة الشِّعر في هذا قول القائل :

إذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى   إلَى كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَـالُ (٢)

وقوله تعالى : ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : على عِلْم من الله سابق ، وقالت فرقة : أي : عَلَى عِلْمٍ من هذا الضلال فإن الحق هو الذي يترك ويعرض عنه ، فتكون الآية - على هذا التأْويل - من آيات العناد ، نحو قوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾(٣)، على كلا التأْويلين ، فقوله تعالى : ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ حال .

وقوله تعالى : ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ استعارات كلها ؛ إذ هذا الضَّالُّ لا ينفعه ما يسمع ولا ما يفهم ولا ما يرى ، فكأَنه بهذه الأَوصاف المذكورة ، وهذه الآية لا حُجَّة للجبريَّة فيها

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة ، وابن ماجه في الزهد ، وأحمد في مسنده (٤-١٢٤) ، عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله) .

(٢) هذا البيت قاله هشام بن عبد الملك ، ولم يقل غيره ، قال ذلك صاحب كتاب «عيون الأخبـار» .

والْهَوَى : ما تريده النفس وتحبُّه ، وإذا أُطلق كان مذموماً حتى يوصف بما يجعله حسناً ، والمقال : قالَة السوء عليه ، يقول الشاعر : إذا لم تخالف رغبات نفسك وشهواتها قادك هواك إلى الخطأ فيَتَقَوَّلُ الناس عليك وينسبون لك كل قبيح مرذول .

(٣) من الآية (١٤) من سورة (النَّمل) .

لأن التَّكسُّب فيها منصوص عليه في قوله تعالى : [ٱتَّخَذَ] ، وفي قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على التأْويل الأخير فيه ، ولو لم ينص على الاكتساب لكان مراداً في المعنى ، وقرأ أكثر القراء : [غِشَاوَةً] بكسر الغين ، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : [غَشَاوَةً] بفتح الغين ، وهي لغة ربيعة ، وحكي عن الحسن وعكرمة [غُشَاوَةً] بضم الغين ، وهي لغة عُكل ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [غَشْوَةً] بفتح الغين وإسكان الشِّين ، وقرأ الأَعمش ، وابن مصرف : [غِشْوَةً] بكسر الغين دون ألف . وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره : من بعد إضلال الله تعالى إيَّاه ، وقرأ عاصم ـ وَأُرَاهُ الجحدري ـ : [تَذَكَّرُونَ] بتخفيف الذال ، وقرأ جمهور الناس : [تَذَّكَّرُونَ] على الخطاب أيضاً بتشديد الذال ، وقرأ الأَعمش : [تتذكَّرُونَ] بتاءَيْن .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَاهِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ الآيَةَ ... حكايةُ مقالة بعض قريش ، وهذه صيغة دهرية من كفَّار العرب ، ومعنى قولهم : ما في الوجود إلَّا هذه الحياة التي نحن فيها وليست ثَمَّ آخِرَةٌ ولا بَعْثٌ .

واختلف المفسرون في معنى قولهم : ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ـ فقالت فرقة : المعنى : نحن موتى قبل أن نوجد ثم نحيا في وقت وجودنا . وقالت فرقة : المعنى : نموت حين نحن نطفٌ ودَمٌ ثمَّ نحيا بالأَرواح فينا ، وهذا قول قريب من الأَول ، ويسقط على القولَيْن ذكر الموت المعروف الذي هو خروج الرُّوح من الجسد ، وهو الأَهم في الذِّكر ،

وقالت فرقة : المعنى : نحيا ونموت ، فوقع في اللفظ تقديم وتأخير ، وقالت فرقة : الغرض من اللفظ العبارة عن حال النوع ، فكأن النوع بجملته يقول : إنما نحن تموت طائفة وتحيا طائفة دأبا . وقولهم : ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي طول الزّمان ، وهو المهلِك لأن الأوقات تستوي فيه كمالاتها ، فنفى الله تعالى عنهم علمهم بهذا ، وأعلم أنها ظنون منهم وتخرّص يفضي بهم إلى الإشراك بالله تعالى ، والدّهر والزّمان تستعملهما العرب بمعنى واحد ، وفي قراءة ابن مسعود : «وما يُهلكنا إلّا دهر يمرّ» ، وقال مجاهد : الدّهر هنا الزّمانُ ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يُهلكنا اللّيل والنّهار) (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويفارق هذا الاستعمالَ قولُ النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تَسُبُّوا الدَّهر فإن الله تعالى هو الدّهر) (٢) ، وفي حديث آخر قال الله تعالى :

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه كما في (الدُّرّ المنثور) : قال : كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يُهلكنا الليل والنهار ، فقال الله في كتابه : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ ، وقال الله : يؤذيني ابن آدم يسُبُّ الدّهر ، وأنا الدّهر ، بيدي الأمر ، أُقلّب الليل والنهار) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ، ومسلم في الألفاظ ، ومالك في الموطأ ، وأحمد في مسنده (٢–٢٥٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥) ، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تُسَمُّوا العنب الكرم ، ولا تقولوا : خيبة الدّهر ، فإن الله هو الدّهر) . قال القرطبي : «وقد استدل بهذا الحديث من قال : إن الدّهر من أسماء =

(يسبُّ ابن آدم الدَّهر وأنا الدَّهر بيدي اللَّيل والنَّهار) (١)، ومعنى هذا الحديث: فإنَّ الله تعالى هو الذي يفعل ما تنسبونه إلى الدَّهر وتسبُّونه بسببه، وإذا تؤملت أمثلة هذا الكلام ظهرت إن شاءَ الله تعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

= الله، وقال من لم يجعله من العلماء اسماً: إنما خرج ردّاً على العرب في جاهليتها، فإنهم كانوا يعتقدون أن الدّهر هو الفاعل ... فقيل لهم ذلك، أي أن الله هو الفاعل لهذه الأمور التي يُضيفونها إلى الدّهر» اهـ بتصرف، وقد ذكر ابن عطية هذا موجزاً ودقيقاً في كلامه، واللفظ الذي اختاره ابن عطية للحديث هنا هو لفظ مسلم في صحيحه.

(١) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه كما في الدُّرِّ المنثور: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله عزَّ وجلَّ: يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدّهر وأنا الدّهر، بيدي الأمر، أُقلِّب الليل والنهار). ونلاحظ أنه جزء من الحديث الأول الذي خرجناه في الهامش رقم (١) من الصفحة السابقة، ونلاحظ كذلك أن ابن عطية قال في تقديم هذا الحديث: «وفي حديث آخر».

الضمير في [عَلَيْهِمْ] عائد على كفَّار قريش ، و «الآيات» هي آيات القرآن وحروفه بقرينة قوله تعالى : [تُتْلَى] ، وعابَتْ هذه الآية سوءَ مقاولتهم ، وأنهم جعلوا بدل الحجة التمني المتشطط والطلب لما قد حتم الله تعالى ألَّا يكون إلَّا إلى أَجل مُسمى .

وقرأ الحسن ، وعمرو بن عُبَيْد ، وابن عامر - فيما روي عنه عبد الحميد - ، وعاصم - فيما روي هارون وحُسَيْن عن أَبي بكر عنه - : [حُجَّتُهُمْ] بالرَّفع على اسم [كَانَ] والخبر في [أَنْ] ، وقرأ جمهور الناس : [حُجَّتَهُمْ] بالنصب على خبر مُقَدَّم واسم كان في [أَنْ] .

وكان بعض قريش قد قال : احْيِ لنا قُصَيًّا - فإنه كان شيخ صِدْق - حتَّى نسأَله ، إلى غير ذلك من هذا النحو ، فنزلت الآية في ذلك ، وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : [ائْتُوا] من حيث المخاطبة له والمراد هو وإلٰهه والْمَلَك الوسيط الذي ذكر هو لهم ، فجاءَ من ذلك جملة قيل لها : [ائْتُوا] و ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ .

ثم أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أَن يخبرهم بالحال السابقة في علم الله تعالى التي لا تُبَدَّل ، وهي أَنه يحيي الخلق ويميتهم بعد ذلك ويحشرهم بعد إماتتهم إلى يوم القيامة ، وقوله سبحانه : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَي في نفسه وذاته ، و «الأَكثر» الذي لا يعلم هم الكفار ، و «الأَكثر» هنا على بابه .

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ، قالت فرقة : العامل في [يَوْمَ] قوله تعالى : [يَخْسَرُ] ، وجاء قوله تعالى : [يَوْمَئِذٍ] بدلًا مؤكِّداً ، وقالت فرقة : العامل في [يَوْمَ] فعل يدل عليه المُلْك ، وذلك أن يوم القيامة حال ثالثة ليست بالسماء ولا بالأَرض لأَن ذلك يتبدَّل ، فكأَنه تعالى قال : ولله مُلْك السموات والأَرض والملك يوم القيامة ، وينفرد [يَخْسَرُ] بالعمل في قوله تعالى : [يَوْمَئِذٍ] ، و [ٱلْمُبْطِلُونَ] : الداخلون في الباطل .

وقوله تعالى : ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ وصف حال القيامة وهولها ، و «الأُمَّةُ» : الجماعة العظيمة من الناس التي قد جمعها معنى أَو وصف شامل لها ، وقال مجاهد : الأُمَّةُ : الواحد من الناس .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قلِقٌ في اللُّغة ، وإن قيل في إبراهيم صلى الله عليه وسلم : أُمَّة (١) ، وقالها النبي صلى الله عليه وسلم في قُسّ بن ساعدة (٢) ، فذلك تجوُّز على جهة التَّشريف والتَّشبيه .

---

(١) جاء ذلك في قوله تعالى في الآية (١٢٠) من سورة النَّحل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ .

(٢) قُسٌّ بن ساعدة الإيادي، عدَّه ابن شاهين وعبدان في الصحابة ، وقال ابن حجر في الإصابة : «ذكره أبو عليّ بن السكن ، وابن شاهين ، وعبدان المروزي ، وأبو موسى في الصحابة ، وصرَّح ابن السكن بأنه مات قبل البعثة» ، وفي سيرة ابن سيِّد الناس أن الجارود ابن عبد الله وفد في قومه على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم ، وسأله النبي صلوات الله وسلامه =

و [جَاثِيَةً] معناه : على الركب ، قاله مجاهد والضحاك ، وهي هيئة المذنب الخائف المعظِّم ، وفي حديث (فجثا عمر رضي الله عنه على ركبتيه)(١) ،وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : في القيامة ساعة قدر عشر سنين ، يخر الجميع فيها جُثَاة على الركب .

= عليه : هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف قُساً ؟ قال الجارود : كلنا نعرفه يا رسول الله ، ثم أخذ يحكي خبره ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (على رسلك يا جارود ، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أَوْرق ، وهو يتكلم بكلام ما أظن أني أحفظه) ، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله فإني أحفظه ، وهو : يأيها الناس ، اسمعوا وعُوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ... الخ ، وورد ذكره في كتاب المعمَّرين للسجستاني ، وفي الأغاني للأصفهاني ، وفي البيان والتبيين للجاحظ ، وفيه قال صلى الله عليه وسلم : (يـحْشَر أُمَّةً وحده) .

(١) جاء ذلك في حديث أخرجه ابن أبي الدنيا والبَزَّار عن عليٍّ رضي الله عنه ، قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : متى الساعة ؟ فزبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا صلى الفجر رفع رأسه إلى السماء فقال : تبارك خالقها ورافعها ومبدِّلها وطاويها كطيِّ السجل للكتاب ، ثم تطلَّع إلى الأرض فقال : تبارك خالقها وواضعها ومبدِّلها وطاويها كطيِّ السجل للكتاب ، ثم قال : أين السائل عن الساعة ؟ فجثا رجل من آخر القوم على ركبتيه ، فإذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عند حيف الأئمة ، وتكذيب بالقدر ، وإيمان بالنجوم ، وقوم يتخذون الأمانة مغنماً ، والزكاة مغرماً ، والفاحشة زيارة ، فسألته عن الفاحشة زيارة ، فقال : الرجلان من أهل الفسق يصنع أحدهما طعاماً وشراباً ، ويأتيه بالمرأة فيقول : اصنعي لي كما صنعت ، فيتزاوران على ذلك ، قال : فعند ذلك هلكت أُمتي يا بن الخطاب . (الدر المنثور) ، ومعنى زبره : زجره ونهاه .

وقد ورد في حديث آخر أخرجه البخاري عن أبي الدرداء أن شيئاً كان بين أبي بكر وعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد غضب وتغير وجهه على عمر ، فجثا أبو بكر على ركبتيه شفقة على عمر من غضب النبي صلى الله عليه وسلم .

وقرأ جمهور الناس : ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ بالرفع على الابتداءِ ، وقرأ يعقوب : ﴿كُلَّ أُمَّةٍ تُدْعَى﴾ بالنصب على البدل من [كُلَّ] الأُولى ، إِذْ في [كُلَّ] الثانية إِيضاحُ موجب الجُثُوِّ ، وقرأ الأَعمش : «وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً تُدْعَى» بإِسقاط ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ الثـانية .

واختلف المتأَولون في قوله تعالى : ﴿إِلَى كِتَابِهَا﴾ - فقالت فرقة : أَراد : إِلى كتابها المُنَزَّل عليها فتحاكم إِليه ، هَلْ وافقته أَو خالفته ؟ وقالت فرقة : أَراد : إِلى كتابها الذي كتبته الحفظة على كل واحد من الأُمة ، فباجتماع ذلك قيل له : كتابها ، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر ، تقديره : فيقال لهم : ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ يحتمل أَن تكون الإِشارة إِلى الكتب المنزلة ، أَو إِلى اللَّوح المحفوظ ، قال مجاهد ، ومقاتل : يشهد بما سبق فيه من سعادة أَو شقاءٍ، ويحتمل أَن تكون إِلى كُتُب الحفظة ، وقال ابن قتيبة : هي إِلى القرآن .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ - فقالت فرقة : معناه : نكتب ، وحقيقة النَّسخ وإِن كانت أَن يُنْقل خطٌّ من أَصل يُنْظر فيه فإِن أَعمال العباد هي في هذا التأْويل كالأَصل ، فالمعنى : إِنَّا كُنَّا نقيِّد كل ما عملتم ، وقال الحسن : هو كتب الحفظة على بني آدم ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أَن الله يأْمر

بعرض أعمال العباد كل يوم خميس فيُنقل من الصحف التي ترفع الحفظة كلُّ ما هو مُعَدٌّ أَن يكون عليه ثواب أَو عقاب ، ويُلْغى الباقي ، قالت فرقة : فهذا هو النَّسخ من أَصل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً : معنى هذه الآية أَن الله تعالى يجعل الحفظة تنسخ من اللَّوح المحفوظ كلَّ ما يفعله العباد ثم يُمسكونه عندهم ، فتأْتي أَفعال العباد على نحو ذلك فيُقيَّد أَيضاً ، فذلك هو الاستنساخ ، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : أَلستم عرباً ؟ وهل يكون الاستنساخ إِلَّا من أَصل ؟

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ذكر الله تبارك وتعالى حال الطائفتين من المؤمنين والكافرين ، وفرق بينهم في الذكر ليبين الأَمر في نفس السَّامع ، فإِن الأَشياء تتبيَّن بذكر أَضدادها معها ، و «الفوز» هو نيل البُغية .

وقوله تعالى: ﴿وأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ﴾[فيه محذوف](١) فإن التقدير فيه: وأمَّا الذين كفروا فيقال لهم: أَلم تكن ...، فحذف «يُقَال لهم» اختصاراً وبقيت الفاءُ دالَّة على الجواب الذي تطلبه «أَمَّا»، ثم قدم عليها أَلف الاستفهام من حيث له صدر القول على كل حالة، ووقف الله تعالى الكفار على الاستكبار لأَنه من شرِّ الخلال.

وقرأ حمزة وحده: [وَٱلسَّاعَةَ] بالنصب عطفاً على قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللهِ﴾، ورويت عن أَبي عمرو، وعيسى، والأَعمش. وقرأ ابن مسعود: «حَقٌّ وإن السَّاعَةَ لَا رَيْب فيها»، وكذلك قرأَ أَيضاً الأَعمش. وقرأَ الباقون: [وَٱلسَّاعَةُ] رفعاً، ولذلك وجهان: أَحدهما الابتداءُ والاستئناف، والثاني العطف على موضع [إنَّ] وما عملت فيه؛ لأَن التقـــدير: «وَعْدُ الله حَقٌّ»، قاله أَبو علي في الحُجَّة، وقال بعض النحاة: لا يعطف على موضع «إنَّ» إلَّا إذا كان العامل الذي عطفته «إنَّ» نافياً، وكذلك هو على موضع الباءِ في قوله:

. . . . فَلَسْنَا بالْجِبَالِ وَلَا الحَدِيدَا(٢)

---

(١) ما بين العلامتين [....] زيادة لتوضيح الكلام.

(٢) هذا عجز بيت قاله عُقَيْبَة الأسديُّ من أبيات يشكو بها إلى معاوية بن أبي سفيان جور عماله، والبيت بتمامه:

مُعَاوِيَ إنَّنَا بَشَرٌ فأَسْجِـــــحْ فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلا الحَــــديدا =

فلما كانت « ليْس » نافيةً جاز العطف على الموضع قبل دخول الباء ، ويظهر نحو هذا النظر من كتاب سيبويه ، ولكن قد ذكرنا ما حكى أبو علي وهو القدوة . وقولهم : ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ معناه : إنْ نَظُنُّ بعد قبول خبركم إلّا ظَنًّا ، وليس يعطينا يقيناً (١) .

وقوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ الآيَةَ... حكايةُ حال يوم القيامة ، و [حَاقَ] معناه : نزل وأحاط ، وهي مستعملة في المكروه ، وفي قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُوا ﴾ حذف مضاف تقديره : جزاءَ ما كانوا ، أي عقاب كونهم يستهزئون .

= ومعنى أسْجِحْ : ارفُق بنا وسَهِّل لنا الأمور ، والشاهد فيه عند سيبويه هو عطف « الحَديدا » على « الجِبَالَ » قبل أن تدخل الباء عليها لجرها ، قال سيبويه : « لأن الباء دخلت على شيءٍ لو لم تدخل عليه لم يُخَلَّ بالمعنى ولم يُحتَج إليها وكان نصباً ، ألا ترى أنهم يقولون : حسبُك هذا وبحسبك هذا ، فلم تغير الباءُ معنى ؟ » ، وقد ردَّ بعض النحاة على سيبويه رواية البيت بالنصب هذه ؛ لأن البيت من قصيدة مجرورة معروفة ، وبعده ما يدل على ذلك وهو قوله :

أَكَلْتُمْ أَرْضَنَا فَجَرَزْتُمُوهَا فَهَلْ مِنْ قائِمٍ أَوْ مِنْ حَصِيدِ؟

ودافع الشَّنْتَمري عن سيبويه وقال : إنه غير متَّهم فيما نقله روايةً عن العرب ، ويجوز أن يكون البيت من قصيدة منصوبة غير هذه المعروفة ، أو يكون العربي الذي أنشده لسيبويه قد ردَّه إلى لغته فقبله منه سيبويه بالنصب ، فيكون الاحتجاج بلغة المُنْشِد من العرب لا بلغة الشاعر .

(١) في هذه الآية كلام كثير للنحويين تجده في تفسير الزمخشري ، وفي البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، ويدور حول إثبات الظن ونفيه والتأويل الصحيح في ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

[نَنسَاكُمْ] معناه : نترُكُكُمْ كما تركتم لقاءَ يومكم هذا، فلم يقع منكم استعدادٌ له ولا تأَهبتم، فسميت العقوبة في هذه الآية باسم الذنب ، و «المأْوى» : الموضع الذي يسكنه الإِنسان ويكون فيه عامَّة أَوقاته أَو كلها أَجمع ، و «آياتُ اللهِ» لفظ جامع لآيات القرآن وللأَدلة التي نصبها الله تعالى لينظر فيها العباد .

وقرأَ أَكثر القراءِ : ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ بضم الياءِ المنقوطة من تحت وفتح الرَّاءِ، وقرأَ حمزة ، والكسائي، وابن وثاب ، والأَعمش ، والحسن : ﴿لَا يَخْرُجُونَ﴾ بإِسناد الفعل إِليهم بفتح الياءِ وضم الراءِ .

و [يُسْتَعْتَبُونَ] : تُطلب منهم مراجعة إِلى عمل صالح .

وقوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ إلى آخر السُّورة تحميدٌ له تعالى وتحقيق لأُلُوهيته ، وفي ذلك كسرٌ لأَمر الأَصنام والأَنصاب .

وقراءة الناس : [رَبِّ] بالخفض في الثلاثة على الصفة ، وقرأَ ابن محيصن بالرفع فيها ، على معنى : هُوَ رَبُّ ، و «الْكِبْرِياءُ» بناءُ مبالغة ، وفي الحديث : (يقول الله تعالى : الكبرياءُ ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني شيئاً منهما قصمته)(١) .

كمل تفسير سورة الجاثية والحمد لله ربّ العالمين

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصِّفات ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

وأخرج ابن عساكر ، عن عمر بن ذرٍّ ، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما قعد قوم يذكرون الله إلاَّ قعد معهم عددهم من الملائكة ، فإذا حمدوا الله حمدوه ، وإن سبَّحوا الله سبَّحوه ، وإن كبَّروا الله كبَّروه ، وإن استغفروا الله أمَّنوا ، ثم عرجوا إلى ربِّهم فيسألهم فقالوا : ربَّنا ، عبيدٌ لك في الأرض ذكروك فذكرناك ، قال : ماذا قالوا ؟ قالوا : ربَّنا حمدوك ، فقال : أَول من عُبد وآخر من حُمد ، قالوا : وسبَّحوك ، قال : مدحي لا ينبغي لأحدٍ غيري ، قالوا : ربَّنا كبَّروك ، قال : ليَ الكِبرياءُ في السموات والأرض وأنا العزيز الحكيم ، قالوا : ربَّنا استغفروك ، قال: أُشهدكم أنِّي قد غفرت لهم) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٤٦) سورة الأحقاف مكية وآياتها خمس وثلاثون

هذه السُّورة مكِّيَّة ، لم يُختلف فيها إلَّا في آيتيْن: قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ الآية (١)، وقوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية(٢) ، فقال بعض المفسرين : هاتان الآيتان مدنيتان وُضِعتا في سورة مكِّيَّة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَٰوَٰتِ ۖ ائْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

(١) الآية رقم (١٠) من السورة . (٢) الآية رقم (٣٥) وهي آخر آية في السورة .

تقدم القول في الحروف المقطعة التي في أوائل السُّور ، و [تَنْزِيلُ] رفع بالابتداءِ ، أو خبر ابتداءٍ مضمر ، و [الكتاب] : القرآن ، و «العِزَّة» و «الإِحكام» صفتان مقتضيتان أن من هما له غالبَ كل من حادَّه .

وقوله تعالى : ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَاتِ﴾ الآيَةَ... موعظةٌ وزجْرٌ، أي : فاشهدوا أيها الناسُ وانظروا ما يراد بكم ولِمَ خُلِقتم ، وقوله : ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ معناه : إلَّا بالواجب الحسن الذي قد حق أن يكون ، و «بِأَجل مُسَمَّى» وقَّتْناهُ وجعلناه موعداً لفساد هذه البنية ، وذلك هو يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ ، [مَا] مصدرية ، والمعنى : على الإِنذار ، ويحتمل أن تكون [مَا] بمعنى الذي ، والتقدير : عن ذكر الذي أُنذروا به والتحفُّظ منه ، ونحو هذا .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يحتمل [أَرَأَيْتُمْ] وجهين : أَحدهما أن تكون متعدية و [مَا] مفعول بها ، ويحتمل أن تكون مُنَبِّهَة لا تتعدى ، وتكون [مَا] استفهاماً على معنى التوبيخ . و [تَدْعُونَ] معناه : تعبدون ، قال الفراءُ : وفي قراءَة عبد الله بن مسعود : «مَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ» ، وقوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [مِنْ] للتبعيض؛ لأَن كل ما على وجه الأَرض من حيوان ونحوه فهو من الأَرض ، ثم وقفهم تعالى على السموات ،

هل لهم فيها شرك؟ ثم استدعى تعالى منهم كتاباً منزّلًا قبل القرآن يتضمن عبادة صنم .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ معناه : أو بقية قديمة من علم أحد العلماءِ تقتضي عبادة الأَصنام ، وقرأ جمهور الناس : ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾ على المصدر كالشَّجاعة والسَّماحة ، وهي البقية من الشيءِ وكأَنها أَثَرُهُ ، وقال الحسن بن أَبي الحسن : المعنى : من علم تستخرجونه فتثيرونه ، وقال مجاهد : المعنى : هل من أَحد يأْثر علماً في ذلك ، أي ينقله ، وقال القُرَظيُّ : هو الإِسناد ، ومن ذلك قول الأَعشى :

إِنَّ ٱلَّذِي فِيهِ تَمَارَيْتُمَا بُيِّنَ لِلسَّامِعِ وَٱلْآثِرِ (١)

أَي : ولِلمُسْنِدِ عن غيره ، ومنه قول عمر رضي الله عنه : «فَمَا خَلَّفتُ بها ذاكراً ولا آثراً » ، وقال أَبو سلمة بن عبد الرحمن ، وقتادة : المعنى : أَو خاصة من علم ، فاشتقاقها من الأَثرة ، كأَنه قد آثر الله

(١) قال الأعشى هذا البيت من قصيدة له يهجو بها علقمة بن عُلاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما ، والتي يقول في مطلعها : (شاقَتْكَ مِنْ قَتْلَةَ أَطْلالُهَا) ، وماريتُه مماراة : جادلتُه ولاجَجْتُه ، وتماروا معناه المحالبة ، كأن كل واحد يحلبُ ما عند صاحبه ، أو يستخرجه منه كما يستخرج اللبن من الشاة بالحلب ، والخطاب لعلقمة وعلاثة ، ورواية الديوان : تدارَيْتُمَا ، وهي من المداراة والمخاتلة ، والآثر : ناقل الحديث عن غيره ، وهو الشاهد هنا ، يقول لهما : إن الذي تجادلتما فيه وتخاصمتا أمر واضح للناس جميعاً ، للسامعين وللذين يروون الخبر عن غيرهم .

تبارك وتعالى بها من هي عنده ، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : المراد بالأَثارة الخَطُّ في التراب ، وذلك شيءٌ كانت العرب تفعله وتتكهَّن به وتزجر ، وهذا من البقيَّة والأَثر ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه سئل عن ذلك فقال : (كان نبيٌّ من الأَنبياء يَخُطُّ ، فمن وافق خطه فذاك)(١) ، ظاهر هذا الحديث يُقَوِّي أَمر الخَطِّ في التراب ، وأَنه شيءٌ له وجه إذا وُفِّق أَحد إليه ، هكذا تأَوله كثير من العلماءِ ، وقالت فرقة : بل معناه الإِنكار ، أَي أَنه كان من فعل نبي قد ذهب وذهب الوحي إليه والإِلهام في ذلك ، ثم قال : (فمن وافق خطه) على جهة الإِبعاد ، أَي : إِن ذلك لا يمكن مِمَّن ليس بنبيٍّ مُيَسَّر لذلك ، وهذا كما يسأَلك أَحد فيقول : أَيطير الإِنسان ؟ فتقول : إِنما يطير الطائر ، فمن كان له من الناس جناحان طار ، أَي ذلك لا يكون .

---

(١) أخرجه عبْدُ بن حَميد ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرج سعيد بن منصور من طريق صفوان بن سليم ، عن عطاء بن يسار ، قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخطِّ فقال : (علمه نبي ، ومن كان وافقه علم) ، قال صفوان : فحدثت به أبا سلمة بن عبد الرحمن فقال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما فقال : أو أثارة من علم ، ونقل القرطبي عن ابن العربي أنه لم يَصِح ، ثم قال تعقيباً على كلام ابن العربي : « هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمي ، خرَّجه مسلم .»

والأَثارة تستعمل في بقية الشرف ، فيقال : إن لبني فلان أثارة من شرف ؛ إذا كانت عندهم شواهد قِدَمِهِ ، وتستعمل في غير ذلك كقول الراعي :

وَذَاتِ أثَارَةٍ أكَلَتْ عَلَيْهَا نَبَاتاً في أكِمَّتِهِ فَفَارا (١)

يريد الأَثارة من الشَّحْم ، أي البقية .

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ـ فيما حكى الطبري ـ : ﴿أَوْ أَثَرَةٍ﴾ بفتح الهمزة والثاء والراء دون ألف ، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس ، وقتادة ، وعكرمة ، وعمرو بن ميمون ، والأَعمش ، وهي واحدة جمعها أَثَر كَقَتَرَةٍ وقتر(٢) ، وحكى الثعلبي أن عكرمة قرأ : «أَو مِيراثٍ مِنْ عِلْم» ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، والسُّلَمي ـ فيما حكى أبو الفتح ـ : [أَثْرَةٍ] بسكون الثاء ، وهي الفَعْلَة

---

(١) قال الراعي هذا البيت من قصيدة يمدح بها سعد بن عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، والبيت في اللسان (أثر) ، وقد نسبه للشَّمَّاخ ، قال : «وسَمِنَت الإبل والناقة على أثارة ، أي على عتيق شحم كان قبل ذلك ، قال الشَّمَّاخ : «وَذَاتِ أثَارَةٍ ... البيت» ، فهو في البيت يصف ناقة بالسِّمَنِ ، واستشهد أبو عبيدة بالبيت في مجاز القرآن عند هذه الآية ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بقية من شحم أكلت عليه ، كذلك ذكره القرطبي وأبو حيان في البحر ، وأكِمَّةُ النبات : أغْلِفَتُه ، جمع كِمَامٍ ، وكِمام جمع كِمٍّ ، أما قوله : (فَفَارَا) فهي رواية اللسان والقرطبي ، ومعناها الزيادة والنُّمو بسرعة ، أما رواية الطبري فهي بالقاف (قَفَارًا) ، وهي صفة للنبات ، أي : رعت الناقة هذا النبات خالياً لها من مزاحمة غيرها في رَعْيه ، وأصله من قولهم : «طعامٌ قَفَارٌ» ، أي طعام بدون إدام . وابن عطية يستشهد بالبيت هنا على أن كلمة «أثارة» تستعمل في معاني أُخرى ، وقد استعملت هنا في البقيَّة من الشحم .

(٢) القَتَرُ : جمع قَتَرَة ، وهي الغبَرة ، قال تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ .

الواحدة مما يُؤْثر ، أي : قد قنعت لكم بحجة واحدة وتخَيُّر واحد وأَثَر واحد يشهد بصحة قولكم ، وقرأت فرقة بضم الهمزة وسكون الثاء ، وهذه كلها بمعنى : هل عندكم شيءٌ خصَّكم الله به من علم وآثركم به (١) ؟

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ الآيَةَ ... توبيخٌ لِعَبَدَةِ الأَصنام ، أي : لا أحد أَضلُّ مِمَّن هذه صفته ، وجاءت الكناياتُ في هذه الآية عن الأَصنام كما تجيءُ عمن يعقل وذلك أن الكفار قد أَنزلوها منزلة الآلهة وبالمحلِّ الذي دونه البَشَر فخوطبوا على نحو معتقدهم فيها ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : «مَالَا يَسْتَجِيبُ» . والضمير في قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ﴾ هو للأَصنام في قول جماعة ، ووصف الأَصنام بالغفلة من حيث عاملها معاملة من يعقل ، ويحتمل أَن يكون الضمير في قوله تعالى : ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ﴾ وفي [غَافِلُونَ] للكفار ، أَي : ضلالهم بأَنهم يدعون من لا يستجيب ثم يَغْفُلون فلا يتأَملون ما عليهم في دعائهم مَنْ هذه صفته .

وقوله تعالى : ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ وصفٌ لما يكون يوم القيامة بين الكفار وأَصنامهم من التبري والمناكرة ، وقد بيَّن ذلك في غير

(١) ذكر البيضاوي في تفسيره ست قراءات هي : «أَثارة» بفتح الهمزة وكسرها ، و «أَثَرَة» بفتح الهمزة والثاء والراء ، و «إِثْرة ، أَثْرة ، أُثْرة» بسكون الثاء وفتح الهمزة ، وبكسرها ، وبضمها .

هذه الآية ، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾

«الآياتُ» المذكورة هي آيات القرآن بدليل قوله تعالى : [تُتْلَى] وقول الكفار : ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ، وإنما قالوا ذلك عن القرآن من حيث قالوا : هو يفرق بين المرءِ وولده ، وبينه وبين زوجه ، إلى نحو هذا مما يوجد مثله للسحر بالوجه الآخر .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ﴾ ، [أَمْ] مقطوعة مقدرة بـ «بل وهمزة الاستفهام» ، و [ٱفْتَرَاهُ] معناه : اشتقَّه واختلقه ، فأَمره الله تبارك وتعالى أَن يقول : إن افتريتهُ فالله حسبي في ذلك ، وهو كان

---

(١) من الآية (٦٣) من سورة (القصص) .

يعاقبني ولا يهملني ، ثم رجع القول إلى الاستفهام إلى الله تعالى والاستنصار به عليهم ، وانتظار ما يقتضيه علمه بما يفيضون فيه من الباطل ومُرَادَّة الحق ، وذلك يقتضي معاقبتهم ، ففي اللفظ تهديد ، والضمير في قوله تعالى : [فيهِ] يحتمل أن يعود على القرآن ، ويحتمل العودة على [مَا] ، والضمير في [بِهِ] عائد على الله تعالى ، و [بِهِ] في موضع رفع ، و «أَفَاضَ الرَّجلُ في الحديث والسب ونحوه» إذا خاضَ فيه واستمر . وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ترجية واستدعاءٌ إلى التوبة لأَنه في خلال تهديده إياهم بالله جاءت هاتان الصفتان .

ثم أَمره الله تعالى أَن يحتج عليهم بأَنه لم يكن بِدْعاً من الرُّسل ، أَي : قد جاءَ غيري قبلي ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والأَعرج ، و «البِدْعُ» و «البديع» من الأَشياءِ : ما لمْ يُرَ مثله ، ومنه قول عدي ابن زيد :

فَمَا أَنَا بِدْعٌ مِنْ حَوَادِثَ تَعْتَرِي   رِجَالًا عَرَتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسي وَأَسْعُدِ(١)

---

(١) هذا البيت من المُجَمْهَرَة التي قالها عديٌّ بن زيد ، ومطلعها :

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ؟   نَعَمْ ، وَرَمَاكَ الشَّوْقُ قَبْلَ التَّجَلُّدِ

وهي في (جمهرة أشعار العرب) ، وفي (موسوعة الشعر العربي) ، والرِّواية فيهما : «فَلَا أَنا بِدْعٌ» ، والبِدْعُ هو أَوَّلُ من تصيبه الحوادث ، وهذا ما أشار إليه ابن عطية بقوله: =

وقرأ عكرمة ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة : [بَدْعاً] بفتح الدال ، قال أبو الفتح : التقدير : «ذَا بَدْعٍ» بحذف المضاف ، كما قال :

وَكَيْفَ تُوَاصِلُ مَنْ أَصْبَحَتْ خُلاَلَتُهُ كَأَبِي مَرْحَبِ ؟ (١)

واختلف الناسُ في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ — فقال ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعكرمة ، وقتادة ، والحسن :

= «ما لَمْ يُرَ مثله» ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، وتعتري: تصيب ، والبُؤْسى : نقيض النُّعمى ، أي البؤسُ والشقاءُ ، والأسْعُد : جمع سَعْد وهو اليُمْن ، نقيض النَّحْس ، ورواية البيت في القرطبي : «رجالاً غَدَتْ من بعد بُؤسى بأسْعُد» ، ورواية البيت في (شعراء النصرانية) :

فَلَسْتُ بِمَنْ يَخْشَى حَوَادِثَ تَعْتَرِي رجالاً فَبَادُوا بَعْدَ بُؤْسٍ وَأَسْعُـــدِ

وعلى هذه الرواية فلا شاهد فيه .

(١) البيت لعبد الله بن قيس المعروف بالنابغة الجعدي ، وهو ممن وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودَعَا لَه ، وقبل هذا البيت يقول :

وَبَعْضُ الأخِلاَّءِ عِنْدَ البَـــلا ءِ وَالـــرُّزْءِ أَرْوَغُ مِنْ ثَعْلَبِ

والخُلالة — مُثَلَّثة الخاء — : الصداقة ، وأبو مَرْحب : كُنْيَة الظِّلِّ ، ويقال : هو كنية «عُرْقُوب» المشهور الذي قيل عنه : «مواعيد عُرْقوبٍ أخاه بِيَثْرِب» ، ذكر ذلك في اللسان — خلل — ، وقال ابن الأعرابي : «يقال للرجل الحسن الوجه لا باطن له : أبو مرحب» ، والشاهد في البيت حذف المضاف ؛ إذ التقدير: «كخُلالةِ أبي مرحب» ، هذا والبيت في الكتاب لسيبويه ، وفي لسان العرب ، وأمالي القالي ، واللآلئ ، والإنصاف ، وشرح القصائد السبع الطوال ، والسمط ، وهو في أكثرها غير منسوب لقائل .

معناه : في الآخرة ، وكان هذا في صدر الإسلام ، ثم بعد ذلك عرَّفه الله تعالى بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبأن المؤمنين لهم من الله فضل كبير وهو الجنة ، وبأن الكافرين في نار جهنم ، والحديث الذي وقع في جنازة عثمان بن مظعون يؤيد ذلك (فوالله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي) ، وفي بعض الروايات (به) (١) ، ولا حُجَّة لنا في الحديث على رواية (به) . والمعنى عندي في هذا القول أنه لم تتكشَّف له الخاتمة فقال : «لا أدري» ، وأمَّا مَنْ وافى على الإيمان فقد أُعلم بنجاته من أول الرِّسالة ، وإلَّا فكان للكفار أن يقولوا : وكيف تدعونا إلى ما لا تدري له عاقبة ؟ وقال الحسن أيضاً وجماعة : معنى الآية : ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الدنيا من أن أُنصر عليكم

(١) هذا الحديث أخرجه أحمد ، والبخاري ، والنسائي ، وابن مردويه ، عن أم العلاء رضي الله عنها ، وأخرج مثله الطبراني ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرج مثله ابن حبان ، والطبراني ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وأُم العلاء امرأة من الأنصار ، قالت : اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان بن مظعون بن حُذافة بن جُمَح ، فأنزلناه أبياتنا فتوفي ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، إن الله أكرمك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (وما يُدريك أن الله أكرمه) ؟ فقلت : بأبي وأُمي يا رسول الله ، فمن ؟ قال : (أمَّا هو فقد جاءه اليقين ، وما رأينا إلاَّ خيراً ، فوالله إني لأرجو له الجنة ، ووالله إني لرسول الله وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم) ، قالت : فوالله لا أُزكِّي بعده أحداً أبداً ، ورواية (به) هي رواية البخاري ، وليس فيه : (بي ولا بكم) ، قال القرطبي : «وهو الصحيح إن شاء الله» .

أَو مِن أَن تُمكِّنوا منِّي ، ونحو هذا من المعنى (١) . وقالت فرقة : معنى الآية : ما أَدري ما يُفعل بي ولا بكم من الأَوامر والنواهي وما تُلزمنا الشريعة من أَغراضها . وحكى الطبري عن بعضهم أَنه قال : نزلت الآية في أَمر كان النبي صلى الله عليه وسلم ينتظره من الله تعالى في غير الثواب والعقاب ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه لمَّا تـأَخر خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة حين رأَي في النوم أَنه مهاجر إلى أَرض ذات نخل وسبخة (٢) قَلِقَ المسلمون لتـأَخُّر ذلك فنزلت الآية .

وقوله : ﴿إِنْ أَتَّبِـعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ معناه الاستسلام والتَّبَرِّي من علْم الغَيْبِيَّات والوقوف مع النِّذارة من عذاب الله تعالى .

---

(١) أكثر المفسرين – ومنهم الطبري والقرطبي – على أن هذا هو أصح قول وأحسنه ، قال الحسن في توضيح كلامه : « ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أما في الآخرة فمعاذ الله ! قد علم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل ، ولكن قال : ما أدري ما يُفعل بي في الدنيا ، أأُخرج كما أُخرجت الأنبياءُ قبلي ، أو أُقتل كما قُتلت الأنبياءُ قبلي ؟ ولا أدري ما يُفعل بكم ، أأُمَّتي المُصَدِّقَة أم المُكَذِّبة ، أم أُمَّتي المرمية بالحجارة من السماء قذفاً ، أو مخسوف بها خسفاً ؟ ثم نزلت ﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ، يقول : سيظهر دينه على الأديان ، ثم قال في أُمته : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ فأخبره تبارك وتعالى بما يصنع به وبأُمَّته ، ولا نَسْخَ على هذا كله ، والحمد لله » . (راجع الدر المنثور ، والطبري ، والقرطبي) .

(٢) الذي في كتب التفسير والسِّيرة وغيرها : « ذات نخل وشجر وماء » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

هذه آية توقيف على الخطر العظيم الذي هم بسبيله في أن يكذِّبوا بـأَمْر نافع لهم مُنْج من العذاب دون حُجَّة ولا دليل لهم على التكذيب ، فالمعنى : كيف حالكم مع الله تعالى ؟ وماذا تنتظرون منه وأَنتم قد كفرتم بما جاءَ من عنده ؟ وجواب هذا التوقيف محذوف ، تقديره : أَليس قد ظلمتم ؟ ودلَّ على هذا المقدر قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ .

و [أَرَأَيْتُمْ] في هذه الآية يحتمل أَن تكون مُنَبِّهَة ، فهي لفظة موضوعة للسؤال لا تقتضي مفعولا ، ويحتمل أَن تكون جملة [كَانَ] وما عملت فيه تسُدُّ مسدَّ مفعوليها .

واختلف الناس في المراد بالشَّاهد ـ فقال الحسن ، ومجاهد ، وابن سيرين : هذه الآية مدنية والشاهد عبد الله بن سلام ، وقول الله تعالى : ﴿ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ الضمير فيه عائد على قول محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن : إنه من عند الله ، وقال الشعبي : الشاهد رجل من بني إسرائيل غير عبد الله بن سلام كان بمكة ، والآية مكيَّة ،

وقال سعد بن أَبي وقَّاص رضي الله عنه ، ومجاهد ، وفرقة : الآية مكيَّة والشاهد عبد الله بن سلام ، وهي من الآيات التي تضمنت غيباً أبرزه الوجود ، وقد روي عن عبد الله بن سلام أنه قال : فيَّ نزلت ، وقال مسروق بن الأَجدع والجمهور : الشاهد هو موسى بن عمران عليه السلام ، والآية مكيَّة ، ورجَّحه الطبري ، وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ يريد بالمثل التَّوراة ، والضمير عائد ـ على هذا التأْويل ـ على القرآن ، أي : جاءَ شاهد من بني إسرائيل بمثله وشهد أَنه من عند الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ ـ على هذا التأْويل ـ يعني به تصديق موسى بأَمر محمد صلى الله عليه وسلم وتبشيره به ، فذلك إيمان به ، وأما من قال : الشاهد ابن سلام فإيمانه بيِّن ، وكذلك الإسرائيلي الذي كان بمكة في قول من قاله . وحكى بعضهم أَن العامل بـ [آمَنَ] هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا من القائلين بأَن الشاهد هو موسى بن عمران عليه السلام ، وإنما اضطر إلى هذا لأَنه لم ير وجه إيمان موسى عليه السلام ، ثم قرن تعالى استكبارهم وكفرهم بإيمان هذا المذكور فبان ذنبهم وخطؤهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ ، قال قتادة : هي مقالة أَشراف قريش يريدون عَمَّاراً وصُهَيْباً وبِلَالًا ونحوهم ممَّن أَسلم وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم . وقال الزجاج ، والكلبي ، وغيرهما : هي مقالة كنانة وعامر

وسائر قبائل العرب المجاورة ، وقالت ذلك حين أسلمت غفار ومُزينة وجُهَيْنَة ، وقال الثعلبي : هي مقالة اليهود حين أَسلم عبد الله بن سلام وغيره منهم .

و « الإِفْكُ » : الكذب ، ووصفوه بالقِدَم بمعنى أنه في أُمور متقادمة ، وهذا كما تقول لرجل حدثك عن أَخبار كسرى وقيصر : هذا حديث قديم ، ويحتمل أَن يريدوا أَنه إفك قيل قديماً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ للقرآن ، وَ ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ هو التَّوراة ، وقرأَ الكلبي : ﴿ كِتَابَ مُوسَى ﴾ بنصب الباءِ على إضمار :

أَنزل اللهُ ، أَو نحو ذلك . و «الإمامُ» : خيط البنَّاء ، وكلٌّ ما يهتدى به ويُقْتَدَى به فهو إمامٌ ، ونُصب [إمَاماً] على الحال ، و [رَحْمَةً] عطفاً على [إمَاماً] ، والإشارة بقوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ إلى القرآن ، و [مُصَدِّقٌ] معناه : للتوراة التي تضمنت خبره وأمر محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاءَ هو مصدِّقاً لذلك الإخبار ، وفي مصحف عبد الله ابن مسعود : «مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِسَاناً» .

واختلف الناس في نصب قوله : [لِسَاناً] ـ فقالت فرقة من النحاة : هو منصوب على الحال ، وقالت فرقة : [لِسَاناً] توطئة مؤكدة ، و [عَرَبِيًّا] حال ، وقالت فرقة : [لِسَاناً] مفعول بـ [مُصَدِّقٌ] ، والمراد ـ على هذا القول ـ باللسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فكأَن القرآن بإِعجازه وأَحواله البارعة يصدق الذي جاءَ به ، وهذا قول صحيح المعنى جيِّدٌ ، وغيره مما قدَّمنا مُتَّجه .

وقرأَ نافع ، وابن عامر ، وابن كثير ـ فيما روي عنه ـ وأَبوجعفر ، والأَعرج ، وشيبة ، وأَبو رجاءٍ ، والناس : [لِتُنْذِرَ] بالتاءِ أَنت يا محمد ، ورجَّحها أَبو حاتم ، وقرأَ الباقون ، وابن كثير ، والأَعمش : [لِيُنْذِرَ] أَي القرآن ، و ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم الكفار الذين جعلوا العبادة في غير موضعها في جهة الأَوثان والأَصنام ، وقوله تعالى : [وَبُشْرَى] يجوز أَن يكون في موضع رفع عطفاً على قوله تعالى : [مُصَدِّقٌ] ،

ويجوز أن يكون في موضع نصب ، واقعةً (١) موقع فعل عطفاً على [لِيُنْذِرَ] ، أي : ويُبَشِّر المحسنين .

ولمَّا عبَّر تعالى عن الكفار بـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عبَّر عن المؤمنين بـ « الْمُحْسِنِينَ » ليتناسب لفظ الإحسان في مقابلة الظلم ، ثم أَخبر تعالى عن حسن حال المؤمنين المستقيمين ، ورفع عنهم الخوف والحزن ، وذهب كثير من الناس إلى أَن معنى الآية : ثم استقاموا بالطَّاعَات والأَعمال الصَّالحات ، وقال أَبو بكر الصديق رضي الله عنه : بالدوام على الإِيمان وترك الانحراف عنه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا القول أَعم رجاءً وأَوسع ، وإِن كان في الجملة المؤمنة من يُعَذَّب وينفذ عليه الوعيد فهو ممن يخلد في الجنة وينتفي عنه الخوف والحزن الحالُّ بالكفرة .

و « الخوفُ » هو الهمُّ بما يُستقبل ، و « الحُزْن » هو الهمُّ بما مضى ، وقد يستعمل فيما يُستقبل استعارة لأَنه حزنٌ لخوف أَمرٍ مَّا ، وقرأَ ابن السميفع : ﴿فَلَا خَوْف﴾ بدون تنوين ، وقوله تعالى : ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، [مَا] واقعة على الجزءِ الذي هو اكتساب العبد ، وقد جعل الله تعالى الأَعمال أَمارات على جزاءِ العبد ، لا أَنها توجب على الله تعالى شيئاً .

(١) هكذا في الأصول .

قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ﴾ ، يريد النوع ، أي : هكذا مضت شرائعي وكتبي لأنبيائي ، فهي وصية من الله تعالى في عباده ، وقرأ جمهور القراء : [حُسْناً] بضم الحاء وسكون السين ونصبه على تقدير : وصيناه ليفعل أمراً ذا حُسْن ، فكأن الفعل سلط عليه مفعولاً ثانياً ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وأبو عبد الرحمن ، وعيسى : [حَسَناً] بفتح الحاء والسين ، وهذا كالأول ، ويحتمل كونهما مصدرين كالبُخْل والبَخل (١) ، ويحتمل أن يكون هذا الثاني اسماً لا مصدراً ، أي ألزمناه بهما فعلا حسَناً (٢) ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [إِحْسَاناً] ، ونصب هذا على المصدر الصريح ، والمفعول الثاني في المجرور ، والباء مُتَعَلِّقَة بـ [وَصَّيْنَا] ، أَوْ بقوله تعالى : [إِحْسَاناً] (٣) .

---

(١) مثل : الشُّغْل والشَّغَل ، ذكر ذلك أبو الفتح في المحتسب .

(٢) قال ابن جني : فهو اسمٌ صفةٌ لا مصدر ، ونَصَبه (وصَّيْناهُ به) ؛ لأنه يفيد مفاد: ألزمناه الحَسَن في أبويه ، وإن شئتَ قلتَ : هو منصوب بفعل غير هذا ، لا بنفس هذا ، فيكون منصوباً بنفس ألزمناه ، لا بنفس وصَّيْناهُ ؛ لأنه في معناه .

(٣) يرفض أبو حيان في البحر ذلك ويقول : « لا يصح أن يتعلق بـ [إحْسَاناً] ؛ لأنه مصدر بحرف مصدري والفعل ؛ فلا يتقدم معموله عليه ، ولأن « أَحْسَنَ » لا يتعدى بالباء ، إنما يتعدى باللام ؛ تقول : أَحسنتُ لزيد ، ولا تقول : أحسنتُ بزيد على معنى أن الإحسان يصل إليه » .

وبرُّ الوالدين واجب بهذه الآية وغيرها ، وعقوقهما كبيرة من الكبائر ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (كلُّ شيءٍ بينه وبين الله تعالى حجابٌ إلَّا شهادة أن لا إلٰه إلَّا الله ودعوة الوالدين) (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولن يَدْعُوَا إلَّا إذا ظلمهما الولد ، فهذا الحديث في عموم قوله صلى الله عليه وسلم : (اتَّقوا دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب) (٢) .

ثم عدَّد تعالى على الأَبناءِ حق الأُمهات ، وذكر تعالى الأُمَّ في هذه الآية في أَربع مراتب ، والأَب في مرتبة واحدة ، وجمعهما الذكر في قوله تعالى : [بِوَالِدَيْهِ] ، ثم ذكر الحَمْل للأُمِّ ثم الوضع لها ثم الرَّضاع الذي عبَّر عنه بالفِصال ، فهذا يناسب ما قال رسول الله

---

(١) وروى أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : (ثلاثُ دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على ولده) ، أما الحديث بهذا اللفظ الذي ذكره المؤلف فقد رواه ابن النجار عن أنس رضي الله عنه ، وقد ذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير ، ورمز له بأنه ضعيف .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والزكاة والمظالم والمغازي ، ومسلم في الإيمان ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي في الزكاة ، ومالك في موطئه في دعوة المظلوم ، وأحمد في مسنده (١–٣٢٢، ٣–١٥٣) ، ولفظه كما جاء في البخاري في كتاب المظالم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذاً إلى اليمن فقال (اتَّق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب) .

صلى الله عليه وسلم حين جعل للأُم ثلاثة أَرباع البر والرُّبع للأَب ، وذلك إِذْ قال له رجل : (يا رسول الله ، من أَبَرُّ ؟ قال : أُمَّك ، قال : ثم مَنْ ؟ قال : أُمَّك ، قال : ثم مَن ؟ قال : أُمَّك ، قال : ثم مَن ؟ قال : أَباك)(١) .

وقوله تعالى : [كُرْهاً] معناه : في باقي استمرار الحمل حين تُتَوَقَّع حوادثه ، ويحتمل أَن يراد : في وقت الحمل ؛ إِذْ لا نذير لها في حمله ولا في تركه ، قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة : المعنى : حملته مشقَّة ووضعته مشقَّة ، وقرأَ أَكثر القراءِ : [كُرْهاً] بضم الكاف ، وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، والأَعرج ، وشيبة : [كَرْهاً] بفتح الكاف ، وقرأَ بهما معاً مجاهد ، وأَبو رجاءٍ ، وعيسى . قال أَبو علي : هما بمعنى ، الضم : الاسم ، والفتح : المصدر ، وقالت فرقة : الكُرْهُ - بضم الكاف - المشقَّة ، والكَرْهُ - بفتح الكاف - هو الغلبة والقهر ، وضعَّفوا - على هذا - قراءَة الفتح ، قال بعضهم : لو كان كَرْهاً لرمت به عن نفسها ؛ إِذ الكَرْهُ القهْر والغلبة ، والقول الذي قدَّمناه أَصوب .

وقرأَ جمهور الناس : [وَفِصَالُهُ] ، وذلك أَنها مفاعلة من الاثنين كأَنه فاصل أُمه وفاصلته ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ، وأَبو رجاءٍ ،

(١) رواه البخاري ومسلم ، واللفظ فيهما : (مَنْ أَحقُّ الناس بِحُسْنِ صحابتي ؟) .

وقتادة ، والجحدري : [وَفَصْلُهُ] ، كأَن الأُمَّ هي التي فصلته .

وقوله تعالى : ﴿ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾ يقتضي أَن مدَّة الحمل والرضاع هي هذه المُدَّة ؛ لأَن في القول حذف مضاف تقديره : ومُدَّة حمله وفصاله ، وهذا لا يكون إِلَّا بأَن يكون أَحد الطرفين ناقصاً ، وذلك إِمَّا أَن تلد المرأة لستة أَشهر وتُرضع عامين ، وإِمَّا أَن تلد لتسعة أَشهر على العرف وترضع عامين غير ربع عامٍ ، فإِن زادت مدَّة الحمل نقصت مدة الرضاع وبالعكس ، فيترتب من هذا أَن أَقل مدة الحمل ستة أَشهر ، وأَقل ما ترضع الأُمُّ الطفل عاماً وتسعة أَشهر ، وإِكمال العامين هو لمن أَراد أَن يكمل الرضاع ، وهذا في أَمر الحمل هو مذهب علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم ، وهو مذهب مالك رحمه الله .

واختلف الناس في «الأَشُدِّ» ـ فقال الشعبي ، وزيد بن أَسلم : إذا كتبت عليه السيِّئات ولَهُ الحسنات ، وقال ابن إِسحق : ثمانية عشر عاماً ، وقيل : عشرون عاماً ، وقال ابن عباس ، وقتادة : ثلاثة وثلاثون عاماً ، وقال الجمهور من النُّظَّار : ستة وثلاثون عاماً ، وقال هلال بن يَسافٍ وغيره : أَربعون عاماً . وأَقوى الأَقوال ستة وثلاثون ، ومَن قال بالأَربعين قال في الآية : إنه تعالى أَكَّد وفسَّر الأَشُدَّ بقوله

سبحانه : ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ، وإنما ذكر تعالى الأربعين لأنها حدٌّ للإنسان في صلاحه ونجابته ، وفي الحديث : (إنَّ الشيطان يجرُّ يده على وجه من جاوز الأربعين ولم يتُب ويقول : بأَبي وَجْهٌ لا يُفْلح) (١) ، وقال أيمن بن خُرَيْم الأسدي :

إذَا المـرءُ وفَّى الأَرْبَعِينَ وَلَمْ يكُنْ   لَهُ دُونَ مَا يأْتِـي حيَاءٌ ولا سِتْرُ

فَدعْهُ وَلَا تَنْفِسْ عَلَيْهِ الَّذي ارْتَأَى   وَإنْ جرَّ أَسْبَابَ الْحيَاةِ لَهُ العُمْرُ(٢)

وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «حَتَى إِذَا اَسْتَوَى أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةَ » (٣) .

وقوله : [أَوْزِعْني] معناه : ادفعني عن الموانع وازجرني عن القواطع لأَجل أَن أَشكر نعمتك(٤) ، ويحتمل أَن تكون [أَوْزِعْني] بمعنى : اجْعَلْ

---

(١) لم أقف على هذا الحديث ، ولم يذكره من المفسرين في هذا الموقع غير ابن عطية إلاَّ صاحب البحر المحيط .

(٢) أيمن بن خُرَيْم بن فاتك الأسدي ، له ترجمة في الأغاني ، والإصابة ، وتهذيب ابن عساكر ، ومعنى «وفّى الأربعين» : أكملها ، و «ما يأتي» : ما يفعل من الأشياء ، يفعل ما يريد دون خجـل أو تستُّر من الناس ، ولا تَنْفِس عليه ، أي لا تحسده على ما ارتضى لنفسه من الأمور مهما طال عمره .

(٣) قال الفراءُ : «والمعنى فيه كالمعنى في قراءتنا ؛ لأنه جائز في العربية أن تقول : لمَّا وُلد لك وأدركت مدرك الرجال عققتَ وفعلت ، والإدراك قبل الولادة» .

(٤) من ذلك قول النابغة الذبياني :

عَلَى حينَ عَاتَبْتُ الْمَشيبَ عَلَى الصِّبَا   وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ ؟ =

حظِّي ونصيبي ، وهذا من التوزيع ، والقوم الأَوازع ، ومن قولك : توزَّعوا المال ، فـ [أَنْ] - على هذا - مفعولٌ صريحٌ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نعمتَك في التوحيد . و ﴿صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ : الصلوات ، و «الإِصلاح في الذُّرِّيَّة» كونُهم أَهل طاعة وخيريَّة ، وهذه الآية معناها أَن هكذا ينبغي للإِنسان أَن يفعل ، وهذه وصيَّة الله تعالى في كل الشرائع .

وقال الطبري : وذُكر أَن هذه الآية من أَوَّلها نزلت في شأْن أَبي بكر الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه ، ثم هي تتناول مَنْ بَعده ، وكان رضي الله عنه قد أَسلم أَبوه عام الفتح ، فإِنما يتجه هذا التأْويل على أَن أَبا بكر رضي الله عنه كان يطمع في إِيمان أَبويه ويرى مخايل ذلك فيهما ، فكانت هذه عنده نعمة عليهما ، أَي لَيْسا ممن عَسَى (١) في الكفر ولجَّ وحُتم عليه ثم ظهر إِيمانهما بعد ، والقول بأَنها عامة

= وقول الآخر :

وَلَمَّا تَلاقَيْنَا جَرَتْ مِنْ جُفُونِنَا دُمُوعٌ وَزَعْنَا غَرْبَهَا بِالأَصَابِعِ

فإن المعنى فيهما الكف والدَّفْعُ ، ولكن الطبري يرى أن المعنى : أغرني بشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ في تعريفك إيَّايَ توحيدك وهدايتك لي للاقرار بذلك ، وأصله من «وزعْتُ الرجل على كذا ، إذا دفعته عليه» ، وقال القرطبي : أوزعني : ألْهِمْني .

(١) عَسَى هنا بمعنى كَبِرَ ، جاءَ في اللسان : «عَسَا الشيخُ يَعْسُو .... : كَبِرَ ، مثلُ عَتَا ، ويقال للشيخ إذا وَلَّى وكَبِرَ : عَتَا يَعْتُو عُتِيّاً ، وعَسَا يَعْسُو مثله» .

في نوع الإنسان لم يقصد بها أبو بكر ولا غيره أصحُّ(١)، وباقي الآية بيِّن إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: [أُولَئِكَ] دليل على أن الإشارة بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ إلى الجنس(٢)، وقرأ جمهور القرَّاء:

---

(١) في الآية ثلاثة أقوال: الأول أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد ذكر ذلك الواحدي في «أسباب النزول» من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما بدون سند، وقال السيوطي في «الدر المنثور»: «أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ...»، والثاني أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، والثالث أنها عامة، وهذا ما رجَّحه المؤلف رحمه الله.

(٢) في بعض النسخ: «أراد به الجنس»، وفي بعضها «للجنس».

[يُتَقَبَّلُ] بالياءِ مضمومة على بناء الفعل للمفعول ، وكذلك [يُتَجَاوَزُ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم فيهما بالنون التي للعظمة ، [أَحْسَنَ] بالنصب ، وهي قراءة ابن وثاب ، وطلحة ، وابن جبير ، والأعمش – بخلاف – ، وقرأ الحسن : [يَتَقَبَّلُ] بياءٍ مفتوحة [وَيَتَجَاوَزُ] كذلك ، أي اللهُ تعالى . وقوله تعالى : ﴿في أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ﴾ يريد الذين سبقت لهم رحمة الله تعالى ، وقوله : ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ نصب على المصدر المؤكِّد لما قبله .

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ الآية ، [ٱلَّذِي] يعني به الجنس على حدِّ العموم الذي في الآية التي قبلها في قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ ، هذا قول الحسن وجماعة ، ويُشبه أَنَّ لها سبباً من رجل قال ذلك لأَبويه ، فلمَّا فرغ من ذكر ذلك الموقف عقَّب بذكر هذا العاق . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري : نزلت هذه الآية في ابن لأَبي بكر ، ولم يُسَمِّه ، وقال مروان ابن الحكم : نزلت في عبد الرحمن بن أَبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، وقال قتادة : وذلك أَنه كان أَكبر أَولاد أَبي بكر وشهد بدراً وأُحداً مع الكفار ، وقال لأَبيه في الحرب :

لَمْ يَبْقَ إِلَّا شِكَّةٌ وَيَعْبُـــوبْ وصَارِمٌ يَقْتُلُ ضُـــلَّالَ الشِّيبْ (١)

---

(١) ذكر هذا البيت ابن هشام في السِّيرة ، والشِّكَّةُ : السلاح ، واليَعْبُوبُ : الفرسُ الطويل السريع الجري ، والصَّارم: السيف القاطع . ولكن ابن هشام لم يذكر أن عبد الرحمن =

ودعاه للمبارزة ، فكان بمكة على نحو هذا الخُلُق ، فقيل إنها نزلت فيه ، ورُوي أَن مروان بن الحكم خطب وهو أَمير المدينة فدعا الناس إلى بيعة يزيد ، فقال عبد الرحمن بن أَبي بكر : جعلتموها هِرَقْلِيَّة ، كلما مات هِرَقْل وَلِيَ هِرَقْل ، وكلما مات قيصر وَلِيَ قيصر ، فقال مروان : خذوه ، فدخل عبد الرحمن بيت عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها ، فقال مروان : إن هذا هو الذي قال الله تعالى فيه : ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ ، فسمعته عائشة رضي الله عنها فأَنكرت ذلك عليه ، وسبَّت مروان وقالت : والله ما نزل في آل أَبي بكر من القرآن غير براءتي ، وإنِّي لأَعرف فيمن نزلت هذه الآية (١) ، وذكر ابن عبد البَرِّ أَن الذي خطب هو معاوية رضي الله عنه ، وذلك وَهْمٌ ، والأَصوب أَن تكون عامَّة في أَهل هذه الصفات ولم يقصد بها عبد الرحمن ولا غيره من المؤمنين ، والدليل القاطع على ذلك قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ

= دعا أباه إلى المبارزة، وإنما ذكر أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه التقى بابنه عبد الرحمن فقال له : أين مالي يا خبيث ؟ فأجابه عبد الرحمن بهذا البيت من الشِّعر . هذا وأخبار عبد الرحمن في الإصابة ، وفي الأغاني ، وقد أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث .

(١) أخرجه عبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن محمد بن زياد ، وأخرجه البخاري عن يوسف بن ماهك ، وفيه أن مروان لما قال خذوه دخل عبد الرحمن بن أبي بكر بيت عائشة رضي الله عنها فلم يقدروا عليه ، وأخرج هذا الخبر أيضاً ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن عبد الله . (الدر المنثور) .

ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ، وكان عبد الرحمن رضي الله عنه من أفضل الصحابة ، ومن الأبطال ، وممن له في الإسلام غناءٌ ، ويكفيه مقامه مع مروان يوم اليمامة وغيره .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وطلحةُ بن مصرف : [أفِ] بكسر الفاء بغير تنوين ، وذلك فيها علامة تعريف ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وابن محيصن ، وشبل ، وعمرو بن عبيد : [أُفَ] بالفتح (١) ، وهي لغة ، الكسر والفتح ، وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والحسن ، والأعرج : [أُفٍّ] بالكسر والتنوين ، وذلك علامة تنكير ، وهي كصَهٍ ، وكما تستعظم رجلا حديثاً غير معيَّن فتقول : «إيهٍ» مُنَوَّنة ، فإن كان حديثاً مُشاراً إليه قلت : «إيهِ» بغير تنوين ، و «أُفٍّ» أَصلها في الأقذار ، وكانت العرب إذا رأت قذراً قالت : أُفٍّ ، ثم صيَّره الاستعمال يقال في كل ما يكره من الأقوال والأفعال .

وقرأ هشام عن ابن عامر ، وعاصم (٢) ، وأبو عمرو - فيما رُوي عنه - : [أَتَعِدَانِّي] ، وقرأ أبو عمرو ، ونافع ، وشيبة ، والأعرج ،

---

(١) أي : وبدون تنوين . ذكر ذلك القرطبي .

(٢) يعني في رواية أبي بكر عنه ، أما رواية حفص عنه فهي بنونين كجمهور القراء ، وذلك ثابت في المصحف .

والحسن ، وأَبو جعفر ، وجمهور القراء : [أَتَعِدَانِنِي] بنونين ، والقراءَة الأُولى هي بإدغام النون في النون ، وقرأَ نافع أَيضاً : [أَتَعِدَانِي] بنون واحدة وإظهار الياءِ ، وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وأَبو جعفر ، والأَعرج ، وشيبة ، وقتادة ، وأَبو رجاءٍ ، وابن وثاب ، وجمهور الناس : ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ بضم الهمزة وفتح الراءِ ، وقرأَ الحسن ، وابن يَعْمَر ، والأَعمش ، وابن مصرف ، والضحاك : ﴿أَنْ أَخْرُجَ﴾ بفتح الهمزة وضم الراءِ ، والمعنى : أَن أَخرج من القبر للحشر والمعاد ، وهذا القول منه استفهام بمعنى الهُزْءِ والاستبعاد ، وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ معناه : هلكت ومضت ولم يخرج منهم أَحد ، وقوله : ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يعني الوالدين ، ويقال : استغثتُ الله واستغثت بالله بمعنى واحد . و [وَيْلَكَ] دعاءٌ لمن يُحَقَّر ويُحَرَّك لأَمر يُستعجل إليه .

وقرأَ الأَعرج : ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بفتح الهمزة ، والناس على كسرها . وقوله : ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ، أَي : ما هذا القول الذي يتضمن البعث من القبور إلَّا من شيءٍ قد سَطَّره الأَولون في كتبهم ، يعني الشَّرائع ، وظاهر أَلفاظ الآية أَنها نزلت في مُشَار إليه قال وقيل له ، فنعى الله تعالى أَقواله تحذيراً من الوقوع في مثلها .

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ...﴾ ، ظاهر أنها إشارةٌ إلى جنس يتضمنه قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِي قَالَ﴾ ، ويحتمل – إن كانت الآية في مُشار إليه – أن يكون قوله تعالى : [أُولَئِكَ] بمعنى : صنف هذا المذكور وجنسُه هم الذين حق عليهم القول ، أي قول الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ﴾ يقتضي أن الجن يموتون كما يموت البشر قرناً بعد قرن ، وقد جاءَ حديث يقتضي ذلك ، وقال الحسن بن أبي الحسن في بعض مجالسه : «الجنُّ لا تموت» ، فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت .

وقوله تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ﴾ يعني المحسنين والمسيئين ، وقال ابن زيد : درجاتُ المحسنين تذهب علوًّا ودرجات المسيئين تذهب سفلًا ، وقرأَ أبو عبد الرحمن : [وَلِتُوَفِّيَهُمْ] بالتاءِ من فوق ، أي الدرجات ، وقرأَ جمهور الناس : [وَلِيُوَفِّيَهُمْ] بالياءِ ، وقرأَ نافع – بخلاف عنه – وأَبو جعفر ، وشيبة ، والأَعرج ، وطلحة ، والأَعمش : [وَلِنُوَفِّيَهُمْ] بالنون ، وقرأَ اللؤلؤيُّ في حرف أُبَيٍّ بن كعب ، وابن مسعود رضي الله عنهما : «وَلَنُوَفِّيَنَّهُمْ» بنون أُولى ونون ثانية مشدَّدة وبفتح اللام ، وكل امرئ يجني ثمرة عمله من خيرٍ أَو شرٍّ ولا يظلم في مجازاته ، بل يوضع كل أَمْر في موضعه من ثواب أَو عقاب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) * وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾

المعنى : واذكر يوم يُعْرَض ، وهذا العرض هو بالمباشرة ، كما تقول : عرضتُ العود على النَّار والجاني على السَّوط ، والمعنى : يقال لهم : أذهبتم طيباتكم . وقرأ الجمهور على الخَبَر ولذلك حسنت الفاءُ بعد ذلك ، وقرأ ابن كثير ، والحسن ، والأَعرج ، وأَبو جعفر ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن وثاب : [آذْهَبْتُمْ] بهمزة مطوَّلة على التوبيخ والتقرير الذي هو في لفظ الاستفهام ، وقرأ ابن عامر : [أأذْهَبْتُمْ] بهمزتين تقريراً أَيضاً ، والتوبيخ والتقرير إخبارٌ بالمعنى ولذلك حَسُنَت الفاءُ ، وإلَّا فهي لا تَحْسُن في جواب على حدِّ هذه مع الاستفهام المحض .

و «الطَّيِّباتُ» : الملاذُّ ، وهذه الآية وإن كانت في الكفار فهي وازعةٌ لأُولى النُّهى من المؤمنين عن الشهوات واستكمال الطيِّبات ،

ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه : « أتظنُّون أنَّا لا نعرف طيب الطَّعام ؟ ذلك لُباب البُرِّ بصغار المعزى ، ولكنَّا رأينا الله تعالى نعى على قوم أنهم أذهبوا طيِّباتهم في حياتهم الدُّنيا » ، ذكر هذا في كلامه مع الربيع بن زياد ، وقال أيضاً نحو هذا لخالد بن الوليد حين دخل الشَّام فَقُدِّم إليه طعامٌ طيِّب ، فقال عمر رضي الله عنه : هذا لنا ، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير؟ فقال خالد : لهم الجنة ، فبكى عمر وقال : لئن كان حظنا في الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بوناً بعيداً ، وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : اشتريت لحماً بدرهم ، فرآني عمر رضي الله عنه فقال : أَوَكُلَّما اشتهى أحدكم شيئاً اشتراه فأكله ؟ أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ؟

و « عَذَابُ ٱلْهُون » العذابُ الذي اقترن به هوان ، وهو عذاب العصاة المواقعين ما قد نُهوا عنه ، وهذا بيِّن في الدُّنيا ، فعذاب المحدود في معصية كالحرابة ونحوها مقترن بِهُونٍ ، وعذاب المقتول في حرب لا هُونَ معه ، والهُونُ والهوان بمعنى .

ثم أمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بذكر هودٍ عليه السلام وقومه عادٍ على جهة المثال لقريش ، وهذه الأُخوَّة هي أُخوَّة القرابة ؛ لأن هوداً عليه السلام كان من أشراف القبيلة التي هي عاد .

واختلف الناس في هذه الأَحقاف ، أَين كانت ؟ فقال ابن عباس ، والضحاك : هي جبل بالشَّام ، وقيل : كانت بلاد نخل ، وقيل : هي رمال بين مَهْرة وعدن ، وقال ابن عباس أَيضاً : بين عُمَان ومَهْرة ، وقال قتادة : هي بلاد الشحر المواصلة للبحر اليماني ، قال ابن إِسحق : هي بين حضرموت وعُمان ، والصحيح من الأَقوال أَن بلاد عادٍ كانت في اليمن ، ولهم إِرَم ذاتُ العماد . و «الأَحْقَافُ» جمع حقف ، وهو الجبل المستطيل المُعْوَج من الرمل ، قال الخليل : هي الرمال العظام ، وكثيراً ما تحدث هذه الأَحقاف في بلاد الرمل في الصحارى ؛ لأَن الريح تصنع ذلك

وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ اعتراضٌ مقيم للحُجَّة أَثناءَ قصة هود عليه السلام ؛ لأَن قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هو من نذارة هود عليه السلام ، و [خَلَت] معناه : مضت إِلى الأَرض الخلاءِ ومرَّت أَزمانها ، وفي مصحف عبد الله رضي الله عنه : «وَقَدْ خَلَت النُّذُرُ مِنْ قَبْلِه وبَعْدِهِ» ، وروي فيه : «وَقَدْ خَلَت النُّذُرُ مِنْ بَيْن يَدَيْه وَمِنْ بَعْدِهِ» . و «النُّذُر» جمع نذير ، بناءُ اسم الفاعل .

وقولهم : [لِتَأْفِكَنَا] معناه : لِتَصْرِفَنَا ، وقولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ تصميم على التكذيب ، وتعجيز منهم له في زعمهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ
هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا
فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ
فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

المعنى : قال لهم هود عليه السلام : إنَّ هذا الوعيد ليس من قِبَلي ، وإنَّما الأَمر لله تعالى ، وعِلْم وقته عنده ، وإنَّما عليَّ أَن أُبَلِّغ فقط. وقرأَ جمهور الناس : [وَأُبَلِّغُكُمْ] بفتح الباءِ وشدِّ اللام ، قال أَبو حاتم : وقرأَ أَبو عمرو في كل القـرآن بسكون الباءِ وتخفيف الـلام . و ﴿ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ أَي مثلَ هذا من أَمر الله تعالى ، وتجهلون خلْق أَنفسـكم .

والضمير في [رَأَوْهُ] يحتمل أَن يعود على « العذاب » ، ويحتمل أَن يعود على الشيءِ المَرْئيِّ الطالع عليهم ، وهو الذي فسَّره قوله :

[عَارِضاً] ، وهو ما يعرض في الجوِّ من السحاب الممطر ، ومنه قول الأَعشـى :

يَا مَنْ رَأَى عَارِضاً قَدْ بِتُّ أَرْقُبُـهُ كَأَنَّمَا الْبَرْقُ في حَافَاتِهِ الشُّعَـلُ (١)

وقال أَبو عبيدة : العارض : الذي يُرى في أَقطار السماءِ عشيًّا ثم يصبح من الغد قد استوى ، ورُوي في معنى قوله تعالى : ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أَن هؤلاءِ القوم كانوا قد قحطوا مدَّةً ، فطلع عليهم هذا العارض على الهيئة والجهة التي كانوا يمطرون بها أَبداً ، جاءَهم من قِبَل واد لهم يسمونه المغيث ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ففرحوا به وقالوا : هذا عارض ممطرنا وقد كذب هودٌ فيما أَوعد به ، فقال لهم هود عليه السلام : ليس الأَمر كما رأَيتم ، بل هو ما استعجلتم به في قولكم : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ ، ثم قال : ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، وفي قراءَة ابن مسعود : «مُمْطِرُنَا قَالَ هُودٌ بَلْ هُوَ» بإِظهار المقدَّر ؛ لأَن قراءَة الجمهور هي كقوله تعالى : ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ (٢) ، أَي : يقولون : سلام عليكم .

---

(١) البيت من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله : «ودِّع هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ» ، وهي التي قالها ليزيد بن مسهر الشيباني ، وقرأها أبو عبيدة على أبي عمرو بن العلاء ، وفي بعض الروايات «أَرْمُقه» بدلاً من «أَرْقُبُه» ، والشاهد في البيت هنا أن العارض هو السحاب الممطر الذي يعترض في السماء .

(٢) من الآيتين (٢٣ ، ٢٤) من سورة (الرَّعد) .

قال الزجاج : وقرأ قوم : ﴿ بَلْ هُوَ مَاٱسْتُعْجِلْتُمْ بِهِ ﴾ بضم التاء الأُولى وكسر الجيم ، و [رِيحٌ] بدلٌ من المبتدإ في قوله : ﴿ هُوَ مَا ﴾ ، و [مُمْطِرُنَا] نعتٌ لـ [عَارِضٌ] ، وهو نكرة إضافته غير محضة ؛ لأَن التقدير : ممطر لنا في المستقبل ، فهو في حكم الانفصال . وقد مضى في غير هذه السورة قصص الرِّيح التى هبَّت عليهم ، وأَنها كانت تحمل الظعينة (١) كجرادة .

و [تُدَمِّرُ] معناه : تُهلك ، والدَّمارُ : الهلاكُ ، ومنه قول جرير :

وكَانَ لَهُمْ كَبَكْرِ ثَمُودَ لَمَّا رَغَا ظُهْراً فَدَمَّرَهُمْ دَمارَا (٢)

وقوله تعالى : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ظاهره العموم ومعناه الخصوص في كلِّ ما أُمرت بتدميره ، وروي أَن هذه الريح رمتهم أَجمعين في البحر .

---

(١) الظَّعينة : الراحلة يُرْتحل عليها ، ثم أُطلقت على الهودج وفيه الزوجة .

(٢) هذا البيت ليس لجرير ، ولم أجده في ديوانه ، ثم وجدته في ديوان الفرزدق ، وهو من قصيدة له يردُّ بها على جرير ويناقضه ، يقول الفرزدق في مطلع هذه القصيدة :

جَرَّ المُخْزِياتِ عَلَى كُلَيْبٍ جَرِيرٌ ثُمَّ ما مَنَعَ الذِّمَارَا
وَكَانَ لَهُمْ كَبَكْرِ ثَمُودَ لَمَّا رَغَا ظُهْراً فَدَمَّرَهُمْ دَمَارَا
عَوَى فَأَثَارَ أَغْلَبَ ضَيْغَمَاً فَوَيْلَ ابْنِ المَرَاغَةِ ما ٱسْتَثَارَا

يصفه بأنه جلب الفضائح لأهله ، وعجز عن حمايتهم ، وكان لهم نذير سوءٍ ، ويقول : إن شِعر جرير يثيرني على كليب فأُدمِّرهم كما أن رُغاء ابن ناقة ثمود أتاهم بالدَّمار والهلاك .

وقرأ حمزة ، وعاصم : [لَا يُرَى] على بناء الفعل للمفعول [مَسَاكِنُهُمْ] رفعاً ، التقدير : لا يُرى شيءٌ منهم ، وقرأ جمهور القراء : ﴿لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾(١) ، أي : لا تَرَى أيها المخاطب شيئاً منهم ، [وهي قراءة ابن مسعود ، وعمرو بن ميمون ، والحسن - بخلاف عنهما - ومجاهد ، وعيسى ، وطلحة](٢) ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، والجحدري ، وقتادة ، وعمرو بن ميمون ، والأعمش ، وابن أبي إسحق ، وأبو رجاءٍ ، ومالك بن دينار - يعني بلا خلاف عنهما خاصة ممن ذكر(٣) : ﴿لَا تُرَى﴾ بالتاءِ المنقوطة من فوق مضمومة ﴿إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ رفعاً ، ورويت عن ابن عامر ، وهذا نحو قول ذي الرُّمَّة :

كَأَنَّهَا جَمَلٌ وَهْـــمٌ وَمَا بَقِيَتْ ... إِلَّا النَّحِيزَةُ وَالْأَلْـوَاحُ والْعَصَبُ(٤)

---

(١) أي بالتاء المفتوحة في [تَرَى] وبالنصب في [مَسَاكِنَهُمْ] .

(٢) اختلفت النسخ في الفقرة التي وضعناها بين العلامتين [....] ، فهي في بعض النسخ عقب قراءة حمزة وعاصم ، وهي في بعضها الآخر عقب قراءة الجمهور ، والله أعلم بالصواب .

(٣) الذي في الأصل « يعني بخلاف عنهما » ، والتصويب عن (المُحْتَسَب) لابن جني ، فقد قال : « واختلف عن الكلّ إلاّ أبا رجاءٍ ، ومالك بن دينار » ، وهي جملة صريحة في المعنى الذي أثبتناه .

(٤) هذا البيت في وصف الناقة ، وهو في الديوان ، وفي لسان العرب ــ وهم ــ ، والذي في الأصول هنا « كَأَنَّهُ » ، والصواب ما أثبتناه لأن الكلام كما قلنا في وصف الناقة ، والوَهْمُ : الجبل الضخم العظيم ، قال ذلك في اللسان ، وقال أيضاً : وقيل: هو من الإبل الذَّلُولُ =

ونحو قوله :

. . . . فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ(١)

وفي هذه القراءة استكراهٌ(٢)، وقراءة الأَعمش ، وعيسى : [مَسْكَنُهُمْ] على الإِفراد الذي هو اسم الجنس ، والجمهور على الجمع في اللفظة ،

= المنقاد مع ضِخَم وقوة ، والجمع أوهامٌ ووُهُوم ووُهُم ، والنَّحيزة: هَنَة من الشَّعر عرضها شِبْرٌ يعلقونها على الهودج يزينونه بها ، وربما رقموها بالعِهْن ، وقيل هي مثل الحزام بيضاء . أو هي النِّسْع ، وهو سَيْرٌ مضفور يُجعل زماماً للبعير ، وقد تنسج هذه الضفيرة عريضة وتُجْعل على صدر البعير ، والألواح : جمع لوْح وهو كل عظم عريض . والعَصَبُ : ما يَشُدُّ المفاصل ويربط بعضها إلى بعض ، يقول عن ناقته : إنها تبدو كالجمل الضخم ولكن لم يبق منها إلاَّ العظم والعصب والنِّسع ، والشاهد في البيت هو التأنيث في الفعل « بقيت » مع أنه ضعيف في العربية ، والأفصح التذكير ، يقال : ما ضُرب إلاَّ هند ، وما قام إلاَّ فاطمة ، ولا يقال : « ما ضربت إلاَّ هند وما قامت إلاَّ فاطمة » إلاَّ على ضعف ، وعليه جاء قول ذي الرُّمَّة .

(١) هذا عجز بيت لذي الرُّمَّة أيضاً ، والبيت بتمامه :

بَرَى النَّحْزُ والأجْرَالُ ما في غُرُوضِها فَمَـا بَقِيَتْ إلاَّ الضلـوعُ الجَرَاشِـعُ

ويروى « طَوَى النَّحْزُ » بدلاً من « بَرَى النَّحْزُ » ، و « الأَجْرَازُ » بدلاً من « الأَجْرَالِ » ، و « الصُّدورُ » بدلاً من « الضُّلُوع » ، والنَّحْزُ : النَّخْسُ بالقدم ، أو الضَّرْب والرَّكْلُ بها ، والأجْرَالُ : جمع جرَل ــ بالتحريك ــ : المكان الصلبُ الغليظ الشديد الكثير الحجارة ، أما الأجْرَاز فَجَمْعُ جرَز ، وهي الأرض التي لا تُنبت ، والغُرُوض : جمع غَرْض ــ كَسَهْم ــ وهو للرَّحْل كالحزام للسَّرْج ، والجَرَاشِعُ : جمع جرشع وهو العظيم الغليظ ، وقيل : الطويل . والشاهد هو تأنيث الفعل في (بَقِيَتْ) على ضعف

(٢) ذلك لأن الفصيح من الكلام أن يُذَكَّر الفعل قبل إلاَّ في مثل قولنا « ما قامَ إلاَّ فاطمة » ؛ لأن الكلام محمول على معناه ، أي ما قام أحدٌ إلا فاطمة ، فلما كان هذا هو المراد ذُكِّر الفعل لفظاً للدلالة على ذلك ، وقد خالفت هذه القراءة بالرفع الفصيح فكان هذا الاستكراه الذي ذكره ابن عطية ، ومثل هذا يقال في قراءة أبي جعفر ومعاذ بن الحارث : ﴿ إِنْ كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ بالرفع في [صَيْحَةٌ] .

ووجه الإفراد تصغير الشأن وتقريبه ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ (١) .

ثم خاطب تعالى قريشاً ـ على جهة الموعظة ـ بقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ ﴾ [مَا] بمعنى « الذي » ، و [إِنْ] نافية وقعت مكان « ما » ليختلف اللفظ ولا يتصل [مَا] بـ « ما » ؛ لأَن الكلام كأَنه قال : في الذي ما مَكَّنَّاكم ، ومعنى الآية : ولقد أعطيناهم من القوة والغنى والبسطة في الأَموال والأَجسام ما لم نعطكم ، ونالهم بسبب كفرهم هذا العذابُ ، فأَنتم أَحرى بذلك إذا كفرتم ، وقالت فرقة : [إِنْ] شرطية والجواب محذوف تقديره : الذي إِنْ مكَّنَّاكم فيه طغيتم . وهذا تنطُّع في التأْويل (٢).

---

(١) من الآية (٦٧) من سورة (غافر) ، والمراد في هذه الآية : نخرجكم أطفالاً ، ولكن حَسُن لفظ الواحد هنا لأنه موضع لتصغير شأن الإنسان وتحقير أمره ، فلاق به ذكر الواحد القليل عن الجماعة ، وكذلك حَسُن في آيتنا هذه لفظ الواحد في المَسْكن لأن الموضع موضع تحقير لهم وتصغير لشأنهم .

(٢) وقال القتبيُّ : [إنْ] زائدة بعد « ما » الموصولة تشبيهاً بـ « ما » النافية ، فهي في الآية الكريمة كما هي في قول الشاعر :

يُرَجِّي الْمَرْءُ ما إنْ لا يَـــرَاهُ وَتَعْرِضُ دونَ أدْناهُ الْخُطُوبُ

فالمعنى : يُرَجِّي المرءُ ما لا يراهُ ، وكذلك المعنى في الآية الكريمة : ولقد مكَّنَّاهُم في مثل الذي مكَّنَّاهم فيه ، قال أبو حيان الأندلسي : وكون [إنْ] في الآية نافيةً هو الوجه ؛ لأن القرآن الكريم يدل عليه في مواضع ، كقوله تعالى : ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً ﴾ ، وقوله : ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً ﴾ ، وهو أبلغ في التوبيخ وأبلغ في الحث على الاعتبار .

ثـمَّ عدَّد تعالى عليهم نِعَم الحواس والإدراك ، وأخبر أنها لم تُغْن حين لم تستعمل على ما يجب ، و [مَا] نافية في قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ ﴾ ، ويُقَوِّي ذلك دخول [مِنْ] في قوله سبحانه : ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، وقالت فرقة : [مَا] في قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير ، و ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ـ على هذا ـ تأْكيد ، وهذا على غير مذهب سيبويه في دخول «مِنْ» في الجواب .

و [حَاقَ] معناه : نزل ولزم ، وهذا مستعمل في المكاره ، والمعنى : جزاءَ ما كانوا به يستهزئون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْقُرَى ﴾ مخاطبة لقريش على جهة التمثيل لهم بمأْرب وسدوم وحجر ثمود ، وقوله تعالى : ﴿ وَصَرَّفْنَا

ٱلْآيَاتِ ﴾ يعني لهذه القرى المُهْلَكَة . وقوله سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ﴾ الآية ، يعني : هلَّا نصرتهم أصنامُهم التي اتخذوها ، و [قُرْبَاناً] إمَّا أن يكون المفعول الثاني بـ [ٱتَّخَذُوا] ، و [آلِهَةً] بدلٌ منه ، وإمَّا أن يكون حالًا و [آلِهَةً] المفعول الثاني ، والمفعول الأول هو الضمير العائد على ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ﴾ ، والتقدير : اتخذو هم . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ معناه : أُتلفوا لهم حتى لم يجدوهم في وقت حاجة .

وقوله تعالى : [وَذَٰلِكَ] تختلف الإشارة به بحسب اختلاف القراءات في قوله سبحانه : [إِفْكُهُمْ] ، فقرأ الجمهور بكسر الهمزة وسكون الفاءِ وضم الكاف ، والإشارة بـ [ذَٰلِكَ] — على هذه القراءة — إلى قولهم في الأصنام : إنها آلهة ، وذلك هو اتخاذهم إيَّاهَا آلِهَةً ، وكذلك هي الإشارة في قراءة من قرأ [أَفْكُهُمْ] بفتح الهمزة ، وهي لغة في الإفك ، وهما بمعنى الكذب ، وكذلك هي الإشارة في قراءة من قرأ : [أَفَكَهُمْ] بفتح الهمزة والفاءِ والكاف على الفعل الماضي ، بمعنى : صَرَفهم ، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما ، وأبي عِياض ، وعِكرمة ، وحنظلة بن النُّعمان ، وقرأ أبو عياض أيضاً وعكرمة — فيما حكى الثعلبي — : [أَفَّكَهُمْ] بشدِّ الفاءِ وفتح الهمزة والكاف ،

وذلك على تعدية الفعل بالتضعيف ، وقرأ عبد الله بن الزبير : [آفَكَهُمْ] بمد الهمزة وفتح الفاء والكاف على التعدية بالهمزة ، قال الزجاج : جعلهم يأْفكون ، كما يقال : أَكْفَرَهم ، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما - فيما روى قطرب - [آفِكُهُمْ] بهمزة مفتوحة ممدودة وفاءٍ مكسورة وكافٍ مضمومة على وزن فاعل بمعنى : صارِفُهم ، وحكى الفراءُ أنه يقرأُ : [أَفَكُهُمْ] بفتح الهمزة والفاءِ وضم الكاف ، وهي لغة في «الإِفْك» ، والإشارة بـ [ذَلِكَ] على هذه القراءات التي ليست مصدراً يحتمل أن تكون إلى الأَصنام ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يحتمل أن تكون [مَا] مصدرية فلا تحتاج إلى عائد ، ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» فهناك عائد محذوف تقديره : يفترونه .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ ابتداءُ وصْف قصة الجن وَوِفادتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، و [صَرَفْنَا] معناه : رددناهم عن حالٍ ما ، ويحتمل أَنها الاستماع في السماءِ ، ويحتمل أَن تكون بُعْدهم (١) قبل الوفادة ، وذلك بحسب الخلاف هنا ، هل هم الوفد أَو المُتَجَسِّسُونَ ؟ وروي أَن الجن كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم تسترق السَّمع من السماءِ ، فلمَّا بُعث النبي صلى الله

(١) في بعض النسخ : «ويحتمل أن تكون كفرهم» .

عليه وسلم حُرست بالشُّهب الرَّاجمة ، فضاقت الجنُّ ذرعاً بذلك ، وأَتى رأْي مَلَئِهِم على الافتراق في أَقطار الأَرض وطلب السبب الموجب لهذا الرجم والمنع من استراق السَّمع ، ففعلوا ذلك .

واختلف الرُّواة بعْدُ ـ فقالت فرقة : جاءَت طائفة من الجنِّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يشعر ، فسمعوا القرآن ، وَوَلَّوْا إلى قومهم منذرين ، ولم يعرف النبي صلى الله عليه وسلم بشيءٍ من ذلك حتى عرَّفه الله تعالى بذلك كلِّه ، وكان سماعهم لقراءَته وهو بنخلة عند سوق عكاظ وهو يقرأُ في صلاة الفجر (١)، وقالت فرقة :

---

(١) روى البخاري ، ومسلم في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : (انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأُرسلت عليهم الشُّهب ، فرجعت الشياطين ، فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأُرسلت علينا الشُّهب ، قالوا : ما ذاك إلاَّ من شيءٍ حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر ، فمرَّ النفر الذين توجهوا نحو تهامة بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمَّعوا له ، فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ ، فأنزل الله على نبيه ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ وهذا الحديث أورده السيوطي في (الدرِّ المنثور) ، وزاد نسبته إلى أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن المنذر ، والحاكم ، والطبراني، وابن مردويه ، وأبي نُعَيم ، والبيهقي في الدلائل . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، وإنما أتوه بنخلة فسمعوا القرآن . و « نخلة » موضع بين مكة والطائف ، وإليها ينسب « بطن نخلة » . فهذا الحديث دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف بأن الجن استمعوا إليه ، ولم يؤمر بالقراءة عليهم .

بل أشعره الله تعالى بوفادة الجنِّ عليه واستعد لذلك ، ووفد عليه أهل نصيبين منهم (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتحرير في هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جنٌّ دون أن يعرف بهم ، وهم المتفرقون من أجل الرَّجم ، وهذا قوله تعالى : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾(٢) الآية ، ثم بعد ذلك وفد عليه وفد وهو المذكور صرفه في هذه الآية (٣) ، قال قتادة : صُرفوا إليه من نِينَوى ، وأُشْعر

(١) في مسلم من حديث علقمة ، قال : قلتُ لعبد الله : من كان منكم مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ قال : ما كان منّا معه أحد ، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة ، فقلنا : اغتيل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو استطير ، فانطلقنا نطلبه في الشعاب ، فلقيناه مقبلا من نحو حراء ، فقلنا : يا رسول الله ، أين كنت ؟ لقد أشفقنا عليك ، وقلنا له : بتنا الليلة بِشَرِّ ليلة بات بها قوم حين فقدناك ، فقال : إنه أتاني داعي الجن ، فذهبتُ أُقرئُهم القرآن ، فذهب بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم — وهذا الحديث رواه أيضاً أحمد في مسنده ، وذكره السيوطي في (الدر المنثور) ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، والترمذي ، — وروى معنى هذا الحديث معمَّر عن قتادة ، وفيه قال : ذُكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنّي أُمِرْتُ أن أَقْرأ على الجنِّ ، فأيكم يتبعني ؟ ...) إلخ الحديث . وهذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أُمر أن يقرأ على الجن القرآن ، وكان يعرف أنهم سيحضرون لسماعه .

(٢) من الآية (١) من سورة (الجن) .

(٣) فابن عطية يرى أن الجن الذين استمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بطن نخلة حين تفرقوا من أجل الرَّجم بالشُّهب من السماء غير الجن الذين أُمر بأن يقرأ عليهم في هذه الآية : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ﴾ .

به قبل وروده(١)، وقال الحسن : لم يشعر به ، واختلف في عددهم اختلافاً متباعداً فاختصرته لعدم الصحة في ذلك ، أمّا ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، وقال زِرٌّ : كانوا تسعة فيهم زَوْبعة ، وروي في ذلك أَحاديث عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، رُوي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إني خارج إلى وفد الجن ، فمن يتبعني ؟) فسكت أَصحابه ، فقالها ثانية فسكتوا ، فقال عبد الله : أنا أَتْبعك ، قال : فخرجت معه حتى جاءَ شِعْب الحَجُونِ فأَدار لي دائرة وقال : (لا تخرج منها) ، ثم ذهب عنِّي ، فسمعت لغطاً ودويًّا كدوي النُّسور الكاسرة ، ثم في آخر اللَّيل جاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أَن قرأَ عليهم القرآن وعلَّمهم، وأَعطاهم زاداً في كل عظم ورَوْثة ، فقال : (يا عبد الله ، ما رأَيت) ؟ قال : فأَخبرته ، فقال : (لقد كنت أَخشى أَن تخرج فيخطفك بعضهم) ، قلت : يا رسول الله ، سمعتُ لهم لغطاً ، فقال : (إنهم تَدَارَؤُوا في قتيل لهم فحكمتُ بالحق بينهم) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

واضطربت الروايات عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وروي عنه ما ذكرنا ، وروي عنه أَنه رأَى رجالًا من الجن وهم شبه رجال

---

(١) يعني بالوفد ، فالضمير عائد على « وفد » .

الزُّطِّ(١) السود الطوال حين رآهم بالكوفة ، وروي عنه أنه قال : ما شاهد أَحدٌ منَّا ليلة الجن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاختصرت هذه الروايات وتطويلها لعدم صحتها .

وقوله تعالى : ﴿نَفَراً مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ يقتضي أن المصروفين رجال لا أُنثى معهم ، فالنَّفر والرَّهط والقوم : الذين لا أُنثى فيهم ، وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ فيه تأَدُّب مع العالِم وتعليمٌ كيف يُتَعَلَّم . وقرأ جمهور الناس : [قُضِيَ] على بناءِ الفعل للمفعول ، وقرأ حبيب بن عبد الله بن الزبير ، وأَبو مجلز على بناءِ الفعل للفاعل ، أَي قَضَى محمد صلى الله عليه وسلم القراءَة ، وقال ابن عمر ، وجابر ابن عبد الله رضي الله عنهم : قرأ عليهم سورة الرحمن عزَّ وجلَّ ، فكان إذا قال : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا : لا شيءَ من آلائك ربنا نكذِّب ، ربنا لك الحمد ، ولمَّا ولَّت هذه الجملة تفرقت على البلاد منذرة للجن ، قاله قتادة : ما أَسرع ما عقل القوم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهنالك وقعت قصة سوادٍ وشِصَار وخُنافر وأَشباهها(٢) ، صلى الله على محمد عبده ورسوله وسلم .

---

(١) الزُّط : جيل أسود من السِّند تُنسب اليهم الثياب الزُّطية ، وقيل : الزُّط : إعراب «جَت» بالهندية ، وهم جيل من أهل الهند .

(٢) هذه أسماءُ بعض الجن الذين سمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

المعنى : قال هؤلاءِ المنذرون لمَّا بلغوا قومهم : ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ ، وهو القرآن العظيم ، وخصصوا موسى صلى الله عليه وسلم لأحد أمرين : إمَّا لأَن هذه الطَّائفة من الجن كانت تتديَّن بدين اليهود ، وإمَّا لأَنهم كانوا يعرفون أَن موسى عليه السلام قد ذكر محمداً صلى الله عليه وسلم وبشَّر به ، فأَشاروا إلى موسى عليه السلام من حيث كان الأَمر مذكوراً في توراته ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الثعلبي : لم يكونوا علموا أَمر عيسى عليه السلام ، فلذلك قالوا : ﴿مِنْ بَعْد مُوسَى﴾ ، وقولهم : ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يؤيد هذا ، و «ما بين يديه» هو التوراة والإنجيل ، و «الحق»

و « الصِّراطُ المستقيم » هما بمعنىً متقارب ، لكن من حيث اختلف اللفظ ـ وربما كان الحق أعم ـ وكان أَحدهما قد يقع في مواضع لا يقع فيها الآخر ، حَسُن التكرارُ .

و « داعي الله » هو محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير في [بِهِ] عائد على الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ معناه : يغفر الله لكم ، وقوله : [وَيُجِرْكُمْ] معناه : يمنعكم ويجعل دونكم حفظة حتى لا ينالكم عذاب ، وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللهِ﴾ الآية يحتمل أَن يكون من كلام المنذرين ، ويحتمل أَن يكون من كلام الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بها إسماع الكفار ، وتعلق اللفظ إلى هذا المعنى من قول الجن : ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللهِ﴾ ، فلمَّا حكى ذلك قيل : ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللهِ﴾ فهو بحال كذا ، و « المُعْجز » : الذاهبُ في الأَرض بَدَا عجز طالبه ولا يُقدر عليه ، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما : « وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ » بزيادة « ميم » .

وقوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ ، الضمير لقريش ، وهذه آية مثل واحتجاج ؛ لأَنهم قالوا : إن الأَجساد لا يمكن أَن تُبعث ولا تُعاد ، وهم مع ذلك معترفون بأَن الله تعالى خلق السموات والأَرض فأُقيمت عليهم الحُجَّة من أَقوالهم ، و « الرؤْية » في قوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾

رؤية القلب . وقرأ جمهور الناس : ﴿وَلَمْ يَعْيَ﴾ بسكون العين وفتح الياءِ الأخيرة ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [يَعِيْ] بكسر العين وسكون الياءِ ، وذلك على حذف(١). والباءُ في قوله تعالى : [بِقَادِرٍ] زائدة مؤكدة ، فمن حيث تقدم نفيٌ في صدر الكلام حَسُن التأْكيد بالباءِ ، وإن لم يكن النَّفْيُ ما دخلت هي عليه ، كما هو في قولك : «ما زيد بقائم» ، كأن بدل ﴿أَوَ لَمْ يرَوْا﴾ «أَوَ ليس ٱلذي خَلَقَ» ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ، والجمهور : [بِقَادِرٍ] ، وقرأ الجحدريُّ ، والأَعرج – بخلاف – وعيسى ، وعمرو بن عبيد : [يَقْدِرُ] بالياءِ ، على فعل مستقبل ، ورجحها أبو حاتم وغلَّط قراءَة الجمهور لِقلق الباءِ عنده ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : «وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ

(١) قال ابن جني عن هذه القراءة : «هذا مذهب ترغب العرب عنه ، وهو إعلالُ عين الفعل وتصحيح لامه ، وإنما جاءَ ذلك في شيءٍ من الأسماء ، وهو (غايَة وآيَة) ، وقياسها (غياة وأياة) ، ولم يأت هذا في الفعل إلاّ في بيت شاذ ، أنشده الفراءُ ، وهو :

وكَأَنَّهَا بَيْنَ النِّسَـــاءِ سَبِيكَةٌ ... تَمْشِي بِسُدَّةِ بَيْتِهَـا فَتُعِيّ

فأعَلّ العين وصحح اللام ، ورفع ما لم ترفعه العرب وإنما تُعِلُّه نحو يرمي ويقضي ، وعلى هذا قراءة الحسن هذه في قوله : ﴿وَلَمْ يَعِيْ بِخَلْقِهِنَّ﴾ ، فقد أجراه مجرى (لم يَبِعْ) ، فحذف العين لسكونها وسكون الياء الثانية ، ووزن ﴿لَمْ يَعِي﴾ : لم يَفِلْ ، مثل : (لم يبع) ، والعين محذوفة لالتقاء الساكنين »اه كلامه بتصرف ، ومنه نفهم معنى قول ابن عطية : «وذلك على حذف» .

قَادِرٌ» بغير باءٍ، و [بَلَى] جواب بعد النفي المتقدم ، فهو إيجاب لِمَا نُفي ، والمعنى : بل رأَوْا ذلك ، أَيْ : لو نفعهم ووقع في قلوبهم . ثم استأْنف لفظ الإِخبـار المؤكد بقـوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

المعنى : واذكر يوم ، وهذا وعيد للكفار من قريش وسواهم ، و «العَرْضُ» ــ في هذه الآية ــ عرض مباشرة ، كما تقول : عرضت الجاني على السوط ، والمعنى : يقال لهم : أَليس هذا العذاب حقًّا وقد كنتم تكذبون به ؟ فيجيبون : بلى وربنا ، فذلك تصديق حيث لا ينفع ، ورُوي عن الحسن أنه قال : إنهم ليعذَّبون في النَّار وهم راضون بذلك لأَنفسهم ، فيعترفون أنه العدل ، فيقول لهم المحاور

من الملائكة عند ذلك : ﴿فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أَي : بسبب كفركم .

وقوله تعالى : [فَاصْبِرْ] ، الفاءُ عاطفة هذه الجملة من الوصاة على هذه الجملة من الأَخبار عن حال الكفرة في الآخرة ، والمعنى بينهما مرتبط ، أَي : هذه حالهم مع الله تعالى فلا تستعجل أَنت فيما حُمِّلْته ، واصبر له ، ولا تخف في الله أَحداً . وقوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ تَبْعيض ، والمراد من حُفظت له مع قومه شدَّة ومجاهدة كنوح وإِبراهيم وموسى وغيرهم صلى الله عليهم وسلم ، هذا قول عطاءٍ الخُراساني وغيره ، وقال ابن زيد ما معناه أَن [مِنْ] لبيان الجنس ، قال : والرُّسل عليهم الصلاة والسلام كلهم أُولوا عزم ، ولكن قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ﴾ يتضمن رسلًا وغيرهم ، فبيَّن بعد ذلك جنس الرُّسل خاصة تعظيماً لهم ، ولتكون القدوة المضروبة لمحمد صلى الله عليه وسلم أَشرف ، وذكر الثعلبي هذا القول عن علي بن مهدي الطبري ، وحكي عن أَبي القاسم الحكيم أَنه قال : الرُّسل عليهم السلام كلهم أُولوا عزم إِلَّا يونس عليه السلام (١)، وقال الحسن بن

(١) وقد علَّل أبو القاسم كلامه هذا بقوله : « ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم نُهي أن يكون مثله ، لخِفَّة وعجلة ظهرت منه حين ولَّى مغاضباً لقومه ، فابتلاه الله بثلاث : =

الفضل : هم الثمانية عشر المذكورون في سورة الأَنعام ؛ لأَنه تبارك وتعالى قال بعقب ذكرهم : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِه ﴾(١) ، وقال مقاتل : هم ستّة : نوح صلى الله عليه وسلم صبر على أَذى قومه طويلًا ، وإبراهيم صلى الله عليه وسلم صبر على النار ، وإسحق صلى الله عليه وسلم صبر نفسه في الذبح(٢) ، ويعقوب صلى الله عليه وسلم صبر على الفقد لولده وعمى بصره وقال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾(٣) ، ويوسف صلى الله عليه وسلم صبر على السجن ، وأَيوب صلى الله عليه وسلم صبر على البلاء .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وانظر أَن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال في موسى عليه السلام : (يرحـم الله موسى ، أُوذي بأَكثر من هذا فصبر)(٤) ، ولا محالة

= سلّط عليه العمالقة حتى أغاروا على أهله وماله ، وسلّط الذئب على ولده فأكله ، وسلّط عليه الحوت فابتلعه » ، وقد نُهي النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون مثله في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ — ٤٨ القلم — .

(١) من الآية (٩٠) من سورة (الأنعام) .

(٢) على قول من قال : إن الذبيح إسحق .

(٣) من الآية (١٨) من سورة (يوسف) .

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير سورة (الكهف) ، والبخاري في الأنبياء ، وأحمد في مسنده (١—٤١١ ، ٥—١١٨) ، ولفظه كما في مسند أحمد ، عن عبد الله قال : قسم رسول الله =

أَن لكل نبي ورسـول عزماً وصبراً ، صـلى الله عليهم وسـلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ معناه : لا تستعجل لهم عذاباً فإنهم إليه صائرون ، ولا تستطل تعميرهم في هذه النعمة فإنهم يوم يرون العذاب كأَنهم لم يلبثوا في الدُّنيا إلَّا ساعةً ، لاحتقارهم ذلك؛ لأَن المنقضي من الزَّمان إنما يصير عَدَماً ، فكثيره الذي ساءَت عاقبته كالقليـــل .

وقرأَ أُبَيٌّ بن كعب رضي الله عنه : «إِلَّا سَاعَةً مِنَ ٱلنَّهَارِ» ، وقرأَ جمهور الناس : [بَلَاغٌ] ، وذلك يحتمل معاني : أَحدها أَن يكون خبر ابتداءٍ ، المعنى :هذا بلاغ ، وتكون الإِشارة بـ [هَذَا] إمَّا إلى القرآن والشَّرع ، أَي : هذا إِنذارٌ وتبليغ ، وإِمَّا إلى المدَّة التي تكون كساعة من نهار ، كأَنه تعالى قال : لم يلبثوا إلَّا ساعة كانت بلاغهم ، وهذا كما تقول : «متاع قليل» ونحوه من المعنى ، والثاني : أَن يكون ابتداءً والخبر محذوف ، والثالث : ما قاله أَبو مجلز ، فإِنه كان يقف على قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ﴾ ، ويقول : [بَلَاغٌ] ابتداءٌ وخبره

= صلى الله عليه وسلم قسمة ، فقال رجل من القوم : إن هذه لقسمة ما يُراد بها وجه الله عزَّ وجلَّ ، قال : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته ، قال : فغضب حتى ظهر الغضب في وجهه ، فقال : (يرحم الله موسى ، قد أُوذي بأكثر من ذلك فصبر) .

مقدم في قوله تعالى: [لَهُمْ]، وقدح الناس في هذا القول بكثرة الحائل(١)، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وعيسى: [بَلَاغاً]، وهي قراءة تحتمل المعنييْن في قراءة الرفع، وليس يدخلها قول أبي مجلز، ونصبها بفعل مضمر، وقرأ أبو مجلز، وأبو سراج الهذلي: [بَلِّغْ] على الأمر(٢)، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [بَلَاغٍ] بالخفض نعتاً للنهار(٣).

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ على بناء الفعل للمجهول، وقرأ بعضهم - فيما حكى هارون -: ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ﴾ على بناء الفعل للفاعل وكسر اللام، وحكاها أبو عمرو عن الحسن وابن محيصن، وقرأ ابن محيصن أيضاً بفتح الياء واللام(٤)، قال أبو الفتح: وهي مرغوب عنها، وروى زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿فَهَلْ يُهْلِك﴾ بضم الياء وكسر اللام ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ بالنصب.

---

(١) وقال ابن الأنباري: «وهذا خطأٌ؛ لأنك قد فصلت بين البلاغ وبين اللام - وهي رافعة - بشيءٍ ليس منهما».

(٢) قال أبو حيان الأندلسي: «وهذا يؤيد حَمْل [بَلاغٌ] رفعاً ونصباً على أنه يُعنى به تبليغ القرآن والشرع.

(٣) ونقل عن أبي مِجْلز أيضاً أنه قرأ: [بَلَغَ] على الفعل الماضي.

(٤) وماضي هذا الفعل «هَلِكَ» بكسر اللام، وهي لغة ولكن مرغوب عنها كما قال أبو الفتح.

وفي هذه الآية وعيد محضٌ وإنذارٌ بيِّنٌ ، وذلك أن الله تعالى جعل الحسنة بعشر أمثالها ، والسيِّئة بمثلها ، وأمر بالطَّاعة ووعد عليها بالجنَّة ، ونهى عن الكفر وأوعد عليه بالنَّار ، (فلن يَهْلِك على الله إلَّا هالك) كما قال صلى الله عليه وسلم(١) ، قال الثعلبي : يقال : إن قوله تعالى : ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾ أرجى آيةً في كتاب الله تعالى للمؤمنين(٢) .

كمل تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مسنده (١–٢٧٩) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولفظه كما في مسند أحمد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ربه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ ربكم تبارك وتعالى رحيم ، من همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة ، فإن عملها كُتبت له عشرة إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيِّئة فلم يعملها كُتبت له حسنة ، فإن عملها كُتبت له واحدة أو يمحوها الله ، ولا يَهْلِكُ على الله إلاَّ هالك) .

(٢) أخرج الطبراني في الدعاء عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا طلبتَ وأحببتَ أن تنجح فقل : لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له العلي العظيم ، لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له ربّ السموات والأرض وربّ العرش العظيم ، الحمد لله ربّ العالمين ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاَّ عشيَّةً أو ضحاها ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاَّ ساعة من نهارٍ ، بلاغ فهل يهلك إلاَّ القوم الفاسقون ، اللّهم إنِّي أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل برّ ، والفوز بالجنَّة ، والنَّجاة من النار ، اللّهم لا تدَع لي ذنباً إلاَّ غفرته ، ولا همّاً إلاَّ فرَّجته ، ولا حاجةً هي لك رضاً إلاَّ قضيتها يا أرحم الراحمين ، والحمد لله ربّ العالمين) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٤٧) سورة محمد مدنية
وآياتها ثمان وثلاثون

هذه السورة مدنية بإجماع ، غير أن بعض الناس قال في قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ الآية : إنها نزلت بمكة في وقت دخول النبي صلى الله عليه وسلم فيها عام الفتح أو سنة الحديبية ، وما كان مثل هذا فهو معدود في المدني ؛ لأن المراعَى في ذلك إنما هو ما كان قبل الهجرة أو بعدها (١) .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ مدني أيضاً على المعنى الذي وضّحه المؤلف ، والآية رقمها (١٣) من السُّورة ، لكن الثعلبي قال : إنَّ السُّورة كلها مكيَّة ، وحكى ذلك ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جبير ، ولهذا عقّب أبو حيان الأندلسي على قول ابن عطية : « هذه السُّورة مدنية بإجماع » فقال : « وليس كما قال » . وتسمى هذه السُّورة أيضاً سورة القتال ، وعدد آياتها ثمان وثلاثون آية ، وقيل : تسع وثلاثون آية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآيةَ ... إشارةٌ إلى أهل مكة الذين أَخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآيةَ ... إشارةٌ إلى الأَنصار أَهل المدينة الذين آووه ، وفي الطائفتين نزلت الآية (١) ، قاله ابن عباس ، ومجاهد . ثم هي بعد تعم كل من دخل تحت أَلفاظها .

وقوله تعالى : ﴿ وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ ﴾ يحتمل أَن يريد الفعل المجاوز فيكون المعنى : وصدُّوا غيرهم ، ويحتمل أَن يكون الفعل غير متعدٍّ فيكون المعنى : وصدُّوا أَنفسهم ، و «سَبِيلُ اللهِ» : شرعه وطريقه الذي دعا إليه ، وقوله تعالى : ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أَي : أَتْلفها ، لم يجعل لها غاية خير ولا نفعاً ، وروي أَن هذه الآية نزلت بعد بدر ،

(١) هكذا في الأصول ، وهما في الحقيقة آيتان .

وأن الإشارة بقوله : ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ هي إلى الإنفاق الذي أَنفقوه في سفرهم إلى بدر ، وقيل: المراد بالأَعمال أَعمالهم البَرَّة في الجاهلية ، من صلة الرحم ونحوه ، واللفظ يعم جميع ذلك .

وقرأَ الناس : [نُزِّلَ] بضم النون وشدّ الزَّاي ، وقرأَ الأَعمش : [أَنْزَلَ] معدى بالهمزة ، وقوله تعالى : ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ ، قال قتادة : معناه : حالهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أَمرهم ، وقال مجاهد : شأْنهم ، وتحرير التفسير في اللفظة أَنها بمعنى الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب ، فإذا صلح ذلك فقد صلحت حاله ، فكأَن اللفظة مشيرة إلى إصلاح عقيدتهم ، وغيرُ ذلك من الحال تابع ، فقولك : «خطر في بالي كذا» وقولك : «أَصلح الله بالك» ، المراد بهما واحد ، ذكره المبرد ، و «الْبَالُ» مصدرٌ كالحال والشأْن ، ولا يستعمل منهما فعل ، وكذلك عُرفه أَلَّا يُثَنَّى ولا يُجمع ، وقد جاءَ مجموعاً ولكنه شاذٌّ ؛ فإنهم قالوا : بالات .

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية ، الإشارةُ إلى الأَفعال التي ذكر الله تعالى أَنه فعلها بالكفَّار وبالمؤمنين ، و «الباطل» : الشيطان وكل ما يأْمر به ، قاله مجاهد ، و «الحَقُّ» هنا هو الشَّرع ومحمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : [كَذَٰلِكَ] إشارة إلى الاتّباع المذكور من الفريقين ، أي : كما اتَّبعوا على هذين السبيلَيْن كذلك يُبيِّن أَمر كل فرقة ، ويجعل لها ضرباً من القول وصنفاً(١)، وضربُ المَثَل مأْخوذ من الضَّريب والضَّرب الذي هو بمعنى النوع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩ ﴾

قال ابن عباس ، وقتادة ، وابن جريج ، والسدي ، والضحاك : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف التي في (براءة) : ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ

(١) في بعض النسخ : «ويجعل لها ضربها من القول وصنفها» .

حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾(١) ، وإن الأَسر والمنَّ والفداءَ مرتفع ، فمتى وقع أَسر فإنما معه القتل ولابد ، وروي نحوه عن أَبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه (٢) ، وقال ابن عمر ، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم ، وعطاءُ ما معناه : إن هذه الآية مُحكمة مُبَيِّنة لتلك ، والمنُّ والفداءُ ثابت ، وقد منَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثمامة بن أُثال ، وفادى أَسرى بدر ، وقاله الحسن ، وقال : لا يقتل الأَسير إلَّا في الحرب ، يُهَيَّب بذلك على العدو ، وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يفادي رجلًا برجل ، ومنع الحسن أَن يُفادوا بالمال ، وقد أَمر عمر بن عبد العزيز بقتل أَسير من الترك ذُكر أَنه قتل مسلمين ، وقالت فرقة : هذه الآية خصصت من الأُخرى بأَهل الكتاب فقط ، فيهم المنُّ والفداءُ ، وعُبَّاد الأَوثان ليس فيهم إلَّا القتل .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وعلى قول أَكثر العلماءِ الآيتان مُحكمتان ، وقوله تعالى هنا : ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ بمثابة قوله تعالى هنالك : ﴿ فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ

(١) من الآية (٥) من سورة (التوبة) ، قالوا : وهي منسوخة أيضاً بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ ، وبقوله : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ .

(٢) قال عبد الكريم الجوزي : «كُتب إلى أبي بكر في أسير أسر ، فذكروا أنهم التمسوه بفداء كذا وكذا ، فقال : اقتلوه ، لَقَتْلُ رَجل من المشركين أَحبُّ إليَّ من كذا وكذا» .

حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ ، وصرَّح هنا بذكر المنِّ والفداءِ ، ولم يصرِّح به هناك وهو أَمرٌ مقرر (١)، وهذا هو القول القوي .

وقوله تعالى : ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مصدر بمعنى الفعل ، أي : فاضربوا رقابهم ، وعيَّن من أَنواع القتل أَشهره وأَعرفه فذكره ، والمراد : اقتلوهم بأَي وجه أَمكن ، وقد زادت آية أُخرى : ﴿وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(٢)، وهي من أَنكى ضربات الحرب لأَنها تعطل من المضروب جميع جسده ؛ إذ البنان أَعظم آلة المقاتل وأَصلها . و [أَثْخَنْتُمُوهُمْ] معناه : بالقتل ، و «الإِثْخَانُ» في القوم أَن يكثر فيهم القتلى والجرحى ، والمعنى : فشدُّوا الوثاق بمن لم يقتل ولم يترتب فيه إِلَّا الأَسر ، و [مَنًّا] و [فدَاءً] مصدران منصوبان بفعلين مضمرين . وقرأَ جمهور الناس : [فِدَاءً] ، وقرأَ شبل عن ابن كثير : [فدًى] ، مقصـــــوراً .

وإِمام المسلمين مخيَّرٌ في أَسراه في خمسة أَوجه : القتل أَو الاسترقاق أَو ضرب الجزية أَو المن أَو الفداءُ ، ويترجَّح النظر في أَسير أَسير بحسب حاله من إِذاية المسلمين أَو ضد ذلك .

---

(٣) في بعض النسخ : «وهو مُرَادٌ متقرر» .

(٤) من الآية (١٢) من سورة (الأنفال) .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ معناه : حتى تذهب وتزول أثقالها ، و «الأوزار» - جمع وِزْر - الأَثقالُ فيها والآلات لها ، ومنه قول عمرو بن معديكرب الزبيدي :

وَأَعْدَدْتَ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحاً طِوَالًا وَخَيْلًا ذُكُوراً (١)

وقال الثعلبي : قيل : الأوزار في هذه الآية الآثام ، جمع وِزْر ؛ لأَن الحرب لابد أَن يكون فيها آثام في أَحد الجانبين .

واختلف المتأَولون في الغاية التي عندها تضع الحرب أَوزارها - فقال قتادة : حتى يسلم الجميع فتضع الحرب أَوزارها ، وقال حذاق أَهل النظر : حتى تغلبوهم وتقتلوهم ، وقال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم عليهما السلام .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وظاهر اللَّفظة أَنها استعارة يراد بها التزام الأَمر أَبداً ، وذلك أَن الحرب بين المؤمنين والكافرين لا تضع أَوزارها ، فجاءَ هذا اللَّفظ

---

(١) ليس هذا البيت من قول عمرو بن معديكرب ، بل هو للأعشى ، وهو من قصيدة طويلة له ، قالها يمدح هَوْذَةَ بن علي الحنفي ، ومطلعها :

غَشِيتَ لِلَيْلَى بِلَيْلٍ خُدُورَا وَطَالَبْتَهَا وَنَذَرْتَ النُّذُورَا

والخطابُ لِهَوْذَةَ هذا في القصيدة كلها ، يقول له : إنَّكَ أَعْدَدتَ للحرب عُدَّتَها وآلاتها وهي الرماح الطويلة وذكور الخيل القوية ، و (رماحاً) منصوبة على أنها بدل من (أوزار) .

كما تقول : أنا أفعل كذا وكذا إلى يوم القيامة ، فإنما تريد أن تفعله دائماً .

وقوله تعالى : [ذَلِكَ] تقديره : الأمر ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي بعذاب من عنده يهلكهم به في حين واحد ، لكنه تعالى أراد اختبار المؤمنين ، وأن يبلو بعض الناس ببعض . وقرأ جمهور القراء : [قَاتَلُوا] ، وقرأ عاصم ، والجحدري - بخلاف عنه - : [قَتَلُوا] بفتح القاف والتاء ، وقرأ أبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، والأعرج ، وقتادة ، والأعمش : [قُتِلُوا] بضم القاف وكسر التاء ، وقرأ زيد بن ثابت ، والحسن ، والجحدري ، وعيسى ، وأبو رجاء هكذا وشدّدوا التاء ، والقراءة الأُولى أعمها وأوضحها معنى .

قال قتادة : نزلت هذه الآية فيمن قُتل يوم أُحد ، وقوله تعالى : [سَيَهْدِيهِمْ] أي : إلى طريق الجنة ، وقد تقدَّم القول في إصلاح البال ، وقد روى عباس بن الفضل عن أبي عمرو : [يُدْخِلْهُمْ] بسكون اللام ، وفي التغابن ﴿يَوْمَ يَجْمَعْكُمْ﴾(١) ، وفي سورة الإنسان ﴿إِنَّمَا نُطْعِمْكُمْ﴾(٢) بسكون الطاء والميم .

---

(١) من الآية (٩) من سورة (التَّغَابُن) .

(٢) من الآية (٩) من سورة (الإنسان) .

قوله تعالى : ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ ، قال أبو سعيد الخدري ، وقتادة ، ومجاهد : معناه : بيَّنها لهم ، أَي جعلهم يعرفون منازلهم منها ، وفي نحو هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لأَحدكم بمنزله في الجنة أَعرف منه بمنزله في الدُّنيا) (١)، وقالت فرقة : معناه : سمَّاها لهم ووسمها كل منزل باسم صاحبه ، فهذا نحو من التعريف ، وقالت فرقة : معناه : شرَّفها لهم ورفعها وعلَّاها ، وهذا من الأَعراف التي هي الجبال وما أَشبهها ، ومنه أَعراف الخيل ، وقال مؤرج وغيره : معناه : طيَّبها ، مأْخوذ من العَرْف ، ومنه طعامٌ معرَّف ، أَي مُطَيَّب ، وعرَّفت القِدْر ، أَي طيَّبْتها بالملح والتوابل .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ تَنْصُرُوا ٱللَّهَ﴾ فيه حذف مضاف ، أَي دينَ الله ورسوله ، والمعنى : تنصروه بجدكم وإِيمانكم ، ينصركم بخلق القدرة لكم والجرأَة وغير ذلك من المعارف . وقرأَ جمهور الناس :

---

(١) في صحيح البخاري ما يدل على صحة هذا الحديث ، لكن اللفظ فيه ليس (أَعْرَف) كما ذكر هنا ، بل اللفظ فيه (أَهدى) ، وهو عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يخلص المؤمنون من النار ، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقتَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة ، فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا) ، وقد استدل كل من القرطبي ، وابن كثير على صحة هذا الرأي بهذا الحديث .

[وَيُثَبِّتْ] بفتح الثاءِ المثلثة وشدِّ الباءِ ، وقرأ المفضل عن عاصم : [وَيُثْبِتْ] بسكون الثاءِ وتخفيف الباءِ ، وهذا التثبيت هو في مواطن الحرب على الإسلام ، وقيل : على الصراط في القيامة .

وقوله تعالى : ﴿فَتَعْساً لَهُمْ﴾ معناه : عثاراً لهم وهلاكاً ، وهي لفظة تقال للكافر ، ومنه قول الشاعر :

يَا سَيِّدِي إنْ عَثَرْتُ خُذْ بِيَـــدِي ولا تَقُلْ لَا ولَا تَقُلْ تَعْسَـــا (١)

وقال الأَعشى في هذا المعنى :

بِذَاتِ لَوْثٍ َعفَرْنَاةٍ إِذَا عَثَــرَتْ فالتَّعْسُ أَدْنَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ: لَعَا (٢)

---

(١) وفي بعض النسخ جاء لفظ البيت كالآتي :

يا سَيِّدي إنْ عَثَرْتُ خُذْ بِيَـــدِي وَلا تَقُلْ لي أفّاً وَلا تَعْسَـــاً

وفي اللسان : « التَّعْس : العَثْر ، وألاَّ ينتعش العاثر من عثرته ، وأن يُنَكَّس في سفال ، وقيل: التَّعس: الانحطاط والعثور » ، وفيه أيضاً أن التَّعْس هو الشَّر ، أو هو البُعْد ، أو أن يخِرَّ المرءُ على وجهه ، أو هو الهلاك ، وكل هذه المعاني واردٌ .

(٢) قال الأعشى هذا البيت من قصيدته المعروفة التي قالها في مدح هوزة بن علي الحنفي ، والتي بدأها بقوله : (بانَتْ سُعَادُ وأَمْسى حَبْلُها انقطعا) ، والبيت في وصف ناقة يقول إنه استعان بها على الوصول إلى بلدة يرهبُ الجَوَّابُ ظلامَها ، وذات لَوْث : قوية ، وقوله : « بِذَاتِ لَوْثٍ » ، متعلق بقوله في بيت سابق : «كَلَّفْتُ مَجْهولَهَا نَفْسي » أي مجهول هذه البلدة الرهيبة . وعَفَرْناة : قوية شديدة ، من قولهم : لَبُؤَةٌ عَفَرْناةُ ، أي قوية ، ويقال فيها : عِفِرْناة — بكسر العين والفاءِ — بمعنى الجرأة ، وتقال للذكر والأنثى من الأسود. =

ومنه قول أُمُّ مِسْطح لمَّا عَثَرت في مرطها : تَعِس مِسْطح (١) ، وقال ابن السكيت : التَّعس : أن يُجَرَّ على وجهه ، و [تَعْساً] مصدر نَصَبَهُ فعل مضمر .

وقوله تعالى : ﴿كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾ يريد القرآن ، وقوله سبحانه : ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يقتضي أن أعمالهم في كفرهم التي هي بِرٌّ مقيدة محفوظة ، ولا خلاف أن للكفار حفظة يكتبون سيآتهم ، واختلف الناس في حسناتهم - فقالت فرقة : هي مُلغاة ، يثابون عليها بنعيم الدنيا فقط ، وقالت فرقة : هي مُحْصاة من أجل ثواب الدنيا ، ومن أجل أن [الكافر] (٢) قد يُسلم فيضاف ذلك إلى حسناته في الإسلام ، وهذا أحد التأْويلين في قول النبي صلى الله عليه وسلم لحكيم بن حزام : (أسلمت على ما أَسلفت من خير) (٣) ، فقوم قالوا : تأْويله : أَسلمتَ

= ولعلَّه شبَّه ناقته باللَّبؤة القوية الجريئة . و « لَعَا » : صوتٌ معناه الدعاءُ للعاثر بأن يرتفع من عثرته ، يقال : لَعاً لفلان ، وفي الدعاء عليه يقال : لا لعاً له . ومعنى قوله : « فالتَّعْس أَدْنَى لها من أنْ أَقُولَ : لَعَا » أنَّها لا تعثر لقوتها ، ولو عثرت لقلتُ لها : لَعاً ، قال ذلك ابن بَرِي وذكره عنه صاحب اللسان (لوث) .

(١) قالت أمُّ مِسْطح ذلك في حديث الإفك الذي أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأحمد ، وهو حديث طويل مشهور ذكرناه في تفسير سورة (النور) .

(٢) ما بين العلامتين [....] زيادة يحتاج إليها التعبير .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب والزكاة والبيوع والعتق ، ومسلم في الإيمان ، وأحمد في المسند (٣-٤٠٢ ، ٤٣٤) ، والحديث عن عروة بن الزبير ، عن حكيم بن حزام ، قال : قلت : =

على أن يُعَدَّ لك ما سلف من خير ، وهذا هو التأْويل الذي أشرنا إليه ، وقالت فرقة : معناه : أَسلمتَ على إسقاط ما أَسلفت من خير ، إذْ قد جوزيت عليه بِنِعَم دنياك ، وذكر الطبري أن أَعمالهم التي أَخبر في هذه الآية أنه يحبطها هي عبادتهم الأَصنام وكفرهم ، ومعنى [أَحْبَطَ] : جعلها من الفعل(١) الذي لا يزكو ولا يُعْتَدُّ به ، فهي لذلك كالذي أُحبط .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾

= يا رسول الله ، أرأيت أُموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية من عتاقة وصلة رحم، هل لي فيها أجر ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (أسلمت على ما أسلفتَ من خير) .

(١) في بعض النسخ « من القول » وما أثبتناه أقرب ومناسب لتعبير الآية .

قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ توقيف لقريش وتوبيخ ، و ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يريد ثمود وقوم لوط وقوم شعيب وأهل السدِّ وغيرهم ، و «الدَّمَارُ» : الفساد وهدم البناءِ وإذهاب العمران ، وقوله تعالى : ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ من ذلك ، والضمير في قوله تعالى : [أَمْثَالُهَا] يحتمل أَن يعود على العاقبة المذكورة ، ويصح أَن يعود على الفعلة التي يتضمنها قوله تعالى : ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ﴾ ابتداءٌ وخبره في [أَنَّ] ، وهذه الآية نزلت يوم أُحد ، ومنها انتزع رسول الله صلى الله عليه وسلم ردَّه على أَبي سفيان بن حرب حين قال له : (اللهُ مَولانا ولا مَوْلى لكم) .

وقوله تعالى : ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ﴾ ، أَي أَكلًا مجرداً من فكرة ونظر ، فالتشبيه بالمعنى إنما وقع فيما عدا الأَكل من قلَّة الفكر وعدم النظر ، فقوله تعالى : [كَمَا] في موضع الحال ، وهذا كما تقول : الجاهل يعيش عيش البهيمة ، فأَمَّا مقتضى اللفظ فالجاهل والعالم والبهيمة من حيث لهم عيش فهم سواءٌ ، ولكن معنى كلامك : يعيش عديم النظر والفهم كما تعيش البهيمة . و «المَثْوَى» : موضع الإِقامة ، وقد تقدم القول غير مرة في قوله تعالى : [وَكَأَيِّنْ] ، وضرب الله تعالى مثلًا لمكَّة بالقرى المهلكة على عظمها كقرية قوم هود وغيرهم ،

و [أَخْرَجَتْكَ] معناه : وقت الهجرة ، ونسب الإخراج إلى القرية حملًا على اللَّفظ ، وقال : [أَهْلَكْنَاهُمْ] حملًا على المعنى ، ويقال : إن هذه الآية نزلت إثر خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكَّة في طريق المدينة ، وقيل : نزلت بالمدينة ، وقيل : نزلت بعد الحديبية بمكة عام دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : عام الفتح وهو مُقبل إليها ، وهذا كله حُكْمه حُكم المدني .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ ﴾ الآية . توقيفٌ وتقرير على شيءٍ متفق عليه ، وهي معادلة بين هذين الفريقين ، وقال قتادة : الإشارة بهذه

الآية إلى محمد صلى الله عليه وسلم في أنه الذي على بيِّنَة من ربه ، وإلى كفَّار قريش في أنهم الذين زُيِّن لهم سوءُ أعمالهم ، وبقي اللفظ عامًّا لأهل هاتين الصفتين غابر الدَّهر . وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ معناه : على قضيَّة واضحة وعقيدة نيِّرَة بيِّنَة ، ويحتمل أن يكون المعنى : «على أمرٍ بيِّن ودين بيِّن» وألحق الهاءَ للمبالغة كعلَّامة ونسَّابة ، والذي يُسند إليه قوله تعالى : [زُيِّنَ] هو الشَّيطان ، و «إتِّباعُ الأَهواءِ» : طاعتها ، كأَنه يذهب إلى ناحية والمرءُ يذهب معها .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية ـ فقال النَّضْر بن شُميل وغيره : [مَثَلُ] معناه : صفة ، كأَنه قال : صفة الجنة ما تسمعون فيها كذا وكذا ، وقال سيبويه : المعنى : فيما يُتْلَىٰ عليكم مثل الجنة ، ثمَّ فسَّر الذي يُتْلَى بقوله : فيها كذا وكذا ، والذي ساق إلى أَن تُجعل [مَثَلُ] بمثابة «صِفَة» هو أَن المُمَثَّل به ليس في الآية ، ويظهر أَن القصد بالتمثيل هو إلى الشيءِ الذي يتخيله المرءُ عند سماعه : «فيها كذا وكذا» ، فإنه يتصور عند ذلك بِقاعاً على هذه الصُّورة ، وتلك هي مثل الجنة ومثالها ، أَو في الكلام حذف يقتضيه الظَّاهر ، كأَنه تعالى يقول : مثل الجنة بَيِّنٌ ظاهر في نفس من وَعى هذه الأَوصاف . وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : ﴿مِثَالُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ، وقرأَ علي بن أَبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهم : ﴿أَمْثَالُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ، وعلى هذه التأْويلات كلها ففي قوله تعالى :

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ﴾ حذف تقديره : أساكن هذه ؟ أو تقديره : أهؤلاء ؟ إشارة إلى المتقين ، ويحتمل عندي أن يكون الحذف في صدر الآية ، كأنه تعالى قال : أيكون مثل هذه الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ويكون قوله مستفهماً عنه بغير ألف استفهام ، فالمعنى : أَمَثَلُ أهل الجنة – وهي بهذه الأوصاف – كمن هو خالد في النار ؟ فتكون الكاف في قوله تعالى : [كَمَنْ] مؤكدةٌ للتشبيه ، ويجيءُ قوله تعالى :﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ في موضع الحال على هذا التأويل .

و ﴿مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ معناه : غير متغير ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وسواءٌ أَنْتَن أو لم ينتن ، يقال : أَسَن الماءُ – بفتح السين – وأَسِنَ – بكسرها – ، وقرأ جمهور القراء : [آسِنٍ] على وزن فَاعِلٍ ، وقرأ ابن كثير : [أَسِنٍ] على وزن فَعِلٍ ، وهذه قراءة أهل مكة ، والآسِنُ : الذي يُغشى عليه من ريح مُنتنة من ماءٍ ، ومنه قول الشاعر :

التَّارِكُ الْقِرْنَ مُصْفَرًّا أَنامِلُـــهُ يَمِيلُ في الرُّمْحِ مَيْلَ الْمَائِحِ الْأَسِن(١)

---

(١) هذا البيت لزهير بن أبي سلمى ، وهو واحد من ثلاثة أبيات ذكرت في الديوان ، واستشهد به صاحب اللسان في (أَسِنَ) على أن معناها : أصابهُ دُوار من ريح البئر المنتنة فغشي عليه فسقط . ورواية الديوان : «قَدْ أَتْرُكُ الْقِرْنَ» ، ورواية اللسان : «يُغَادرُ القِرْنَ» ، والقِرْنُ : الذي يماثل الإنسان في شجاعته ، و «مُصْفَرّاً أنامله» : كناية عن الموت أو عن الخوف ، قال في اللسان : «وأورده الجوهري : قد أَتْرك القِرْنَ» ، وصوابه =

وقال الأخفش : «أَسِنَ» لغة ، والمعنى الإخبار به عن الحال ، ومن قال : «آسنٌ» على وزن فاعل فهو يريد به أن يكون كذلك في المستقبل ، فنفى ذلك في الآية ، وقرأت فرقة : ﴿غَيْرَ يَسِن﴾ بالياء ، قال أبو علي : وذلك على تخفيف الهمز ، قال أبو حاتم عن عوف : كذلك كانت في المصحف ﴿غَيْرَ يَسِنٍ﴾ فغيَّرها الحجاج .

وقوله تعالى في اللَّبن : ﴿لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ نفيٌ لجميع وجوه الفساد في اللَّبن ، وقوله تعالى : ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ جمعت طيب المطعم وزوال الآفات من الصداع وغيره ، و [لَذَّةٍ] نعت على النسب ، أي : ذات لذَّة ، وتصفيةُ العسل مُذْهبة لُبُوسَتَه (١) وضرره ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي من هذه الأنواع ، لكنها بعيدة الشَّبه إذْ تلك لا عيب فيها ولا تَعَب بِوَجْه . وقوله تعالى : ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ معناه : وتنعيم أعطته المغفرة وسبَّبَته ؛ وإلَّا فالمغفرة إنما هي قبل الجنة.

= «يُغَادِرُ القِرْنَ» وكذا في شعره لأنه من صفة الممدوح ، وقبله يقول: (أَلَمْ تَرَ ابْنَ سِنَانٍ كيفَ فَضَّلَهُ ...) ، وإنما غلَّط الجوهري قولَ الآخر : (قَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرّاً أَنَامِلُهُ ، كأَنَّ أثْوَابَهُ) .» وهذا البيت الذي أشار إليه في اللسان (أَلَمْ تَرَ ابْنَ سِنَانٍ) غير موجود في الديوان ، وعلى هذا فالأبيات أربعة لا ثلاثة ، أمَّا (يَمِيلُ في الرُّمْحِ) فقد ورد في اللسان (يَمِيدُ) بالدال ، والمائِح : الذي ينزح الماءَ من البئر ، والأَسِنُ: الذي دخل بئراً فاشتدَّت عليه ريحها فأصابه دُوَارٌ فسقط » . وفي كُتُب اللغة كلام كثير في الفعل (أَسِنَ) .

(١) لُبُوسته – بفتح اللام وبضمها – : ما يشوبه من أشياء .

وقوله تعالى : [وَسُقُوا] الضمير عائد على [مَنْ] لأَن المراد به جمع .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِـعُ إِلَيْكَ﴾ يعني بذلك المنافقين من أَهل المدينة ، وذلك أَنهم كانوا يحضرون عند النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعون كلامه وتلاوته ، فإذا خرجوا قال بعضهم لمن شاءَ من المؤمنين الذين علموا وانتفعوا : ﴿مَاذَا قَالَ آنِفاً﴾ ؟ فكان منهم من يقول هذا استخفافاً ، أَي : ما معنى ما قال ؟ وما نفعه ؟ وما قدره ؟ ومنهم من يقول ذلك جهلًا ونسياناً لأَنه كان في وقت الكلام مقبلًا على فكرته في أَمر دنياه وفي كفره ، فكان القول يَمُرُّ صفحاً ، فإذا خرج قال : ﴿مَاذَا قَالَ آنِفاً﴾ ؟ وهذا أَيضاً فيه ضرب من الاستخفاف لأَنه كان يصرح أَنه يقصد الإعراض وقت الكلام ، ولو لم يكن ذلك بقصد لم يبعد أَن يجري على بعض المؤمنين ، وروي أَن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما مِمَّن سُئِل هذا السُّؤال ، حكاه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما . و [آنِفاً] معناه : مبتدئاً ، كأَنه قال : ما القول الذي ائْتَنَفَه الآن قبل انفصالنا عنه ؟ وقرأَ الجمهور : [آنِفاً] على وزن فاعل ، وقرأَ ابن كثير وحده : [أَنِفاً] على وزن فَعِل ، وهما اسما فاعل من «ائْتَنَف» ، وجَرَيَا على غير فعلهما ، ولم يُستعمل فعلهما ، وهذا كما جرى «فقير» على «افْتَقَر»

ولم يستعمل «فقر» ، وهذا كثير ، والمفسرون يقولون : [آنِفاً] معناه : الساعة الماضية القريبة مِنَّا ، وهذا تفسير بالمعنى .

ثُمَّ أَخبر تبارك وتعالى أنه طبع على قلوب هؤلاءِ المنافقين الفاعلين لهذا ، وهذا الطبع يحتمل أَن يكون حقيقة ويحتمل أَن يكون استعارة ، وقد تقدَّم القول فيه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾

لمَّا ذكر الله تعالى المنافقين بما هم أَهله من قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ عقَّب بذكر المؤمنين ، فبيَّن الفرق ، وشرَّفهم بإِسناد فعل الاهتداءِ إِليهم ، وهي إِشارة إِلى تكسُّبهم ، وقوله تعالى : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ يحتمل أَن يكون الفاعل في [زَادَهُمْ] الله تعالى ، والزيادة في هذا المعنى تكون إِمَّا بزيادة التفهيم والأَدلَّة ، وإِمَّا بورود الشرائع والأَوامر والنواهي والأَخبار ، فيزيد

الاهتداءُ لِتَزَيُّدِ عِلْم ذلك والإيمان به ، وذلك بفضل الله تعالى ، ويحتمل أن يكون الفاعل في [زَادَهُمْ] قولُ المنافقين واضطرابُهم ؛ لأَن ذلك مما يتعجب المؤمن منه ، ويحمد الله تعالى على إيمانه ، ويتَزَيَّد بصيرة في دينه ، فكأَنه تعالى قال : والمهتدون المؤمنون زادهم فعل هؤلاءِ المنافقين هُدًى ، أَي : كانت الزيادة بسببه فأَسند الفعل إليه ، وقالت فرقة : إن هذه الآية نزلت في قوم من النصارى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فالفاعل في [زَادَهُمْ] محمد عليه الصلاة والسلام ، أَي كان سبب الزيادة فأَسْند الفعل إليه ، وقوله تعالى - على هذا القول - : [ٱهْتَدَوْا] يريد تعالى : في إيمانهم بعيسى عليه السلام ، ثم زادهم محمد صلى الله عليه وسلم هدًى حين آمنوا به ، والفاعل في [وَآتَاهُمْ] يتصرف القول فيه بحسب التأْويلات المذكورة ، وأَقواها أَن الفاعل اللهُ تعالى ، و [آتَاهُمْ] معناه : أَعطاهم ، أَي : جعلهم مُتَّقين له ، والتقدير : تقواهم إيَّاه ، وقرأَ الأَعمش : [وَأَنْطَاهُمْ] ، وهي بمعنى أَعطاهم ، ورواها محمد بن طلحة عن أَبيه ، وهي في مصحف عبد الله .

وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ يريد المنافقين ، والمعنى : ينتظرون ، أَي : هكذا هو الأَمر في نفسه وإن كانوا هم في أَنفسهم ينتظرون غير ذلك ، فإن ما في أَنفسهم غير مراعى لأَنه باطل . وقرأَ جمهور

القراءِ : ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ ، فـ [أَنْ] بدل من [ٱلسَّاعَة] ، وقوله تعالى — على هذه القراءَة — : ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ إخبارٌ مستأنف ، والفاءُ عاطفة جملة من الكلام على جملة . وقرأَ أهل مكَّة — فيما روى الرُّؤاسي —: ﴿إِنْ تَأْتِهِمْ﴾ بكسر الأَلف وجزم الفعل على الشرط ، والفاءُ في [فَقَدْ] جواب الشَّرط (١) ، وليست بعاطفة على نحو ما في القراءَة الأُولى فثَمَّ نحو من معنى الشرط ، و [بَغْتَةً] معناه : فجأَة ، وروي عن أَبي عمرو : [بَغَتَّةً] بفتح الغين وشدِّ التاءِ ، وقوله تعالى : ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ — على القراءَتين — معناه : فينبغي أَن يقع الاستعداد والخوف منها لمن حزم ونظر لنفسه ، والذي جاءَ من أَشراطها محمد عليه الصلاة والسلام لأَنه آخر الأَنبياءِ ، فقد بان من أَمر الساعة قدرٌ ما ، وفي الحديث أَنه عليه الصلاة والسلام قال : (أَنا من أَشراط الساعة)(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام : (بعثتُ أَنا والساعة كهاتين) وأَشار بإِصبعيه (٣)

(١) وعلى هذه القراءة يكون الوقف على [ٱلساعة] ، ويبدأ بالشرط كلام جديد .

(٢) في مسند الإمام أحمد ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ستٌّ من أشراط الساعة : مَوْتي ، وفتح بيت المقدس ، وموت يأخذ في الناس كقعاص الغنم، وفتنة يدخل حربها بيت كل مسلم... الخ) ، أما الحديث باللفظ الذي ذكره ابن عطية فلم أقف عليه .

(٣) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، والإمام أحمد في مسنده . وقد رُوي عن أنس ، وعن أبي هريرة رضي الله عنهما .

(وكفرسَيْ رهان) ، ويقال : شَرْطٌ أَو أَشراط بسكون الراءِ وتخفيفها ، وأَشْرَطَ الرجلُ نَفْسَه : أَلزمها أُموراً ، وقال أَوس بن حجر :

فأَشْرَطَ فيها نَفْسَهُ وَهُوَ مُعْصِمٌ وأَلْقَى بِأَسْبَابٍ لَهُ وتَوَكَّلَا (١)

وقوله تعالى : ﴿فَأَنَّى لَهُمْ﴾ الآيَةَ يحتملُ أَن يكون المعنى : فأَنَّى لهم الخلاص أَو النجاة إِذا جاءَتهم الذِّكرى بما كانوا يُخْبَرون به في الدُّنيا فيكذِّبون به ويكون جاءَهم العذاب مع ذلك ؟ ويحتمل أَن يكون المعنى : فأَنَّى لهم ذكراهم وعملهم بحسبها إِذا جاءَتهم الساعة ؟ وهذا تأْويل قتادة ، ونظيره ﴿وَأَنَّى لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٢).

وقوله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ الآيَة إِضرابٌ عن أَمر هؤلاءِ المنافقين وذكر الأَهم من الأَمر ، والمعنى :

---

(١) قال أوس هذا البيت من قصيدته الطويلة التي بدأها بقوله: (صَحَا قَلْبُه عن سُكْرِهِ فتَأَمَّلا)... والشاعر في هذا البيت يصف رجلا تدلى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعَة – شجرة من أشجار الجبال تُتَّخَذ منها القسي – أراد أن يقطعها ليتَّخذ لنفسه منها قوساً ، ومعنى (أشرط نَفْسَه) : جعلها عَلَماً للموت ، أي علامةً على الموت وبداية له ، وقد سُمِّي الشُّرَط شُرَطاً لأنهم يُقَدَّمون على غيرهم من الجند فهم أوائل الجند ، ولهم علامات تدل عليهم ، وقال في شرح شواهد الشافية : « ويقال : أشرط نفسه في الأمر أي خاطر بها » ، والمُعْصِم والمُعْتَصم واحد ، وهو المتعلِّق بحبل ، والأَسْباب : الحبال ، واحدها سَبَبٌ ، وتوكَّلا : اعتمد على الله . والبيت في الديوان ، ولسان العرب ، والطبري ، والقرطبي .

(٢) من الآية (٥٢) من سورة (سبأ) ، ومعنى قول قتادة : أَنَّى لهم أن يتذكَّروا ويعرفوا ويعقلوا ويتوبوا إذا جاءتهم الساعة ؟ أي : قد فات ذلك . وعلى هذا تكون [ذِكْرَاهُمْ] ابتداءً و ﴿ أَنَّى لَهُمْ ﴾ الخبر ، أما على الرأي الأول الذي ذكره ابن عطية فالمبتدأُ محذوف ، والتقدير : فأنَّى لهم الخلاص إذا جاءتهم الذكرى ؟

دُمْ على ذلك ، وهذا هو القانون في كلِّ مَنْ أُمِرَ بشيءٍ هو مُتَلَبِّس به ، وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكل واحد من الأُمَّة داخل فيه ، واحتج بهذه الآية من قال من أَهل السُّنَّة : إن العلمَ النَّظرُ قبل القول والإقرار في مسأَلة أَوَّل الواجبات ، وبوَّب البخاري رحمه الله تعالى : العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ الآيةَ ، واجبٌ على كل مؤمن أَن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وروى أَبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (من لم يكن عنده ما يتصدَّق به فليستغفر للمؤمنين والمؤمنات فإنها صدقة) (١) ، وقال الطبري وغيره : [مُتَقَلَّبَكُمْ] : تصرُّفكم في يقظتكم ، [وَمَثْوَاكُمْ] : في منامكم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [مُتَقَلَّبَكُمْ]: تصرفكم في حياتكم الدنيا ، [وَمَثْوَاكُمْ] : إفاقتكم في قبوركم وفي آخرتكم .

---

(١) وقد روى مسلم وأحمد في صحيحيهما ، عن عاصم الأحول، عن عبد الله بن سَرْجِس المخزومي قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأكلت من طعامه فقلت : يا رسول الله ، غفر الله لك ، فقال له صاحبي : هل استغفر لك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، ولك ، ثم تلا هذه الآية : ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ ، ثم تحولتُ فنظرتُ إلى خاتم النبوة بين كتفيه جُمْعاً عليه خيلانٌ كأنه الثآليل . ومعنى «جُمْعا» : مثل جمع الأصابع وضمها ، والخيلان : جمع خالٍ وهي الشامة في الجسد ، والثآليل : جمع ثُؤلول ، وهي حُبَيْبات تعلو الجسد . قال ابن كثير ، وهذا الحديث رواه الترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾

هذا ابتداءُ وصف حال المؤمنين في جِدِّهم في دين الله تعالى وحِرصهم على ظهوره ، وحال المنافقين من الكسل والفشل والحرص على فساد الدين وأهله ، وذلك أن المؤمنين كان حرصهم يبعثهم على تمني الظهور وتمني قتال العدو وفضيحة المنافقين ونحو ذلك مما هو ظهور للإسلام ، فكانوا يأْنسون بالوحي ويستوحشون إذا أَبطأَ ، والله تعالى قد جعل كل ذلك بآمادٍ مضروبة وأَوقات لا تُتَعَدَّى ، فمدح الله تعالى المؤمنين بحرصهم . وقولُهم : ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ معناه : تتضمَّن إظهارنا وأَمْرَنا بمجاهدة العدوِّ ونحوه .

ثمَّ أَخبر تعالى عن حال المنافقين عند نزول القتال ، وقولُه سبحانه : [مُحْكَمَةٌ] معناه : لا يقع فيها نسخ ، وبهذا خَصَّصَ « السُّورَةَ » بالإحكام ،

وأمَّا الإحكام الذي هو بمعنى الإتقان فالقرآن كلُّه سواءٌ فيه ، وقال قتادة : كل سورة فيها القتال فهي مُحْكمة ، وهو أشد القرآن على المنافقين ، وهذا أمر استقرأه قتادة من القرآن ، وليس من تفسير هذه الآية في شيءٍ ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «سُورَةٌ مُحْدَثَة » . و « المرض الذي في القلوب » استعارةٌ لفساد المعتقد ، وحقيقة المرض والصحة في الأَجسام وتُستعار للمعاني ، ونَظَرُ الخائف المُوَلَّه قريبٌ من نظر المغشيِّ عليه ، وخشيتهم هذه للوصف والتشبيه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾ الآية ، [أَوْلَى] وزنها أَفعل ، وهو مِن وَلِيَكَ الشيءُ يَلِيكَ ، وقالت فرقة : وزنه أَفْلَع ، وفيه قَلْبٌ لأَنه مشتق من الويل ، والمشهور من استعمال « أَوْلَى » أَنك تقول : هذا أَولى بك من هذا ، أَي أَحَقُّ ، وقد تستعمل العرب « أَوْلَى لَكَ » فقط ، على جهة الحذف والاختصار لما معها من القول ، فتقول على جهة الزَّجْر والتَّوعُّد : « أَوْلَى لك يا فلان » ، وهذه الآية من هذا الباب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ (١) ، ومنه قول أَبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه للحسن رضي الله عنه : « أَوْلَى لَكَ » ، وقالت فرقة من المفسرين : [أَوْلَى] رفع بالابتداء و [طَاعَةٌ] خبره .

---

(١) الآية (٣٤) من سورة (القيامة) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

هذا هو المشهور من استعمال «أَولى» ، وقالت فرقة من المفسرين : ﴿أَوْلَى لَهُمْ﴾ ابتداءٌ وخبر ، معناه الزَّجْرُ والتوعُّد ، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى قوله تعالى : ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ ـ فقال بعضها : التقدير : طاعة وقول معروف أَمْثَل ، وهذا تأْويل مجاهد ومذهبُ الخليل وسيبويه ، وحَسُن الابتداءُ بالنكرة لأَنها مُخَصَّصَة ففيها بعض التعريف ، وقال بعضها : التقدير : الأَمر طاعة وقول معروف ، أَي الأَمر المُرْضي لله تعالى ، وقال بعضها : التقدير : قولهم لك يا محمد ـ على جهة الهُزْءِ والخديعة ـ : طاعةٌ وقولٌ معروف ، فإِذا عزم الأَمر كرهوه ، ونحو هذا من التقدير ، قاله قتادة ، وقال أَيضاً ما معناه : إِنَّ تمام الكلام الذي معناه الزجر والتوعُّد [فَأَوْلَى] ، وقولُه تعالى : [لَهُمْ] ابتداءُ كلام ، و [طَاعَةٌ] ـ على هذا القول ـ ابتداءٌ ، وخبره [لَهُمْ] ، والمعنى : إِنَّ ذلك منهم على جهة الخديعة ، فإِذا عزم الأَمر ناقضوا وتعاصوا .

وقوله تعالى : ﴿عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ استعارة ، كما قال :

* قَدْ جَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا * (١)

---

(١) هذا شاهد على إسناد الفعل إلى من لا يقوم به على سبيل المجاز ، فقد أسند الشاعر الجِدّ إلى الحرب ، والجِدُّ ضدُّ الهزل ، وقوله : « جَدَّت الحربُ » معناه : اشتدت ولم تَعُدْ هزْلا فقابلوها بالاجتهاد ولا تتهاونوا .

ومن هذا الباب «نَامَ لَيْلُكَ» ونحوه(١) . وقوله تعالى : ﴿ صَدَقُوا ٱللَّهَ ﴾ يحتمل أَن يكون الصِّدق الذي هو ضدُّ الكذب ، ويحتمل أَن يكون من قولك : «عُودٌ صَدْقٌ» (٢) ، والمعنى متقارب .

وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ مخاطبة لهؤلاءِ الذين في قلوبهم مرض ، أَي : قل لهم يا محمد . وقرأَ نافع وأَهل المدينة : [عَسِيتُمْ] بكسر السين ، وقرأَ أَبو عمرو ، والحَسَن ، وعاصم ، وأَبو جعفر ، وشيبة : [عَسَيْتُمْ] بفتح السين ، والفتح أَفصح لأَنها من «عَسَى» التي تصحبها «أَنْ» ، والمعنى : فهل عسى أَن تفعلوا إِن توليتم غير أَن تفسدوا في الأَرض وتقطعوا أَرحامكم ؟ وكأَن الاستفهام الداخل على «عَسَى» غيَّر معناها بعض التغيير كما يغير الاستفهام قولك :

---

(١) أسند جرير النوم إلى الليل في بيته المشهور الذي قاله يخاطب ابنته أُمَّ غيلان :

لَقَدْ لُمْتِنَا يا أُمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ... وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ

وكذلك أسند رؤبةُ النوم إلى الليل في قوله :

* فَنَامَ لَيْلي وَتَجَلَّى هَمِّي *

(٢) قال الخليل : «الصَّدْقُ الكاملُ من كل شيءٍ ، يقال : رجلٌ صَدْقٌ وامرأةٌ صَدْقَة» ، وقال ابن دُرُسْتُوَيْه : «إنما هذا بمنزلة قولك : رَجُلٌ صَدْقٌ وامرأة صَدْقٌ ، فالصَّدْقُ من الصِّدْق بعينه ، والمعنى أنه يَصْدُق في وصفه من صلابة وقوة وجوده» . وفي اللسان : «والصَّدْقُ — بالفتح — : الصلْب من الرماح وغيرها ، ورُمْح صَدْقٌ : مُسْتَوٍ ، وكذلك سَيْفٌ صَدْقٌ» ، فقولك : «عُودٌ صَدْقٌ» معناه صلب مُسْتَوٍ جيِّدٌ ، والمعنى قريب لأنه يَصْدُقُ في صفته من الجودة والصلابة .

أَوَ لَوْ كان كذا وكذا ؟ وقوله تعالى : ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ معناه : إن أعرضتم عن الحق ، وقال قتادة : كيف رأيتم القوم حين تولَّوا عن كتاب الله تعالى ؟ أَلم يسفكوا الدَّم الحرام ويقطعوا الأَرحام ويعصوا الرَّحمن عزَّ وجلَّ ؟ وقرأ الجمهور : ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ ، والمعنى : إن أَعرضتم عن الإِسلام ، وقال كعب الأَحبار ومحمد بن كعب القرظي : المعنى : إِنْ تولَّيتم أُمور الناس ، من الولاية ، وعلى هذا قيل : إنها نزلت في بني هاشم وبني أُميَّة ، ذكره الثعلبي ، وروى عبد الله بن مُغَفَّل أَن النبي صلى الله عليه وسلم قرأَ : ﴿إِنْ وُلِّيتُمْ﴾ بواو مضمومة ولام مشدَّدة مكسورة(١) ، وقرأَ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : ﴿إِنْ تُوُلِّيتُمْ﴾ بضم التَّاءِ والواو وكسر اللَّام المشدَّدة ، على معنى : إن وَلَّيْتُكُمْ وُلاة جَوْر فملتم إلى دنياهم دون إمام العدل ، أَو على معنى : إن تُوُلِّيتُمْ بالتَّعذيب والتَّنكيل وأَفعال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والسباءِ ، فإنما كانت ثمرتها الإِفساد في الأَرض وقطيعة الرَّحم ، وقيل : معناها : إِنْ تَوَلَّاكم الناسُ ووكلكم الله تعالى إليهم . وقرأَ جمهور الناس : [وَتُقَطِّعُوا] بضم التَّاءِ وشدّ الطَّاءِ المكسورة ، وقرأَ أَبو عمرو : [وَتَقْطَعُوا] بفتح التَّاءِ والطَّاءِ المخفَّفة ، وهي قراءَة سلام ويعقوب .

---

(١) أخرجه الحاكم عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ إشارة إلى مرضى القلوب المذكورين ، و [لَعَنَهُمْ] معناه أبعدهم ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَارَهُمْ ﴾ استعارة لعدم فهمهم فكأنهم عُمْيٌ وصُمٌّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ ﴾ توقيف وتوبيخ ، وتدبيرُ القرآن . زعيمٌ بالتَّبْيين والهدى ، و [أَمْ] منقطعة وهي المُقدَّرة ببَلْ وألف الاستفهام ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ استعارة للرَّيْن الذي منعهم الإيمان ، ويُروى أَن وَفْد اليمن وَفَد على النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم شاب ، فقرأَ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، فقال الفتى : عليها أَقفالها حتى يفتحها الله تعالى ويفرجها ، قال عمر

رضي الله عنه : فعظُم في عيني ، فما زالت في نفس عمر حتى وليَ الخلافة فاستعان بذلك الفتى (١) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ ﴾ الآية ، قال قتادة : إنها نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا من التَّوراة أَمْر محمد صلى الله عليه وسلم ، وتبيَّن لهم الهدى بهذا الوجه ، فلمَّا باشروا أَمره حسدوه فارتدُّوا عن ذلك القدر من الهدى ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيرُه : نزلت في منافقين كانوا أَسلموا ثم نافقت قلوبهم ، والآيةُ تعمُّ كلَّ من دخل في ضمن لفظها غابر الدَّهر ، و [سَوَّلَ] معناه : رجَّاهم سُؤْلَهم وأَمانيَّهُم ، وقال أَبو الفتح عن أَبي علي : إنه بمعنى : دَلَّاهم ، مأْخوذ من السَّوَلِ وهو الاسترخاءُ والتَّدَلِّي (٢) ،

---

(١) أخرجه إسحق بن راهويه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عُرْوَة رضي الله عنه ، وأخرج مثله الدارقطني في الأفراد ، وابن مردويه ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، لكن جاء في آخره : (فلما ولي عمر سأل عن ذلك الشاب ليستعمله فقيل : قد مات) . (الدر المنثور) .

(٢) السَّوَلُ : استرخاءُ البطن ، أو استرخاءُ ما تحت السُّرَّة من البطن ، قال المُتَنَخِّل الهُذَلي :

كالسُّحُلِ البِيضِ جَلا لَونَهَا سحُّ نِجاءِ الحَمَلِ الأَسْوَلِ

والحَمَلُ هو السَّحابُ الأسود ، يريد أنه سحاب أسود مُسْتَرْخٍ بَيِّن الاسترخاء لأنه ثقيل غزير الماء ، فالآية إذاً كقوله تعالى : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ ، قال ابن جني : وهذا اشتقاق حَسَنٌ أخذناه عن أبي علي .

وقرأ جمهور القراء : ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ ، وأمال ابن كثير ، وشبل ، وابن مصرف [أَمْلَى] ، وفاعل [أَمْلَى] هنا قال الحسن : هو الشيطان ، جعل وعده الكاذب بالبقاءِ كالإِبقاءِ ، وذلك أَن الإِملاءَ هو الإِبقاءُ مُلَاوَةً من الدَّهر ، يقال : مُلَاوَةً ومَلَاوَةً ومِلَاوَةً بضم الميم وفتحها وكسرها ، وهي القطعة من الزمان ، ومنه «المَلَوَان» ، وهما الليل والنهار ، فإِذا أَمْلَى الشيطانُ إِملاءً مَّا فلا صحَّة له إِلَّا بطمعهم الكاذب ، ويحتمل أَن يكون الفاعل في [أَمْلَى] الله عزَّ وجلَّ ، كأَنه تعالى قال : الشيطان سوَّل لهم ، وأَمْلَى الله لهم ، وحقيقة الإِملاءِ إِنما هو بيد الله تعالى ، وهذا هو الأَرجح . وقرأَ الأَعرج ، ومجاهد ، والجحدري ، والأَعمش : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ بضم الهمزة وكسر اللام وإِرسال ياءِ المتكلم ، ورواها الخُفَافُ عن أَبي عمرو ، وقرأَ أَبو عمرو : [وَأُمْلِيَ] بفتح الياءِ على بناءِ الفعل للمفعول ، وهي قراءَة شيبة ، وابن سيرين ، والجحدري ، وعيسى البصري ، وعيسى الهمداني ، وهذا يحتمل فاعله من الخلاف ما في القراءَة الأُولى .

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ الآية ، قيل : إِنها نزلت في بني إِسرائيل الذين تقدَّم ذكرهم في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا﴾ ، ورُوِي أَن قوماً من بني قريظة والنضير كانوا يَعِدُونَ

المنافقين في أَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلاف عليه بِنَصْرٍ ومُؤَازرة ، فذلك قولهم : ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ . وقرأَ الجمهور : [أَسْرَارَهُمْ] بفتح الهمزة وذلك على جمع «سِـرٍّ» لأَن أَسْـرارهم كانت كثيرة ، وقرأَ حمزة والكسائي ، وحفص عن عاصم : [إِسْرَارَهُمْ] بكسر الهمزة ، وهي قراءَة ابن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش ، وعيسى ، وهو مصدرٌ اسْمٌ للجنس .

قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآية ، يحتمل أَن يُتَوَعَّدوا بها ، وأَنها على معنَيَيْن : أَحدهما هذا هلعهم وجزعهم لِفَرْض القتال وقراع الأَعداءِ ، فكيف فزعهم وجزعهم إِذا توفَّتهم الملائكة ؟ والثاني أَن يريد : هذه معاصيهم وعنادهم وكفرهم ، فكيف تكون حالهم مع الله تعالى إِذا توفَّتهم الملائكة ؟ وقال الطبري : المعنى : والله أَعلم بأَسرارهم ، فكيف علمه بها إِذا توفَّتهم الملائكة ؟ وهم هنا مَلَك الموت والمتصرِّفون معه ، والضمير في [يَضْرِبُونَ] للملائكة ، وفي نحو هذا أَحاديث تقتضي صفة الحال ، ومن قال إِن الضمير في [يَضْرِبُونَ] للكفار الذين يُتَوَفَّوْن فذلك ضعيف .

و ﴿مَا أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ هو الكفر ، و «الرِّضوان» هنا هو الحق والشَّرع المؤدي إِلى الرِّضوان ، وقد تقدَّم القول في تفسير قوله تعالى : ﴿أَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ، وقرأَ الأَعمش : ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

هذه آية توبيخ للمنافقين وفضح لهم ، وقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ توقيف ، وهي « أَم » المنقطعة ، وقد تقدَّم تفسير مرض القلب ، وقوله تعالى : ﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أَي يبديها من مكانها في نفوسهم ، و « الضغن » : الحقد .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ مقاربة في شهرتهم ، ولكنه تعالى لم يُعَيِّنهم قط بالأَسماءِ والتعريف التَّامِّ إِبقاءً عليهم وعلى قراباتهم وإِن كانوا قد عُرفوا بلحن القول ، وكانوا في الاشتهار على مراتب كعبد الله بن أُبي ، والجَدِّ بن قيس وغيرهم ممن هو دونهم في الشُّهرة (١) ، و « السِّيما » : العَلَامة التي كان الله تعالى يجعل لهم لو أَراد التعريف

---

(١) هكذا في الأصول ، والصواب : « وغيرهما ممن هو دونهما في الشهرة » .

التَّامَّ بهم ، وقال ابن عباس ، والضحاك : إن الله تعالى قد عرَّفه بهم في سورة براءة في قوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً﴾ (١) ، وفي قوله تعالى : ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ (٢) ، وهذا في الحقيقة ليس بتعريف تامٍّ بل هو لفظ يشير إليهم على الإجمال لا أَنَّهُ سمَّى أَحداً ، وأَعظم ما رُوي في اشتهارهم أَن النبي صلى الله عليه وسلم أَمر يوماً فأُخرجت جماعة منهم من المسجد ، كأَنه وسمهم بهذا ، لكنهم أَقاموا على التَّبرِّي من ذلك وتمسَّكوا بلا إِلٰه إِلَّا الله فحقنت دماؤُهم (٣) .

ورُوي عن حذيفة ما يقتضي أَن النبي صلى الله عليه وسلم عرَّفه بهم أَو ببعضهم (٤) ، وله في ذلك كلام مع عمر رضي الله عنهما .

---

(١) من الآية (٨٤) من سورة (التوبة) .
(٢) من الآية (٨٣) من سورة (التوبة) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥-٢٧٣) ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (إن فيكم منافقين ، فمَن سمَّيْتُ فليقم ، ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان حتى سمَّى ستة وثلاثين رجلا ، ثم قال : إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله) ، قال : فمرَّ عمر على رجل ممَّن سمَّى مُقَنَّع قد كان يعرفه ، قال : مالك ؟ قال : فحدثه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بُعْداً لك سائر اليوم .
(٤) أخرجه مسلم وأحمد ، ولفظه كما في صحيح مسلم عن قيس بن عُباد قال : قلنا لِعمَّار : أرأيْتَ قِتالكم أَرَأياً رأيتموه - فإن الرَّأي يخطئُ ويصيب - أو عَهْداً عَهِده إليكم =

ثمَّ أَخبره تعالى أَنه سيعرفهم في لَحْن القول ، ومعناه : في مذهب القول ومنحاه ومقصده ، وهذا كما يقول لك إنسان قولًا معتقداً له وتفهم أَنت من مقاطع كلامه وهيئته وقرائن أَمره أَنه على خلاف ما يقول ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ ، ومن هذا المعنى قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم : (فلعلَّ بعضكم أَن يكون أَلْحَنَ بحُجَّتِه من بعض) الحديث (١) ، أَي أَذْهَبَ بها في جهات الكلام ،

= رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ما عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ في أُمتي — قال شُعبة : وأحسَبُه قال : حدثني حذيفة ، وقال غُنْدَرٌ : أُراهُ قال : في أُمتي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجَمَلُ في سَمِّ الخياط ، ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبَيْلَةُ ، سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى يَنْجُمَ من صدورهم) .

وقد ذكر ابن عطية في سورة التوبة عند تفسير الآيتين المشار إليهما منها هنا أنه قد رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم عيَّنهم لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، وكانت الصحابة إذا رأَوْا حذيفة تأخر عن الصلاة على جنازة رجل تأخروا هم عنها ، وروي عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال يوماً : بقي من المنافقين كذا وكذا ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنشدك الله هل أنا منهم ؟ فقال : لا ، والله لا أمَّنت منها أحداً بعدك .

(١) أخرجه البخاري في الشهادات والحِيل والأحكام ، ومسلم وأبو داود وصاحب الموطأ في الأقضية ، والترمذي في الأحكام ، والنسائي في القضاة ، وأحمد في مسنده (٦-٢٠٣ ، ٢٩٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨) ، ولفظه كما جاء في كتاب الحِيل في البخاري عن أم سلمة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألْحن بحجته من بعض وأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذ ، فإنما أقطع له قطعة من نار) ، والمعنى : لعلَّ بعضكم أن يكون أذهب بحُجَّته في الجواب لِقُوَّته على تصريف الكلام .

وقد يكون هذا اللَّحن مُتَّفَقاً عليه ، أَن يقول الإِنسانُ قولًا يفهم السامعون منه معنى ، ويفهم الذي اتَّفق مع المتكلم منه معنى آخر ، ومنه الحديث الذي قال سعد بن معاذ وابن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : عضل والقارة(١) ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

. . . .وخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كانَ لَحْنَا(٢)

---

(١) جاء في لسان العرب مادة (لحن) : «ومنه قوله صلى الله عليه وسلم وقد بعث قوماً ليخبروه خبر قريش : الحنوا لي لَحْناً ، وهو ما رُوي أنه بعث رجلين إلى بعض الثغور عَيْنا . فقال لهما : إذا انصرفتما فالْحَنَا لي لَحْناً ، أي : أشيرا إلي ولا تُفْصِحا ، وعرِّضا بما رأيتما ، أمرهما بذلك لأنهما ربما أخبرا عن العدوِّ ببأس وقوَّة ، فأحبَّ ألاَّ يقف عليه المسلمون» ، أما «عَضَلٌ والقارة» فقد ذكر أيضاً في اللسان أن عَضَل قبيلة ، وكذلك قارَةٌ ، قال : «وقارَةٌ : قبيلة ، وهم عَضَل والدِّيشُ ابنا الهون بن خزيمة من كنانة ، سُمُّوا قارَةً لاجتماعهم والتفافهم لما أراد ابن الشداخ أن يفرقهم في بني كنانة ، قال شاعرهم :

دَعونَا قارَةً لا تُنْفِرونَـــــا فَنُجْفِلَ مِثْلَ إجْفَالِ الظَّلِيم».

(٢) هذا جزء من بيت قاله مالك بن أسماء بن خارجة الفزاريَّ ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

وَحَدِيثٍ أَلَذُّهُ هُوَ مِمَّـــا يَنْعَتُ النَّاعِتُونَ يُوزَنُ وَزْنَـــا
مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَـــا نًا وَخَيْرُ الْحَدِيثِ ماكَانَ لَحْنَا

وهو في اللسان ، والأمالي للقالي ، والبيان والتبيين ، والصحاح ، والتاج ، والقرطبي ، ويروى : «منطق رائع» ، وقد اختلف النقاد في معنى اللحن في البيت ، فقال بعضهم : هو التعريض وإزالة الكلام عن جهته ، وهذا من فطنة المرأة التي يصفها ، ومن هذا المعنى قول القتَّال الكلابي :

وَلَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْلا تَفْهَمُوا وَلَحَنْتُ لَحْنـــاً لَيْسَ بالمُرْتَـــابِ

وقيل : بل المعنى أنها تصيب مرة وتخطئُ أُخرى في الإعراب ، وذلك أن اللحن بهذا المعنى يُسْتَملح من الجَواري إذا كان خفيفاً ، وقيل : بل المعنى أنها تتغنَّى أحياناً بالكلام ، فمن معاني اللحن الغناءُ وترجيع الصوت والتطريب ، وشاهده قول يزيد بن النعمان : =

أي ما فهمه عنك صاحبك وخفي على غيرك ، فأخبر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم أن أقوالهم المُحَرَّفة التي هي على خلاف عقدهم سَتَتَبيَّن له فيعرفهم بها ، واحتج بهذه الآية من جعل الحدَّ في التعريض بالقذف ، وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ مخاطبة للجميع من مؤمن وكافر .

وقرأ الجمهور : [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ] بالنون ، وكذلك [نَعْلَمَ] ، وكذلك [نَبْلُوَ] ، وقرأ عاصم – في رواية أبي بكر – : [وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ] بالياء ، على معنى : وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ اللهُ ، وكذلك [يَعْلَمَ] ، وكذلك [يَبْلُوَ] ، وروى رويس عن يعقوب : [وَنَبْلُو] بالرفع على القطع والإعلام بأن ابتلاءه دائم ، وكان الفضل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللَّهم لَا تَبْتَلِنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا . وقوله تعالى :

= لَقَدْ تَرَكَتْ فُؤَادَكَ مُسْتَجِنًّا مُطَوَّقَةٌ عَلَى فَنَنٍ تَغَنَّى
يَميلُ بها وَتَرْكَبُهُ بِلَحْنٍ إذا ما عَنَّ لِلْمَحْزُونِ أَنَّا
فَلا يَحزُنْكَ أَيَّامٌ تَوَلَّى تَذَكَّرُهَا وَلا طَيْرٌ أَرَنَّا

وقال آخر :

وهاتِفَيْنِ بِشَجْوٍ بعدمَا سَجَعَتْ وُرْقُ الْحَمَامِ بتَرجِيعٍ وَإِرْنَانِ
باتَا على غُصْنِ بانٍ في ذُرَى فَنَنٍ يُرَدِّدانِ لُحُوناً ذاتَ أَلْوَانِ

وقيل غير ذلك من المعاني مما لا مجال له هنا .

﴿حَتَّى نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ﴾ معناه : حتى نعلمهم مجاهدين قد خرج جهادهم إلى الوجود ، وبَانَ تَكَسُّبُهُم الذي به يتعلّق ثوابهم ، وعِلْمُ الله تبارك وتعالى بالمجاهدين قديم أَزلي ، وإنما المعنى ما ذكرناه .

وقوله تعالى : [وَصَدُّوا] يحتمل أَن يكون المعنى : وصدُّوا غيرهم ، ويحتمل أَن يكون غير مُتَعَدٍّ بمعنى : وصدُّوا هم في أَنفسهم، وقوله تعالى : ﴿وَشَاقُّوا ٱلرَّسُولَ﴾ معناه : خالفوه فكانوا في شق وهو صلى الله عليه وسلم في شق ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ ، قالت فرقة : نزلت في قوم من بني إسرائيل فعلوا هذه الأَفاعيل بعد تَبَيُّنهم لأَمر محمد صلى الله عليه وسلم من التَّوراة ، وقالت فرقة : نزلت في قوم من المنافقين حدث النِّفاق في نفوسهم بعد ما كان الإِيمان دَاخَلَهَا ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في المطعمين في سفرة بدر ، و «تَبَيُّنُ ٱلْهُدَى» هو وجودُه عند الداعي إليه ، وقالت فرقة : بل هي عامة في كل كافر ، وأَلزمهم أَنهم قد تَبَيَّنَ لهم الهدى من حيث كان الهدى بيِّناً في نفسه ، وهذا كما تقول لإِنسان يخالفك في الاحتجاج على معنى التوبيخ له : أَنت مخالف في شيءٍ واضح لا خَفَاءَ به عليك ، بمعنى أَنه هو هكذا في نفسه . وقوله تعالى : ﴿لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئاً﴾ تحقير لهم ، وقوله سبحانه : ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾

أَمَّا على قول من يرى أَن أعمالهم الصالحة مِن صِلة رحم ونحوه – تُكْتَبُ ، فيجيءُ هذا الإحباط فيها متمكناً ، وأَمَّا على قول من لا يرى ذلك فمعنى [سَيُحْبِطُ] أَنها عبارة عن إعدام أَعمالهم وإفسادها وأَنها لا توجد شيئاً مُنْتَفَعاً به ، فذلك إحباط على تشبيه واستعارة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَـٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ ﴾

رُوى أَن هذه الآية نزلت في بني أَسد من العرب ؛ وذلك أَنهم أَسلموا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن قد آثرناك على كلِّ شيءٍ وجئناك بنفوسنا وأَهلينا ، كأَنهم منُّوا بذلك ، فنزل فيهم ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآية (١) ، ونزلت فيهم هذه الآية ،

(١) من الآية (١٧) من سورة (الحجرات) . وقد أخرج النسائي ، والبراز ، وابن مردويه هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما .

فإن كان هذا فالإبْطَال الذي نُهوا عنه ليس بمعنى الإفساد التَّام ؛ لأَن الإفساد التَّام لا يكون إلَّا بالكفر ، وإلَّا فالحسنات لا تُبطلها المعاصي ، وإن كانت الآية عامة عَلَى ظاهرها نَهْي الناس عن إبْطال أعمالهم ، فالإبْطالُ هو الإفسادُ التَّام .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ ، رُوي أنها نزلت بسبب أَنَّ عَدِيَّ بن حاتم قال: يا رسول الله ، إن حاتماً كانت له أَفعال بِرٍّ ، فما حاله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هو في النَّار) ، فبكى عَدِيٌّ رضي الله عنه ووَلَّى ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : (أَبي وأَبوك وأَبو إبراهيم خليل الرحمن في النار) ، ونزلت هذه الآية في ذلك (١)، وظاهر الآية العموم في كل ما تناولته الصفة . وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ معناه : فلا تضعفوا ، وهو من «وَهَنَ الرَّجلُ» إذا ضعف ، وقرأَ جمهور الناس : ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ ، وقرأَ أبو عبد الرحمن السلمي : ﴿ وَتَدَّعُوا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، ذكر ذلك المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، وفي حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عدي بن حاتم أنه قال : قلت : يا رسول الله ، إن أبي كان يصل الرَّحم ويفعل كذا وكذا ، قال : إن أباك أراد أمراً فأدركه ، يعني الذكر . (المسند ٤-٢٥٨) .

إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ بالتَّشديد في الدَّال(١)، وقرأ جمهور القراء : [ٱلسَّلْمِ] بفتح السين ، وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم : [ٱلسِّلْمِ] بكسر السين ، وهي قراءة الحسن ، وأبو رجاءٍ ، والأَعمش ، وعيسى ، وطلحة ، وهو بمعنى المسالمة ، وقال الحسن بن أَبي الحسن وفرقة ممَّن قرأ بكسر السين : إنه بمعنى الإسلام ، أَي : فلا تهنوا وتكونوا داعين إلى الإسلام فقط غير مقاتلين بسببه ، وقال قتادة : معنى الآية : لا تكونوا أَول الطائفتين ضرعت للأُخرى ، وهذا حسنٌ مُلْتَئِمٌ مع قوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ يحتمل معنيَيْن : أَحدهما أَن يكون في موضع الحال ، والمعنى : لا تَهِنُوا وأَنتم بهذه الحال ، والمعنى

---

(١) قال ابن جني : معنى [تَدَّعُوا] هنا بالتشديد : تَنْتَسِبُوا إلى السَّلْم ، كقولك : فلانٌ يَدَّعي إلى بني فلان ، أو ينتسب إليهم ، ويَحْمِلُ نفسه عليهم .

(٢) ذكر الإمام الشوكاني في « فتح القدير » أن أهل العلم اختلفوا في هذه الآية ، هل هي محكمة أو منسوخة ؟ فقيل : إنها محكمة ، وإنها ناسخة لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ ، وقيل : إنها منسوخة بهذه الآية ، ولا يخفاك أنه لامقتضى للنسخ ؛ فإن الله تعالى نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السَّلْم ابتداءً ، ولم ينه عن قبول السَّلْم إذا جنح إليه المشركون ، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محلٍّ واحد حتى يحتاج إلى دعوى النَّسخ أو التخصيص — وهذا هو الذي يشير إليه ابن عطية بقوله : « وهذا حَسَنٌ مُلْتَئِمٌ مع قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا ﴾ الآية .

هذا وآية ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ هي الآية (٦١) من سورة (الأنفال) .

الثاني أن يكون إخباراً مقطوعاً ، أخبرهم فيه بمغيَّب أبرزه الوجود بعد ذلك ، و [ٱلْأَعْلَوْنَ] معناه : الغالبون والظاهرون ، من العُلُوِّ .

وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معناه : بنصره ومعونته . و [يَتِرَ] معناه : يُنقص ويذهب ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (من ترك صلاة العصر فكأنما وُتِر أهله وماله)(١) ، أي ذُهب بجميع ذلك عنه على جهة التغلب والقهر ، والمعنى : لن يَتِرَكم ثواب أعمالكم أو جزاءها ، واللفظة مأْخوذة من الوِتْر الذي هو الذَّحْل(٢)، وذهب قوم إلى أنها من الوَتر الذي هو الفرْدُ (٣)، والمعنى : لن يُفردكم من ثواب أعمالكم ،

(١) أخرجه البخاري في المواقيت والمناقب ، ومسلم في المساجد والفتن ، وأبو داود في الصلاة ، والترمذي في المواقيت ، والنسائي في الصلاة والمواقيت ، وابن ماجه والدارمي في الصلاة ، والموطأ في الوقوت . وأحمد في مسنده في أكثر من موضع ، ولفظه كما جاء في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الذي تفوته صلاةُ العصر كأنما وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَه) ، قال أبو عبد الله : ﴿يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ وَتَرْتُ الرَّجُلَ إذا قَتَلْتَ لهُ قتيلا أو أخذتَ له مالاً . اهـ ، واستشهد صاحب اللسان بهذا الحديث ثم قال : يُرْوى بنصب الأهل ورفعه ، فمن نصب جعله مفعولاً ثانياً لـ (وُتِرَ) وأضمر فيها مفعولاً لم يُسَمَّ فاعله عائداً إلى الذي فاتته الصلاة ، ومن رفع لم يضمر وأقام الأهل مقام ما لم يُسَمَّ فاعله لأنهم المصابون المأخوذون ، فمن ردَّ النقص إلى الرجل نصبهما ، ومن ردَّه إلى الأهل والمال رفعهما . اهـ . والوَتر بفتح الواو وبكسرها وهما لغتان .

(٢) الذَّحْل : الثَّأْرُ .

(٣) الفرد يعني ضد الشَّفْع ، أي الزَّوْج .

والأَول أَصحُّ ، وفسَّرها ابن عباس رضي الله عنهما وأَصحابه : يَظْلِمَكُمْ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تحقير لأَمر الدنيا ، أَي : فلا تهنوا في الجهاد بسببها ، ووَصْفُها باللعب واللهو هو على أَنها وما فيها مما يختص بها لعبٌ ولهوٌ ، وإلَّا ففي الدنيا ما ليس لعباً ولا لهواً وهو الطاعة وأَمر الآخرة وما جرى مجراه ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ معناه : هذا هو المطلوب منكم لا غيره ، لا تُسأَلون أَموالكم أَن تنفقوها في سبيل الله ، وقال سفيان بن عُيَيْنَة : المعنى : لا يسأَلكم كثيراً من أَموالكم إخفاءً ، إنما يسأَلكم غَيْضاً من فيض ، ربع العشر ، فطيِّبوا أَنفسكم ، ثم قال تعالى مُنَبِّهاً على

خُلُق ابن آدم : ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ ، والإحفاءُ هو أشد السؤال ، وهو المُخْجِل الذي يستخرج ما عند المسئول كرهاً ، ومنه حفاءُ الرجل والتَّحَفِّي من البحث عن الشيء ، وقوله تعالى : [تَبْخَلُوا] جزم على جواب الشرط ، وقرأ جمهور القراء : [وَيُخْرِجْ] جزماً عطفاً على [تَبْخَلُوا] ، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو : [وَيُخْرِجُ] بالرفع على القطع بمعنى : وهو يُخْرِجُ ، وحكاها أبو حاتم عن عيسى ، وقرأت فرقة : [وَيُخْرِجَ] بالنصب على معنى : يكن بُخْلٌ وإخراجٌ ، فلما جاءت العبارة بفعل دلَّ على أَنَّ «أَنْ» التي مع الفعل بتأْويل المصدر الذي هو الإخراج ، والفاعل في قوله تعالى : [وَيُخْرِجْ] على كل الاختلافات المذكورة يحتمل أن يكون الله تعالى ، ويحتمل أن يكون البخل الذي يتضمنه اللفظ ، ويحتمل أن يكون السؤال الذي يتضمنه اللفظ أيضاً ، وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وابن سيرين ، وابن محيصن ، وأَيُّوب : [وَيَخْرُج] بفتح الياءِ [أَضْغَانُكُمْ] رفعاً على أنها فاعلة ، ورُوي عنهم [وَتُخْرَجْ] بضم التاءِ وفتح الراءِ على ما لم يُسَمَّ فاعله ، وقرأ يعقوب: [وَنُخْرِج] بضم النون وكسر الراءِ [أَضْغَانَكُمْ] نصباً .

و «الأَضغان» كما قلنا : معتقدات السوءِ ، وهذا الذي كان يُخاف أَن يعتري المسلمين هو الذي تقرب به محمد بن مَسْلمة إلى كعب بن

الأَشرف حين قال له : إن هذا الرجل قد أكثر علينا وطلب منا الأَموال .

ثم وقف تعالى عباده المؤمنين على جهة التوبيخ لبعضهم : ﴿هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ ، وكرر هاءَ التنبيه تذكيراً . وقوله تعالى : ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ يحتمل معنيَيْن : أَحدهما : فإنما يبخل عن شُحِّ نفسه ، والآخر أن تكون بمنزلة «عَلَى» لأَنك تقول : بخلتُ عليك بكذا وبخلتُ عنك بمعنى أَمْسَكْتُ عنك . وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ﴾ معنى مطَّردٌ في قليل الأَشياءِ وكثيرها .

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ قيل : الخطاب لقريش ، والقومُ الْغَيْرُ هم أَهل المدينة ، وقال عبد الرحمن بن جبير وشريح ابن عبيد (١): الخطاب لمن حضر المدينة ، والقوم الْغَيْر هم أَهل اليمن ، وقالت فرقة : الخطابُ لجميع المسلمين والمشركين والعرب حينئذ ، والقوم الغير فارس . وروى أَبو هريرة رضي الله عنه أَن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذا وكان سلمان إلى جنبه ، فوضع يده على

---

(١) أمَّا عبد الرحمن بن جُبير – بجيم موحدة ، مصغراً – فهو ابن نفير – بالتصغير أيضاً – الحضرمي الحمصي ، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني : «ثقة ، من الرابعة ، مات سنة ثمان عشرة» .

وأما شريح . فهو شُرَيح بن عبيد بن شريح ، الحضرمي الحمصي ، ثقة ، من الثالثة ، وكان يرسل كثيراً ، مات بعد المائة . (تقريب التهذيب) .

فخذه وقال : (قوم هذا ، لو كان الدين في الثُّرَيَّا لناله رجال من أهل فارس) (١) ، وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ معناه : في الخلاف والتولي والبخل بالأموال ونحو هذا ، وحكى الثعلبي قولًا أن القَوْم الغَيْر (٢) هُمُ الملائكة عليهم السلام .

كمل تفسير سورة محمد والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وذكره السيوطي في الدر المنثور بلفظ : (هُمُ الفُرسُ ، هذا وقومه) . واللفظ في تفسير ابن جرير : (هـٰذا وقومه) .

(٢) جاء في الصَّبَّان عند الكلام على ما يُسَمِّيه بعض النحاة : « الإضافة شبه المحضة » وما كان منها شديد الإبهام لا يقبل التعريف كغير ومثل وشبه ما نصُّه : « هذه الكلمات كما لا تتعرف بالإضافة إلاَّ فيما استُثْني لا تتعرف بـ (ألْ) أيضاً ؛ لأن المانع من تعريفها بالإضافة مانع من تعريفها بـ (أل) . ونقل الشنواني عن السَّيِّد أنه صرَّح في حواشي الكشاف بأن (غَيْراً) لا تدخل عليها (ألْ) إلاَّ في كلام المولدين . وجاء في المصباح المنير : « يكون وصفاً للنكرة ، تقول : جاءني رجل غيرك ، وقوله تعالى : ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ إنما وصف بها المعرفة لأنها أشبهت المعرفة بإضافتها إلى المعرفة ، فعوملت معاملتها ، ومن هنا اجترأ بعضهم فأدخل عليها (أل) ... ولك أن تمنع الاستدلال وتقول : إن الإضافة هنا ليست للتعريف بل للتخصيص » . وقال البغدادي : « لا تدخل الألف واللام على (غير) لأن المقصود من إدخال (أل) على النكرة تخصيصها بشيءٍ معيَّن ، فإذا قيل : (الغير) اشتملت هذه اللفظة على ما لا يحصى ولم تتعرف بـ (أل) كما أنها لا تتعرف بالإضافة ، فلم يكن لإدخال (أل) عليها فائدة » .

وارتضى مؤتمر المجمع اللغوي المنعقد بالقاهرة في دورته الخامسة والثلاثين في فبراير ١٩٦٩ الرأي الذي يقول : « إن كلمة (غير) الواقعة بين متضادين تكتسب التعريف من المضاف إليه المعرفة ، ويصح في هذه الصورة التي تقع فيها بين متضادين وليست مضافة أن تقترن بـ (أل) فتستفيد التعريف » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٤٨) سُورَةُ الفَتْحِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ

هذه السُّورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنْصَرَفَه من الحديبية ، وفي ذلك أَحاديث كثيرة عن أَنس وابن مسعود (١) وغيرهما تقتضي صحته ، وهي بهذا في حكم المدني ، وقال الزهري عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما : إنها نزلت بالمدينة ، والأَول أَصح ، ويشبه أَن منها بعضاً نزل بالمدينة ، وأَما صدر السورة ومعظمها فكما قلنا ، ويقضي بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) من ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن قتادة أنّ أنس بن مالك حدثهم قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ، لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ إلى قوله : ﴿ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ مرْجِعَهُ من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة ، وقد نحر الهدي بالحديبية فقال : (لقد أُنزلت عليّ آية هي أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً) . وما أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري في تاريخه ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي ، وكان إذا أتاه اشتد عليه ، فسُرِّي عنه وبه من السرور ما شاء الله ، فأخبرنا أنه أُنزل عليه ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ .

لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهما في تلك السفرة : (لقد أُنزلت عليَّ سورة هي أحب إلي من الدنيا بما فيها) (١) ، ذكر مكي هنا أن المعنى : بشرط أن تبقى الدنيا ولا تفنى ، وفي هذا نظر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في تلك الوجهة ليعتمر بمكة فصده المشركون ـ والقصة مشهورة ـ سنة ستٍّ من الهجرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾

---

(١) حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وأخرجه أحمد في مسنده ، والترمذي وقال : حديث حسن غريب صحيح ، والنسائي ، وابن حبان ، وابن مردويه ، ولفظه كما جاء في البخاري : عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا ، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يُجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم سأله فلم يُجبه ، ثم سأله فلم يُجبه ، فقال عمر بن الخطاب : ثَكِلَتْ أمُّ عمر ، نَزَرْتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، كلُّ ذلك لا يُجيبك ، قال عمر : فحركتُ بعيري ثم تقدَّمت أمام الناس وخشيت أن يُنْزَل فيَّ القرآن ، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي ، فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن . فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه ، فقال : لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبُّ إلي مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ .

قال قوم – فيما حكى الزهراوي – : ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ يريد به فتح مكة ، وحكاه الثعلبي أيضاً ، ونسبه النقاش إلى الكلبي ، وأخبره تعالى به على معنى : قضينا به ، و «الفَتَّاحُ» : القاضي بلغة اليمن ، وقيل : المراد إنَّا فتحنا لك بأن هديناك إلى الإسلام ليغفر ، وقال جمهور الناس – وهو الصحيح الذي تعضده قصة الحديبية – : إن قوله تعالى : ﴿إنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ إنما معناه : إنَّ ما يسَّر الله تعالى لك في تلك الخرجة فتحٌ مبين تستقبله ، ونزلت السورة مؤنسة للمؤمنين لأنهم كانوا استوحشوا من ردِّ قريش لهم ، ومن تلك المهادنة التي هادَنَهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت السورة مؤنسة لهم في صدِّهم عن البيت ، ومُذهبةً ما كان في قلوبهم ، ومنه حديث عمر رضي الله عنه الشهير ، وما قال للنَّبي صلى الله عليه وسلم ولأبي بكر رضي الله عنه ، واستقبل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في تلك السفرة أنه هادن عَدُوَّه ريثما يتقوى هو ، وظهرت على يديه آية الماءِ في بئر الحديبية حيث وضع فيه سهمه وثاب الماءُ حتى كفى الجيش ، واتفقت بيعة الرضوان ، وهي الفتح الأعظم ، قاله جابر بن عبد الله ، والبراءُ بن عازب ، وبلغ هديهُ محِلَّه ، قاله الشعبي ، واستقبل فتح خيبر ، وامتلأت أيدي المؤمنين خيراً ، ولم يفتتحها إلَّا أهل الحديبية ، لم يشركهم

فيها أَحد ، وفيه نظر ؛ لأَن أَصحاب السَّفينة مع جعفر بن أَبي طالب رضي الله عنه شاركوهم في القسم ، فينبغي أَن يقال : لم يشركهم أَحد من المتخلفين عن الحديبية ، واتفقت في ذلك الوقت ملحمة عظيمة بين الروم وفارس ظهرت فيها الروم فكانت من جملة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسُرَّ بها هو والمسلمون لظهور أَهل الكتاب على المجوس وانْخِضاد الشَّوكة العظمى من الكفر .

ثم عظَّم الله تعالى أَمر نبيِّه صلى الله عليه وسلم وشَرَّفه بأَن أَنبأَه بأَنه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأَخر ، فقوله تعالى : [لِيَغْفِرَ] هي لام «كي» ، لكنها تخالفها في المعنى ، والمراد هنا أَن الله تعالى فتح لك لكي يجعل لك ذلك أَمارة وعلامة لغفرانه لك ، فكأَنها لام صيرورة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : (لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورة هي أَحب إليَّ من الدنيا)(١) ، وقال الطبري وابن كيسان : المعنى :

(١) هذا الحديث سبق تخريجه في صفحة (٤٢٨) ، وقد أخرج البخاري ، وابن جرير ، وابن مردويه ، عن البراء رضي الله عنه ، قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ... الحديث . كذلك أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : أُنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ... ﴾ الآية ، فقال لقد أُنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ مما على الأرض... الحديث .

إنَّا فتحنا لك فسبِّح بحمد ربك واستغفره ليغفر لك الله ، وبنيا هذه الآية مع قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾(١) السورة ، وهذا ضعيف من وجهين : أحدهما أن السُّورة ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ إنما نزلت في آخر مدة النبي صلى الله عليه وسلم ناعيةً له نفسه حسب ما قال ابن عباس رضي الله عنهما عندما سأل عمر رضي الله عنه عن ذلك ، والآخر أن تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالتشريف كان يذهب لأن كل واحد من المؤمنين مخاطب بهذا الذي قال الطبري ، أي سبِّح واستغفر لكي يغفر الله لك ، ولا يقتضي هذا أن الغفران قد وقع ، وما قدَّمناه أولًا يقتضي وقوع الغفران للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويدل على ذلك قول الصحابة رضي الله عنهم له صلى الله عليه وسلم حين قام حتى تورّمت قدماه : أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ؟ قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً) ؟ (٢)

---

(١) الآية (١) من سورة (النصر) .

(٢) أخرجه ابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت : لما أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ الآية ... اجتهد في العبادة ، فقيل : يا رسول الله ما هذا الاجتهاد ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ وأخرج مثله ابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وابن عساكر ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرج مثله ابن أبي شيبة وأحمد =

فهذا نص في أن الغفران حكم قد وقع ، وقال مُنْذر بن سعيد : المعنى : مجاهدتك في الله تعالى المقترنة بالفتح هي ليغفر ، وحكى الثعلبي عن الحسين بن الفضل أن المعنى : إنّا فتحنا لك فاستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ليغفر لك الله ... الآية ، وهذا نحو قول الطبري .

وقوله تعالى : ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال سفيان الثوري : ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ يريد به قبلَ النُّبوَّة و ﴿مَا تَأَخَّرَ﴾ كل شيءٍ لم يعمله ، وهذا ضعيف ، وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البَتَّة ، وأَجمع العلماءُ على عصمة الأَنبياءِ عليهم الصلاة والسلام من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذائل ، [وجوَّز بعضهم الصغائر التي ليست برذائل](١) ، واختلفوا هل وقع ذلك من محمد صلى الله عليه وسلم أَو لم يقع ؟ وحكى الثعلبي عن عطاءٍ الخراساني أَنه قال : ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ هو ذنب آدم وحوَّاءَ عليهما السلام ، أَي ببركتك ،

= في الزهد عن الحسن رضي الله عنه ، وكذلك أخرج مثله أبو يَعْلَى ، وابن عساكر ، عن أنس رضي الله عنه ، وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تَتَفَطَّر قدماه ، فقالت عائشة : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً ؟ وأخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب .

(١) سقطت هذه العبارة التي بين العلامتين [....] من بعض النسخ .

و ﴿مَا تَـأَخَّرَ﴾ هي ذنوب أُمَّتك ، بدعائك ، قال الثعلبي : الإماميَّة لا تجوِّز الصغائر على النبي صلى الله عليه وسلم ولا على الإمام ، والآية تردُّ عليهم ، وقال بعضهم : ﴿مَا تَقَـدَّمَ﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام يوم بدر : (اللَّهم إن تَهْلِكْ هذه العصابة لم تُعبد) ، و ﴿مَا تَـأَخَّرَ﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام يوم حنين : (لن نُغْلَبَ اليوم من قِلَّة) . وهذا كلُّه مُعْتَرض .

و «إتمامُ النِّعمة عليه» هو إظهارُه وتغليبُه على عدوه والرضوانُ في الآخرة ، وقوله تعالى : ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ معناه : إلى صِراطٍ مستقيم ، فحذف الجار فتعدى الفعل ، وقد يتعدى هذا بغير حرف جر . و «النصر العزيز» هو الذي معه غلبة العدو والظهورُ عليه ، والنصر غير العزيز هو الذي مُضَمَّنُه الحماية ودفع العدو فقط . و «إنْزَالُ السَّكِينَةِ في قلوب المؤمنين» – وهي فعيلة من السكون – هو تسكينُها لتلك الهدنة مع قريش حتى اطمأَنت وعلموا أَن وعد الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم حق ، فازدادوا بذلك إيماناً إلى إيمانهم الأَول وكثر تصديقهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما آمنوا بالتوحيد زادهم العبادات شيئاً شيئاً ، فكانوا يزيدون إيماناً حتى قال تعالى لهم : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(١) فمنحهم أَكمل

---

(١) من الآية (٣) من سورة (المائدة) .

إيمان لأهل السموات والأرض ، لا إله إلّا الله ، وفسّر ابن عباس رضي الله عنهما السّكينة بالرحمة . وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إشارة إلى تسكين النفوس أيضاً ، وأن تكون مسلمة ، لأنه ينصر متى شاء وعلى أي صورة شاء ، مما لا يُدَبِّره البشر ، ومن جنده السّكينة التي أنزلها في قلوب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فثبتت بصائرهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾ أي : ويكون : فهي دالة على الوجود بهذه الصفة لا مُعَيَّنة وقتاً ماضياً ، و « العلم » و « الإحكام » صفتان مقتضيتان عزّة النصر لمن أراد الموصوف بهما نَصْرَه .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ معناه : فازدادوا وتَلَقَّوْا ذلك ، فتمكن ـ بعد ذلك ـ قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي بتكسُّبهم القبول لما أنزل الله تعالى عليهم ، ويروى في معنى هذه الآية أنه لمَّا أُنزلت ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ (١) تكلَّم فيها أهل الكتاب ، وقالوا : كيف نتَّبع من لا يعرف ما يُفعل به وبالنَّاس معه ، فبيَّن الله تعالى في هذه السورة ما يفعل به بقوله تعالى : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ، فلما سمعها المؤمنون قالوا : هنيئاً مريئاً ، هذا لك يا رسول الله فما لنا ؟ فنزلت هذه الآية ﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾(٢) ، فعرَّفه الله تعالى ما يفعل به وبالمؤمنين والكافرين ، وذكر النقاش

---

(١) من الآية (٩) من سورة (الأحقاف) .

(٢) أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ ، يقول : لستُ بأوَّل الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، فأنزل الله بعد هذا ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ، وقوله : ﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ الآية ، فأعلم الله سبحانه نبيَّه ما يفعل به وبالمؤمنين جميعاً .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة ، عن أنس رضي الله عنه ، قال : أُنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرْجِعَهُ من الحُدَيْبية ، فقال : لقد أُنزلت عليَّ آية هي أحبُّ إليَّ مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم ، فقالوا : هنيئاً مريئاً يا رسول الله ، قد بيَّن الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ حتى بلغ ﴿فَوْزاً عَظِيماً﴾ .

أَن رجلًا من عَكٍّ (١) قال : هذا لك يا رسول الله فما لنا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هي لي ولأُمَّتي كهاتين ، وجمع بين إصبعيه .

وقوله تعالى : ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فيه ترتيب الجمل في السَّرْد لا ترتيب وقوع معانيها ؛ لأَن تكفير السيئات قبل إدخالهم الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ٱلظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ قيل معناه : من قولهم : ﴿لَنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ الآية (٢) ، فكأَنهم ظنُّوا بالله تعالى ظَنَّ سَوْءٍ في جهة الرَّسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وقيل : ظنُّوا بالله تعالى ظنَّ سوْءٍ إِذْ هُمْ يعتقدونه بغير صفاته ، فهي ظنون سَوْءٍ من حيث هي كاذبة مؤدِّية إلى عذابهم في نار جهنَّم . وقوله تعالى : ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ كأَنه يُقَوِّي التأْويل الآخر ، أَي : أَصابهم ما أَرادوا بكم . وقرأَ جمهور القراءِ : ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ كالأَول ، ورجحها الفراءُ وقال : قلَّما تضم العرب السِّين ، قال أَبو علي : هما متقاربان والفتح أَشد مطابقة في اللفظ ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو : ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ بفتح السين ، و ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسُّوءِ﴾ بضم السين ؛ وهو اسمٌ ، أَي : دائرة السُّوءِ الذي أَرادوه بكم في ظنهم السَّوءَ ، وقرأَ

(١) اسم قبيلة .

(٢) من قوله تعالى في الآية (١٢) من هذه السورة : ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ .

الحسن بضم السين في الموضعين ، وروي ذلك عن أبي عمرو ومجاهد ، وسمّى تعالى المصيبة التي دعا بها عليهم دائرة من حيث يقال في الزمان : إنه يستدير ، ألا ترى أن السّنة والشّهر كأنها مستديرات تذهب على ترتيب وتجيءُ من حيث هي تقديرات للحركة العظمى ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض)(١) ، فيقال للأقدار والحوادث التي هي في طي الزمان : دائرة لأنها تدور بدوران الزمان ، كأنك تقول : إن أمر

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التوبة ، وفي بدء الخلق والمغازي والأضاحي والتوحيد، وأخرجه مسلم في القسامة ، وأبو داود في المناسك ، والإمام أحمد في مسنده (٥–٣٧ ، ٧٣) ، ولفظه كما في مسند أحمد عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال : (ألا إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُم ، ثلاثٌ متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ، ثم قال : ألا أيُّ يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ، ثم قال ، أي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه ، فقال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى ، ثم قال : أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيُسَمّيه بغير اسمه ، قال : أليست البَلْدة ؟ قلنا : بلى ، قال : فإن دماءَكم وأموالكم – قال : وأحسبه قال وأعراضكم – عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا هل بلّغتُ ؟ ألا لِيُبَلِّغ الشاهدُ منكم الغائب ، فلعلّ من يُبَلّغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه) قال محمد : وقد كان ذاك ، قال : قد كان بعض من بُلّغه أوعى من بعض سامعيه .

كذا يكون في يوم كذا من سنة كذا ، فمن حيث يدور ذلك اليوم حتّى يبرز إلى الوجود تدور هي أيضاً فيه ، ومن هذا قول الشّاعر :

* وَدَائِرَاتِ الدَّهْرِ أَن تَدُورَا * (١)

ومنه قول الآخر :

. . . . وَيَعْلَمُ أَنَّ النَّائِبَاتِ تَدُورُ (٢)

وهذا كثير ، ويحسن أن تسمى المصيبة دائرة من حيث كمالُها أن تحيط بصاحبها كما يحيط شكل الدائرة على السواءِ من النقطة ، وقد أشار النقاش إلى هذا المعنى .

و «غضب الله تعالى» متى ما قصد به الإرادة فهو صفة ذات ، ومتى ما قصد به ما يظهر من الأفعال على المغضوب عليه فهو صفة فعل . و [لَعَنَهُمْ] : أبعدهم ، وقال تعالى في هذه : ﴿عَزِيزاً حَكِيماً﴾ فذكر

---

(١) هذا البيت من الرجز ، وقبله يقول الراجز :

تَرُدُّ عَنْكَ القَدَرَ المَقْدُورا

والدائرات : جمع دائرة ، وهي ما أحاط بالشيء من كل ناحية ، ودائرات الدهر هي حوادثه التي يخفيها الزمان ، تدور بدوران الزمان ، فمرة تصيب هذا ، ومرة تصيب ذاك ، ولم أقف على اسم القائل .

(٢) النائبات : جمع نائبة ، وهي المصيبة التي تصيب الإنسان ، أو الكارثة التي تنزل به ، ومعنى هذا الشطر من الشعر أن مصائب الدهر تدور على الناس ولا تترك أحداً ، فهي مرة تصيب واحداً ومرة ثانية تصيب غيره ، وهكذا . ولم أقف على بقية البيت ولا قائله .

صفة العزَّة من حيث تقدُّم الانتقام من الكفار ، وفي التي قَبْلُ قَرَنَ بالحكمة العلمَ من حيث وعد بمغيبات ، وقرن باللفظتين ذكْر جنود الله تعالى التي منها السَّكينة ومنها نقمته من المنافقين والمشركين ، فلكل لفظ وجهه من المعنى ، وقال ابن المبارك في كتاب النقاش : جنود الله في السماءِ الملائكة ، وفي الأَرض الغُزاة في سبيل الله تعالى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا بعض من كل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

من جعل الشاهد محصِّل الشهادة من يوم يحصلها فقوله تعالى : [شَاهِداً] حالٌ واقعة ، ومن جعل الشاهد مُؤَدِّي الشهادة فهي حال مستقبلة ، وهي التي يسميها النحاة : المُقَدَّرَة . والمعنى : شاهداً على الناس بأَعمالهم

وأقوالهم حين بلَّغْتَ إليهم الشَّرع ، ومبشِّراً أَهل الطاعة برحمة الله تعالى ، ونذيراً لأَهل الكفر ينذرهم من عذاب الله عزَّ وجلَّ .

وقرأَ جمهور الناس في كل الأَمصار: [لِتُؤْمِنُوا] بالتاءِ على مخاطبة الناس، على معنى: قُلْ لهم ، وكذلك الأَفعال الثلاثة بعد ، وقرأَ أَبو عمرو بن العلاءِ ، وابن كثير ، وأَبو جعفر : [لِيُؤْمِنُوا] بالياءِ على استمرار خطاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الأَفعال الثلاثة بعد ، وقرأَ الجحدري : [وَتَعْزُرُوهُ] بفتح التاءِ وسكون العين وضم الزَّاي ، وقرأَ محمد بن السميفع اليماني ، وابن عباس رضي الله عنهما : [وَتُعَزِّزُوهُ] بزاءَيْن ، من العزَّة ، وقرأَ جعفر بن محمد : [وَتَعْزِرُوهُ] بفتح التاءِ وسكون العين وكسر الزاي ، ومعنى [تُعَزِّرُوهُ] : تعظِّموه وتكبِّروه ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال قتادة : معناه : تنصروه بالقتال ، وقال بعض المتأَوِّلين : الضمائر في قوله تعالى : ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هي كلها لله تعالى ، وقال الجمهور : ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ هما للنبي صلى الله عليه وسلم: و [تُسَبِّحُوهُ] هي لله تعالى ، وهي صلاة البَرْدَيْن (١) ،

---

(١) قال في اللسان : البَرْدان والأَبْرَدان : الظِّلُّ والفَيْءُ ، سُمِّيا بذلك لبردهما ... وقيل : هما الغداةُ والعشيُّ ، وفي الحديث : (من صلَّى البَرْدَيْن دخل الجنة) ، وفي حديث ابن الزبير : (كان يسير بنا الأَبْرديْن) ، وفي حديثه الآخر مع فضالة بن شريك : (وسِرْ بها البَرْدَيْن) .

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «وَتُسَبِّحُوا اللَّهَ» ، وفي بعض ما حكى أبو حاتم : «وَتُسَبِّحُونَ ٱللَّهَ» بالنون ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : «ولِيُسَبِّحُوا ٱللهَ» ، و «البُكْرَةُ» : الغُدُوُّ ، و «الأَصيلُ» : «العَشِيُّ» .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يريد تعالى : في بيعة الرضوان ، وهي بيعة الشجرة حين أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأُهبة لقتال قريش لمَّا بلغه مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه رسوله إليهم ، وذلك قبل أن ينصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحُدَيْبِيَة ، وكان في ألف وأربعمائة رجل ، قال النقاش : وقيل : كان في ألف وثمانمائة ، وقيل : وسبعمائة ، وقيل : وستمائة ، وقيل : ومائتين ، وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد ، حتى قال سلمة بن الأكوع (١) وغيره : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت ، وقال عبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألَّا نَفِرَّ ، و «المُبَايعة» في هذه الآية مفاعلة من البيع ؛ لأن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وبقي

(١) هو سَلَمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي ، أبو مسلم أو أبو إياس ، شهد بيعة الرضوان ، ومات سنة أربع وسبعين . (تقريب التهذيب) .

اسم البيعة بعْدُ على مُعَاقدة الخلفاءِ والملوك ، وعلى هذا سمت الخوارج أَنْفُسَهَا الشُّراة ، أَي اشتروا بزعمهم الجنة بأَنفسهم ، ومعنى ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أَن صفقَتَهُم إنما يُمْضيها الله تعالى ويمنح الثمن ، وقرأ تمام بن العباس بن عبد المطلب (١) : ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهِ﴾ ، قال أَبو الفتح : ذلك على حذف المفعول لدلالة الأَول عليه وقُرْبه منه (٢) .

وقوله تعالى : ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ ، قال جمهور المتأَولين : اليَدُ بمعنى « النعمة » ، أَي نعمة الله تعالى في نفس هذه المبايعة ـ لما يُستقبل من محاسنها ـ فوق أَيديهم التي يَمُدُّونها لبيعتك ، وقال آخرون : يَدُ اللهِ هنا بمعنى قوة الله تعالى فوق قواهم ، أَي في نصرك ونصرهم ، فالآية ـ على هذا ـ تعديد نعمة عليهم مستقبلة مُخْبَرٌ بها ، وعلى التأْويل الأَول تعديد نعمة حاصلة يشرف بها الأَمر ، قال النقاش : يَدُ الله في الثواب فوق أَيديهم . وقوله تعالى : ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أَي نقض هذا

(١) هو تمَّام بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي ، أُمُّه أُمُّ ولد ، كان العباس يقول : تَمُّوا بتَمَّام فصاروا عشرة ، قال عنه ابن السَّكَن : «كان أصغر إخوته ، وكان أشد قريش بطشاً» ، وقال ابن حبان : « حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ، وإنما رواه عن أبيه » ، وقد وليَ تمَّام المدينة في زمان علي كرم الله وجهه . (الإصابة) .

(٢) وبقية كلام أبي الفتح كما جاء في المحتسب : « فكأنه قال : إن الذين يبايعونك إنما يبايعونك للهِ ، فحذف المفعول الثاني لقربه من الأول ، وأنه أيضاً بلفظه وعلى وضعه ، وهذا المعنى هو راجع إلى معنى القراءة العامة ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ، أي : إنما يفعلون ذلك لله ، إلاَّ أنها أفخم معنى من قوله : (للهِ) ، أي : إنما المعاملة في ذلك معه ، فهو أعلى لها وأرجح بها » (المحتسب ٢ـ١٧٥) .

العهد فإنما يجني على نفسه ، وإيَّاها يُهْلِك ، فنكثُه عليه لا له ، وقرأ جمهور القراءِ : ﴿ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهَ ﴾ بالنصب على التعظيم ، وقرأ ابن أَبي إسحق : ﴿ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهُ ﴾ بالرفع على أَن الله تعالى هو المعاهد ، وقرأ حفص عن عاصم : [عَلَيْهُ] مضمومة الهاءِ ، وروي ذلك عن ابن أَبي إسحق ، و « الأَجرُ العظيم » : الجنة ، لا يفنى نعيمها ولا ينقضي أَمدها . وقرأ عاصم ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، والعامة : [فَسَيُؤْتِيهِ] بالياءِ ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : [فَسَنُؤْتِيه] بالنون ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ ٱللَّهُ » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

« المخلَّفون من الأَعراب » قال مجاهد وغيره : هم جُهَيْنَة ومُزَيْنَة ومن كان حول المدينة من القبائل ، فإنهم في خروج رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى عُمْرَته عام الحديبية رأوا أنه يستقبل عدوًّا عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة وهم الأَحابيش، ولم يكن تمكن إيمان أُولئك المجاورين للمدينة ، فقعدوا عن النبي صلى الله عليه وسلم وتخلَّفوا ، وقالوا : لن يرجع محمد ولا أَصحابه من هذه السفرة ، ففضحهم الله تعالى في هذه الآية وأَعلم محمداً صلى الله عليه وسلم بقولهم واعتذارهم قبل أَن يصل إليهم ، فكان كذلك ، قالوا : شغلتنا الأَموال والأَهلون فاستغفر لنا ، وهذا منهم خُبْثٌ وإبطال ، فلذلك قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ، قال الرُّمَّاني : لا يُقال أَعرابيٌّ إلَّا لأَهل البوادي خاصة (١) .

ثم قال تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : قل لهم : ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً﴾ ، أَي : من يحمي أَموالكم وأَهليكم إن أَراد بكم فيها سوءًا ؟ وقرأَ جمهور القراءِ : ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ بفتح الضاد ، وقرأَ حمزة والكسائي : [ضُرًّا] بالضم ، ورجَّحها أَبو علي ، وهما لغتان ، وفي مصحف ابن مسعود : «إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا» . ثم ردَّ الله تعالى عليهم

(١) قال في اللسان : «رجل أعرابيٌّ بالألف إذا كان بدويّاً صاحبَ نُجْعة وانتواءٍ وارتيادٍ للكلأ ، وتَتَبُّع لمساقط الغيث ... ويُجمع الأعرابيُّ على الأعراب والأعاريب ، والأعرابي إذا قيل له : يا عربيُّ ! فرح بذلك وهشَّ له ، والعربي إذا قيل له : يا أعرابيُّ ! غضب له» .

بقوله : ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ ، ثم فسَّر لهم العلَّة التي تخلَّفوا من أَجلها بقوله تعالى : ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ﴾ الآية ، وفي قراءة عبد الله : ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ بغير ياءٍ ، و [بُوراً] معناه : فاسدين هَلْكَى بسبب فسادهم ، والبوار : الهلاكُ ، و «بارت السلعة» مأْخوذ من هذا ، و «بُورٌ» يوصف به الجمع والإِفرادُ ، ومنه قول ابن الزِّبَعْرى :

يَا رَسُولَ المَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنا بُورُ(١)

و البُورُ في لغة أَزْد عمان : الفاسد ، ومنه قول أَبي الدرداءِ : «فأَصبح ما جمعوا بورا» أَي فاسداً ذاهباً ، ومنه قول حسان بن ثابت :

لا يَنْفَعُ الطُّولُ منْ نُوكِ القُلُوبِ وَقَدْ يَهْدِي الإِلٰهُ سَبِيلَ المَعْشَرِ البُورِ(٢)

---

(١) ابن الزِّبَعْرى هو عبد الله بن الزِّبَعْرى السَّهْمي ، والبيت في اللسان والطبري والقرطبي ، والتاج ، ورواية اللسان : يا رسول الإلـه ، وهو يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم معتذراً عن هجائه الذي سبق محاولا إصلاح ما فسد ، والرَّتْق ضد الفتْق ، أو هو إصلاح الفتْق ، والبور : الهالِكُ ، والشاهد أن الشاعر استعمل كلمة «بور» للمفرد ، وهي في الآية جاءت للجمع ، فهي مما يوصف به الجمع والمفرد .

(٢) البيت لحسَّان بن ثابت قاله في هجاء قوم ، يقول : إن طول أجسامهم لا خير فيه ماداموا حمقى ، والبُور في البيت بمعنى الفاسدين ، وقد يكون هنا جمع بائر مثل حُولٍ وحائل ، وحكى الفراء عن بعضهم أنه لغة وليس بجمع بائر ، والنَّوْكُ : الحُمْقُ ، والأَنْوَك : الأحمق ، والبيت شاهد على أن البُورَ هو الفاسد .

وقال الطبري في قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ في قُلُوبِهِمْ ﴾ : يعني به قولهم : « فَاسْتَغْفِرْ لَنَا » ؛ لأنهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم ، قال : وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ ﴾ الآية معناه : ولا ينفعكم استغفاري ، وهل أملك لكم شيئاً والله تعالى قد أراد ضرّكم بسبب معصيتكم ؟ كما لا أملك إن أراد بكم النَّفع في أموالكم وأهليكم .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

لمَّا قال تعالى لهم : ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ توعدهم بعد ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الآية ، أي : وأنتم هكذا فأنتم ممن أُعدت لهم السعير وهي النار المؤجَّجة ، والمسْعر : ما تُحرك به النار ،

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (وَيْل أُمه مِسْعَرُ حَرْب)(١) .

ثم رجّى بقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الآية ؛ لأَن القوم لم يكونوا مجاهرين بالكفر فلذلك جاز وعيدهم وتوبيخهم ممزوجاً فيه بعض الإِمهال والتَّرجية ؛ لأَن الله تعالى كان قد علم منهم أَنهم سيؤمنون .

ثم إن الله تعالى أَمر نبيَّه صلى الله عليه وسلم — على ما روي — بغزو خيبر ووعده بفتحها ، وأَعلمه أَن المخلَّفين إِذا رأَوا مسيره إِلى يهود — وهم عدوٌّ مستضعف — طلبوا الكون معه رغبة في عَرَض الدنيا والغنيمة ، وكان كذلك . وقوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ﴾ معناه : أَن يُغَيِّرُوا وعده لأَهل الحديبية بغنيمة خيبر ، وقال عبد الله

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشروط ، وأبو داود في الجهاد ، والإمام أحمد في مسنده (٤–٣٣١) ، وهو حديث طويل ، عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة ، ومروان ، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه ، وهو عن غزوة الحديبية ، وفيه أن أبا بصير ، وهو رجلٌ من قريش جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن عاد إلى المدينة ، وأرسلت قريش رجلين في طلبه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فدفعه إلى الرجلين تنفيذاً لما تم الاتفاق عليه في عهد الحديبية ، ولكن أبا بصير احتال حتى قتل أحد الرجلين وفرَّ الآخر منه ، وعاد أبو بصير إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبي الله قد أوفى الله ذمَّتك ، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (وَيْلُ أُمِّه مِسْعَرُ حَرْبٍ لو كان لَهُ أَحد) ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يصفه بالمبالغة في الحرب والنجدة .

ابن زيد بن أسلم : كلام الله تعالى هو قوله : ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ (١) ، وهذا قول ضعيف لأن تلك نزلت في رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ، وهذا في آخر عمره صلى الله عليه وسلم ، وآية هذه السُّورة نزلت سنة الحديبية ، وأيضاً فقد غزت جُهَيْنَة ومُزَيْنة بعد هذه المدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد فضَّلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك ـ على تميم وغطفان وغيرهم من العرب ، الحديث المشهور ، فأخبره الله تعالى أن يقول لهم في هذه الغزوة إلى خيبر : ﴿لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ ، وخصَّ الله تعالى بها أهل الحديبية .

وقوله تعالى : ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يريد تعالى وعده قبل باختصاصهم بها ، وقول الأعراب : ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ معناه : بل يعزُّ عليكم أن نصيب مغنماً ومالاً ، فردَّ الله تعالى على هذه المقالة بقوله سبحانه : ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، أي : لا يفقهون من الأمور مواضع الرُّشد ، وذلك هو الذي خلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان ذلك سبباً لمنعهم من غزو خيبر ، وقرأ أبو حيوة : [تَحْسِدُونَنَا] بكسر السين ، وقرأ الجمهور من القراء : [كَلَامَ] ،

(١) من الآية (٨٣) من سورة (التوبة) .

قال أبو علي: هذا أخص بما كان مقيداً حديثاً، وقرأ الكسائي، وحمزة، وابن مسعود وطلحة، وابن وثاب: [كَلِم]، والمعنى فيهما متقارب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

أمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالتقدمة إلى هؤلاء المُخَلَّفين بأنهم سيدعون إلى قتال عدوٍّ بئيس، وهذا يدلُّ على أنهم كانوا يظهرون الإسلام وإلَّا فلم يكونوا أهلًا لذلك الآخر.

واختلف الناس، من القوم المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؟ فقال عكرمة، وابن جبير، وقتادة: هم هوازن ومَنْ حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حُنَيْن، ويندرج في هذا القول عندي من حُورب وغلب في فتح مكة، وقال كعب: هم الروم الذين خرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تبوك والذين

بعث إليهم في غزوة مؤتة ، وقال الزهري والكلبي : هم أَهل الرِّدَّة وبنو حنيفة باليمامة ، وقال منذر بن سعيد : يتركب على هذا القول أَن الآية مؤذنة بخلافة أَبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، يريد : لما كشف الغيبُ أَنهما دَعَوَا إلى قتال أَهل الردَّة ، وحكى الثعلبي عن رافع بن خَديج أَنه قال : والله لقد كنَّا نقرأُ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم حتى دعا أَبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أَنهم هم(١) ، وقال ابن عباس ، وابن أَبي ليلى : هم الفُرس ، وقال الحسن : هم فارس والروم ، وقال أَبو هريرة : هم قوم لم يأْتوا بعد ، والقولان الأَوَّلان حسنان لأَنهما الذي كشف الغيب ، وباقيها ضعيف ، وقال منذر بن سعيد : رفع الله في هذه الجزية ، وليس إلَّا القتال أَو الإسلام ، وهذا لا يوجد إلَّا في أَهل الردَّة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وكذا من حُورب في فتح مكة .

وقرأَ الجمهور : ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ على القطع ، أَي : أَو هم يُسلمون دون حرب ، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب ــ فيما حكى الكسائي ــ : ﴿أَوْ يُسْلِمُوا﴾

---

(١) في الأصول : « فعلمنا أنهم ارتدوا ، وفي بعضها : فعلمنا أنهم أزيد » ، والتصويب عن كتب التفسير الأخرى .

بنصب الفعل على تقدير : أَو يكون أَن يُسْلموا ، ومثله من الشعر قول امرئ القيس :

فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا (١)

يروى «نموتَ» بالنصب والرفع ، فالنصب على تقدير : أَو يكون أَن نموتَ ، والرفع على القطع ، أَو نحن نموتُ .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا ﴾ معناه : فيما تُدعون إِليه ، والعذاب الذي توعدهم به يحتمل أَن يريد به عذاب الدنيا ، وأَمّا عذاب الآخرة فَبَيِّنٌ فيه .

---

(١) قال امرؤ القيس هذا البيت يخاطب الشاعر عمرو بن قُميئة حين صحبه في رحلته إلى بيزنطة ليستعدي قيصر على بني أسد ، وهو في الديوان ، والخصائص ، وابن يعيش ، والكتاب ، والخزانة ، والأشموني ، وقبله يقول :

بَكَى صاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ وَأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا

يقول لصاحبه : لا تَبْكِ بسبب الغربة والبعد ، فإننا نسعى من أجل المُلْك ، فإمَّا نحقق ما نريد وإما أن نموت فيكون لنا العذر ، والشاهد فيه هو نصب « نموت » بإضمار « أنْ » ، لأنه لم يرد في البيت معنى العطف ، وسيبويه يقول : « واعلم أن معنى ما انتصب بعد « أوْ » على « إلاَّ أنْ » ، فالمعنى هنا : على إلاَّ أن نموت فنُعْذَرَا ، والرفع جائز ، قال سيبويه : « ولو رفعتَ لكان عَرَبِيّاً جائزاً على وجهين : على أن تُشرك بين الأول والثاني ، وعلى أن يكون مبتدأً مقطوعاً من الأول ، يعني : أو نحن ممن يموتُ » ، وقد ذكر ابن عطية الوجه الثاني للرفع ، ويُروى البيتُ : فَنُعْذِرَا – بكسر الذال – ، والمعنى على هذا : نَبْلُغَ العُذْرَ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ * لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

لما بلغ عزَّ وجلَّ في عتب هؤلاءِ المتخلِّفين من القبائل المجاورة للمدينة « كجهينة ومزينة وغفار وأَسلم وأَشجع » عقَّب ذلك بأَن عذر أَهل الأَعذار من العَمَى والعَرَج والمرض جملة ، ورفع الحرج عنهم والضيق والمأْثم ، وهذا حكم هؤلاءِ المعاذير في كل جهاد إلى يوم القيامة ، إلَّا أَن يحزب حازب في حضرة مَّا ، فالغرض متوجه بحسب الوُسع ومع ارتفاع الحرج فجائز لهم الغزو وأَجرهم فيه مضاعف ؛ لأَن الأَعرج أَحرى الناس بالصبر وأَلَّا يفرَّ ، وقد غزا ابن أُمِّ مكتوم وكان يمسك الراية في بعض حروب القادسية ، وقد خرَّج النسائي هذا المعنى وذكر ابن أُمِّ مكتوم رضي الله عنه (١) .

(١) وقد روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سِرْتُم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلاَّ وهم =

وقرأ الجمهور من القراء: [يُدْخِلْهُ] بالياء، وقرأ ابن عامر، ونافع، وأبو جعفر، والأعرج، والحسن، وشيبة، وقتادة: [نُدْخِلْهُ] بالنون، وكذلك: [يُعَذِّبْهُ] و [نُعذِّبْهُ].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ تشريف وإعلامٌ برضاه عنهم حين البيعة، وبهذا سمِّيت بيعة الرِّضوان، والرضى بمعنى الإرادة، فهو صفة ذات، ومن جعل [إذْ] مُسَبِّبَة، بمعنى: لأنهم بايعوا تحت الشجرة جاز أن يجعل [رَضِيَ] بمعنى: أَظهر النعمة عليهم، بسبب بيعتهم، فالرِّضى - على هذا - صفة فعل، وقد تقدَّم القول في المبايعة ومعناها.

وكان سبب هذه المبايعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يبعث لقريش رجلًا يبيِّن لقريش أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يريد حرباً وإنما جاء معتمراً، فبعث إليهم خِرَاشَ بنَ أُميَّة الخزاعي (١)،

= معكم فيه). قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: (حبسهم العذر). والله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

(١) هو خراش بن أُمية بن ربيعة بن الفضل الخزاعي، ثم الكلبي، شهد المُرَيْسيع والحُدَيْبية، وحلق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ. أو في العمرة التي تليها، قال ابن السكن: روي عنه حديثاً واحداً، وقيل: إنه شهد خيبر وما بعدها.

وحمله على جمل له يقال له : الثعلب ، فلمَّا كلَّمهم عقروا الجمل وأرادوا قتل خِرَاش فمنعته الأَحابيش ، وبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأَراد بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال عمر : يا رسول الله ، إنَّك قد علمتَ فظاظتي على قريش ، وهم يبغضونني ، وليس هناك من بني عدي بن كعب من يحميني ، ولكن ابعث عثمان بن عفان ، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب ، فلقيه أبان بن سعيد ابن العاص، فنزل عن دابته وحمله عليها ، وأجاره حين جاءَ قريشاً فأَخبرهم ، فقالوا له : إن شئت يا عثمان أَن تطَّوف بالبيت فطُف ، وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه ، فقال عثمان رضي الله عنه : ما كنت لِأَطوف به حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إنَّ بني سعيد بن العاص على جهة المَبَرَّة ، فأَبطأَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الحديبية من مكة على نحو عشرة أَميال ، فصرخ صارخ من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم : قُتل عثمان ، فحمي رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وقالوا : لا نبرح إن كان هذا حتى نلقى القوم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيعة ، ونادى مناديه: أيها الناس ، البيعةَ البيعةَ. نزل روح القُدس ، فما تخلَّف عن البيعة أَحد ممن شهد الحديبية إلَّا الجَدُّ بن قيس المنافق ، وحينئذ

جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على يده ، وقال : هذه يد عثمان ، وهي خير من يد عثمان ، ثم جاء عثمان رضي الله عنه بعد ذلك سالماً ، والشجرة سَمُرة (١) كانت هنالك ذهبت بعد سنين ، فمرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالموضع في خلافته فاختلف أصحابه في موضعها ، فقال عمر رضي الله عنه : سيروا هذا التكلُّف (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ، قال قوم : معناه : من كراهية البيعة على الموت ونحوه ، وهذا ضعيف فيه مذمّة للصحابة رضي الله عنهم ، وقال الطبري ، ومنذر بن سعيد : معناه : من الإيمان وصحته والحبِّ في الدين والحرص عليه ، وهذا قول حسن لكنه من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه ، أَما إنه يحتمل أَن يجازى بالسَّكينة والفتح القريب والمغانم ، وقال آخرون : معناه : من الهم بالانصراف عن المشركين والأَنفة في ذلك على نحو ما خاطب

---

(١) السَّمُرَة : ضرب من شجر الطلح ، جمعه : أَسْمُر ، والطَّلح : شجر عظام من شجر العضاه ترعاه الإبل .

(٢) الخبر كما رواه ابن جرير كاملا يقول : « زعموا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة ، فقال : أين كانت ؟ فجعل بعضهم يقول : هنا ، وبعضهم يقول : ها هنا ، فلما كثر اختلافهم قال : سيروا هذا التكلف ، فذهبت الشجرة وكانت سمراءُ ، إما ذهب بها سيلٌ وإمَّا شيءٌ سوى ذلك .

فيه عمر رضي الله عنه وغيره (١)، وهذا تأويل حسن يترتب معه نزول السّكينة والتعويض بالفتح القريب ، والسّكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى والصبر له . وقرأ الناس : [وَأَثَابَهُمْ]، قال هارون : وقد قرئت : «وأَتَاهُمْ» بالتاءِ بنقطتين .

و «الْفَتْحُ الْقَرِيبُ» : خيبر ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف بالمؤمنين وقد وعده الله بخيبر ، وخرج إليها لم يلبث ، قال أبو جعفر النحاس : وقد قيل : الفتح القريب : : فتح مكة و «المغانم الكثيرة» : فتح خيبر ، وقرأ يعقوب في رواية رويس : [تَأْخُذُونَهَا] على مخاطبتهم بالتاءِ من فوق ، وقرأ الجمهور : [يَأْخُذُونَهَا] على الغيبة .

واختلف الناس في عدة التابعين رضي الله عنهم ـ فقيل : ألف وخمسمائة ، قاله قتادة ، وقيل : وأربعمائة ، قاله جابر بن عبد الله ،

(١) وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد عقد صلح الحديبية ، وقال : يا رسول الله ، ألَسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى ، قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال: بلى ، قال : ففيم نعطي الدنيَّة في ديننا ونَرْجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيّعني الله أبداً ، فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً فأتى أبا بكر فقال له مثل ما قال للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأجابه أبو بكر رضي الله عنه بمثل ما أجاب صلوات الله وسلامه عليه ، فلم يلبث أن نزل القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إيَّاه ، فقال : يا رسول الله ، أوَ فتحٌ هو ؟ قال : نعم ، فطابت نفسه .

وقيل : وخمسمائة وخمسة وعشرون ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل : وثلاثمائة ، قاله ابن أبي أوفى ، وقيل غير هذا مما ذكرناه من قبل ، وأول من بايع ذلك اليوم رجل من بني أسد يقال له : أبو سنان ابن وهب ، قاله الشعبي .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآيَةَ ـ مخاطبةٌ للمؤمنين ووعْد بجميع المغانم التي أخذها المسلمون ، ويأْخذونها إلى يوم القيامة ، قاله مجاهد وغيره ، وقوله تعالى : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يريد خَيْبَرَ ،

وقال زيد بن أسلم وابنه : المغانم الكثيرة : خيبر ، و [هَٰذِهِ] إشارة إلى البيعة والتخلّص من أمر قريش ، وقوله تعالى : ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يريد من وَلِيَ عورة المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين منها ، وذلك أنه كان من أحياء العرب ومن اليهود من يعادي ، وكانت قد أمكنتهم فرصة ، فكفَّهم الله تعالى عن ذراري المسلمين وأموالهم ، وهذه للمؤمنين العلامة على أن الله تعالى ينصرهم ويلطف بهم ، قاله قتادة ، وحكى الثعلبي عنه أنه قال : كفَّ الله تعالى غطفان عن النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءُوا لنصر أهل خيبر ، وذكره النقاش ، وقال الثعلبي أيضاً عن بعضهم : إنه أراد كفَّ قريش .

قوله تعالى : ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ ، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : الإشارة إلى بلاد فارس والروم ، وقال الضحاك وابن زيد : الإشارة إلى خيبر ، وقال قتادة والحسن : الإشارة إلى مكة ، وهذا هو القول الذي يتسق معه المعنى ويتأيَّد ، وقوله تعالى : ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ معناه : بالقدرة والقهر لأهلها ، أي : قد سبق ذلك في علمه وظهر فيها أنهم لم يقدروا عليها .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ﴾ ، الإشارة إلى قريش ومن والاها في تلك السنة ، قاله قتادة ، وفي هذا تقوية

لنفوس المؤمنين ، وقال بعض المفسِّرين : أَراد الرُّوم وفارس ، وهذا ضعيف ، وإنما الإشارة إلى العدوِّ الأَحضر .

وقوله تعالى : ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى وقعة بدر ، وقيل : إشارة إلى عادة الله تعالى من نصرة الأَنبياءِ عليهم السلام قديماً ، ونصب [سُنَّةَ] على المصدر ، ويجوز الرفع ، ولم يُقرأ به .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية ، رُوي في سببها أن قريشاً جمعت جماعة من فتيانها ، وجعلوهم مع عكرمة بن أَبي جهل ، وخرجوا يطلبون غِرَّة في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختلف الناسُ في عدد هؤلاءِ اختلافاً متفاوتاً ، فلذلك اختصرته ، فلما أَحسَّ بهم المسلمون وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أَثرهم خالد بن الوليد وسمَّاه حينئذ «سيف الله» في جملة من الناس ، ففروا أَمامهم حتى أَدخلوهم بيوت مكة ، وأَسروا منهم جملة ، فسيقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنَّ عليهم وأَطلقهم ، فهذا هو كفُّ الله تعالى أَيديهم عن المسلمين بالرُّعب ، وكفُّ أَيدي المسلمين عنهم بالنهي في بيوت مكة وغيرها ، وذلك هو «بَطْن مكة» ، وقال قتادة : أَسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الجملة بالحديبية عند عسكره ومَنَّ عليهم ، وذلك هو «بَطْن مكة» ، قال النقاش : الحرم كلُّه

مكة ، والظَّفَر عليهم هو أَسْر من أُسر منهم ، وما في هذه الآية تحريض على العمل الصالح ؛ لأَن من استشعر أَن الله تعالى يُبصر عمله أَصلحه .

وقرأَ الجمهور من القراءِ : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاءِ على الخطاب ، وقرأَ أَبو عمرو وحده بالياءِ على ذكر الكفار وتهديدهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

يريد الله تعالى بقوله : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَهل مكة الذين تقدَّم ذكرهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ هو منعهم النبي صلى الله عليه وسلم وأَصحابه من العُمْرَة عام الحُدَيْبِيَة ، وذلك أَن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة في ذي القعدة سنة ستٍّ

من الهجرة يريد العُمْرة وتعظيم البيت ، وخرج معه بمائة بدنة ، قاله النقاش ، وقيل : بسبعين ، قاله المِسْود بن مخرمة ، ومروان ابن الحكم ، فلمَّا دنا من مكة قال أَهل مكة : هذا محمد الذي قد حاربنا وقتل فينا يريد أَن يدخل مكة مراغمةً لنا ، والله لا تركناه حتى يموت دون ذلك ، فأَجمعوا لِحَرْبه واستنجدوا بقبائل من العرب وهم الأَحابيش ، وبعثوا فغوَّروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم المياه التي تقرب من مكة ، فجاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل على بئر الحُدَيْبِيَة ، وحينئذ وضع سهمه في الماءِ فجرى غمراً حتى كفى الجيش ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى مكة عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، وبعث أَهل مكة إِليه رجالًا منهم عُرْوة بن مسعود ، وبُدَيل بن ورقاءَ ، وتوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم هنالك أَيَّاماً حتى سَفَر سهيل بن عمرو ، وبه انعقد الصلح على أَن ينصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ويعتمر من العام القابل ، فهذا كان صَدَّهم إِيَّاه ، وهو مستوعب في كتب السِّيَر فلذلك اختصرناه .

وقرأَ الجمهور : [وَٱلْهَدْيَ] بسكون الدال ، وقرأَ الأَعرج ، والحسن ابن أَبي الحسن : [وَٱلْهَدِيَّ] بكسر الدال وشدِّ الياءِ ، وهما لغتان ، وهو معطوف على الضمير في قوله تعالى : [وَصَدُّوكُمْ] ، أَي : وصدُّوا

الهدي ، و [مَعْكُوفاً] حال ، ومعناه : محبوساً ، تقول : عكفتُ الرجل عن حاجته إذا حبسته ، وقد قال أبو علي : إن «عكف» لا أعرفه متعدياً ، وحكى ابن سيدَة وغيره تَعَدِّيه ، وهذا العكْف الذي وقع للهدي كان من قِبَل المشركين بصدِّهم ، ومن قِبَل المسلمين لرويَّتهم وتصرفهم في أمرهم فحبسوا هديهم ، و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ يحتمل أن يعمل فيها الصَّدُّ ، كأنه تعالى قال : وصدُّوا الهدي كراهة أَنْ ، أو عَنْ أَنْ ، ويحتمل أن يعمل فيها العكف ، فيكون [أَنْ] مفعولًا من أجله ، أي الهَدْي المحبوس لأجل أن يبلغ محِلَّه ، وهذا هو حبس المسلمين ، وإلَّا فحبس المشركين ليس لأَجل أن يبلغ الهَدْي محِلَّه ، و [مَحِلَّه] : مكة والبيت .

وذكر الله تعالى العلَّة في أن صَرَفَ المسلمين ولم يمكنهم من دخول مكة في تلك الوجهة ، وهي أنه كان بمكة مؤمنون ، رجالٌ ونساءٌ ، خفي إيمانهم ، فلو استباح المسلمون بيضتها أهلكوا أُولئك المؤمنين ، قال قتادة : فدفع الله تعالى عن المشركين ببركة أُولئك المؤمنين ، وقد يدفع الله تعالى بالمؤمنين عن الكفار ، وقوله تعالى : ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للمذكورين ، وقوله تعالى : ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ يحتمل أن تكون بدلًا من [رِجالٌ] ، كأنه تعالى قال : ولولا قومٌ مؤمنون أن تطئوهم ،

أي : لَوْلَا وَطْؤُكُمْ قوماً مؤمنين ، فهي على هذا في موضع رفع ، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بدلًا من الضمير في قوله تعالى : ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ ، كأنه تعالى قال : لم تعلموا وطْأهم أنه وطْءُ مؤمنين ، والوطءُ هنا : الإهلاك بالسيف وغيره ، على وجه التشبيه ، ومنه قول الشاعر :

وَوَطِئْتَنَا وَطْأً عَلَى حنقٍ وَطْءَ الْمُقَيَّدِ نابِتَ الْهَرْمِ (١)

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (اللَّهم اشدد وطأتك على مُضَر) (٢) ،

---

(١) البيت في اللسان ، وقد نسبه إلى زُهَيْر ، وهو في الحقيقة للحارث بن وعْلَة الشيباني كما جاء في شرح القصائد السبع الطوال ، ورواية اللسان ــ هرم ــ : (يابِسَ الهَرْم) ، والوطأة : الأخْذة الشديدة ، وفي الحديث الشريف (اللّهم اشدد وطأتك على مضر) ، أي خُذْهم أخذة شديدة ، والحَنَق : شدة الاغتياظ ، والنَّابتُ : الغَضُّ الطري ، والهَرْم (بسكون الراء) : ضرب من الحمض فيه ملوحة ، وهو أذلّه وأشَدّه انبساطاً على الأرض ، واحدته : هَرْمة ، وهي التي يقال لها : حَيْهَلَة ، وفي المثل : أذَلُّ من هَرْمة ، يقول : لقد أخَذْتَنَا أخذة شديدة قاسية ، وكنت مغيظاً محنقاً ، وكنّا ضعافاً أذلّة كأننا البقلة الحقيرة التي تدوسها الأقدام على الأرض.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان والاستسقاء والجهاد والأنبياء وتفسير سورة النساء وفي الأدب ، وأخرجه مسلم في المساجد ، وأبو داود في الصلاة ، والنسائي في التطبيق ، وابن ماجه في الإقامة ، وأحمد في مسنده (٢ــ٢٣٩ ، ٢٥٥ ، ٢٧١ ، ٤١٨ ، ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) ، ولفظه في المسند ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : (لما رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من الركعة الآخرة من صلاة الصبح قال : اللّهم أنْجِ الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والمستضعفين بمكة ، اللّهم اشدد وطأتك على مُضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف) .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن آخر وطأة الرَّبِّ يوم وَجٍّ بالطائف)(١)؛ لأنها كانت آخر وقعة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ذكر هذا المعنى النقاش .

و «المَعَرَّة» : السوءُ والمكروه اللاصق ، مأْخوذ من العرِّ والعُرَّة وهو الجرب الصعب اللازم (٢). واختلف الناس في تفسير هذه المعرة ـ فقال ابن زيد : هي المأْثمُ ، وقال ابن إسحق : هي الدِّيَّة ، وهذان ضعيفان لأَنه لا إِثم ولا ديَّة في قتل مؤمن مستور الإِيمان من أَهل الحرب ، وقال الطبري ـ وحكاه الثعلبي ـ : هي الكفارة ، وقال مُنْذر : المَعَرَّة : أَن يعيبهم الكفار ويقولوا : قتلوا أَهل دينهم ، وقال بعض المفسرين :

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤-١٧٢ ، ٦-٤٠٩) ، عن يَعْلَى العامري أنه جاء حَسَنٌ وحُسَيْنٌ رضي الله عنهما يستبقان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضمهما إليه وقال: (إن الولد مَبْخَلَة مجبنة ، وإن آخر وطأةٍ وطئها الرحمن عزَّ وجلَّ بِوَجٍّ) ، وفي رواية عن خولة بنت حكيم أنه قال : (والله إنكم لَتُجَبِّنُون وتُبَخِّلُون ، وإنكم لمن ريحان الله عزَّ وجلَّ) ، والمعنى : إنكم لتحملون على الجُبْن والبُخْل ، يعني الأولاد ، فإن الأب يَجْبُن عن القتال ليعيش لأولاده فيربِّيهم ، وإنه ليبخل بإنفاق ماله ليخلِّفه لهم ، ورَيْحَانُ الله : رزقه وعطاؤه ، ووَجٌّ : مكان من الطائف ، يعني أن آخر وطأة أو أخذة أخذ الله بها الكفار كانت بِوَجٍّ ، وكانت غزوة الطائف هي آخر غزوات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ لم يغز بعدها إلا غزوة تبوك ، ولم يكن فيها قتال .

(٢) ومنه قول الشاعر :

قُلْ لِلْفوارِسِ من غُزَيَّةَ إنَّهُمْ ... عِنْدَ الْقِتَالِ مَعَرَّةُ الأَبْطَالِ

هي الملام والقول في ذلك وتألُّم النفس منه في باقي الزمان ، وهذه أقوالُ حسان ، وجواب [لَوْلَا] محذوف تقديره : لمكنّاكم من دخول مكة وأيّدناكم عليهم ، وقرأ الأعمش : «فَتَنَالَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ» .

واللام في قوله تعالى : [لِيُدْخِلَ] يحتمل أن تتعلَّق بمحذوف من القول تقديره : اولا هؤلاء لدخلتم مكة لكن شرَّفنا هؤلاء المؤمنين بأَن رحمناهم ودفعنا بسببهم عن مكة لِيُدْخِلَ اللهُ تعالى ، أي : ليبين للناظر أن الله يُدخل في رحمته من يشاءُ ، أو أي : لِيَقَع دخولهم في رحمة الله تعالى ودفعه عنهم ، ويحتمل أن يتعلق بالإيمان المتقدم الذكر ، فكأنه تعالى قال : ولولا قوم مؤمنون آمنوا لِيُدْخل الله في رحمته ، وهذا مذكور لكنه ضعيف ؛ لأَن قوله تعالى : ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ يضعف هذا التأْويل .

ثم قال تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي : لو ذهبوا عن مكة ، تقول : زَيَّلْتُ زيداً عن موضعه إزالةً ، أَي أذهبته ، وليس هذا الفعل من «زال يزول» ، وقد قيل : هو منه ، وقرأ أبو حيوة وقتادة : [تزَايَلُوا] بأَلف بعد الزَّاي ، أَي : ذهب هؤلاءِ عن هؤلاءِ وهؤلاءِ عن هؤلاءِ . وقوله تعالى : [مِنْهُمْ] لبيان الجنس إذا كان ضمير [تَزَيَّلُوا] خاصًّا بالمؤمنين أو بالكافرين ، وهي أيضاً لبيان الجنس إذا كان الضمير

في [تَزَيَّلُوا] للجميع من المؤمنين والكافرين ، قال النحاس : وقد قيل : إن قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾ الآية - يريد تعالى مَنْ في أَصلاب الكافرين ممن سيؤمن في غابر الدَّهر ، وحكاه الثعلبي والنقاش عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعاً .

والعامل في قوله تعالى : ﴿إِذْ جَعَلَ﴾ قوله تعالى : [لَعَذَّبْنَا] ، ويحتمل أَن يكون المعنى : واذكر إِذ جعل ، و «الحَمِيَّة» التي جعلوها هي حمية أَهل مكة في الصَّدِّ ، قال الزهري : وحميَّة سُهَيْل(١) ومن شاهد عقد الصلح في أَن منعوا أَن يُكْتب «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» ولجُّوا حتى كُتب «باسمك اللَّهم» ، وكذلك منعوا أَن يُكتب «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» ولجُّوا حتى قال صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه : «امْحُ ، واكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ...» الحديث ، وجعلها تعالى حميَّة الجاهلية لأَنها كانت بغير حُجَّة وفي غير موضعها ؛ لأَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو جاءَهم محارباً لعُذروا في حميَّتهم ، وإِنما جاءَ معظِّماً للبيت لا يريد حرباً ، فكانت حميَّتهم جاهلية صرفاً .

و «السَّكِينَةُ» هي الطمأْنينة إلى أَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثقة بوعد الله تعالى ، والطَّاعة وزوال الأَنفة التي لحقت عمر وغيره ،

---

(١) هو سُهَيْل بن عمرو الذي أَوْفَدَتْه قريش لعقد صلح الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم .

و « كَلِمَةُ ٱلتَّقْوَىٰ » قال الجمهور : « هي لا إلٰه إلّا الله » ، وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال عطاءُ بن أَبي رباح : هي « لَا إلٰه إلّا الله وحده لَا شريك لَهُ ، لَهُ الملك ولَهُ الْحمد ، وهو على كل شيءٍ قدير » ، وقال أَبو هريرة وعطاءُ الخراساني : هي « لَا إلٰه إلّا الله ، محمد رسول الله » ، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : هي « لَا إلٰه إلّا الله ، والله أَكبر » ، وحكاه الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وهذه كلها أَقوال متقاربة حسانٌ ؛ لأَن هذه الكلمة تقي النارَ ، فهي كلمة التقوى ، وقال الزهري عن المِسْور ، ومروان : كلمة التقوى المشار إليها هي : « بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » ، وهي التي أَباها كفار قريش فأَلزمها الله تعالى للمؤمنين وجعلهم أَحق بها ، و « لَا إلٰه إلّا الله » أَحق باسم « كلمة التقوى » من « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « وكانوا أَهلها وأَحق بها » ، والمعنى : وكانوا أَهلها على الإطلاق في علم الله تعالى وسابق قضائه سبحانه لهم ، وقيل : أَحقُّ بها من اليهود والنصارى في الدُّنيا ، وقيل : أَهلها في الآخرة بالثواب ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ إشارة إلى علمه تعالى بالمؤمنين الذين دفع عن كفار قريش بسببهم ، وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحُدَيْبِيَة ، فيروى أَنه لمَّا انعقد أَمِنَ الناسُ في تلك المدَّة الحربَ والفتنة ، وامتزجوا ، وعلَت دعوة الإسلام

وانْقاد إِليه كل من كان له فهم من العرب ، وزاد عدد المسلمين في تلك المدَّة أَضعاف ما كان قبل ذلك ، ويقتضي ذلك أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في عام الحُدَيْبِيَة في أَربع عشرة مائة ، ثم سار إِلى مكة بعد ذلك بعامين في عشرة آلاف فارس ، صلى الله عليه وسلم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ
مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ
أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ
وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ
وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ
سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

رُوي في تفسير هذه الآية أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأَى في منامه عند خروجه إِلى العُمْرة أَنه يطوف بالبيت هو وأَصحابه ،

بعضهم محلِّقون وبعضهم مقصِّرون ، وقال مجاهد : أُري ذلك بالحديبية ، فأَخبر الناس بهذه الرُّؤْيا ، ووثق الجميع بأَن ذلك يكون في وِجْهتهم تلك ، وقد كان سبق في علم الله تعالى أن ذلك يكون لكن ليس في تلك الوِجهة ، وروي أَن رؤْياه صلى الله عليه وسلم إنما كانت أن مَلَكاً جاءه فقال له : ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ ، وأَنه بهذا أَعلم الناس ، فلمَّا قضى الله تعالى بالصلح في الحديبية ، وأَخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصَّدْر (١) قال المنافقون : وأَيْن الرُّؤْيا ؟ ووقع في نفوس المسلمين شيءٌ من ذلك ، فأَنزل الله تعالى : ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ ، و «صَدَقَ» هذه تتعدَّى إلى مفعولين ، تقول : صدقتُ زيداً الحديثَ ، واللَّام في [لَتَدْخُلُنَّ] لام القَسَم الذي تقتضيه [صَدَقَ] ؛ لأَنها من قبيل : تَبَيَّنَ وتَحَقَّقَ ، ونحو هذا مما يعطي القَسَم .

واختلف الناسُ في معنى الاستثناءِ في هذه الآية - فقال بعض المتأَولين : هو استثناءٌ من المَلَك المُخْبر للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله ، فذكر الله تعالى مقالته كما وقعت ، وقال آخرون : هو أَخْذٌ

(١) في بعض النسخ : وأخذ الناس في الصَّدْر ، والصَّدْرُ هنا : الرجوع والعودة ، يقال : صَدَرَ عن المكان والورود صَدْراً وصَدَراً : رجع وانصرف .

من الله تعالى عبادَه بأَدبه في استعمال الاستثناءِ في كل فعل يوجب وقوعه ، كان ذلك مما يكون ولا بُدَّ ، أَو كان مما قد يكون وقد لا يكون ، وقال بعض العلماءِ : إنما استثنى من حيث كل واحد من النَّاس متى ردَّ هذا الوعد إلى نفسه أَمكن أَن يتم هذا الوعد فيه وأَلَّا يتم ، إذ قد يموت الإِنسان أَو يمرض أَو يغيب ، وكل واحد في ذاته محتاج إلى الاستثناء ، فلذلك استثنى عزَّ وجلَّ في الجملة إِذْ فيهم ولا بُدَّ من يموت ، وقال آخرون : استثنى لأَجل قوله تعالى : [آمِنِينَ] لَا لأَجل إعلامه بالدخول ، فكأَن الاستثناءَ مُؤَخَّر عن موضعه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولا فرق بين الاستثناءِ من أَجل الأَمن أَو من أَجل الدخول ؛ لأَن الله تبارك وتعالى قد أَخبر بهما ووقعت الثقة بالأَمرين ، فالاستثناءُ من أَيهما كان هو استثناءٌ من واجب .

وقال قوم : [إِنْ] بمعنى « إِذْ » ، فكأَنه تعالى قال : « إِذْ شَاءَ اللهُ » ، وهذا حسنٌ في معناه لكن كون « إِنْ » بمعنى « إِذْ » غير موجود في لسان العرب ، وللناس بعد في هذا الاستثناء أَقوالٌ مخلطة غير هذه لا طائل فيها اختصرتها ، وقرأَ ابن مسعود : « إِنْ شَاءَ ٱللهُ لَا تَخَافُونَ » بدل [آمِنِينَ] .

ولما نزلت هذه الآية علم المسلمون أن تلك الرُّؤيا ستخرج فيما يستأْنفونه من الزَّمان ، واطمأَنت قلوبهم بذلك وسكنت ، فخرجت في العام المقبل ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة في ذي القعده سنة سبع ، ودخلها ثلاثة أَيام هو وأَصحابه ، وصدقت رؤْياه .

وقوله تعالى : ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يريد ما قدَّره من ظهور الإسلام في تلك المدة ودخول الناس فيه ، وما كان أَيضاً بمكة من المؤمنين الذين دفع الله تعالى بهم (١) ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي : من قبل ذلك وفيما يدنو إليكم .

واختلف الناسُ في الفتح القريب – فقال كثير من الصحابة رضي الله عنهم : هو بيعة الرضوان ، ورُوي عن مجاهد وابن إسحق أنه الصلح مع الكفار بالحُدَيْبِيَة ، وقد رُوي أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أَوَ فَتْحٌ هو يا رسول الله ؟ قال : نعم ، وقال عبد الله بن زيد : الفتح القريب هو فتح مكة ، وهذا ضعيف لأَن فتح مكة لم يكن من دُون دخول النبي صلى الله عليه وسلم وأَصحابه مكة ، بل كان بعد ذلك بعام ، لأَن الفتح كان سنة ثمان من الهجرة ، ويحسن أَن يكون «الفتح» هنا اسم جنس يعُمُّ

---

(١) يريد أن الله تعالى دفع بهم عن أهل مكة من الكفار ، ولم يمكن المسلمين من دخول مكة رحمة بمن فيها من المؤمنين الذين لم يكونوا معروفين .

كل ما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم فيه ظهور وفتح عليه ، وقد حكى مكي في ترتيب أعوام هذه الأخبار عن قطرب قولًا خطأً جعل فيه الفتح سنة عشر ، وجعل حجَّ أبي بكر رضي الله عنه قبل الفتح ، وذلك كله تخليط وخوض فيما لم يتقنه معرفة .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ الآيةَ ... تعظيمٌ لأَمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإعلامٌ بـأَنه يظهر على جميع الأَديان ، ورأى بعض الناس [أن](١) لفظة [يُظْهِرُهُ] تقتضي محو غيره به فلذلك قالوا : إن هذا الخبر يظهر للوجود عند نزول عيسى بن مريم عليهما السلام ، فإنه لا يبقى في وقته دين إلَّا الإسلام ، وهذا قول الطبري والثعلبي ، ورأى قوم أَن الإظهار هو الإعلاء وإن بقي من الدين الآخر أَجزاءٌ ، وهو موجود الآن في دين الإسلام ، فإنه قد كان عمَّ أَكثر الأَرض وظهر على كل دين ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً ﴾ معناه : شاهداً ، وذلك يحتمل معنيين : أَحدهما : شاهداً عندكم بهذا الخبر ومُعْلِماً به ، والثاني : شاهداً على هؤلاءِ الكفار المنكرين أَمر محمد صلى الله عليه وسلم الرَّادِّين في صدره ، ومعاقباً لهم بحكم الشهادة ، فالآية – على هذا – وعيد للكفار الذين شاحُّوا(٢) في أَن يكتب « محمد

(١) ما بين العلامتين [....] زيادة لسلامة التعبير .

(٢) المُشَاحَّةُ هي المخاصمة والمماحكةُ ، وقد ظهر ذلك منهم حين رفضوا أن يكتبوا « محمد رسول الله » في عقد صلح الحديبية .

رسول الله» صلى الله عليه وسلم ، فردَّ الله تبارك وتعالى عليهم بهذه الآية كلهـا .

قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ ﴾ ، قال جمهور الناس : هو ابتداءٌ وخبر استوفى فيه تعظيم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ ﴾ ابتداءٌ وخبرُهُ [أَشِدَّاءُ] ، و [رُحَمَاءُ] خبر ثانٍ ، وقال قوم من المتأولين : [مُحَمَّدٌ] ابتداءٌ ، و ﴿ رَسُولُ ٱللهِ ﴾ صفةٌ له ، و [ٱلَّذِينَ] عطف عليه ، و [أَشِـدَّاءُ] خبر عن الجميع ، و [رُحَمَاءُ] خبر بعد خبر ، ففي القول الأول اختص النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه وهؤلاءِ بوصفهم ، وفي القول الثاني اشترك الجميع في الشِّدَّة والرَّحمة ، والأول عندي أرجح لأنه خبر مضادٌّ لقول الكفَّار : لَا نكتب «محمد رسول الله» ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ ﴾ إشارة إلى جميع الصَّحابة رضي الله عنهم عند الجمهور ، وحكى الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الإشارة إلى من شهد الحُدَيْبِيَة بـ ﴿ ٱلَّذِينَ مَعَهُ ﴾ ، و [أَشِدَّاءُ] جمع شديد أصله أَشْدِدَاءُ ، أُدغم لاجتماع المِثْلَيْن ، وقرأ الجمهور : [أَشِدَّاءُ] و [رُحَمَاءُ] بالرفع ، وروى قرة عن الحسن [أَشِدَّاءَ] و [رُحَمَاءَ] بنصبهما ، قال أبو حاتم : ذلك على الحـال ، والخبر [تَرَاهُمْ] ، قال أبو الفتح : وإن شئت نصبت [أَشِدَّاءَ] على المدح .

وقوله تعالى : ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ ، أي ترى هاتين الحالتين كثيراً فيهم ، و [يَبْتَغُونَ] معناه : يطلبون ، وقرأ عمرو بن عبيد : [وَرُضْوَاناً] بضم الراءِ ، وقوله تعالى : [سِيمَاهُمْ] معناه : علامتهم ، واختلف الناسُ في تعيين هذه السِّيما - فقال مالك بن أنس : كانت جباههم متربة من كثرة السُّجود في التراب ، كان يبقى على المسح أَثره ، وقال عكرمة ، وقال أَبو العالية : يسجدون على التراب لا على الأَثواب ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وخالد الحنفي ، وعطية : هو وعْدٌ بحالهم يوم القيامة من أَن الله تبارك وتعالى يجعل لهم نوراً من أَثر السجود .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

كما يجعل غُرَّةً من أَثر الوضوءِ ... الحديث (١) ، ويؤيد هذا التأْويل اتصال القول بقوله تعالى : ﴿فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً﴾ ، كأَنه تعالى قال : علامتهم في تحصيل الرضوان يوم القيامة سيماهم في وجوههم

(١) حديث غُرَّة الوضوءِ أخرجه البخاري في الوضوء ، ومسلم في الطهارة ، وأحمد في مسنده (٢-٣٣٤ ، ٣٦٢) ، ولفظه كما في البخاري ، عن نُعَيْم المُجَمِّر قال : رقيت مع أبي هريرة على ظهر المسجد فتوضأ فقال : إني سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إنَّ أُمَّتي يُدْعَوْنَ يومَ القيامة غُرّاً مُحَجَّلين من آثار الوضوءِ ، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّته فليفعل) .

من أَثر السجود ، ويحتمل أَن تكون السيما بدلًا من قوله : [فَضْلًا] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : السَّمْتُ الحسن هو السِّيما ، وهو خشوع يبدو على الوجه ، وهذه حالة مكثري الصلاة لأَنها تنهاهم عن الفحشاءِ والمنكر ، وتُقل الضَّحك ، وتردُّ النفس بحالة تخشع معها الأَعضاءُ ، وقال الحسن بن أَبي الحسن ، وشِمْرُ بن عطية (١): السِّيما بياض وصُفْرة وتهيج يعتري الوجوه من السهر ، وقال منصور : سأَلت مجاهداً : هل السيما هي الأَثر يكون بين عيني الرجل ؟ فقال : لا ، وقد تكون مثل ركبة البعير وهو أَقسى قلباً من الحجارة ، وقال عطاءُ بن أَبي رباح ، والربيع بن أَنس (٢) . السِّيما حُسْنٌ يعتري وجوه المصلِّين ، وذلك أَن الله تعالى يجعل لها في عين الرائي حُسْناً تابعاً للإجلال الذي في نفسه ، ومتى أَجلَّ الإنسان أَمْراً حَسُن عنده منظره ، ومن هذا الحديث الذي في الشهاب (من كثرت صلاته بالليل حَسُن وجْهُه بالنهار)(٣) ، وهو حديث غَلِط فيه ثابت بن موسى الزَّاهد ،

---

(١) هو شِمْرُ – بكسر أوله وسكون الميم – ابن عطية الأسدي ، الكاهلي ، الكوفي ، صدوق من السادسة . (تقريب التهذيب) . وهو مضبوط في كل من الطبري والقرطبي بفتح الشين وكسر الميم « شَمِر » .

(٢) هو الربيع بن أنس البكري أو الحنفي ، بصري ، نزل خراسان ، قال عنه في تقريب التهذيب : « صدوق ، له أوهام ، رُمي بالتشيع ، من الخامسة ، مات سنة أربعين أو قبلها » .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الإقامة (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) ، وقد ذكر المؤلف رأيه فيه .

سمع شَريك بن عبد الله (١) يقول: حدثنا الأَعمش ، عن أَبي سفيان ، عن جابر ، ثم نزع (٢) شَريك لما رأى ثابتاً الزَّاهد فقال يَعنيه : (من كثُرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار) ، فظن ثابت أَن هذا الكلام حديث متركب على السند المذكور فحدَّث به عن شَريك . وقرأَ الأَعرج : ﴿مِنْ إِثْرِ﴾ بسكون الثاءِ وكسر الهمزة ، قال أَبو حاتم : هما بمعنى ، وقرأَ قتادة : «﴿مِنْ آثَارِ﴾» جمعاً .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ الآية . المَثَل هنا : الوصف أَو الصِّفة ، وقال بعض المتأَولين : التقدير : الأَمر ذلك ، وتمَّ الكلام ، ثم قال تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ ، وقال مجاهد : المعنى : ذلك الوصف هو مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل ، وتم القول ، و [كَزَرْعٍ] ابتداءُ تمثيل يختص بالقرآن ، وقال الطبري ، وحكاه الضحاك : المعنى : ذلك المعنى هو وصفهم في التوراة ، وتم القول ، ثم ابتدأَ ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ وقال آخرون : المثلان جميعاً في التوراة وفي الإنجيل .

---

(١) هو شَريك ــ بفتح الشين ــ ابن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي ، القاضي بواسط ، ثم الكوفة ، أبو عبد الله ، صدوق ، عالم بالحديث ، فقيه ، اشتهر بقوة ذكائه وفطنته وسرعة بديهته ، استقضاه المنصور العباسي على الكوفة ثم عزله ، وأعاده المهدي ، وكان عادلا في قضائه فاضلاً عابداً ، شديداً على أهل البدع ، مات سنة سبع أو ثمان وسبعين .

(٢) أي : كفَّ عن الكلام وسكت .

وقوله تعالى : [كَزَرْعٍ] هو على كل الأقوال وفي أي كتاب منزّل فَرْضُ مَثَل للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في أن النبي صلى الله عليه وسلم بُعث وحده فكان كالزرع حبة واحدة ، ثم كثر المسلمون فهم كالشَّطْءِ وهم فراخ السُّنبلة التي تنبت حول الأصل ، يقال : أَشطأت الشجرة إذا أَخرجت غصونها ، وأَشطأَ الزَّرع إذا أخرج شطأَه (١) ، وقرأ ابن كثير ، وابن ذكوان : [شَطَأَهُ] بفتح الطَّاءِ والهمزة دون مدٍّ ، وقرأ الباقون بسكون الطَّاءِ ، وقرأ عيسى بن عمر : [شَطَاهُ] بفتح الطَّاءِ دون همز (٢) ، وقرأ أَبو جعفر : [شَطَهُ] ، رمَى بالهمزة وفتح الطَّاء ، ورُويت عن نافع ، وشيبة ، ورُوي عن عيسى [شَطَاءَهُ] بالمدِّ والهمزة ، وقرأ الجحدري : [شَطْوَهُ] بالواو ، وقال أبو الفتح : هي لغة ، أو بدل من الهمزة ، ولا يكون الشَّطْءُ إلّا في البُرِّ والشعير ، وهذه كلها لغات ، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) روت كتب اللغة أن مُعَقِّر بن حماد البارقي شامَت ابْنَتُه برْقاً — يعني رأت برقاً — فقالت : يا أبَه ، جاءتك السماءُ ، فقال لها : كيف تَرَيْنَها ؟ فقالت : كأنها عين جمل طريف — يعني أصابها شيءٌ فدمعت — ، فقال لها : ارعَي غُنَيْمَاتك ، فرعتْ مَلِيّاً ، ثم جاءته فقالت : يا أَبَه ، جاءتك السماءُ . فقال : كيف تَرَيْنَها ؟ فقالت : كأنها فرسٌ دهماءُ تَجُرُّ جلالَها — تعني أنها حمراءُ قد اسودَّت ، والجلالُ ما تُغَطّى به الدّابة لتصان ، والمفرد جلٌّ — فقال لها : ارعَي غُنَيْمَاتِك ، فرعت مَلِيّاً ، ثم جاءته فقالت : يا أَبَه ، جاءتك السماءُ ، فقال : كيف تَرَيْنَها ؟ فقالت : سَطَّحَتْ وابْيَضَّتْ — تعني : امتد سحابها وانتشر وأنها امتلأت بالماء — فقال : ادخلي غُنَيْمَاتِك ، فجاءت السماء بشيءٍ شَطَأَ له الزرعُ ، أي أخرج ورقه وسنابله .

(٢) قال في البحر : يحتمل أن يكون مقصوراً وأن يكون أصله الهمز ، فنقل الحركة وأبدل الهمزة ألفاً ، كما قالوا في المرأة والكَمْأَة : المَرَاةُ والكَمَاةُ ، وهو تخفيف مقيس عند الكوفيين ، وهو عند البصريين شاذٌّ لا يقاسُ عليه .

أَنه قال : «الزرع» النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، «فآزره» عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ، «فاستغلظ» بـأَبي بكر رضي الله عنه ، «فاسْتَوَى على سوقه» بعمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقوله تعالى : [فَآزَرَهُ] وزنه «أَفْعَلَه» ، قاله الحسن ، ورجَّحه أَبو علي ، وقرأَ ابن ذكوان وحده : [فَأَزَرَهُ] على وزن «فَعَلَهُ» دون مَدٍّ ، ولذلك كله معنيان : أَحدهما ساواهُ طولًا ، ومنه قول امرئ القيس :

بِمَحْنِيَّة قَدْ آزَرَ الضَّالَ نَبْتُهَـــا مَجَـرَّ جُيوشٍ غانِمينَ وخُيَّبِ (١)

أَي : هو موضع لم يُرْعَ نَبْتُه فكَمُل حتى ساوَى شجر الضَّال ، فالفاعل ــ على هذا المعنى ــ الشَّطْءُ ، والمعنى الثاني أَن يكون [آزَرَهُ] أَوْ [أَزَرَهُ] بمعنى أَعانه وقوَّاه ، مأْخوذ من الأَزْر وشدِّه ، فيحتمل أَن يكون الفاعل الشَّطْءُ ، ويحتمل أَن يكون الفاعل الزَّرعُ ؛ لأَن كل واحد منهما يُقَوِّي صاحبه ، وقال مجاهد (٢) وغيره : [آزَرَهُ] وزنه فاعَلَه ،

(١) هذا البيت من قصيدته المعروفة (خَلِيلَيَّ مُرَّا بي عَلَى أُمِّ جُنْدَب) ، المَحْنِيَّة : حَيْثُ ينحني الوادي وعادة يكون هذا المكان خصيباً ، وآزَرَ : سَاوَى ــ وهو الشَّاهد هنا ــ ، والضَّال : نوع من الشجر المعروف في الصحراء ، مَجَرَّ جيوش : أي أن هذه المحْنِيَّة هي موضع تمرُّ فيه الجيوش وهم ما بين غانمين أو خائبين ، ولذلك فإن أحداً لا ينزل بها ليرعى عشبها وخضرتها خوفاً من الجيوش ، ولهذا بقيت هذه البقعة خضراءَ يانعة ، قد ارتفع نبتها حتى ساوى شجر الضال ، والبيت مع أبيات قبله يصف ثوراً وحشيّاً يعيش في هذا المكان الخصيب الذي لم يرع نباته أحد .

(٢) في بعض النسخ : «وقال ابن مجاهد وغيره» : ، وما أثبتناه يوافق ما في البحر المحيط ، قال أبو حيان : «وقول مجاهد وغيره : (آزَرَهُ : فَاعَلَهُ) خطأٌ ؛ لأنه لم يسمع في مضارعه إلا يُؤْزِرُ على وزن يُكْرِمُ» .

والأَول أَصوب ، أَنَّ وزنه أَفْعَلَهُ ، ويدلُّ على ذلك قول الشاعر :

لَا مَالَ إِلَّا العِطَافُ تُؤْزِرُهُ أُمُّ ثَلاثين وابْنَةُ الْجَبَلِ (١)

وقرأَ ابن كثير : ﴿عَلَى سُؤْقِهِ﴾ بالهمز ، وهي لغة ضعيفة ، يهمزون الواو قبلها ضمَّة ، ومنه قول الشاعر :

لَحَبَّ المُؤْقِدَانِ إِلَيَّ مُؤْسَى . . . . (٢)

---

(١) البيت في اللسان – جبل وعطف – وقد ذكره غير منسوب وذكر معه أبياتاً أُخرى ، قال : أنشد أبو العباس ثعلب وغيره :

لا مَالَ إلاَّ العِطَافُ تُؤْزِرُهُ أُمُّ ثَلاثينَ وَابْنَةُ الْجَبَلِ
لا يَرْتَقِي النَّزُّ في ذَلاذِلِهِ وَلا يُعَرِّي نَعْلَيْهِ مِنْ بَلَلِ
عُصْرَتُهُ نُطْفَةٌ تَضَمَّنَهَا لِصْبٌ تَلَقَّى مَوَاقِعَ السُّبُلِ

والأبيات في وصف صُعْلوك ، يقول عنه : إنه لا يملك شيئاً إلا العطاف ، وأُمَّ ثلاثين ، وابنة الجبل ، أما العطاف فهو السيف ، سمِّي بذلك لأنه يُسَمَّى للأنسان رداءً ، والرداءُ هو العطاف وهو المعطف ، وأُمُّ الثلاثين هي الكنانة فيها ثلاثون سهماً ، وأما ابنة الجبل فهي قوسٌ من نبعة في جبَل ، وهو أصلبُ لعودها ، وفي البيتين التاليين يقول : انه لا يناله نزٌّ من الأرض لأنه يأوي إلى الجبال ، والعصرة : الملجأ ، والنطفة : الماءُ ، واللِّصْبُ : شق الجبل ، فهو يعيش في شق من الجبل .

والشاهد هنا أن قوله : « تُؤْزِرُهُ » في البيت دليل على أن وزن « آزَرَ » أفْعَلَ ، إذ « تُؤْزِرُ » هي المضارع ، فالماضي أفعل ، فهي مثل أكْرَمَ يُكْرِم ، ومن هنا يظهر خطأُ مجاهد في قوله : إن وزنها فاعَلَهُ .

(٢) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك ، والبيت بتمامه :

لَحَبَّ الْمُؤْقِدَانِ إليَّ مُؤْسَى وَجَعْدَةُ لَوْ أَضَاءَهُمَا الْوَقُودُ

وهو في اللسان والتاج والخصائص وسرّ الصناعة والمحتَسَب والطبري ومخطوطة أنساب الأشراف والكشاف ، وقد سبق الاستشهاد به أكثر من مرة على أن الواو قد تقلب همزة إجراءً لضمة ما قبلها مجرى ضمة نفسها ، وقد رُوي : أحبُّ المؤقدين ، ورواية الديوان : لَحَبَّ الواقدان ، ولكل رواية تخريجها ، وكان موسى وجعدة مشهورين بالسخاء وإيقاد النار للقِرَى ، =

و ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ جملة في موضع الحال ، فإذا أعجب الزُّرَّاعَ فهو أحرى أن يُعْجب غيرهم لأنه لا عيب فيه ؛ إذْ قَد أَعجب العارفين بالعيوب ، ولو كان معيباً لم يُعجبهم ، وهنا تمَّ المثلُ .

وقوله تعالى : ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ابتداءُ كلام قبله محذوف تقديره : جعلهم الله تعالى بهذه الصفة ليغيظ بهم الكفار ، و «الكُفَّارُ» هنا : المشركون ، قال الحسن : من غيظ الكفار قول عمر رضي الله عنه بمكة : «لَا عُبِدَ اللهُ عزَّ وجلَّ سرًّا بعد اليوم» ، وقوله تعالى : [مِنْهُمْ] هي لبيان الجنس وليست للتبعيض (١) ، لأَنه وعْدٌ مُرَجٍّ للجميع .

كمل تفسير سورة الفتح والحمد لله ربّ العالمين

= وحَبَّ فعل ماضٍ أصله حَبُبَ مثل كَرُمَ ، ومعناه: صار محبوباً ، واللام في «لَحَبَّ» جوابُ قسم محذوف ، وكان المفروض أن يقول : لقد حَبَّ الواقدان إليَّ إلاَّ أن القاعدة أن يقتصر في أفعال المدح على اللام بدون قد لعدم تصرفها ، وقد أجرى لَحَبَّ مجرى أفعال المدح ، فهو مثل : والله لنِعْمَ الرَّجلُ زيد ، والمُوْقدان هما موسى وجعدة ، والوقود — بفتح الواو — ما يوقد به من الحطب ، وبضم الواو مصدر بمعنى الإيقاد ، ومعنى البيت : لما أضاءَ إيقادُ النار موسى وجعدة ورأيتهما من ذوي الوضاءة والنور والبهجة صارا محبوبين لي .

(١) فهو مثل [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿فَاجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ﴾ ، إذ المعنى : فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، وكذلك المعنى هنا : من جنس الصحابة ، وقيل : إنَّ [من] في الآية هنا للتوكيد ، كقولك : قطعت من الثوب قميصاً ، أي : قطعت الثوب كله قميصاً ، وكقوله تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ ، لأن القرآن كله شفاءٌ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٤٩) سورة الحجرات مدنية
وآياتها ثماني عشرة

وهي مدنية بإجماع من أهل التأويل(١) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبي أيضاً: هي مدنية بإجماع ، وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت سورة الحجرات بالمدينة ، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير رضي الله عنهما مثله . (ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور ، والشوكاني في فتح القدير) .

كانت عادة العرب ـ وهي إلى الآن ـ الاشتراك في الآراء ، وأن يتكلم كلٌّ بما شاءَ ويفعل ما أَحبَّ ، فمشى بعض الناس ممن لم تتمرَّن نفسه مع النبي صلى الله عليه وسلم على بعض ذلك ، قال قتادة : فربما قال قوم : لو نزل كذا وكذا في معنى كذا ، ولو فعل الله كذا ، وينبغي أن يكون كذا ، وأيضاً فإن قوماً ذبحوا ضحاياهم قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، حكاه الحسن بن أَبي الحسن ، وقوماً فعلوا في بعض حروبه وغزواته شيئاً بآرائهم ، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك .

وحكى الثعلبي عن مسروق أنه قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها في يوم الشك ، فقالت للجارية : اسقه عسلًا ، فقلت : إنِّي صائم ، فقالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام هذا اليوم ، وفيه نزلت : ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، وقال ابن زيد : معنى ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ : لَا تمشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بين يدي العلماءِ فإنهم ورثة الأَنبياءِ ، وتقول العرب : تَقَدَّمْتُ في كذا وكذا وقَدَّمْتُ فيه إذا قلتَ فيه .

وقرأَ الجمهور من القراءِ : [تُقَدِّمُوا] بضم التاءِ وكسر الدال ، وقرأَ ابن عباس ، والضحاك ، ويعقوب ، بفتح التاءِ والدال على

معنى : لا تتقدَّموا ، وعلى هذا يجيءُ تأويل ابن زيد في المشي ، والمعنى على ضم التَّاء : بين يَدَيْ قول الله ورسوله .

ورُوي أَن سبب هذه الآية هو أَن وفد بني تميم لمَّا قدِم قال أَبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، لو أَمَّرْتَ الأَقرع بن حابس ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ، بل أَمِّر القعقاع ابن مَعْبد ، فقال أَبو بكر رضي الله عنه : ما أَردتَ إِلَّا خلافي ، ويروى : إِلى خلافي ، فقال عمر رضي الله عنه : ما أَردتُ خلافك ، وارتفعت أَصواتُهما ، فنزلت الآية في ذلك (١) ، وذهب بعض قائلي هذه المقالة

---

(١) روى ذلك البخاري في صحيحه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، ورواه أيضاً عن ابن أبي مُلَيْكَة ، قال : كاد الخَيِّران أن يَهْلِكَا ، أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، رفعا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ، قال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلاَّ خلافي ، قال : ما أردتُ خلافك ، فارتفعت أصواتهما في ذلك ، فأنزل الله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ الآية ، قال ابن الزبير : فما كان عُمر يُسْمِـع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، وذكر الواحدي هذا في « أسباب النزول » بسنده دون الجزء الأخير وهو قول ابن الزبير رضي الله عنهما ، وأورد السيوطي الحديث في الدر المنثور وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما .

وقد ذكر ابن عطية هنا أن أبا بكر أشار بإمارة الأقرع بن حابس ، وأن عمر أشار بإمارة القعقاع بن مَعْبد ، ولكن الرواية الثابتة في الدر المنثور ، وفي أسباب النزول أن العكس هو الصحيح ، وأن أبا بكر أشار بالقعقاع ، وعمر أشار بالأقرع ، وما في الطبري يوافق ما ذكره ابن عطية ، ورواية البخاري لم تحدِّد .

إلى أن قوله تعالى : ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ معناه : لا تُقدموا ولاة ، فهو من تقدم الأُمراءِ ، وعموم اللَّفظ أَحسن ، أَي : اجعلوه مبدأً في الأَقوال والأَفعال . و [سَميعٌ] معناه : لأَقوالكم ، و [عَليمٌ] معناه : بأَفعالكم ومقتضى أقوالكم .

وقوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية هي أَيضاً في ذلك الفن المتقدّم ، ورُوي أَنَّ سببها كلام أَبي بكر وعمر رضي الله عنهما المتقدم في أَمْر الأَقرع والقعقاع ، والصحيح أَنها نزلت بسبب عادة الأَعراب في الجفاءِ وعُلُوِّ الصوت والعُنْجهيَّة ، وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه مِمَّن في صوته جهارة ، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ اهْتَمَّ وخاف على نفسه وجلس في بيته لم يخرج وهو كئيب حزين ، حتى عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره ، فبعث إليه فآنسه وقال له : (امْش في الأَرض بَسْطاً فإِنَّك من أَهل الجنة)(١) ، وقال له مرَّة: (أَما ترضى أَن تعيش حميداً ،

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، رواه البخاري من حديث موسى بن أنس ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك عِلْمه ، فأتاه فوجده جالساً في بيته مُنكِّساً رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شرٌّ ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد حبط عملُه وهو من أهل النار ، (وهذا التفات من الحاضر إلى الغائب ، والأصل : كنتُ أرفع صوتي) ، فأتى الرجلُ النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا . فقال موسى : فرجع إليه المرة =

وتموت شهيداً) ، فعاش كذلك ثم قُتل رضي الله عنه باليمامة يوم مسيلمة (١). وفي قراءة ابن مسعود : «لَا تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ» بزيادة باءٍ . وقوله تعالى : ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي : كحال جهركم

= الأخيرة ببشارة عظيمة ، فقال: (اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة) ، ورواه مسلم من رواية حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن أنس بن مالك ، وأورده السيوطي في الدر المنثور ، وزاد نسبته إلى الإمام أحمد ، وأبي يعلى في معجم الصحابة ، والطبراني ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن أنس بن مالك .

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي ، يكنى أبا محمد ، وقيل : أبا عبد الرحمن ، قُتل له ثلاثة من أولاده يوم الحرَّة ، وهم : محمد ، ويحيى ، وعبد الله ، وكان خطيباً بليغاً معروفاً بذلك ، كان يقال له : خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقـال لحسان بن ثابت : شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد خطب يوم قدم وفْدُ بني تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة بليغة جزلة ، كما قال حسان بن ثابت قصيدة ردَّ بها على الأقرع بن حابس شاعر بني تميم ، فقال الرفد : خطيبهم أخطب من خطيبنا ، وشاعرهم أشعر من شاعرنا ، وفي يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة ، وفي اللقاء انكشف المسلمون فقال ثابت ومعه سالم مولى أبي حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حفر كل واحد منهم حفرة فثبتا وقاتلا حتى قُتلا ، وعلى ثابت يومئذ درْعٌ له نفيسة ، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذها ، وبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال له: أوصيك بوصية، فإيَّاك أن تقول : هذا حُلُم فتضيِّعه ، إني لمَّا قُتلت جاء رجل من المسلمين فأخذ درعي ، ومنزله في أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يَسْتَنُّ — يعدو إقبالا وإدباراً في طِوَله — والطِّوَلُ : الحبل الطويل يُشَدُّ أحد طرفيه في وتد والطرف الآخر في رجل الفرس — وقد كفأ على الدِّرع بُرْمة ، وفوق البُرْمة رحل ، فأتِ خالداً فمُره أن يبعث إلى درعي فيأخذها ، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعني أبا بكر رضي الله عنه — فقل له : إنَّ عليَّ من الدَّيْن كذا وكذا ، وفلان من رقيقي عتيق وفلان ، فأتى الرجل خالداً فأخبره فبعث إلى الدرع فأحضرها ، وحدَّث أبا بكر رضي الله عنه برؤياه فأجازها الصِّديق ، قيل : ولا نعلم أحداً أُجيزت وصيَّته بعد موته غير ثابت بن قيس رضي الله عنه . (راجع الاستيعاب ؛ والإصابة والدرِّ المنثور) .

في جفائه وكونه مخاطبة بالأَسماءِ والأَلقاب ، وكانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد ، قاله ابن عباس وغيره ، فأَمرهم الله تعالى بتوقيره وأَن يدعوه بالنبوَّة والرِّسالة والكلام اللَّيِّن ، فتلك حالة الموقِّر، وكره العلماءُ رفع الصوت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم وبحضرة العالم وفي المساجد ، وفي الجميع آثارٌ .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَحْبَطَ ﴾ مفعول من أَجله ، أَي مخافة أَن تحْبَط ، والحبط : الفساد في العمل بعد تقرُّره ، يقال : حبِط بكسر الباءِ ، وأَحبطه الله ، وهذا الحبْط إن كانت الآية مُعَرِّضة بمن يجهر استخفافاً واحتقاراً وجُرْأَةً فذلك كُفْر والحَبْطُ معه على حقيقته ، وإن كان التعريض للمؤمن الفاضل الذي يفعل ذلك غفلة وجرياً على طبعه فإنما يحبط عمله البر في توقير النبي صلى الله عليه وسلم وغَضِّ الصوت عنده إنْ لَوْ فعل ذلك ، كأَنه قال : مخافة أَن تحبط الأَعمال التي هي مُعَدَّةٌ أَن تعملوها فتؤْجروا عليها ، ويحتمل أَن يكون المعنى : أَن تأْثَمُوا ويكون ذلك سبباً إلى الوحشة في نفوسكم ، فلا تزال معتقداتكم تتدرَّج القهقرى حتى يؤول ذلك إلى الكفر فيُحْبِط الأَعمال حقيقة ، وظاهر الآية أَنها مخاطبة لفُضلاءِ المؤمنين الذين لا يفعلون ذلك احتقاراً ، وذلك أَنه لا يقال لمنافق يعمل ذلك جرأَة: « وأَنت لا تشعر » لأَنه ليس له عمل

يعتقده هو عملاً ، وفي قراءة عبد الله بن مسعود : « فَتَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ » .

ثم مدح تعالى الصنف المخالف لمن تقدَّم ذكره وهم الذين يَغُضُّون أَصواتهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وغضُّ الصوت : خَفْضُه وكَسْرُه ، وكذلك البصر ، ومنه قول جرير :

فَغُضَّ الطَّـــرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْـــرٍ . . . . (١)

ورُوي أن أَبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا بعد ذلك لا يكلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم إِلَّا كأَخي السِّرار(٢) ، وأَن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحتاج مع عمر رضي الله عنه بعد ذلك إِلَى استعادة اللَّفظ ؛ لأَنه كان لا يسمعه من إخفائه إِيَّاه (٣) .

---

(١) هذا صدر بيت قاله جرير يهجو الراعي النُّميري ، والبيت بتمامه :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْـرٍ فلا كَعْباً بَلَغْتَ وَلا كِـــلاباً

وهو من قصيدته البائية التي بدأها بقوله :

أَقِلِّي اللَّوْمَ عاذِلَ والعِتَـــابَا وَقُولي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصابَـــا

والبيت في الديوان ، والكتاب لسيبويه ، والعيني ، وابن يعيش ، والهمع ، والأشموني ، وشرح شواهد الشافية ، والتصريح ، وفي الكامل للمبرد : (فَغُضِّ) بكسر الضاد ، وفي الخزانة : فَغُضَّ بالفتح والكسر والضم ، والنحويون يستشهدون به على جواز الفتح في (غُضَّ) المضعف لالتقاء الساكنيْن ، وقد قيل : هو أهجى بيت قالته العرب .

(٢) ذكره الواحدي في (أسباب النزول) ، وأخرجه البزار ، وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبي بكر رضي الله عنه ، وأخرجه الحاكم ، والبيهقي في (المدخل) من حديث أبي هريرة وقال : صحيح على شرط مسلم .

(٣) جاء ذلك في حديث ابن أبي مُلَيْكَة الذي رواه البخاري وذكرناه قبل ذلك ، وفيه أن =

و [ٱمْتَحَنَ] معناه : اختبر وطهَّر كما يُمتحن الذهب بالنار ، فيسَّرها وهيَّأَها للتقوى ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : امْتحن للتقوى : أَذهب عنها الشَّهوات .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

من غَلَب شهوته وغضبه فذلك الذي امتحن الله تعالى قلبه للتقوى ، وبذلك تكون الاستقامة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾

= ابن الزبير رضي الله عنهما قال : « فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه » ، وفي الخبر أنه لم يذكر ذلك عن جده أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين ، راجع صفحة (٤٨٣) من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ نزل في وفد بني تميم ، حيث كان الأَقرع بن حابس ، والزبرقان ابن بدر ، وعمرو بن الأَهتم ، وغيرهم ، وذلك أَنهم وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلوا المسجد ودنَوْا من حجر أَزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي تسع ، فعجِلوا ونادَوْا ولم ينتظروا ، ونادوا بجملتهم : يا محمد اخرج إلينا ، يا محمد اخرج إلينا ، فكان في فعلهم ذلك جفاءٌ وبداوة وقلَّة توقير ، فتربَّص رسول الله صلى الله عليه وسلم مدَّة ثم خرج إليهم ، فقال له الأَقرع بن حابس : يا محمد ، إنَّ مدحي زيْن ، وذَمِّي شيْن ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (ويلك ذلك الله تعالى) ، واجتمع الناس في المسجد ، فقام خطيبهم فخطب وفخر ، فأَمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه فخطب وذكر الله تعالى والإسلام وأَرْبى على خطيبهم ، ثم قام شاعرهم فأَنشد مفتخراً ، فقام حسَّان بن ثابت رضي الله عنه ففخر بالله تعالى وبالرسول صلى الله عليه وسلم وبالبسالة فكان أَشعر من شاعرهم ، فقال بعضهم لبعض : والله إنَّ هذا الرجل لَمُؤَتَّى له ، لخطيبه أَخطب من خطيبنا ، ولشاعره أَشعر من شاعرنا ، ثم نزلت فيهم هذه الآية (١).

---

(١) ذكره الواحدي النيسابوري في (أسباب النزول) ، وهو خبر طويل ، وذكره ابن إسحق في السيرة ، وقد أورد خطبة ثابت بن قيس في الردّ على خطيب بني تميم وهو عطارد =

هذا تلخيص ما تظاهرت به الروايات في هذه الآية ، وقد رواه موسى بن عقبة عن أَبي سلمة عن الأَقرع بن حابس ، وفي مصحف ابن مسعود : «أَكْثَرُهُم بَنُو تَمِيم لَا يَعْقِلُونَ» .

و «الْحُجُرَات» جمع حجرة ، وقرأ الجمهور من القرَّاءِ : [ٱلْحُجُرَاتِ] بضم الحاءِ والجيم ، وقرأ أَبو جعفر القارئ وحده : [ٱلْحُجَرَاتِ] بفتح الحاءِ والجيم . وقوله تعالى : ﴿لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ يعني في الثواب عند الله تعالى ، وفي انبساط نفس النبي صلى الله عليه وسلم لهم وقضائه لحوائجهم وَوُدِّه لهم ، وذلك كله خير ، ولا محالة أَن بعضه انزوى بسبب جفائهم . وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ترجيةٌ لهم وإعلامٌ بقبوله توبة التائب ، وغفرانه ورحمته لمن أَناب ورجع .

= ابن حاجب ، وأورد شعر الزبرقان بن بدر شاعر بني تميم ، وشعر حسّان بن ثابت في الردّ عليه ، ومن شعر الزبرقان قوله :

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلا حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... مِنَّا الْمُلُوكُ وفِينَا تُنْصَبُ البِيَعُ
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الأحْيَاءِ كُلِّهِمِ ... عِنْدَ النِّهَابِ وَفَضْلُ العِزِّ يُتَّبَعُ

ومن شعر حسّان قوله :

أَكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللهِ شِيعَتُهُمْ ... إذا تَفَاوَتَتِ الأهْوَاءُ والشِّيَعُ
أَهْدَى لَهُمْ مِدْحَتِي قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ ... فيما أُحِبُّ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ
فَإنَّهُمْ أَفْضَلُ الأحْيَاءِ كُلِّهِمِ ... إنْ جَدَّ بالنَّاسِ جِدُّ القَوْلِ أوْ شَمَعُوا

والصَّنَع هو الذي يُحْسِن القول ويُجيده ، ومعنى «شَمَعُوا» : هَزَلُوا ، وأصل الشَّمع : الطَّرَبُ واللَّهْوُ ، أما قول الأقرع بن حابس : إن هذا الرَّجُلَ لَمُؤَتّىً لَهُ فمعناه : لَمُوَفَّق له .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ الآية .

سببها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط إلى بني المصطلق مُصَدِّقاً (١) ، فروي أنه كان معادياً لهم فأراد إذايتهم ، فرجع من بعض طريقه وكذب عليهم – قاله الضحاك – وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنهم قد منعوا الصدقة وطردوني وارتدوا ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وهمَّ بغزوهم ونظر في ذلك ، وبعث خالد بن الوليد إليهم ، فورد وفدهم منكرين لذلك (٢) ، وروي عن أُمِّ سَلَمة وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أَنَّ الوليد بن عقبة لمَّا قرب منهم خرجوا إليه متلقين له ، فرآهم على بُعْد ففزع منهم وظن بهم الشَّرَّ وانصرف فقال ما ذكرناه (٣) ، وروي أنه لمَّا قرب منهم بلغه عنهم أنهم قالوا : لا نعطيه الصدقة ولا نعطيه ، فعمل على صحَّة

(١) المُصَدِّقُ : العاملُ الذي يجبي الصدقات .

(٢) أخرجه أحمد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن منده ، وابن مردويه ، بسند جيِّد عن الحارث بن ضرار الخزاعي ، وأخرج مثله الطبراني ، وابن منده ، وابن مردويه ، عن علقمة بن ناجية ، وأخرجه الطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله ، مع اختلاف في الألفـــاظ .

(٣) أخرجه ابن راهويه ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن أُمِّ سَلَمة رضي الله عنها ، وأخرجه ابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، وابن عساكر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور) .

هذا الخبر وانصرف فقال ما ذكرناه ، فنزلت الآية بهذا السبب ، والوليد ـ على ما ذَكَرَ مجاهد وقتادة ـ هو المشار إليه بالفاسق ، وحكى الزهراوي : قالت أُمُّ سَلَمة : هو الوليد بن عُقبة ثم هي باقية فيمن اتصف بهذه الصفة غابر الدَّهر . و « الفِسْقُ » : الخروج عن نهج الحق ، وهو مراتب متباينة كلها مظنَّة للكذب وموضع تَثَبُّت وتَبَيُّن ، وتأنَّس القائلون بقبول خبر الواحد بما يقتضيه دليل خطاب هذه الآية ؛ لأَنه يقتضي أَن غير الفاسق إذا جاءَ بنبإٍ أَن يعمل بحسبه ، وهذا ليس باستدلال قوي ، وليس هذا موضع الكلام على مسأَلة خبر الواحد .

وقرأَ الجمهور من القراءِ : [فَتَبَيَّنُوا] من التَّبَيُّن ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، والحسن ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش ، وعيسى : [فَتَثَبَّتُوا] من التَّثَبُّت . و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ مفعول من أَجله ، كأَنه تعالى قال : مخافة أَن تصيبوا ، وقال قتادة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما نزلت هذه الآية : (التَّثَبُّت من الله والعجلة من الشيطان) (١) ، قال منذر بن سعيد : هذه الآية تردُّ

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن قتادة ، وهو جزءُ في آخر الحديث الذي رواه قتادة عن إرســال النبي صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ، واللفظ =

على من قال إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحة لأن الله تعالى أَمر بالتَّبَيُّن قبل القبول(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقوله يقتضي أن المجهول الحال يخشى أن يكون فاسقاً ، والاحتياط لازم . قال النقاش : وقوله تعالى : [فَتَبَيَّنُوا] أبلغ من [تَثَبَّتُوا] ؛ لأنه قد يَتَثَبَّت من لا يَتَبَيَّن .

وقوله تعالى : ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ توبيخ للكذبة ووعيدٌ بالفضيحة ، أي : فليفكِّر الكاذب في أن الله تعالى يفضحه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ ، أي لشقيتم وهلكتم ، والعَنَتُ : المشقَّة ، أي : لو يُطيعكم أيها المؤمنون في كثير مما ترونه باجتهادكم وتقدمكم بين يديه ،

= المذكور في الدُّرّ المنثور : (التأنّي من الله والعجلة من الشيطان) ، وذكره السيوطي في الجامع الصغير من رواية البيهقي في شعب الإيمان عن أنس رضي الله عنه ، ثم رمز له بأنه ضعيف .

(١) إذ لا معنى للتثبُّت بعد إنفاذ الحكم ، فإن حكم الحاكم قبل التَّثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة وهو ما نصّت عليه الآية الكريمة ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ . ثمّ إنّ الله تبارك وتعالى لم يأمر بالتَّبَيُّن إلاّ عند مجيء الفاسق لا مجيء المسلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ ﴾ الآية ، كأنه تعالى قال : ولكن أنعم بكذا وكذا ، وفي ذلك كفاية وأمْرٌ لا تقومون بشكره ، فلا تتقدَّموا في الأُمور واقنعوا بإنعام الله تعالى عليكم ، وحبَّب الله تبارك وتعالى الإيمان وزيَّنه بأن خلق في قلوب المؤمنين حُبَّه وحَسَّنه ، وكذلك تكْريهُ الكفر والفسوق والعصيان ، وحكى الرُّمَّاني عن الحسن أنه حبَّب الإيمان بما وصف من الثواب عليه ، وكرَّه الثلاثة المقابلة للإيمان بما وصف من العقاب عليها ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ ٱلرَّاشِدُونَ ﴾ رجوعٌ من الخطاب إلى ذكر الغيبة ، كأنه تعالى قال : ومن فعل هذا معه وقَبِلَه وشكَر عليه فأُولَئِك هم الرَّاشدون .

وقوله تعالى : ﴿ فَضْلًا مِنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ مصدر مؤكد بنفسه لأن ما قَبْلَه هُوَ بمعناه ؛ إذ التَّحبيب والتَّزيين هو نفس الفضل ، وقد يجيءُ المصدر مؤكّداً لما قبْلَه إذا لم يكن هو نفس ما قَبْله ، كقـولك : جـاءَ زيد حقًّا ونحوه ، وكان قتـادة رحمه الله تعالى يقول : قد قال تعالى لأَصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ ، وأَنتم والله أَسخف رأْياً وأَطيش أَحـلاماً ، فلْيَتَّهم رجلٌ نفسه ولْيَنْتَصح كتابَ الله تبارك وتعالى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

[طَائِفَتَانِ] مرفوع بإضمار فعل ، والطَّائفة : الجماعة ، وقد تقع على الواحد ، واحْتُجَّ لذلك بقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَة مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾(١) ، ورأى بعض الناس أنه يُجزي أن يشهد حدَّ الزناة واحد ، فهذه الآية الحكم فيها في الأفراد وفي الجماعات واحد .

واختلف الناس في سبب هذه الآية ـ فقال أنس بن مالك والجمهور : سببها ما وقع بين المسلمين وبين المتحزِّبين منهم أيضاً مع عبد الله بن أُبَيِّ بن سَلُول حين مرَّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متجه لزيارة سعد ابن عبادة رضي الله عنه في مرضه ، فقال عبد الله بن أُبَيٍّ لما غَشيَه حمار رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تُغَبِّرُوا علينا ، ولقد آذانا نَتَنُ حمارك ، فردَّ عليه عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الحديث بطوله... فتلاحى الناسُ حتى وقع بينهم ضربٌ بالجريد ، ويروى بالحديد (٢) .

(١) من الآية (١٢٢) من سورة (التوبة) .

(٢) حديث أنس رضي الله عنه أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وذكره الواحدي في (أسباب النزول) بسنده عن معتمر بن سليمان عن أبيه ، ونقله عنه القرطبي ، وذكره =

وقال أَبو مالك ، والحسن : سببها أَنَّ فرقتين من الأَنصار وقع بينهما قتال فأَصلحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جهد ونزلت الآية في ذلك .

وقال السُّدِّي : كانت بالمدينة امرأَة من الأَنصار يقال لها : أُمُّ بَدْرٍ (١) ، وكان لها زوج من غيرهم ، فوقع بينهما شيءٌ أَوجب أَن يأْنف لها قومها وله قومه ، فوقع قتال نزلت الآية بسببه(٢) .

= السيوطي في (الدُّرّ المنثور) ،وزاد نسبته إلى الإمام أحمد ، وابن جرير الطبري ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، وليس فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ على ابن سلول وهو ذاهب إلى زيارة سعد بن عبادة ، بل فيه أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيتَ عبد الله بن أُبَيٍّ ، فانطلق وركب حماراً ، وانطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سَبِخَة ، فلما انطلق إليهم قال : إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجال من قومه ، وغضب لكل منهما أصحابه ، فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنعال ، فأُنزل فيهم : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ . أما حديث زيارة سعد بن عبادة فقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أُسامة بن زيد رضي الله عنه ، وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يعود سعد بن عبادة ، فمرَّ بمجلس فيهم عبد الله بن أُبَيٍّ وعبد الله بن رواحة ، فخمَّر ابن أُبَيٍّ وجهه بردائه ، وقال : لا تُغَبِّرُوا علينا ... الخ الحديث وهو طويل ، وقد ذكره أبو الفرج البغدادي بطوله في كتابه « المغني » .

(١) في جميع كتب التفسير والحديث « أُمّ زيد » .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري ، وابن أبي حاتم عن السدي ، قال : كان رجل من الأنصار يقال له عمران ، تحته امرأة يقال لها أُمّ زيد ، وأنها أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية لا يدخل عليها أحد من أهلها ، وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها فأنزلوها =

و [بَغَتْ] معناه : طلبت العُلُوَّ بغير الحق ، ومدافعةُ الفئة الباغية تتوجَّه في كل حال ، وأَمَّا التَّهيُّؤ لقتالها فمع الوُلَاة ، وقيل لعليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه : أَمُشْركون هم أَهل صفين والجمل ؟ قال : لا ، من الشِّرك فرُّوا ، قيل : أَفَمُنَافقون ؟ قال : لا ، لأَن المنافقين لا يذكرون الله إِلَّا قليلا ، قيل : فما حالهم ؟ قال : إِخواننا بغوا علينا ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (حكم الله تعالى في الفئة الباغيـة أَلَّا يُجهـز على جريح ، ولا يُطلب هارب ، ولا يُقتل أَسير) (١) . و [تَفِـيءَ] معناه : ترجـع ، و «الإِقساط» : الحكم بالعـدل .

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ، يريد تعالى أُخوة الدين ، وقرأَ الجمهور من القراءِ : ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وذلك رعاية لحال أَقل

= لينطلقوا بها ، وكان الرجل قد خرج ، فاستعان أهل الرجل فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها ، فتدافعوا وتجادلوا بالنعال ، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا﴾ ، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهم وفاؤوا إلى أمر الله . (الدر المنثور) .

(١) ذكر القرطبي هذا الحديث ، قال : «وقال ابن عمر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يا عبد الله ، أتدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة) ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فقال : (لا يُجْهز على جريحها ، ولا يُقْتل أسيرها ، ولا يُطْلب هاربها ، ولا يُقْسم فيئُها) .» .

عدد يقع فيه القتال والتشاجر ، والجماعة متى قصدوا الإصلاح فإنما هو بين رجلين رجلين ، وقرأ ابن عامر ، والحسن - بخلاف عنه - : ﴿ بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ ﴾ ، وقرأ ابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وابن سيرين ، والحسن ، وعاصم الجحدري ، وثابت البناني ، وحماد بن سلمة : ﴿ بَيْنَ إِخْوَانِكُمْ ﴾ ، وهي حسنة لأن الأكثر من جمع الأخ في الدين ونحوه من غير النسب إخوان ، والأكثر من النسب إِخْوَةٌ وآخَاءٌ ، قال الشاعر :

وَجَدْتُمْ أَخاكُمْ بَيْنَنَا إِذْ نُسِبْتُمُ ... وأَيُّ بني الآخَاءِ تَنْبُو مَنَاسِبُهْ ؟ (١)

وقد تتداخل هذه الجموع ، وكلها في كتاب الله تعالى ، فمنه ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، ومنه ﴿ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ﴾ (٢) ، فهذا جاء على الأقل في الاستعمال .

---

(١) البيت في اللسان والتاج غير منسوب ، وإنما قالا : « وأنشد أبو علي » ، قال صاحب اللسان : « ويدلُّ على أن أَخاً فَعَلٌ مفتوحة العين جَمْعُهم إيَّاها على أفعال نحو آخاءٍ ، حكاه سيبويه عن يونس ، وأنشد أبو علي : وجدتم بينكم دوننا ... البيت » ، ففي روايته : « بينكم دوننا » بدلاً من « أخاكم بيننا » ، وفي الصحاح أن الأخ أصلُه أَخَوٌ بالتحريك ، قال : « لأنه جمع على آخاءٍ مثل آباءٍ ، والذاهب منه واوٌ لأنك تقول : أَخوان » .

(٢) من الآية (٦١) من سورة (النور) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

هذه الآية والتي بعدها نزلت في خُلُق أهل الجاهلية ، وذلك لأنهم كانوا يجرون مع شهوات نفوسهم ، لم يُقَوِّمْهُم أَمْرٌ من الله تعالى ولا نَهْي ، فكان الرجل يسخر ويلمز ويهمز وينبز بالألقاب ويظن الظنون فيتكلَّم بها ويغتاب ويفتخر إلى غير ذلك من أخلاق النفوس الباطلة ، فنزلت هذه الآية تأْديباً لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وذكر بعض الناس لهذه الآيات أسباباً ، فمِمَّا قيل : إن هذه الآية ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ نزلت بسبب عكرمة بن أَبي جهل ، وذلك أنه كان يمشي بالمدينة مسلحاً ، فقال له قوم : هذا ابن فرعون هذه الأُمة ، فعزَّ عليه ذلك وشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

والقويُّ عندي أَن هذه الآيات نزلت تقويماً لسائر الخلق ، ولو تتبعت الأَسباب لكانت أَكثر من أَن تُحصى .

و [يَسْخَرْ] معناه : يستهزئ ، والهُزْءُ إنما يترتب متى ضعف امرؤٌ إمَّا لصغر وإمَّا لعلَّة حادثة أَو لرزِيَّة أَو لنقيصة يأْتيها ، فيُنْهى المؤمنون عن الاستهزاءِ في هذه الأُمور وغيرها نهياً عامًّا ، فقد يكون ذلك المُسْتَهْزَأُ به خيراً من الساخر . و « القوم » في كلام العرب واقع على الذُّكران ، وهو من أَسماءِ الجمع كالرَّهط ، وقول من قال إنه من القيام أَو جمع قائم ضعيف ، ومن هذا قول الشاعر وهو زهير :

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَـالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَـاءُ ؟ (١)

وهذه الآية تقتضي اختصاص القوم بالذُّكران ، وقد يكون مع الذُّكران نساءٌ فيقال لهم : « قَوْمٌ » على تغليب حال الذكور ، ثم نهى الله تعالى النساءَ عمَّا نهى عنه الرجال من ذلك ، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب ، وابن مسعود : « عَسَوْ أَنْ يكونوا » و « عَسَيْنَ أَنْ يَكُنَّ » .

---

(١) قال زهير هذا البيت من قصيدة يهجو بها بني عُلَيب ، وهم آل بيت من كلب لأن رجلا قد شكاهم إليه ، ثم علم أنه ظلمهم فندم على ذلك ، وقد أراد بالقوم هنا الرجال دون النساء ، وهذا موضع الاستشهاد بالبيت ، وقوله : « وسوف إخال أدرى » معناه : سأبحث عن حقيقة حالهم ، وهذا هُزْءٌ بهم وتوعُّد لهم ، وقد استشهد صاحب اللسان بالبيت على أن « القوم » هم الرجال لا النساء .

و [تَلْمِزُوا] معناه : يطعن بعضكم على بعض بذكر النقائص ونحوه ، وقد يكون « اللَّمْزُ » بالقول وبالإشارة ونحو هذا مما يفهمه الآخر ، و « الهَمْزُ » لا يكون إلَّا باللِّسان ، وهو مشبَّه بالهمز بالعود ونحوه مما يقتضي المُمَاسَّة ، قال الشاعر :

وَمَنْ هَمَزْنَا عِزَّهُ تَبَرْكَعَا (١)

وقيل لأعرابي : أتهمز الفأْرة ؟ فقال : الهِرُّ يهمزها ، وحكى الثعلبي أَن « اللَّمْزَ » ما كان في المَشْهد ، وأَن « الهَمْزَ » ما كان في المغيب ، وحكى الزهراوي عن علي بن سليمان عكس ذلك ، فقال : الهمزُ أَن تعيب بالحضرة واللَّمز في الغيبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾(٢) ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ في

---

(١) البيت لرؤبة بن العجاج ، وهو من قصيدة قالها يمدح تميماً ، وقد ذكره في اللسان مع بيت بعده باللفظ الذي ذكره ابن عطية هنا ، ولكنه في الديوان مختلف عن ذلك ، أما في اللسان فالبيتان هما :

وَمَنْ هَمَزْنَا عِزَّهُ تَبَرْكَعَا عَلَى اسْتِهِ زَوْبَعَةً أَوْ زَوْبَعَا

ومعنى تَبَرْكَعَ : صُرِعَ فوقع على اسْتِهِ ، وأما في الديوان فالرواية :

وَمَنْ هَمَزْنَا رَأْسَهُ تَلَعْلَعَا وَمَنْ أَبَحْنَا عِزَّه تَبَرْكَعَا

عَلَى اسْتِهِ رَوْبَعَةً أَوْ رَوْبَعَا

والهَمْزُ هو الدفع والضرب ــ والبيت شاهد على هذا المعنى في اللسان ــ ، وتَلَعْلَع : ضَعُفَ من المرض أو التعب .

(٢) الآية (١) من سورة (الهُمَزَة) .

ٱلصَّدَقَاتِ ﴾(١) ، وقرأ الجمهور : [تَلْمِزُوا] بكسر الميم ، وقرأ الأعرج والحسن بضمها ، قال أبو عمرو بن العلاء : هي عربية ، وقال أبو حاتم : قراءتنا بالضم وأحياناً بالكسر ، وقوله تعالى : [أَنْفُسَكُمْ] معناه : بعضكم بعضاً ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾(٢) ، كأن المؤمنين كنفس واحدة إذ هم إخوة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كالجسد إذا اشتكى منه عُضْوٌ تداعى سائره بالسَّهر والحُمَّى)(٣) ، وهم كما قال أيضاً : (كالبُنْيان يشُدُّ بعضُه بعضاً)(٤) .

و «التَّنَابز» : التَّلَقُّب ، والنَّبَزُ واللَّقَبُ واحد ، إذ اللَّقب هو ما يُعْرف به الإنسان من الأسماءِ التي يكره سماعها ، ورُوي أن بني سلمة كانوا قد كثرت فيهم الألقاب ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلًا منهم فقال له : يا فلان ، فقيل له : إنه يغضب من هذا

---

(١) من الآية (٥٨) من سورة (التوبة) .

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (النساء) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والإمام مسلم في صحيحه ، عن النعمان بن بشير ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بالصحة ، ولفظه فيه : (مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى) .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، والترمذي ، والنسائي في صحيحيهما ، عن أبي موسى رضي الله عنه ، وذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير ورمز له بالصحة ، كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤-١٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩) .

الاسم ، ثم دعا آخر كذلك ، فنزلت الآية في هذا (١)، وليس من هذا قول المحدِّثين : سليمان الأَعمش ، وواصل الأَحدب (٢). ونحوه مما تدعو الضرورة إليه وليس فيه قصد استخفاف ولا أَذى ، وقد قال عبد الله بن مسعود لِعَلْقَمَة : أَو تقول أَنت ذلك يا أَعور (٣)؟ وأَسند النقاشُ إلى عطاءٍ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كفُّوا أَولادكم) ، قال عطاءٌ ، مخافة الأَلقاب ، وقال ابن زيد : معنى ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أَي : لا يقل أَحدٌ لآخر : يا يهودي بعد إسلامه ، ولا «يا فاسق» بعد توبته ، ونحو هذا ، وحكى النقاش أَن كعب بن مالك ،

---

(١) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبغوي في معجمه ، وابن حبان ، والشيرازي في الألقاب ، والطبري ، وابن السني في عمل اليوم والليلة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي جبيرة بن الضحاك رضي الله عنه ، قال : فينا نزلت ، في بني سَلَمة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فيها رجل إلاّ وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله ، إنه يكره هذا الاسم ، فأنزل الله ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ . (الدر المنثور) .

(٢) أما الأعمش فهو سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي ، أبو محمد ، الكوفي ، الأعمش ، ثقة حافظ ، عارف بالقراءة ، ورع ، قال عنه الحافظ بن حجر : لكنه يُدَلِّس ، مات سنة سبع وأربعين أو ثمان وأربعين . وأما الأحدب فهو واصل بن حيان الأحدب ، الأسدي الكوفي ، ثقة ثبت ، مات سنة عشرين ومائة ، قال العلماء : ليس هذا من التنابز بالألقاب لأنه أُريد به الصفة ولم يُرد به العيب ، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس قال : رأيْت الأصْلَع يُقَبِّل الحجر ، وفي رواية : الأُصَيْلِعَ ، يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٤) في الصحابة عدد كبير ممن اسمه علقمة ، ولا ندري من المقصود منهم .

وابن أبي حَدْرَدٍ تَلَاحَيَا (١) ، فقال له كعب : يا أعرابي ، يريد أن يُبعده من الهجرة ، فقال له الآخر : يا يهودي ؛ لمخالطة الأنصار اليهود في يثرب ، فنزلت الآية .

وقوله تعالى : ﴿بِئْسَ ٱلاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما فبئس اسم تكتسبونه بعصيانكم ونبزكم بالألْقاب فتكونون فُسَّاقاً بالمعصية بعد إيمانكم ، والثاني بئس ما يقول الرجل لأخيه يا فاسق بعد إيمانه ، وقال الرُّمَّاني : هذه الآية تدل على أنه لا يجتمع الفسوق والإيمان ، وهذه نزعة اعتزالية ، ثم شدد الله تعالى عليهم النهي بأن حكم بظلم من لم يتب ويُقلع عن هذه الأشياء التي نهى عنها .

ثمَّ أمر تبارك وتعالى المؤمنين باجتناب كثير من الظن ، وألَّا يعملوا ولا يتكلَّموا بحسبه لما في ذلك وفي التجسس من التقاطع والتدابر ، وحكم على بعضه أنه إثم ؛ إذ بعضه ليس بإثم ولا يلزم اجتنابه ، وهو ظنُّ الخير بالناس ، وحُسْنُه بالله تعالى ، والمظنون من شهادات الشهود ، والمظنون به من أهل الشَّر ، فإن سقوط عدالته وغير ذلك هو من حكم الظنِّ به ، وظنُّ الخير بالمؤمن محمود ، والظنُّ المنهيُّ عنه هو أن يظنَّ سوءًا برجل ظاهره الصلاح ، بل الواجب أن يزيل

(١) أي : تنازعا وتخاصما .

الظنَّ وحكمه ويتأَّول الخير ، وقال بعض الناس : [إِثْمٌ] معناه : كذب ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إِيَّاكُمْ والظنَّ فإِن الظنَّ أَكذب الحديث)(١). وقال بعض الناس : معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي إذا تكلَّم الظَّانُّ إِثْمٌ ، وما لم يتكلَّم فهو في فُسْحة لأَنه لا يقدر على دفع الخواطر التي يُبيحها قول النبي صلى الله عليه وسلم : (الحزمُ سوءُ الظَّنِّ) (٢). وذكر النقاش عن أَنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (احترسوا من الناس بسوءِ الظن) (٣).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وما زال أُولوا العزم يحترسون من سوءِ الظنِّ ويسدُّون ذرائعه ، قال سلمان الفارسي : إِنِّي لأَعُدُّ عُراق قِدْرِي(٤) مخافة الظنِّ ، وكان

(١) أخرجه مالك ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو جزءٌ من حديث ذكره السيوطي في الدر المنثور ، ولفظه كما ذكره : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إيَّاكُم والظنَّ فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث ، ولا تجسَّسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تَباغضوا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك) .

(٢) أخرجه أبو الشيخ في الثواب عن عليٍّ ، والقضاعي عن عبد الرحمن بن عائذ ، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن .

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ، وابن عدي في الكامل ، عن أنس رضي الله عنه ، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه ضعيف .

(٤) العُراق — بضم العين — : العظم أكل لحمه ، وفي بعض النسخ « لا أعُدُّ » بدلا من « لأعُدُّ » .

أَبو العالية يختم على بقيَّة طعامه مخافة سوءِ الظنِّ بخادمه ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : الأَمانة خير من الخاتم ، والخاتم من سوءِ الظنِّ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ، أي : لا تبحثوا عن مُخَبَّآت أُمور الناس ، وادفعوا بالتي هي أحسن ، وأخبروا بالظواهر الحسنة . وقرأ الحسن ، وأَبو رجاءٍ ، وابن سيرين ، والهُذَليُّون : ﴿ وَلَا تَحَسَّسُوا ﴾ بالحاءِ غير منقوطة ، وقال بعض الناس : التجسُّس – بالجيم – في الشرِّ ، والتَّحسُّس – بالحاءِ – في الخير ، وهكذا ورد القرآن ولكن قد يتداخلان في الاستعمال ، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ : التجسُّس : ما كان من وراءَ وراءَ ، والتَّحسُّس : الدخول والاستعلام ، وصحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (ولا تحسَّسوا ولا تجسَّسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً) (١). وذكر الثعلبي حديث حراسة عمر بن الخطاب مع ابن عوف رضي الله عنهما ووجودهما الشَّرْب في ربيعة بن أُميَّة بن خلف ، وذكر أَيضاً حديثه في نحو ذلك مع أَبي محجن الثقفي (٢)، وقال زيد بن وهب : قيل لابن مسعود :

(١) سبق الاستشهاد بالجزء الأول منه وهو قوله صلى الله عليه وسلم : (إياكم والظَّنَّ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث) ، وقد ذكرنا تخريجه في الهامش (١) صفحة (٥٠٥) من هذا الجزء .

(٢) حديث حراسة عمر مع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما أخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق »، عن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن =

هل لك في الوليد بن عُقبة تقطر لحيته خمراً ؟ فقال : إنَّا قد نُهينا عن التجسُّس ، فإن يظهر لنا أَمْرٌ أَخذنا به (١) .

﴿ وَلَا يَغْتَبْ ﴾ معناه : ولا يذكر أَحدكم من أَخيه شيئاً هو فيه ويكره سماعه ، وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت عن امرأَة : ما رأَيتُ أَجمل منها إلَّا أَنها قصيرة ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: (اغْتَبْتِها ، نظرت إلى أَسوأَ ما فيها فذكرته) (٢)، وقد قال

= ابن عوف ، عن المسور بن مخرمة ، عن عبد الرحمن بن عوف ، قال : إنه حرس مع عمر ابن الخطاب ليلةً بالمدينة ، فبينما هم يمشون شبَّ لهم سراج في بيت ، فانطلقوا يؤمُّونه ، فلما دَنَوْا منه إذ بابٌ مُجَافٍ على قوم لهم فيه أصواتٌ مرتفعة ولغط ، فقال عمر — وأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف — : أتدري بيت من هذا ؟ قال : هذا بيت ربيعة بن أُمية بن خلف ، وهم الآن شَرْبٌ فما ترى ؟ قال: أرى أنَّا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ فقد تجسَّسْنا ، فانصرف عنهم وتركهم ، والشَّرْبُ : القوم يشربون ويجتمعون على الشراب .

وأمَّا حديثه مع أبي محجن الثقفي فقد قال أبو قُلابة : حُدِّث عمر بن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته ، فانطلق عمر رضي الله عنه حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلاَّ رجل ، فقال أبو مِحْجَن : إنَّ هذا لا يحلُّ لك ، قد نهاك الله عن التَّجسُّس ، فخرج عمر وتركه .

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ، عن زيد بن وهب ، وليس في الحديث ذكر لاسم الوليد بن عقبة ، بل ذكره السيوطي في الدر المنثور بلفظ « هذا فلان تقطر لحيته خمراً » .

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن عكرمة ، قال : إن امرأة دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ثم خرجت ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، ما أجملها وأحسنها لولا أن بها قِصراً، =

النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا ذكرتَ ما في أخيك فقد اغتبته ، وإذا ذكرت ما ليس فيه فقد بَهَتَّه) (١)، وفي حديث آخر : (الغِيبَةُ أن يُذكر المؤمن بما يكره ، قيل : وإن كان حقًّا ؟ قال : إذا قلت باطلًا فذلك هو البُهتان) (٢)، ، وقال معاوية بن قُرَّة ، وأبو إسحق السبيعي(٣): إذا مرَّ بك رجل أقطع فقلت: ذلك الأَقطع ، كانت غِيبة ، وحكى الزهـراوي عن جـابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال : (الغِيبَةُ أَشـدُّ من الـزِّنى ؛ لأَن الـزَّاني يتوب فيتـوب الله

= فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: (اغتبتيها يا عائشة) ، فقالت : يا رسول الله ، إنما قلت شيئاً هو بها ، قال : (يا عائشة ، إذا قلت شيئاً بها فهي غيبة ، وإذا قلت ما ليس بها فقد بَهَتَّهَا) ، (الدر المنثور) .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، والترمذي وصححه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره ، قال: يا رسول الله ، أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه . (الدر المنثور) . والبُهتان هو القذف بالباطل .

(٢) أخرج عبد بن حميد ، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» عن عبد المطلب بن حنطب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ الغِيبَةَ أن تذكر المرءَ بما فيه) ، قال : إنما كُنَّا نرى أن نذكره بما ليس فيه ، قال : (ذاكَ البُهْتَان) .

(٣) معاوية بن قُرَّة بن إياس بن هلال المزني ، أبو إياس البصري ، ثقة ، عالم ، مات سنة ثلاث عشرة ومائة ، وهو ابن ست وسبعين سنة ، وأبو إسحق السبيعي هو عمر بن عبد الله الهمداني ، والسَّبيعي بفتح السين المهملة وكسر الباء ، مكثر ، ثقة ، عابد ، مات سنة تسع وعشرين ومائة ، وقيل قبْل ذلك ، (تقريب التهذيب) .

عليه ، والذي يغتاب يتوب فلا يُتاب عليه حتى يَسْتَحِلَّ)(١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد يموت من اغتبتَ أو يأْبَى ، ورُوي أن رجلًا قال لابن سيرين : إني قد اغتبتك فحلِّلني ، فقال : إنِّي لا أُحلِّل ما حرَّم الله ، والغِيبةُ مشتقة من «غاب يغيب» ، وهي القول في الغائب ، واستعملت في المكروه ، ولم يُبَح في هذا المعنى إلَّا ما تدعو الضرورة إليه كتجريح الشهود ، وفي التعريف لمن استنصح في الخطاب ونحوه لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (أما معاوية فصعلوك لا مال له) (٢) ، وما يقال في الفَسَقَة أيضاً وفي وُلاة الجور ويُقصد به التحذير منهم ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (أعن الفاجر ترعون؟ اذكروا الفاجر بما

(١) أخرجه ابن مردويه ، والبيهقي ، عن أبي سعيد ، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما . (الدرّ المنثور) . ومعنى (يَسْتَحِل) : يسأله أن يُحِلَّه من أمره ويصفح عنه .

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع والطلاق ، وأبو داود في الطلاق ، والترمذي والنسائي في النكاح ، ومالك في الطلاق ، وأحمد في مسنده (٦-٤١٢) ، ولفظه كما جاء في صحيح مسلم ، عن أبي بكر بن الجهم بن صُخَيْر العدوي ، قال : سمعتُ فاطمة بنتَ قيس تقول : إن زوجها طلَّقها ثلاثاً ، فلم يجعل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم سُكْنَى ولا نفقة ، قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا حَلَلْتِ فآذنيني ، فآذَنْتُهُ ، فخطبها معاوية وأبو جهم وأُسامة بن زيد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما معاوية فرجل تَرِبٌ لا مال له ، وأما أبو جهْم فرجل ضرَّاب للنساء ، ولكن أُسامة بن زيد ، فقالت بيدها هكذا : أُسامة أُسامة ؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : طاعة الله وطاعة رسوله خير لك ، قالت : فتزوجته فاغتبطت . ومعنى تَرِب : فقير .

فيه حتى يعرفه الناسُ إذا لم تذكروه)(١)، ومنه قوله : (بئس ابن العشيرة)(٢) .

ثم مثَّل تعالى الغِيبة بأَكل لحم ابن آدم الميت ، والعرب تشبِّه الغِيبة بأَكل اللحم ، فمنه قول سُوَيْد بن أَبي كاهل :

فَإِذَا لاقَيْتُهُ عَظَّمَنِي وإِذَا يَخْلُو لهُ لَحْمي رَتَع (٣)

ومنه قول الآخر :

إِذَا أَكلُوا لَحْمي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْداً (٤)

---

(١) أخرجه البيهقي – وضَعَّفَه – من طريق بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده . (ذكر ذلك السيوطي في الدُّرِّ المنثور) .

(٢) أخرجه البخاري وأبو داود في الأدب ، ومسلم في البر ، ومالك في حسن الخلق ، وأحمد في المسند (٦–٣٨ ، ٨٠ ، ١٥٨ ، ١٧٣) ولفظه كما جاء في مسند أحمد ، عن عروة ابن الزبير أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ائْذَنُوا له ، فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة ، وقال مرة رجل ، فلما دخل عليه ألان له القول ، فلما خرج قالت له عائشة : قلتَ له الذي قلتَ ثم ألَنْتَ له القول ؟ فقال : (أي عائشة ، شرُّ الناس منزلةً عند الله يوم القيامة من ودَعَه الناسُ أو تَرَكَه الناسُ اتقاءَ فُحْشه) .

(٣) الشاعر هو سُوَيْد بن أبي كاهل ، من بني يشكر ، شاعر مخضرم ، عاش في الجاهلية طويلا ، وعمر في الإسلام ستين سنة ، وبيته هذا من قصيدة له تعتبر من أغلى الشعر وأنفسه ، وهي المفضلية رقم ٤٠ ، قال الأصمعي عنها : «كانت العربُ تفضلها وتقدمها وتَعُدها من حِكَمها ، وكانت في الجاهلية تسميها اليتيمة لما اشتملت عليه من الأمثال ، قال في مطلعها :

بَسَطَتْ رابِعَةُ الحَبْلَ لَنَا فَوَصَلْنَا الحَبْلَ مِنْها ما اتَّسَعْ

ورواية البيت في المُفَضَّليات ، وفي الشعر والشعراء ، «وَيُحَيِّيني إذا لاقَيْتُه» وفي اللسان : «وَحَبِيبٌ لي إذا لاقَيْتُهُ» ، وكان الحجاج قد تمثَّل يوم رُسْتَقُباذَ على المنبر بأبيات من قصيدة سويد هذه ، منها هذا البيت ، ومعنى رتَع : أكَلَ ، والرَّتْعُ في الأصل هو الأكل في الخصب .

(٤) هذا البيت للمُقَنَّع الكِنْدي ، واسمه محمد بن عُمَيْر ، كان من أجمل الناس وجهاً ، وأمَدِّهم قامةً ، فكان إذا كشف عن وجهه أُصيب بالعين ، فكان يتقنَّع دهره، =

فوقفهم الله تعالى - على جهة التوبيخ - بقوله : ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾ ، فالجواب عن هذا : لا ، وهم في حكم من يقولها ، فخوطبوا على أنهم قالوا : لا ، فقيل لهم : [فَكَرِهْتُمُوهُ] ، وبعد هذا مُقَدَّرٌ تقديره : فكذلك فاكرهوا الغِيبَةَ التي هي نظير ذلك ، وعلى هذا المقدَّر يعطف قوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ، قاله أَبو عليٍّ الفارسي ، وقال الرُّمَّاني : كراهية هذا اللَّحم يدعو إليها الطبع ، وكراهية الغِيبَة يدعو إليها العقل ، وهو أَحق أَن يجاب لأَنَّه بصيرٌ عالِمٌ ، والطَّبْعُ أَعمى جاهل ، وقرأَ الجمهور : [مَيْتاً] بسكون الياءِ خفيفة ، وقرأَ نافع ، وابن القعقاع ، وشيبة ، ومجاهد بكسرها مشدَّدة ، وقرأَ أَبو حيوة : [فَكُرِّهْتُمُوهُ] بضم الكاف وشدِّ الراءِ ، ورواها أَبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم. ثمَّ أَعلمهم الله تعالى بأَنَّه تَوَّابٌ رحيم إِبْقاءً منه تعالى وإِمْهالاً وتمكيناً من التوبة .

= فَسُمِّي بالمُقَنَّع ، والبيت ضمن أبيات يقولها في قومه ، منها :

لا أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عَلَيْهِمُ ... وَلَيْسَ رَئِيسَ القَوْمِ مَن يَحْمِلُ الحِقْدَا
وَلَيْسُوا إلى نَصْرِي سِرَاعاً وَإِنْ هُمُ ... دَعَوْنِي إلى نَصْرٍ أَتَيْتُهُمُ شَدّاً
إذَا أكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا

والبيت هنا شاهد على أن العرب تستعمل أكل اللحم في مكان الغيبة . فالمعنى هنا : إذا هم اغتابوني وذكروني في غيبتي بما أكره فلست أفعل مثلهم ، بل أصون أعراضهم ، ولا أتناول حداً منهم بسوء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ * قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يحتمل أَن يريد آدم وحوَّاءَ عليهما السلام ، فكأَنه تعالى قال : إِنَّا خلقناكم جميعاً من آدم وحوَّاءَ ، ويحتمل أَن يريد بالذَّكر والأُنثى اسْم الجنس ، وكأَنه تعالى قال : إِنَّا خلقنا كل واحد منكم من ماءِ ذكر وأُنثى ، وقَصْد هذه الآية التسوية بين الناس ، ثم قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ ، أَي : لِئَلَّا تفاخروا ويريد بعضكم أَن يكون أَكرم من بعض ، فإِن الطريق إِلى الكرم غير هذا ، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ، وروى أَبو بكرة : قيل : يا رسول الله ، من خير الناس ؟ قال : (من طال عُمُره ، وحسُن عمله) (١) ، وفي حديث آخر : مَنْ خَيْرُ النَّاس ؟ قال :

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ، والدارمي في الرِّقاق ، وأحمد في مسنده (٤–١٨٨ ، ٥–٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠) ، ولفظه كما جاء في المسند ، عن عبد الله بن =

(آمرُهُم بمعروف ، وأَنهاهم عن منكر ، وأَوصلهم للرَّحم ، وأَتقاهم) (١).

وحكى الزهراوي أَن سبب نزول هذه الآية غضب الحارث بن هشام ، وعَتَّاب بن أَسيد حين أَذَّن بلال يوم فتح مكة على الكعبة (٢) ، وحكى الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن سببها قول ثابت بن قيس لِرَجلٍ لم يفسح له عند النبي صلى الله عليه وسلم : يابْنَ فلانة ،

= بُسْر قال : أتَى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابيَّان ، فقال أحدهما : من خير الرجال يا محمد ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من طالَ عُمُرُه ، وحَسُن عَمَلُه) ، وقال الآخر : إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فبابٌ نتمسَّك به جامع ؟ قال : (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦-٤٣٢) ، عن دُرَّة بنت أبي لهب قالت :قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال : يا رسول الله ، أيُّ الناس خير ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : (خير الناس أقرؤهم وأتقاهم ، وآمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأوْصَلُهم للرَّحِمِ) . وأورده السيوطي في « الدر المنثور » وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة .

(٢) أخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في « الدلائل » عن ابن أبي مُلَيْكَة ، قال ذلك في « الدر المنثور » ، وذكره الواحدي في « أسباب النزول » بدون سند عن مقاتل ، قال : لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً حتى أذَّن على ظهر الكعبة ، فقال عتَّابُ بن أَسيد بن أبي العيص : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم يرَ هذا اليوم ، وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً ؟ وقال سهيل بن عمرو : إنْ يُرِدِ اللهُ شيئاً يُغَيِّره ، وقال أبو سفيان : إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به ربُّ السماء ، فأتَى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقَرُّوا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال ، والازدراء بالفقراء .

فوبَّخه النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال له : إنَّك لا تَفْضُل أحداً إلَّا في الدِّين والتقوى(١) ، فنزلت هذه الآية ، ونزل الأَمر بالتَّفسُّح في ذلك أيضاً .

و « الشُّعوب » جمع شَعْب ، وهو أَعظم ما يوجد من جماعات الناس مرتبطاً بنسب واحد ، وتتلوه القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الأُسرة والفصيلة ، وهما قرابة الرجل الأَدنَوْن ، فمُضر وربيعة وحِمْير شعوب ، وقيس وتميم ومَذْحج ومراد قبائل ، مُشَبَّهة بقبائل الرأْس لأَنها قطع تقابلت ، وقريش وسليم عمارات ، وبنو قُصَي وبنو مخزوم بطون ، وبنو هاشم وبنو أُميَّة ونحوهما أَفخاذٌ ، وبنو عبد المطلب أُسرة وفصيلة . وقال ابن جبير : الشُّعوب : الأَفخاذ ،

---

(١) ذكَرَهُ الواحدي في « أسباب النزول » بغير سند ، ولم يعزُه لأحد ، وذكَرَهُ الخازن والبغوي عن ابن عباس رضي الله عنهما بدون سند أيضاً ، وقال الحافظ بن حجر في « تخريج الكشَّاف » : إن الثعلبي ذكره عن ابن عباس بغير سند ، وأورده القرطبي مسبوقاً بكلمة « وقيل » وبدون سند أيضاً ، قالوا جميعاً : إن الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شماس حين أراد أن يجلس قريباً من النبي صلى الله عليه وسلم ، وطلب إلى رجل أن يُفسح له في المجلس فلم يُفْسح له ، فقال ثابت للرجل : من أنت ؟ قال : أنا فلان ، فقال ثابت : أنت ابن فلانة ! فذكر أمّاً له كان يُعَيَّر بها في الجاهلية ، فأغضى الرجلُ ونَكَس رأسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الذَّاكر فلانة ؟ فقال ثابت : أنا يا رسول الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انظر في وجوه القوم ، فنظر ، فقال : ما رأيْتَ ؟ قال : رأيتُ أبيض وأسود وأحمر ، فقال : فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى ، فنزلت في ثابت هذه الآية ، ونزلت في الرجل الذي لم يفسح له : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا ﴾ الآية .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : الشُّعوب : البطون ، وهذا غير ما تَمَالأَ (١) عليه اللغويون . وقال الثعلبي : وقيل : الشُّعوب في العجم والقبائل في العرب والأَسباط في بني إسرائيل، وأَما الشعب الذي في هَمْدان الذي يُنسب إليه الشَّعبي فهو بطنٌ يقال له : الشَّعْب ، وقيل للأُمم التي ليست بعرب : «شَعوبية» نسبة إلى الشُّعوب ، وذلك أَن تفصيل أَنسابها خفي فلم يُعرف أَحدٌ منهم إلَّا بأَن يقال : فارسي ، تركي ، رومي ، فكأَنهم عرفوا بشعوبهم وهي أَعمُّ ما يُعبَّر به عن جماعتهم ، ويقال لهم الشُّعُوبية بفتح الشين ، وهذا من تعيين النَّسب ، وقد قيل فيهم غير ما ذكرتُ ، وهذا أَولى عندي .

وقرأ الأَعمش : [لِتَتَعَارَفُوا] ، وقرأ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : ﴿لِتَعْرِفُوا أَنَّ﴾ على وزن «تَفْعِلُوا» بكسر العين وبفتح الأَلف من [أَنَّ] وإعْمال [تَعْرِفُوا] فيها ، ويحتمل – على هذه القراءة – أَن تكون اللام في قوله تعالى: [لِتَعْرِفُوا] لام «كَيْ» ، ويضطرب معنى الآية مع ذلك ، ويحتمل أَن تكون لام الأَمر ، وهو أَجود في المعنى ، ويحتمل أَن يكون المفعول محذوفاً تقديره : «الحَقَّ» ، وإذا كانت لام «كي» فكأَنه تعالى قال : يـأَيُّها الناس أَنتم سواءٌ من حيث أَنتم مخلوقون ،

---

(١) بمعنى : اجتمعوا واتفقوا .

وإنَّما جُعلتم قبائل لأَن تتعارفوا ولأَن تعرفوا الحقائق ، وأَمَّا الشرفُ، والكرم فهو بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب ، وقرأَ ابن مسعود : «لِتَعَارَفُوا بَيْنَكُمْ ، وخيركم عند الله أَتقاكم» ، ورُوي أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مَن سرَّه أَن يكون أَكرم الناس فَلْيَتَّق الله ربَّه)(١) . ثم نبَّه تعالى على الحذر بقوله سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي بالمُتَّقِي الذي يستحق رتبة الكرم .

قوله تعالى : ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ ، قال مجاهد : نزلت في بني أَسد بن خزيمة ، وهي قبيلة كانت تجاور المدينة ، وكانوا قد أَظهروا الإِسلام ، وكانت نفوسهم – مع ذلك – دَخِلَةٌ (٢) ، إنما يُحبُّونَ المغانم وعَرَض الدنيا ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وذهبوا مرَّة إلى أَن يتسمَّوْا بالمهاجرين ، فنزلت هذه الآية مُسَمِّيةً لهم بالأَعراب ، مُعَرِّفةً لهم بذلك أَقدارهم ، ومُخْرِجةً ما في صدورهم من صورة معتقدهم ، وهم أَعرابٌ مخصوصون كما ذكرنا ، قال أَبو حاتم عن ابن الزبير : سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقرأُ : ﴿قَالَتِ ٱلاعْرَابُ﴾ بغير همز ، فردَّ عليه بِهمْز وقَطْع . وقد أَخبر الله تعالى أَن في الأَعراب على

---

(١) ذكره القرطبي بقوله : «وقد جاء منصوصاً عنه عليه الصلاة والسلام : (مَنْ أَحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله) ، وفي البخاري عن أبي هريرة قال : سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيُّ الناس أكرم ؟ قال : (أكرمهم عند الله أتقاهم) ، والأحاديث في ذلك كثيرة وصحيحة .

(٢) أصابها الفسادُ والعيب من الداخل ، وفي بعض النسخ «دغلة» بالغين ، والداغل هو الذي يبغي الشرَّ لأصحابه ويحسبونه هم خيراً .

الجملة من يؤمن بالله واليوم الآخر ، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء المُدَّعين في الايمان : ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ ، أي : لم تصدِّقوا بقلوبكم ، ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ .

والإِسلام يقال بمعنيين : أحدهما الذي يعُمُّ الإِيمان والأَعمال ، وهو الذي في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللهِ ٱلْإِسْلَامُ﴾(١) ، والذي في قوله صلى الله عليه وسلم : (بُنِـيَ الإِسلامُ عَلَى خَمْسٍ) (٢) ، والذي في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام حين قال : ما الإِسلام ؟ قال : (أَن تعبد الله وحـده لا تُشرِكْ به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتُؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيتَ إن استطعت إليه سبيلًا) (٣) ، والذي في قوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أَبي وقاص

---

(١) من الآية (١٩) من سورة (آل عمران) .

(٢) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي في الإيمان ، ولفظه كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بُنِيَ الإسلام على خمسٍ : شهادة أنْ لا إلَه إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحجِّ ، وصوم رمضان) .

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان عن أبي هريرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث ، قال : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، قال : ما الإحسان ؟ قال: أن =

رضي الله عنه : (أَوْ مُسلِماً ، إِنِّي لأُعطي الرجلَ وغيرُه أَحبُّ إِليَّ منه) (١) الحديث ، فهذا الإِسلام ليس هو في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ .

والمعنى الثاني لِلَفظ الإِسلام هو الاسْتِسلامُ والإِظهار الذي يُسْتَعصم به ويُحقَن الدَّمُ ، وهذا هو الإِسلام في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ ، والإِيمان الذي هو التَّصديق أَخصُّ من الأَول .

ثمَّ صرَّح تعالى لهم بأَن الإِيمان لم يدخل قلوبهم ، ثم فتح تعالى لهم باب التوبة بقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، الآية ،

= تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال: متى الساعة ؟ قال : ما المسئول بأعلم من السائل ، وسأُخبرك عن أشراطها ، إذا ولدت الأمة ربَّها ، وإذا تطاول رعاةُ الإبل البُهْم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلاّ الله ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ ، ثم أدبر ، فقال : ردُّوه فلم يروْا شيئاً ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناسَ دينهم . اهـ . وكذلك رواه مسلم والترمذي في كتاب الإيمان ، وأبو داود في السُّنَّة ، وابن ماجه في المقدمة ، وأحمد في المسند (١-٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ - ٢-١٠٧ - ٤-١٢٩) واللفظ هنا للبخاري .

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيهما في كتاب الإيمان وفي كتاب الزكاة ، عن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رهْطاً وسعْدٌ جالس ، فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً هو أعجبهم إليَّ ، فقلت : يا رسول الله ، مالك عن فلان ، فوالله إني لأراه مؤمناً ، فقال : (أو مُسلماً) ، فسكتُّ قليلا ، ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي ، فقلت : مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً ، فقال : (أو مُسلماً) ، فسكتُّ قليلا ، ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : (يا سعدُ ، إنِّي لأعطي الرجل وغيره أحبُّ إليَّ منه خشية أن يكُبَّه الله في النار) . قال الإمام البخاري : ورواه يونس ، وصالح ، ومَعْمَرٌ ، وابن أخي الزُّهري عن الزُّهري .

وطاعةُ الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في ضمنها الإيمان والأعمال .

وقرأ الجمهور من القراء : ﴿لَا يَلِتْكُمْ﴾ ، من (لَاتَ يَلِيتُ) إذا نقص ، يقال : «لَاتَهُ حقَّه» إذا نقصه منه ، وقرأ أبو عمر ، والأعرج ، والحسن ، وعمرو : ﴿لَا يَأْلِتْكُمْ﴾ من (أَلَتَ يَأْلِتُ) ، وهو بمعنى (لات) ، وكذلك يقال : (أَلِتَ) بكسر اللام (يَأْلَتُ) ، ويقال أَيضاً في معنى (لات) : (آلَتَ يُولِتُ) ، ولم يُقرأْ بهذه اللغة . وباقي الآية بيِّنٌ في الترجية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

[إِنَّمَا] في هذه الآية حاصرةٌ تُعطي ذلك المعنى . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي لم يشكُّوا في إيمانهم ، ولم يُدَاخِلْهم ريب ،

وهم الصادقون إذْ جاءَ فعلهم مُصدقاً لقولهم . ثم أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بتوبيخهم بقوله : ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أَي بقولكم : «آمنَّا» ، وهو يعلم منكم خلاف ذلك لأَنه العليم بكل شيءٍ .

وقوله تعالى : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ نزل في بني أَسد أَيضاً ، وذلك أَنهم قالوا في بعض الأَوقات للنبي صلى الله عليه وسلم : إنَّا آمنَّا بك واتَّبعناك ولم نحاربك كما فعلت مُحارب وحصفة وهوازن وغطفان وغيرهم ، فنزلت هذه الآية ، حكاه الطبريُّ وغيره . وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه : «يَمُنُّون عَليكَ إسْلامَهُمْ» .

وقوله تعالى : [أَنْ] يحتمل أَن يكون مفعولًا صريحاً ، ويحتمل أَن يكون مفعولًا من أَجله ، وقوله تعالى : ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أَيْ بزعمكم إذْ تقولون آمنَّا ، فقد لزمكم أَن الله تعالى مانٌّ عليكم ، ويدلك على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ، فعلَّق عليهم الحُكميْن : هم ممنونٌ عليهم على الصدق ، وأَهلٌ أَن يقولوا أَسلمنا من حيث هم كذبة ، وقرأَ ابن مسعود : «إذْ هَداكُمْ» .

وقوله تعالى : ﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل أَن يكون بمعنى : يُنْعم ، كما تقول : مَنَّ اللهُ عليك ، ويحتمل أَن يكون بمعنى : يَذْكُرُ إحسانه

فيجيءُ معادلًا لـ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ ، وقال الناسُ قديماً : إذا كُفرت النِّعمة حَسُنَت المِنَّةُ ، وإنَّما المنَّةُ المُبطلةُ للصَّدَقَة المكروهةُ ما وقع دون كُفر نعمة .

وقرأ أَبو جعفر ، ونافع ، وشيبة ، وقتادة ، وابن وثاب : ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاءِ على الخطاب ، وقرأَ ابن كثير ، وعاصم - في رواية أَبي بكر- : ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالياءِ من تحت على ذكر الغائب .

كمل تفسير سورة الحجرات والحمد لله ربّ العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٥٠) سورة ق مكية وآياتها خمس وأربعون

هي مكيَّة بإجماع من المتأولين (١)، وروى أُبيٌّ بن كعب رضي الله

---

(١) وحُكي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن قتادة أن فيها آية مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾، وهي رقم (٣٨)، وسورة (ق) هي أول المُفَصَّل، قال ابن كثير في تفسيره: والدليل على ذلك ما رواه أبو داود في سننه عن أوس ابن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وأنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بني مالك في قبة له، قال مسدد (وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقيف)، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا، قال أبو سعيد: قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام، فأكثر ما يحدثنا صلى الله عليه وسلم ما لقي من قومه قريش، ثم يقول صلى الله عليه وسلم: «لا سواء، وكنا مُسْتَضعفين مُسْتذلين، (قال مسدد: بمكة)، فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجالا بيننا وبينهم، نُدال عليهم ويُدالون علينا»، فلما كانت ليلة أبطأ عنا صلى الله عليه وسلم عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، =

عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من قرأ سورة قٓ هوّن الله عليه الموت وسكراته) (١) .

= فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنه طرأ عليّ حِزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أُتِمّه » ، قال أوس : سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يُحَزِّبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المُفَصَّل وحده .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عبد الرحمن ، ورواه ابن ماجه عن أبي خالد الأحمر ، ونحن إذا جمعنا الأرقام التي وردت في الحديث عن سور القرآن حتى المفصل نجدها ثمانياً وأربعين سورة ، والتي تبدأ بعدهن هي سورة (ق) ، أما الثلاث فهي : البقرة ، وآل عمران والنساء ، وأما الخمس فهي : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة ، وأما السبع فهي : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل ، وأما التسع فهي : الإسراءُ والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان ، وأما الإحدى عشرة فهي : الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويسن ، وأما الثلاث عشرة فهي : الصافات وص والزُّمر وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف ومحمد والفتح والحجرات ، وبهذا استدل ابن كثير على أن سورة (ق) هي أول المفصل من القرآن الكريم .

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، والذي رواه الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد الليثي : ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيد ؟ قال : بقاف واقتربت ، وذكر ابن كثير في تفسيره أن مسلماً رواه وكذلك أهل السنن الأربعة من حديث مالك به ، كذلك روى الإمام أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت : « ما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس ، ورواه مسلم من حديث ابن إسحق ، قال ابن كثير : (والقصد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بهذه السورة بالمجامع الكبار كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق ، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ... » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما : [قٓ] اسمٌ من أَسماءِ القرآن ، وقال أَيضاً : اسمٌ من أَسماءِ الله تبارك وتعالى ، وقال قتادة والشعبي : هو اسم السورة ، وقال ابن زيد، وعكرمة ، ومجاهد، والضحاك : هو اسم الجبل المحيط بالدنيا ، وهو فيما يزعمون من زُمُرُّدَة خضراءَ، منها خُضرة السماءِ وخُضرة البحر . و [ٱلْمَجِيدِ] : الكريم في أَوصافه الذي جمع كلَّ عِلٍّ ، و [قٓ] ـ على هذه الأَقوال ـ مُقْسَمٌ به وبالقرآن المجيد ، وجواب القَسَم مُنْتَظر ، واختلف الناسُ فيه ـ فقال ابن كيسان : جوابه ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ (١) ، وقيل: الجواب ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى ﴾ (٢) ،

(١) من الآية (١٨) من السورة .
(٢) من الآية (٣٧) من السورة .

وقال الزهراوي ، عن سعيد الأخفش : الجواب ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ، وضعَّفه النحاس (١) ، وقال الكوفيون من النحاة : الجواب ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ ، والمعنى : قد عَجِبُوا ، قال منذر بن سعيد : وقد قيل : إن جواب القَسَم في قوله تعالى : ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ (٢) ، وفي هذه الأَقوال تكلُّف وتحكُّم على اللسان ، وقال الزجاج ، والمبرد ، والأَخفش : الجوابُ مُقَدَّر ، تقديره : «قٓ والقرآن المجيد لَتُبْعَثُنَّ» ، وهذا قولٌ حسَنٌ ، وأَحسن منه أَن يكون الجواب هو الذي يقع عنه الإِضراب بـ [بَلْ] ، كأَنه تعالى قال : والقرآن المجيد ما ردُّوا أَمْرك بِحُجَّة ، أَو ما كذَّبوك بِبُرْهَان ، أَو نحو هذا مما لا بدَّ لك من تقديره بعد الذي قدَّر الزجاج ؛ لأَنك إذا قلت «الجواب «لَتُبْعَثُنَّ» فلا بُدَّ بعد ذلك أَن تقدِّر خبراً عنه يقع الإِضرابُ ، وهو الذي جعلناه جواباً وجاءَ في المقدر أَخصر .

وقال جماعةٌ من المفسِّرين في قوله تعالى [قٓ] : إنه حرف دالٌّ على كلمة ، نحو قول الشاعر :

قُلْتُ لَهَا قِفِي فقالتْ قاف . . . . (٣)

---

(١) قالوا : لأنه لا يُعرف في أجوبة الأيمان قدْ ، وإنما تُجاب الأيمان إذا أُجيبت بأحد الحروف الأربعة «اللام ، وإنَّ ، وما ، ولا» ، أو بترك جوابها فيكون ساقطاً .

(٢) من الآية (٢٩) من السورة .

(٣) هذا صدر بيت للوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط ، كان أخاً لعثمان بن عفان رضي الله =

واختلفوا بعد ، فقال القُرَظِـيُّ : هو دالٌّ على أَسماءِ لِله تعالى هي : قادرٌ وقاهرٌ وقريبٌ وقاض وقابضٌ ، وقيل : المعنى : قُضي الأَمر من رسالتك ونحوه «والقرآن المجيد» ، فجواب القسَم في الكلام الذي يدلُّ عليه [قٓ] ، وقال قوم : المعنى : قف عند أَمرنا ، وقيل : المعنى : قُهِرَ هؤلاءِ الكفرة ، وهذا أَيضاً وقع عليه القَسَم ، ويحتمل أَن يكون المعنى : قيامُهم من القبور حقٌّ « والقرآن المجيد » ، فيكون أَوَّل السُّورة

= عنه لأمِّه ، وقد تولى الكوفة فاتُّهم بشُرْبِ الخمر ، فكتب إليه الخليفة يأمره بالشخوص إليه، فخرج في جماعة ، ونزل الوليد يسوق بهم ، فقال :

قُلْتُ لَهَا : قِفِي ، فَقَالَتْ : قَافْ لا تَحْسَبِينَا قَدْ نَسِينَا الإيجَافْ
والنَّشَوَاتِ مِن مُعَتَّقٍ صَـــافْ وَعَزْفَ قَيْنَاتٍ عَلَيْنَا عَـــزَافْ

والإيجاف : العدو ، وهو أيضاً الحمل عليه ، وانظر الخصائص لابن جني ، والأغاني ٥-١٣١ ، وشواهد الشافية ، والمحتسب في وجوه شواذ القراءات لابن جني ، ومعاني القرآن للفراء ، واللسان والتاج – مادة وقف – ، والشعر في اللسان غير منسوب ، قال : « إنما أراد : (قَدْ وَقَفْتُ) فاكتفى بذكر القاف ، قال ابن جني : ولو نقل هذا الشاعر إلينا شيئاً من جملة الحال فقال – مع قوله قالت قاف – : وأَمْسَكَت زمام بعيرها أو عاجَتْهُ علينا ، لكان أبْيَنَ لما كانوا عليه وأدلَّ على أنها أرادت : قِفِي لنا قِفِي لنا ، أي : تقول لي : قِفِي لنا متعجبةً منه ، وهو إذا شاهدها وقد وقفت علم أن قولها (قافْ) إجابةٌ له لا ردٌّ لقوله وتعجُّبٌ منه » . قال ابن كثير في تفسيره : « وفي هذا التفسير نظر ، لأن الحذف في الكلام إنما يكون إذا دلَّ عليه دليلٌ ، ومنْ أين يُفهم هذا من ذِكْر هذا الحرف ؟ » ، كذلك قال ابن جني تعليقاً على كلام الفراء واستشهاده بهذا الشعر : « وفي هذا ضعفٌ ، ألا ترى إلى الفتح والكسر فيه ؟ » يعني أنه لو كان حرفاً من كلمة لما جاءت فيه القراءة بفتح الفاء وبكسرها .

من المعنى الذي اطَّرد بعْدُ ، وعلى هذه الأَقوال فثمَّ كلام مضمر وقع عنه الإِضرابُ ، وهو خبرٌ عنهم ، كأَنه تعالى قال : ما كذَّبوك ببرهان ، أَو نحو هذا مما يليق مظهراً .

وقرأَ الجمهور من القراءِ : «قافْ» بسكون الفاءِ ، قال أَبو حاتم : ولا يجوز غيرها إِلَّا جواز سوءٍ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه القراءَة تحسُن مع أَن تكون [قٓ] حرفاً دالًّا على كلمة . وقرأَ الثقفي ، وعيسى : «قافَ» بفتح الفاءِ ، وهذه تحسُن مع القول بأَنها اسمٌ للقرآن أَو للهِ تعالى ، وكذلك قرأَ الحسن ، وابن أَبي إِسحق : «قافِ» بكسر الفاءِ ، وهي في رتبة التي قبلها في أَن الحركة للالتقاءِ ، وفي أَنها اسم للقرآن ، و «المجيدُ» الكريمُ الأَوصاف الكثيرُ الخير (١).

واختلف الناسُ في الضمير في [عَجِبُوا] ، لمن هو؟ فقال جمهور المتأَولين : هو لجميع الناس ، مؤمنهم وكافرهم ؛ لأَن كل مفطور

---

(١) قال ابن جني : «يحتمل (قاف) بالفتح أمرين : أحدهما أن تكون حركته لالتقاء الساكنين ، كما أن من يقرأ بالكسر كذلك ، غير أن من فتَح أتبع الفتحة صوت الألف لأنها منها ، ومَنْ كسر فعلى أصل التقاء الساكنين ، والآخر أن (قاف) منصوبة الموضع بفعل مضمر ، ولم تُصرف لاجتماع التعريف والتأنيث في معنى السورة» .

عَجِب من بعثة بشر رسولًا لله(١)، لكن : المؤمنون نظروا واهتدوا ، والكافرون بقوا على عمايتهم وصمُّوا وحاجُّوا بذلك العجب ، ولذلك قال تعالى : ﴿فَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ، وقال آخرون : بل الضمير في [عَجِبُوا] للكافرين ، وكرَّر الكلام تأكيداً ومبالغةً ، والإشارة بـ [هذا] يحتمل أَن تكون إلى نفس مجيءِ البشر ، ويحتمل أَن تكون إلى القول الذي يتضمنه الإِنذار وهو الخبر بالبعث ، ويؤيد هذا القول ما يأْتي بعده .

وقرأَ الجمهور : [أَئِذَا] ، وقرأَ الأَعرج ، وشيبة ، وأَبو جعفر : [إِذَا] على الخبر دون استفهام(٢) ، والعامل في [إِذَا] فعل مضمر ، كأَنه تعالى قال : أَنبعثُ إذا ؟ وإلى هذا الفعل وقعت الإِشارة بقولهم : ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ، قال ابن جنِّي : ويحتمل أَن يكون المعنى :إذا مِتنا بَعُدَ رجْعُنا ، فيدل ﴿رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ على هذا الفعل الذي هو (بَعُدَ) ويحلُّ محلَّ الجواب لقولهم : [إِذَا] .

و «الرَّجْعُ» مصدر رجعتُه ، وقولهم : [بَعيدٌ] معناه : بعيد في الأَفهام والفكر كَوْنُه ، فأَخبر الله تعالى ـ ردًّا على قولهم ـ بأَنه تعالى

---

(١) في بعض النسخ «من بعثة بشر رسول لله» .

(٢) يرى أبو حيان الأندلسي أنه يجوز أن يكون استفهاماً حذفت منه الهمزة ، ويجوز أن يكونوا عدلوا إلى الخبر وجواب [إذا] مضمر .

يعلم ما تأكل الأرض من ابن آدم وما تُبقي منه ، وأن ذلك في كتاب ، وكذلك يعود في الحشر معلوماً ذلك كله ، و « الحفيظ » : الجامع الذي لم يفته شيء ، وقال الرُّمّاني : حفيظٌ: منيع من أن يذهب ببِلًى ودُروس ، وروي في الخبر الثابت أن الأرض تأكل ابن آدم إلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ (١) وهو عظم كالخردلة فمنه يُركَّبُ ابن آدم ، وحِفْظُ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة ، وهذا هو الحق ، وذهب بعض الأُصوليِّين إلى أن الأجساد المبعوثة يجوز أن تكون غير هذه ، وهذا عندي خلاف لظاهر كتاب الله تعالى ، ولو كانت غيرها فكيف كانت تشهد الجلود والأيدي والأرجل على الكفرة إلى غير ذلك مما يقتضي أن أجساد الدُّنيا هي التي تعود؟ وقال ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور : المعنى : ما تنقص من لحومهم وأبشارهم وعظامهم ، وقال السُّدِّي : معنى قوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم ، وهذا قولٌ

---

(١) روى مسلم في صحيحه ، وأبو داود ، والنسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كل ابن آدم يأكله التراب إلاّ عَجْبَ الذَّنَبِ ، منه خُلق ، ومنه يُركَّب) ، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد أورده الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) ، ورمز له بأنه صحيح . والعَجْب — بسكون الجيم — : العظم الذي في أسفل الصُّلْب عند العَجُزِ ، وفي اللسان أنَّه ما انضم عليه الوَرِكان من أصل الذَّنَب المغروز في مُؤَخَّر العَجُز .

حسنٌ مُضَمَّنُهُ الوعيد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً – فيما حكى الثعلبي – : معناه : قد علمنا ما تنقص الأَرض بالإِيمان من الكفرة الذين يدخلون في الإِيمان ، وهذا قول أَجنبي من المعنى الذي قبلُ وبعدُ .

وقبل قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا ﴾ مُضمر عنه وقع الإِضراب ، تقديره : ما أَجادوا النَّظر ، أَو نحو هذا ، والذي يقع عنه الإِضرابُ بـ (بَلْ) الأَغلب فيه أَنه منفي تقضي (بلْ) بفساده ، وقد يكون أَمراً مُوجباً تقضي (بَلْ) بترك القول فيه لا بفساده ، وقرأَ الجمهور : [لَمَّا] بفتح اللام وشدِّ الميم ، وقرأَ الجحدري : [لِمَا] بكسر اللام وتخفيف الميم ، قال أَبو الفتح : هي كقولهم : «أَعطيته لِمَا سَأَل» ، وكما في التأْريخ «لِخَمْسٍ خَلَوْنَ» ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾(١)، ومنه قول الشاعر :

. . . . إِذَا هَبَّتْ لِقَارِيهَا الرِّيَاحُ (٢)

---

(١) من الآية (١٨٧) من سورة الأعراف ، والمعنى في هذه الآية : لا يُجَلِّيها عند وقتها إلاَّ الله تعالى ، وكذلك المعنى في قولهم : « أَعطيتُه لِمَا سَأَلَ » : أَعطيته لسؤاله ، والمثال الذي ذكره أبو الفتح في المحتسب : « أَعطيتُه ما سأل لطلبه » ، أي عند طلبه ، أو مع طلبه ، وليس كما ذُكر هنا إذْ نُقل محرفاً ، ومعنى « لِخَمْسٍ خَلَوْنَ » : عِنْدَ خَمْسٍ خَلَوْنَ ، أو مَعَ خَمْسٍ خَلَون . وعلى هذا يرجع المعنى في قراءة [لِمَا] بكسر اللام وفتح الميم خفيفة لمعنى القراءة العامة [لَمَّا] بفتح اللام وشد الميم .

(٢) هذا عجز بيت ذكره في اللسان (عقر) شاهداً على أن العَقْر موضعٌ معيَّن ، والبيت بتمامه : =

و « الْمَرِيجُ » معناه : المختلط ، قاله ابن زيد ، أي بعضهم يقول ساحر ، وبعضهم يقول كاهن ، وبعضهم يقول شاعر (١) ، إلى غير ذلك من تخليطهم ، وكذلك عادت فكرة كل واحد منهم مختلطة في نفسها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المريج : المُنكر ، وقال مجاهد : المُلْتبس ، والمريج : المضطرب أيضاً ، وهو قريب من الأول ، ومنه في الحديث (مَرِجَتْ عهودُهم)(٢) ، ومن الأول : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾(٣) ،

= كَرِهْتُ العَقْرَ عَقْرَ بَنِي شُلَيْلٍ … إذَا هَبَّتْ لِقَارِيهَا الرِّيَاحُ

والبيت في المُحْتَسَب لابن جني ، والرواية فيه : « شَنِئْتُ العَقْرَ » ، ومعنى شنئتُ : كرهتُ ، وضُبطت (شليل) في اللسان بفتح الشين وكسر اللام الأولى ، وضبطت في المحتسب بضم الشين وفتح اللام ، ومعنى « إذا هبَّتْ لِقَارِيهَا » : إذا هبت عند وقتها الرياح ، وهو موضع الاستشهاد هنا .

(١) في الأصول: « وبعضهم كاهن ، وبعضهم شاعر » ، والزيادة للتوضيح .

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم ، وابن ماجه في الفتن ، وأحمد في مسنده (٢–١٦٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢١) ، ولفظه كما جاء في المسند : حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، ثنا إسماعيل ، عن يونس ، عن الحسن ، أن عبد الله بن عمرو قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف أنت إذا بقيت في حُثَالة من الناس) ؟ قال : قلت : يا رسول الله ، كيف ذلك ؟ قال : (إذا مَرِجَتْ عهودُهم وأماناتُهم وكانوا هكذا) ، وشبَّك يونس بين أصابعه يصف ذاك ، قال : قلتُ : ما أصنع عند ذاك يا رسول الله ؟ قال : (اتَّقِ الله عزَّ وجلَّ ، وخُذْ ما تعرف ودَعْ ما تُنكر ، وعليك بخاصتك ، وإيَّاك وعوامَّهم) . ومثل هذا الحديث ما رواه الإمام أحمد أيضاً في مسنده عن ميمونة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : (كيف أنتم إذا مَرِج الدينُ ، وظهرت الرغبة ، واختلفت الإخوان ، وحُرِّق البيتُ العتيق) ، والشاهد في الحديثين (مرج) بمعنى اختلط .

(٣) من الآية (١٩) من سورة (الرحمن) .

وقال الشاعر :

مَرِجَ الدِّينُ فَأَعْـــدَدْتُ لَهُ مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ (١)

ثم دلَّ تعالى على العبرة بقوله : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ الآية . و [زَيَّنَّاهَا] معناه : بالنجوم ، و « الفُرُوج » : الفطور خلالها وأثناءها ، قاله مجاهد وغيره ، وحكى النقاش أن هذه الآية تعطي أن السماء مستديرة ، وليس الأمر كما حكى إذا تُدُبِّر اللفظ وما يقتضي . و « الرَّواسي » : الجبال ، و « الزَّوْجُ » : النَّوْعُ ، و « الْبَهِيجُ » قال ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد : هو الحسن المنظر .

وقوله تعالى وجلَّ : ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾ منصوب على المصدر بفعل مضمر ، و « الْمُنِيب » : الراجع إلى الحق عن فكرة ونظر ، وقال قتادة : هو المقبل بقلبه إلى الله تعالى ، وخصَّ تعالى هذه الصنيفة بالذكر

---

(١) البيت لأبي دُؤادٍ الإيادي – جارية بن الحجاج – ، وهو في اللسان (مَرَجَ) ، قال : « ومَرَجَ العهد والأمانة والدين : فَسَدَ ، قال أبو دؤاد : مَرِجَ الدِّينُ ... البيت . والحاركُ : الكاهل ، والكَتَد : مجتمع الكتفين وهو الكاهل ، ويقال كَتَـِد – بفتح التاء وكسرها – وفي الحديث (كنا يوم الخندق ننقل التراب على أكتادنا) . يقول : إنه عندما اختلط الدين أعد للجهاد فرساً عالي الكاهل محكم الكتفين متين البناء ، ومثل هذا البيت قول الداخل الهذليّ يصف بقرة رماها بسهم :

فجالَتْ فالْتَمَسْتُ بِهِ حَشَاهَـا فَخَرَّ كَأَنَّهُ خُـــوطٌ مَـــرِيجُ

تشريفاً من حيث هي المنتفعة بالتبصرة والذكرى ، وإلّا فهذه المخلوقات هي تبصرة وذكرى لكل بشر ، وقال بعض النحويين : ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾ مفعولان من أجلهما ، وهذا محتمل . والأول أرجح .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُبارَكاً﴾ ، قيل : يعني جميع المطر ، كله يتصف بالبركة ، وإن ضَرَّ بعضه أحياناً ففيه مع ذلك الضُّرِّ الخاص البركةُ العامة ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاءَ المطر فسالت الميازيب قال : (لا مَحْل عليكم العام) ، وقال بعض المفسرين : ﴿مَاءً مُبارَكاً﴾ يريد به ماءً مخصوصاً خالصاً للبركة ينزله الله تعالى كل سنة ، وليس كل المطر

يتصف بذلك . وحَبُّ الحصيد هو البُرُّ والشعير ونحوه مما هو نبات محبب يُحصد ، و [ٱلْحَصِيدِ] صفة لمحذوف (١)، وقال مجاهد : حبُّ الحصيد : الحنطة .

و [بَاسِقَاتٍ] معناه : طويلات ذاهبات في السماءِ ، ومنه قول أَبي (٢) نوفل في ابن هُبيرة :

يَابْنَ الَّذِينَ بِجِدِّهِـــــمْ بَسَقَتْ عَلَى قَيْسٍ فَزَارَهْ (٣)

وروى قطبة بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ :

---

(١) التقدير : « وحَبَّ النَّبْتِ الْحَصيد » ، وهذا قول البصريين ، أما الكوفيون فيقولون : هذا من إضافة الشيء إلى نفسه ، كما يقال : مسجدُ الجامعِ ، وربيعُ الأولِ ، إذ المراد: المسجدُ الجامعُ ، والربيعُ الأولُ ، ومن هذا قوله تعالى: في سورة الواقعة : ﴿ لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ ، وقوله تعالى في هذه السورة : ﴿ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ، وإنما تضاف هذه الأشياء إلى أنفسها لاختلاف لفظ اسمها ، وهذا هو قول الفراء ، ذكره في « معاني القرآن » ، وهو أيضاً قول ابن قتيبة .

(٢) في الأصول : « ابن نوفل » .

(٣) هذا البيت من شواهد أبي عبيدة في « مجاز القرآن » ، قال : « ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ طوال ، يقال : جبل باسق ، وحَسَب باسق ، قال أبو نوفل لابن هُبيرة: «يابْن الذين ... البيت » . وذكر صاحب اللسان هذا البيت شاهداً على أن البُسوق هو الارتفاع في الفضل ، قال : « وَبَسَق على قومه : علاهم في الفضل ، وأنشد ابن بَرِّي لأبي نوفل : يابن الذين ... البيت» ، والرواية في مجاز القرآن وفي اللسان : « بِفَضْلِهم » بدلا من « بِجدِّهم » ، وفي حديث ابن الحنفية : كيف بسق أبو بكر أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أي : كيف ارتفع ذِكْرُه دونهم ؟

[بَاصِقَاتٍ] بالصاد (١) ، قــال أبو الفتح : الأَصل السين ، وإنما الصاد بدلٌ منها لاستعلاءِ القاف . و « الطَّلْعُ » أول ظهور التمر في الكُفُرَّى (٢) وهو أَبيض منضد كحبِّ الرمان ، فما دام ملتصقاً بعضه ببعض فهو نضيد ، وإذا خرج من الكفرى وتفرَّق فليس بنضيد . و [رِزْقاً] نصب على المصدر ، والضمير في [بِهِ] عائد على المطر ، ووصف البَلْدَة بـ « مَيْت » على تقدير القُطْر والبلد ، وقرأَ الناس : [مَيْتاً] مخفَّفاً ، وقرأَ أبو جعفر ، وخــالد : [مَيِّتاً] بالتثقيل ، ثمَّ بيَّن تبارك تعالى موضــع الشَّبه فقال : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ ، وهذه الآيات كلها إنما هي أَمثلة وأَدلَّة على البعث ، و « الخــروج » يريد به الخروج من القبــور .

و ﴿ أَصْحَابُ ٱلرَّسِّ ﴾ قومٌ كان لهم بئر عظيمة وهي الرَّسُّ ، وكلُّ ما لم يُطْوَ من بئر أَو معدن أَو نحوه فهو رسٌّ ، وأَنشد أبو عبيدة

---

(١) ذكر ذلك الثعلبي ، ونقله القرطبي ، ثم قال : « قلت : الذي في صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال : صَلَّيْتُ وصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ ﴿ قٓ وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ ، حتى قرأ : ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ ، قال : فجعلتُ أُردِدها ولا أدري ما قال ، إلاَّ أنه لا يجوز إبدال الصاد من السين لأجل القاف » . اهـ .

(٢) وعاءُ طلع النخل هو الكَفَرُ ، ويقال فيه : الكُفُرَّى والكِفِرَّى والكَفَرَّى ، والكُفَرَّى . (انظر اللسان) .

للنابغة الجعدي :

سَبَقْتَ إلى فَرَطِ نَاهِـلٍ تَنَابِلَةٍ يَحْفُرونَ الرِّسَاسَا (١)

وجاءهم نبيٌّ يسمَّى حنظلة بن سفيان فيما رُوي ، فجعلوه في الرَّسِّ وردموا عليه وأهلكهم الله تعالى ، وقال كعب الأَحبار في كتاب الزهراوي : أَصحاب الرَّسِّ هم أَصحاب الأُخدود ، وهذا ضعيف ؛ لأَن أَصحاب الأُخدود لم يكذِّبوا نبيًّا ، إنما هو ملِك أَحرق قوماً ، وقال الضحاك : الرَّسُّ بئْر قتل فيها صاحب يسن ، قال منذر : رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم قومُ عاد .

و « الأَيْكَةُ » شجر ملتف ، وهم قوم شعيب عليه السلام ، والأَلف واللام من « الأَيْكة » غير معرفتين لأَن «أَيكة» اسم علم كطلحة ،

---

(١) البيت في اللسان ، والفرَط — بفتح الفاء والراء — : القوم يتقدمون إلى الماء قبل الوارد فيهيئون لهم الدلاء والأرسان ويملئون الحياض ويستقون لهم ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أنا فرَطُكم على الحوض) بمعنى : أنا المتقدم منكم إليه يوم القيامة ، والناهل هو الشارب وإن شئت العطشان ، (انظر اللسان) ، ويروى « باهل » بالباء ، وهكذا هي في الطبري ، ومعناها المتردد بلا عمل ، والنَّاهل أنسب للمعنى هنا ، والتنابلة جمع تَنْبل على وزن جعفر ، وهو الرجل القصير ، ولعلَّ ذلك يشير إلى كسل أو عجز عن العمل ، والرِّساسُ جمع رَسٌّ ، والرَّسُّ : البئر القديمة ، أو هي المعدن ، أي المنجم الذي يستخرج منه المعادن ، وابن عطية يستشهد بالبيت هنا على أن كل ما حُفِر من بئر أو قبر أو منجم يُسَمَّى رَسّاً ، فإذا عرشت البئر بالحجارة فهي طويٌّ .

يقال : أَيْكة ولَيْكة ، فهي كالألف واللام في الشمس والقمر وفي الصِّفات الغالبة ، وفي هذا نظر ، وقرأ : [الأَيْكَةَ] بالهمز أبو جعفر ، ونافع ، وشيبة ، وطلحة .

و ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هم حِمْير ، و « تُبَّع » اسم المِلك فيهم ، يذهب تُبَّع ويجيءُ تُبَّع ، مثل كسرى في الفرس وقيصر في الرُّوم ، وكان أَسعد أَبو كرب أَحد التبابعة رجلًا صالحاً صحب حَبْرين فتعلَّم منهما دين موسى عليه السلام ، ثم إن قومه أَنكروا عليه ذلك ، فندبهم إلى محاجَّة الحَبْرين فوقعت بينهم مجادلة عظيمة ، واتفقوا على أن يدخل جميعهم النار التي في القربان فمن أَكلته النار فهو المبطل ، فدخلوا فاحترق قوم تُبَّع وخرج الحَبْران تعرق جباههما ، فهلك القوم المخالفون وآمن سائر قوم تُبَّع بدين الحَبْرين ، وفي الحديث اختلاف كثير أَثْبَتُّ أَصحَّ ذلك على ما في سير ابن هشام . وذكر الطبري عن سهل بن سعد أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لَا تلعنوا تُبَّعاً فإِنَّه كان قد أَسلم) (١) ، وذكر الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ تُبَّعاً كان نبيًّا .

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عن ابن لُهَيْعَة ، عن عمرو بن جابر الحضرمي ، عن سهل بن سعد السَّاعدي .

قوله تعالى : [كُلٌّ] ، قال سيبويه : التقدير : كُلُّهم ، وحذف لدلالة « كُلّ » عليه إيجازاً ، والوعيد الذي حقَّ هو ما سبق به القضاءُ من تعذيب الكفرة وإهلاك الأُمم المكذِّبة ، وفي هذا تخويف من كذَّب محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ توقيف للكفَّار وتوبيخ وإقامة للحجَّة الواضحة عليهم ، وذلك أن جوابهم على هذا التوقيف هو : لم يقع عِيٌّ ، ثم هم مع ذلك في لبْس من الإعادة ، وهذا تناقض ، يقال : عَيِيَ يَعْيَا إذا عجز عن الأَمر ، ويدغم هذا الفعل الماضي من هذا الفعل ، ولا يدغم المستقبل منه ، فيقال : عيَّ ، ومنه قول الشاعر :

عَيُّــو بِأَمْرِهُمُ كَمَــا عَيَّتْ بِبَيْضَتِهَا الْحَمَامَهْ (١)

و « الخلق الأَول » إنشاءُ الإِنسان من نطفة على التدريج المعلوم ، وقال الحسن : الخَلْقُ الأَوَّل آدم عليه السلام ، وحكاه الرُّمَّاني ، و « اللَّبْسُ » :

---

(١) هذا البيت لعبيد بن الأبرص الأسدي ، وهو من قصيدة أنشدها أمام حُجْر يصف حال قومه بعد أن أذلهم حُجْر وجعلهم عبيد العصا ، وهو في اللسان ، ويروى :

بَرِمَتْ بَنُو أَسَــدٍ كَمَا بَرِمَتْ بِبَيْضَتِهَـا الحَمَامَهْ

والبيت هنا كما في اللسان شاهد على أن الإدغام أكثر من التخفيف في (عَيِيَ) ، يقال : عَيَّ بأَمْرِهِ وَعَيِيَ إذا لم يهتد إلى الصواب .

الشَّكُّ والريبُ واختلاط النظر ، و «الْخَلْق الْجَدِيدُ» : البعث من القبور .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾

هذه آيات فيها إقامة حُجج على الكفار في إنكارهم البعث والجزاءِ ، و «الْخَلْقُ» إنشاءُ الشيءِ على تقدير وترتيب حكمي ، و «الإِنسان» : اسم الجنس ، وقال بعض المفسرين : الإنسان هنا آدم عليه السلام ، و [تُوَسْوِسُ] معناه : تتحدث في فكرتها ، وسُمِّي صوت الحُلِيِّ وسوسة لخفائه ، والوسوسة إنما تستعمل في غير الخير .

وقوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ عبارة عن قدرة الله تعالى على العبد ، وكون العبد في قبضة القدرة والعلم ، قد

أُحيط به ، فالقُربُ هو بالقدرة والسُّلطان ؛ إذ لا ينحجب عن علْم الله تبارك وتعالى باطن ولا ظاهر ، وكل قريب من الأَجرام فبينه وبين قلب الإنسان حجب ، و «الوريد» عرقٌ كبير في العُنق ، يقال : إنهما وريدان عن يمين وشمال ، قال الفراءُ : هو ما بين الحلقوم والعلباوين ، وقال الحسن : الوريد : الوتين ، قال الأَشرم : هو نهر الجسد ، هو في القلب الوتين ، وفي الظهر الأَبهر ، وفي الذراع والفخذ : الأَكحل والنَّسَا ، وفي الخنصر : الأُسيلم ، و «الحبلُ» اسم مشترك فخصَّصه بالإضافة إلى الوريد ، وليس هذا بإضافة الشيءِ إلى نفسه ، بل هي كإضافة الجنس إلى نوعه ، كما تقول : لا يجوز حي الطير بلحمه .

وأمَّا قوله تعالى : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ فقال المفسِّرون : العامل في [إذْ] هو [أَقْرَبُ] ، ويحتمل عندي أَن يكون العامل فيه فعلًا مضمراً تقديره : اذكر إذْ يَتَلَقَّى ، ويحسن هذا المعنى لأَنه أَخبر خبراً مجرداً بالخلق ، والعلم بخطرات الأَنفس ، والقرب بالقدرة والمِلْك ، فلما تمَّ الإخبار أَخبر بذكر الأَحوال التي تُصَدِّق هذا الخبر وتُبَيِّن وروده عند السَّامع ، فمنها : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ ، ومنها مجيءُ سكرة الموت ، ومنها النفخ في الصُّور ، ومنها مجيءُ كل نفس . و «الْمُتَلَقِّيَان» : المَلَكان المُوَكَّلان بكل إنسان ، ملَك اليمين الذي

يكتب الحسنات ، ومَلَك الشمال الذي يكتب السَّيِّئات ، قال الحسن : الحفظة أَربعة : اثنان بالنَّهار واثنان باللَّيل .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويؤيد ذلك الحديث (يتعاقبون فيكم ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار) ... الحديث بكماله (١). ويُروى أَن ملَك اليمين أَمير على ملَك الشمال ، وأَن العبد إِذا أَذنب يقول ملَك اليمين للآخر: تثبَّت لعلَّه يتوب ، ورواه إِبراهيم التيمي وسفيان الثوري ، و [قَعِيدٌ] معناه : قاعد ، وقال قوم هو بمنزلة «أَكيل» فهو بمعنى مُقَاعد ، وقال الكوفيون : أَراد «قُعوداً» فجعل الواحد موضع الجنس ، والأَول أَصوب لأَن المُقَاعد إِنما يكون عند قعود الإِنسان ، والقاعد يكون قاعداً على كل هيئات الإِنسان ، وقال مجاهد : قَعيدٌ رصد ، ومذهب سيبويه أَن التقدير : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فاكتفى بذكر الآخر

(١) أخرجه البخاري في المواقيت والتوحيد ، ومسلم في المساجد ، والنسائي في الصلاة ، ومالك في السفر ، وأحمد في مسنده (٢–٢٥٧) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلُّون) . واللفظ للبخاري .

عن ذكر الأَول ، ومثله عنده :

. . . . وَعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَا (١)

ومثله قول الفرزدق :

إنِّي ضَمِنْتُ لِمَنْ أَتاني ما جَنَى وَأَبي فكانَ وكُنْتُ غَيْرَ غَدُورِ (٢)

---

(١) هذا عجز بيت قاله كثير من قصيدة له ، والبيت بتمامه :

قَضَى كُلُّ ذي دَيْنٍ فَوَفَّى غَرِيمَهُ وعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنَّىً غَرِيمُهَا

وقَضَى : أدَّى ما عليه من الدَّيْن لصاحبه ، ووَفَّى : أعطاه حقَّه كاملا وافياً تامّاً ، والغريم : الدائن ، ومَمْطُول : لم يأخذ حقه بل تأجل موعد الوفاء به مرَّة بعد أُخرى ، والمُعَنَّى : المُتْعب الذي كُلِّف ما يشُق عليه أو الأسير ، يقول : إن صاحب كل ديْن أخذ حقَّه كاملا إلا غريم عزَّة وهو أنا ، فلم أزل محروماً مُتْعباً لا أنالُ إلا الوعود بعد الوعود ، والشاهد الذي يقصده ابن عطية هو قول كُثَيِّر : « غريمها » فقد تنازع فيه كلٌّ من (ممطول) و (مُعَنَّى) ، وهو يريد هنا أن الثاني وهو (مُعَنّىً) هو الذي عمل في (غريمها) ، واكتفى بذكره عن ذكره مع الأول وهو (ممطول) ، على أن بين النحويين خلاف طويل هنا ، ويمكن الرجوع إليه في كتب النحو ، وفي البيت شاهد آخر في الموضوع ذاته ، وهو في الشطر الأول لأن (قضى) تطلب (غريمه) مفعولاً ، وكذلك (وفَّى) تطلبه ، والخلاف بين النحويين في أيهما أحق بالعمل مذكور في كتب النحو .

(٢) بيت الفرزدق هذا من شواهد النحويين أيضاً في باب التنازع ، فإنَّ (كان) و (كُنتُ) كل منهما تطلب الخبر وهو « غير غدور » ، وأصل الكلام : فكان غير غدور ، وكنتُ غير غدور ، فحذف أحد الخبرين اكتفاءً بدلالة الآخر عليه ، وعند البصريين – وابن عطية على مذهبهم – أن الخبر الموجود هو خبر الثاني ، أما خبر الأول فقد حذف لدلالة الثاني عليه ، وقد استشهد بهذا البيت الطبري والقرطبي ، وهو مذكور في (معاني القرآن) للفراء ، والكتاب لسيبويه ، ومع كل هذا فهو غير موجود في الديوان .

وهذه الأَمثلة كثيرة ، ومذهب المبرد أَن التقدير : عن اليمين قعيد وعن الشمال ، فأَخَّر [قَعِيدٌ] عن مكانه ، ومذهب الفراءِ أَن لفظ «قعيد» يدل على الاثنين والجميع فلا يحتاج إلى تقدير غير الظاهر .

قوله تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ، قال الحسن بن أَبي الحسن ، وقتادة : يكتب الملكان جميع الكلام ، فيثبت الله من ذلك الحسنات والسيئات ويمحو غير ذلك ، وهذا ظاهر الآية . وقال أَبو الجوزاءِ ، ومجاهد : يكتبان عليه كل شيءٍ حتى أَنينه في مرضه ، وقال عكرمة : المعنى : ما يلفظ من قولٍ خيرٍ أَو شرٍّ ، وأَمَّا ما خرج عن هذا فإنه لا يُكتب ، والأَول أَصوب ، ورُوي أَن رجلًا قال لجمله : «حَلْ» (١) ، فقال ملَك اليمين : لا أَكتبها ، وقال ملَك الشمال : لا أَكتبها ، فأَوحى الله تعالى إلى ملَك الشمال أَن اكتب ما ترك صاحب اليمين ، ورُوي نحوه عن هشام الحمصي ، وهذه اللفظة إذا اعتبرت فهي بحسب مشيئته ببعيره ، فإن كان في طاعة فإن «حَلْ» حسنة ، وإن كان في معصية فهي سيئة ، والمتوسط بين هذين عسر الوجود ، ولا بد أَن يقترن بكل

---

(١) في اللسان : «يقال للناقة إذا زجرتها : حَلْ جزمٌ ، وحَلٌ مُنَوَّن ، ... وقال ابن سِيدَة : ومن خفيف هذا الاسم : حَلْ وحَلٍ لإناث الإبل خاصة» . فهو صوت لزجر الناقة أو الجمل ، وقال الجوهري في الصحاح : حَلْ : زجر للناقة ، وحَوْبٌ : زجر للبعير» .

أَحوال المرءِ قرائن تخلّصها للخير أَو لخلافه ، وحكى الثعلبي عن علي ابن أَبي طالب رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن مقعد الملَكيْن على الثنِيَّتَيْن ، فقامهما اللسان ومدادهما الريق) (١) ، وقال الضحاك ، والحسن : مقعدهما تحت الشعر ، وكان الحسن يحب أَن ينظِّف عنفقته (٢) لذلك ، قال الحسن : حتى إذا مات المرءُ طويت صحيفته ، وقيل له يوم القيامة : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ (٣) ، عَدَل والله من جعله حسيب نفسه . و « الرَّقيب » : المراقب ، و « العتيد » : الحاضر .

وقوله تعالى : [وَجَاءَتْ] عطف ـ عندي ـ على قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ﴾ ، فالتقدير : وإذ تجيءُ سكرة الموت ، وجُعل الماضي في موضع المستقبل تحقيقاً وتبييناً (٤) للأَمر ، وهو أَحثُّ على الاستعداد واستشعار القرب ،

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور عن علي رضي الله تعالى عنه موقوفاً ، قال : أخرج ابن أبي الدنيا في الصمت ، عن علي رضي الله عنه ، قال : (لسان الإنسان قلم المَلَك وريقُه مدادُه) ، وذكره مرفوعاً من رواية أبي نعيم ، والديلمي ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : « إن الله لطَّف المَلَكَيْن الحافظيْن حتى أجلسهما على الناجذين ، وجعل لسانه قلمهما ، وريقه مدادهما » . والناجذ : الضِّرس .

(٢) العنفقة شعيرات بين الشفة السفلى والذقن .

(٣) من الآية (١٤) من سورة (الإسراء) .

(٤) في بعض النسخ : « وتثبيتاً للأمر » .

وهذه طريقة العرب في ذلك ، وتبيين هذا في قوله تعالى : ﴿وَنُفِـخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ ، ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فإنها صيرورة بمعنى الاستقبال . وقرأ أبو عمرو: ﴿وَجَاءَت سَّكْرَةُ﴾ بإدغام التاء في السين ، وسكرةُ الموت : ما يعتري الإنسان عند نزعه ، والناسُ فيها مختلفة أحوالهم ، لكن لكل أحد سَكْرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن للْموت لسكرات) (١). وقوله تعالى : [بِالْحَقِّ] معناه : بلقاءِ الله تبارك وتعالى وفقد الحياة الدنيا ، وفي مصحف ابن مسعود : «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحقِّ بِالمَوْت» ، وقرأها ابن جبير ، وطلحة ، ويروى أن أبا بكر الصديق قالها لابنته عائشة رضي الله عنهما ، وذلك أنها قعدت عند رأْسه تبكي وهو ينازع فقالت :

لَعَمْرُكَ ما يُغْني الثَّرَاءُ عن الْفَتَى ... إذا حَشْرجَت يَوْماً وضاقَ بها الصَّدْرُ(٢)

ففتح أبو بكر رضي الله عنه عينيه وقال : لا تقولي هكذا وقولي :

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، والبخاري ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن عائشة رضي الله عنها ، ولفظه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه ركوة أو علبة فيها ماءٌ ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول : لا إلـٰه إلاّ الله ، إن للموت سكرات .

(٢) هذا البيت لحاتم الطائي ، وهو من قصيدة أكثر فيها من الحكم ، والرواية في الديوان : «أماويَّ ، ما يغني الثراءُ» ، والبيت في اللسان ، والحشرجة : صوت النفس ، وهو الغرغرة في الصدر . أمَّا «مَاوِيَّة» فهي امرأة حاتم ، وهو هنا يناديها ويوجه لها الحديث في هذا البيت وفي ستة أبيات أخرى من القصيدة نفسها ، يقول في مطلع كل بيت : أماويَّةَ .

«وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بالموتِ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيد» ، وقد روي هذا الحديث عن مشاهير القراءِ : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾(١) فقال أَبو الفتح : إِن شئت علقت الباءَ بـ [جَاءَتْ] كما تقول : «جئت بزيد» ، أَي : سقته ، وإِن شئت كانت بتقدير : ومعها الموت(٢).

واختلف المتأَولون في معنى «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بِٱلْمَوْتِ» ـ فقال الطبري ـ وحكاه الثعلبي ـ الحَقُّ : الله تعالى ، وفي إِضافة السكرة

---

(١) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، عن عبد الله بن اليمني مولى الزبير بن العوام ، قال : لما حضر أبو بكر تمثلت عائشة بهذا البيت :

أَعَاذِلُ ما يُغْني الحِـذَارُ عَنِ الْفَتَى إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِها الصَّدْرُ

فقال أبو بكر رضي الله عنه : ليس كذلك يا بُنَيَّة ، ولكن قولي : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ . أما ما نقله ابن عطية هنا وهو ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بِٱلْمَوْتِ﴾ فقيل إنها قراءة قرأ بها أبو بكر رضي الله عنه ، وقال القرطبي : «إن أبا بكر رضي الله عنه رويت عنه روايتان : إحداهما موافقة للمصحف فعليها العمل ، والأخرى مرفوضة تجري مجرى النسيان منه إن كان قالها ، أو الغلط من بعض من نقل الحديث» .

(٢) فهي متعلقة بمحذوف ، وتقع حالاً ، كقولك : خرج بثيابه ، أي : وثيابه عليه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ أي : وزينتُه عليه . أما على قول من قال إن قراءة أبي بكر رضي الله عنه : ﴿وجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بِٱلْمَوْتِ﴾ قراءة فقد قال أبو الفتح بعد أن نسبها إلى طلحة وسعيد بن جبير : «كيف يجوز أن تقول : (جاءت سكرة الحق بالموت) وأنت تريد به (جاءت سكرة الموت بالحق) ؟ فياليت شعري أيتها الجائية بصاحبتها ؟ قيل : إنهما اشتركتا في الحال ، وكل منهما قريبة من صاحبتها حتى كأن كل واحدة منهما جاءت بالأخرى» . ا هـ . بتصرف .

إلى اسم الله تعالى بُعْدٌ ، وإن كان ذلك سائغاً من حيث هي خلْق له ، ولكن فصاحة القرآن ورصفه لا يأْتي فيه هذا ، وقال بعض المتأَولين : المعنى : وجاءَت سكرة فراق الحياة بالموت ، وفراق الحياة حقٌّ يعرفه الإِنسان ويحيد منه بأَمَلِه ، ومعنى هذا الحيد أَنه يقول : أَعيش كذا وكذا ، فمتى فكَّر في قرب الموت حادَ بذهنه وأَمله إلى مسافة بعيدة من الزَّمان ، وأَيضاً فحذر المرءِ وتحرزاته ونحو هذا حيد كلُّه . وقد تقدَّم القول في النَّفخ في الصُّور مراراً ، و « يَوْمُ ٱلْوَعِيد » هو يوم القيامة ، وأَضافه إلى الوعيد تخويفاً.

قوله تعالى : ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ، قرأَ طلحة ابن مصرف : [مَحَّا] بالحاءِ مثقلة (١) ، و « السَّائق » : الحاثُّ على السَّير ، واختلف الناس في السائق والشهيد ـ فقال عثمان بن عفان ، ومجاهد ، وغيرهما : مَلَكَان مُوَكَّلان بكل إنسان ، أَحدهما يسوقه ، والآخر من حفظته يشهد عليه ، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه : السَّائق مَلَك ، والشَّهيد العمل ، وقال منذر بن سعيد : السائق ملَك ، والشهيد النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : وقيل : الشهيد الكتابُ الذي يلقاه منشوراً ،

---

(١) مع إدغام العين في الهاء فانقلبتا حاءً ، كما قالوا : ذهب « مَحُّم » يريدون « مَعَهُم » ، انظر البحر المحيط ٨ـ١٢٤ .

وقال بعض النظار : [سَائِقٌ] اسم جنس ، و [شَهِيدٌ] كذلك ، فالساقة للناس ملائكةٌ يوكلون بذلك ، والشهداءُ الحفظةُ في الدنيا وكلُّ ما يشهد ، وقال ابن عباس ، والضحاك : السائق مَلَك ، والشَّهيد جوارح الإنسان ، وهذا يبعد على ابن عباس رضي الله عنهما لأَن الجوارح إنما تشهد بالمعاصي ، وقوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يعم الصالحين ، فإنما معناه : شهيد بخيره وشرِّه ، ويقوى في [شَهِيدٌ] اسم الجنس ، فتشهد بالخير الملائكة والبقاع ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (لا يسمع صدى صوت المؤذن إنسٌ ولا جان ولا شيءٌ إلَّا شهد له يوم القيامة) (١) ، وكذلك تشهد بالشَّرِّ الملائكة والبقاع والجوارح ، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه : السائق ملَك والشهيد العمل ، وقال ابن مسلم : السائق شيطان ، حكاه عنه الثعلبي ، والقول في كتاب منذر بن سعيد ، وهو قول ضعيف .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان ، باب رفع الصوت بالنداء ، عن عبد الرحمن بن عبد الله الأنصاري ثم المازني ، عن أبيه ، أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري قال له : إنِّي أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذَّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيءٌ إلاَّ شهد له يوم القيامة ، قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورواه البخاري أيضاً في (بدء الخلق) ، كما أخرجه النسائي في الأذان ، ومالك في النداء ، وأحمد في مسنده (٣-٣٥ ، ٤٣ ، ٦٠) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾

قرأ الجحدري : ﴿لَقَدْ كُنْتِ﴾ بكسر التاءِ على مخاطبة النفس ، وكذلك كسر الكافات بعد ، وقال صالح بن كيسان ، والضحاك ، وابن عباس : معنى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ الآيَةَ أن يقال للكافر العاقل من ذوي التي معها السائق والشهيد إذا حصل بين يدي الرحمن عزَّ وجلَّ ، وعاين الحقائق التي كان لا يُصدِّق بها في الدنيا ويتغافل عنها وعن النظر فيها : لقد كنت في غفلة من هذا ، فلما كُشف الغطاءُ عنك الآن احتَدَّ بصرك ، أي بصيرتك ، وهذا كما تقول : « فلان حديد الذهن والفؤاد » ونحوه ، وقال مجاهد : هو بصر العين ، أي : اشتد التفاتُه إلى ميزانه وغير ذلك من أَهوال القيامة ، وقال زيد بن أَسلم : قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ، وقوله تعالى :

﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ الآية مخاطبة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أنه خوطب بها في الدنيا ، أَي : لقد كنت يا محمد في غفلة عن معرفة هذا القصص والغيب حتى أَرسلناك وأَنعمنا عليك وعلَّمناك فبصرك اليوم حديد .

وهذا التأْويل يضعف من وجوه : أَحدها أَن «الْغَفْلَة» إنما تنسب أَبداً إلى مُقَصِّر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لا تقصير له قبل بعثه ولا بعده ، وثانيها أَن قوله تعالى ـ بعد هذا ـ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ يقتضي أَن الضمير إنما يعود على أَقرب مذكور ، وهذا الذي يقال له : ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ـ وإن جعلناه عائداً على ذي النفس في الآية المتقدمة ـ جاءَ هذا الاعتراضُ لمحمد صلى الله عليه وسلم بين الكلامين غير متمكن ، فتأَمله ، وثالثها أَن معنى توقيف الكافر وتوبيخه على حاله في الدنيا يسقط ، وهو أَجرى في الآية وأَولى بالوصف ، والوجه عندي ما قاله الحسن ، وسالم بن عبد الله أَنها مخاطبة للإنسان ذي النفس المذكورة من مؤمن وكافر . و ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي الحياة بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ ، قال جماعة من المفسرين : قرينه من زبانية جهنم ، أَي قال : هذا العذابُ الذي لهذا الإنسان الكافر حاضرٌ عتيدٌ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ففي هذا تحريض على الكافر واستعجال به .

وقال قتادة ، وابن زيد : بل قرينه المَلَك المُوَكَّل بسَوْقه ، فكأنه قال : هذا الكافر الذي جُعل إليَّ سوقُه ، فهو لديَّ حاضِرٌ ، وقال الزهراوي : ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ : شيطانه ، وهذا ضعيف ، وإنما أوقع فيه أن القرين في قوله : ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ هو شيطانُه في الدنيا ومُغْويه بلا خلاف ، ولفظة القرين اسم جنس ، فسائقه قرين ، وصاحبه من الزبانية قرين ، وكاتب سيئاته في الدنيا قرين ، وتحتمله هذه الآية ، أي : هذا الذي أحصيتهُ عليه عتيد لديَّ ، وموجبٌ عذابه . ومُمَاشي الإنسان في طريقه قرين ، ومنه قول الشاعر :

عن ٱلْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَن قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي (١)

والقرين الذي في هذه الآية غير القرين الذي في قوله تعالى : ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ إذ المقارنة تكون على أنواع ، وقال بعض العلماءِ : قرينه في هذه الآية عَمَلُه قلباً وجوارحاً .

---

(١) هذا البيت شاهد على أن القرين يقال لمن يمشي مع إنسان في طريقه ، وأن كلمة القرين تطلق على كل من يقترن بالمرء في عمله أو في حياته ، قال في اللسان : « والقرين : صاحبك الذي يقارنك ، وقرينك : الذي يُقارنك ، والجمع قرناءُ » .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا في جَهَنَّمَ ﴾ معناه : يقال : أَلْقيا في جهنم ، واختلف الناس ، لمن يقال ذلك ؟ فقالت جماعة من المفسِّرين : هو قول لِمَلَكَيْن من ملائكة العذاب ، وقال عبد الرحمن بن زيد في كتاب الزهراوي : هو قول للسائق والشهيد ، وحكى الزهراوي أن المأْمور بإِلْقاءِ الكافر في النار اثنان ، وعلى هذين القولين لا نظر في قوله تعالى : [أَلْقِيَا] ، وقال مجاهد وجماعة من المتأَوِّلين: هو قول للقرين ، إمَّا السائق وإمَّا الذي هو من الزبانية حسب ما تقدَّم ، واختلف أهل هذه المقالة في معنى قوله تعالى : [أَلْقِيَا] وهي مخاطبة لواحد ـ فقال المبرد : معناه : أَلْقِ أَلْقِ ، فإنما أراد تثنية الأَمر مبالغة وتأْكيداً فردَّ التثنية إلى الضمير اختصاراً ، كما قال :

. . . . لَفتَكَ لأَمَيْنِ عَلَى نَـــابِلِ (١)

---

(١) هذا عجز بيت قاله امرؤ القيس من أبيات له قالها بعد أن انتصر على بني أسد ، والبيت بتمامه :

نَطْعَنُهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً لَفْتَكَ لأمَيْنِ عَلَى نَابِلِ

وهو في الديوان واللسان ، والرواية في الديوان : «كَرَّكَ » بدلا من « لَفْتَكَ » ، وسُلْكَى : طعناً مستوياً أو أمام الوجه ، ومخلوجة : معوجة عن يمين وشمال ، يريد أنهم يطعنونهم من أمام ومن يمين وشمال ، وكَرَّك : ردَّك ، وكذلك لَفْتَك ، واللأم : السهم ، والنابل : من يرمي بالنبل ، والمعنى : إننا نطعنهم ونعيد الطعن بسرعة كما نردُّ سهمين على صاحب نبْل =

يريد : ارم ، ارم . وقال بعض المتأَولين : المراد : «الْقِيَنْ» ، فعوَّض من النون أَلِفاً كما نُعَوِّض من التنوين ، وقال جماعةٌ من أَهل العلم بكلام العرب : هذا جرى على عادة العرب ، وذلك أَنها كان الغالب عندها أَن يترافق في الأَسفار ونحوها ثلاثة ، فكلٌّ واحد منهم يخاطب اثنين ، فكثر ذلك في كلامها وأَشعارها حتى صار عُرفاً في المخاطبة ، فاستعمل في الواحد ، ومن هذا قولهم في الأَشعار : خليلَيَّ ، وصاحِبَيَّ ، وقِفَا نَبْكِ (١) ، ونحوه ، وقد جرى المحدثون على هذا الرسم ، فيقول الواحد : حدَّثَنا – وإِنْ كان قد سمع وحده – ، ونظير هذه الآية في

= يرمي بسهمين ثم يعادان عليه بسرعة . وقد روى صاحب اللسان أن بعض أهل العلم سأل رؤبة عن هذا البيت فقال : حدثني أبي عن أبيه ، قال : حدثتني عمتي وكانت في بني دارم أنها سألت امرأ القيس وهو يشرب طلاءً مع عَلْقَمة بن عَبَدَة عن معناه فقال : مررتُ بنابل وصاحبه يناوله الريش لؤاماً وظُهاراً فما رأيت أسرع منه فشبَّهت به .

(١) أما (خليليَّ) فمثاله قول امرئ القيس :

خَلِيلَيَّ مُرَّابي على أُمِّ جُنْدَبِ ... نُقَضِّي لُبانات الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

وأما (صاحبيَّ) فمثاله قول أبي تمام :

يا صَاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا ... تَرَيَا وُجُوهَ الأَرْضِ كَيْفَ تصوَّرُ
تَرَيَا نَهَاراً مُشْمِساً قَدْ شَابَهُ ... زَهْرُ الرُّبَى فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرُ

وأمَّا (قِفَا نبك) ، فهو في مطلع معلقة امرئ القيس :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

هذا القولُ قولُ الحجَّاج : يا حَرَسَيَّ اضْرِبَا عنقه ، وهو دليل على عادة العرب ، ومنه قول الشاعر :

فَإِنْ تَزْجُرَانِـي يابْنَ عَفَّان أَنْزجرْ وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعا (١)

وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [أَلْقِياً] بتنوين [أَلْقِيَا] . و [كَفَّارٍ] بناءُ مبالغة ، و [عَنِيدٍ] معناه : عاند عن الحق ، أي مُنحرفٌ عنه .

---

(١) هذا البيت من شواهد الفراء التي ذكرها في (معاني القرآن) ، قال : «العرب تأمر الواحد بما يؤمر به الاثنان ، فيقولون للرجل : قوما عنا» وروى في ذلك مثالا ثم قال : «وأنشدني أبو ثروان : وإنْ تَزْجُرَاني ... البيت ، ونرى أن ذلك منهم أن الرجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه اثنان ، وكذلك الرفقة أدنى ما يكونون ثلاثة ، فجرى كلام الواحد على صاحبيه» ، والزَّجر : المنْع والنَّهْي والانتهار ، يقال : زجره يزجره فانزجر وازدجر ، والحماية : المَنْع والصيانة ، والعِرْض : ما يُمدح ويُذَمّ من الإنسان سواءٌ كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، ومعنى البيت : إن تركتماني حميتُ عرضي ممن يؤذيني ، وإن زجرتماني انزجرتُ وصبرتُ . هذا والبيت لسويد بن كُرَاع العُكْلِيّ ، وكان قد هجا بني عبد الله بن دارم فاستَعْدَوْا عليه سعيد بن عثمان ، فأراد ضربه ، فقال سويد قصيدةً بدأها بقوله :

تَقولُ ابْنَةُ الْعَوْفِيِّ لَيْلَى : أَلا تَرَى إلى ابْنِ كُرَاعٍ لا يَزَالُ مُفَزَّعا ؟
مَخافَةُ هَذَيْنِ الأميرَيْنِ سَهَّـدَتْ رُقَادي وغَشَّتْني بَيَاضاً مُقَزَّعَـا
فَإِنْ أَنْتُمَا أَحْكَمْتُمَاني فَازْجُـرَا أَرَاهِط تُؤْذِيني مِنَ النَّاسِ رُضَّعَـا
وإنْ تَزْجُرَانِي يَا بْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِـرْ وَإِنْ تَدَعَاني أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَا

وهذا يدل على أن العرب تخاطب الواحد بلفظ الاثنين ، فقد خاطب سعيد بن عفان بقوله : (وإن تزجراني) ، ولعله أراد سعيد بن عفان هذا ومن ينوب عنه أو يحضر معه . كذلك نلحظ أنه قال أيضاً (أحكمتماني) وهو خطاب للواحد بلفظ الاثنين .

وقوله تعالى : ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ لفظ عامٌّ للمال والكلام الحسن والتعاون على الأَشياءِ ، وقال قتادة ، ومجاهد ، وعكرمة : معناه : الزَّكاة المفروضة ، وهذا التخصيص ضعيف ، و [مُعْتَدٍ] معناه : بلسانه ويده ، و [مُرِيبٍ] معناه : مُتَلَبِّس بما يُرْتاب به ، أَرابَ الرجلُ إِذا أَتى بريبة ودخل فيها . قال الثعلبي : قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقال الحسن: [مُرِيبٍ] : شاك في الله تعالى ودينه .

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ﴾ الآية ، يحتمل أَن يكون [ٱلَّذِي] بدلًا من [كَفَّارٍ] ، ويحتمل أَن يكون صفة له من حيث تَخَصَّص [كَفَّارٍ] بالأَوصاف المذكورة فجاز وصفه بعد بالمعرفة ، ويحتمل أَن يكون [ٱلَّذِي] ابتداءً وخبره في قوله تعالى : [فَأَلْقِيَاهُ]، ودخلت الفاءُ للإِبهام الذي في [ٱلَّذِي] فحصل الشَّبه بالشَّرط ، وفي هذا نظر ، ويَقْوَى عندي أَن يكون [ٱلَّذِي] ابتداءً ، ويتضمن القول حينئذ بني آدم ,والشياطين الْمُغْوِين لهم في الدُّنيا ، ولذلك تحرَّك القرين الشيطان ٱلْمُغْوِي في الدُّنيا فرام أَن يُبرئَ نفسه ويخلِّصها بقوله لربِّه : ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ ، وقوله : ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ ليست بحجة لأَنه كذب في نفي الإِطغاءِ عن نفسه جملة ، والحقيقة أَنه أَطغاه بالوسوسة والتَّزيين ، وأَطغاه الله تعالى بالخلق والاختراع حسب سابق قضائه الذي هو عدل منه لا ربَّ غيره ، ويوصف بالضَّلال البعيد مبالغة ، أَي لِتَعَذُّر رجوعه إِلى الهدى .

وقوله تعالى : ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ معناه : قال الله تعالى لا تختصموا لديَّ بهذا النوع من المقاولة التي لا تفيد شيئاً إِذْ قد استوجب جميعكم النار . وقد أخبر تعالى بأنه تقع الخصومات لديه في الظُّلامات ونحوها مما فيه اقتصاص واقتضاءٌ ، فأيَّده تعالى بقوله : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (١) ، وجمع الضمير في قوله تعالى : ﴿لَا تَخْتَصِمُوا﴾ يريد تعالى بذلك مخاطبة جميع القُرناء ؛ إِذْ هو أَمرٌ شائع لا يقف على اثنين فقط ، وهذا كما يقول الحاكم لِخصمين : لا تغلظوا علي ، يريد الخصمين ومن هو في حكمهما ، وتَقْدِمَتُه تعالى إلى الناس بالوعيد هو ما جاءت به الرُّسل عليهم السلام والكُتب من تعذيب الكفرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

(١) الآية (٣١) من سورة (الزُّمر) .

المعنى : قد قدَّمتُ بالوعيد أنِّي أُعذِّب الكفَّار في ناري فلا يُبدَّل القول لديَّ ولَا يُنْقض ما أَبرمه كلامي ، ثم أَزال موضع الاعتراض بقوله : ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ، أَي : هذا عدلٌ فيهم ؛ لأَنِّي أَعذرت وأَمهلت وأَنعمت بالإِدراكات وهديت السبيل والنَّجدين وبعثت الرُّسل . وقال الفراءُ : معنى قوله تعالى : ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أَي ما يكذَّب لديَّ لعلمي بجميع الأُمور ، فتكون الإِشارة – على هذا – إِلى كذب الذي قال : ﴿مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ ، يجوز أَن يعمل في الظَّرف قوله تعالى : ﴿بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ، ويجوز أَن يعمل فيه فعل مضمر ، وقرأَ الجمهور من القراءِ وحفص عن عاصم : [نَقُولُ] بالنون ، وهي قراءَة الحسن ، وأَبي رجاءٍ ، وأَبي جعفر ، والأَعمش ، ورجَّحها أَبو عليٍّ بما تقدَّم من قوله تعالى : [قَدَّمْتُ] وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَنَا﴾ ، وقرأَ نافع ، وعاصم – في رواية أَبي بكر – [يَقُولُ] ، على معنى : يقول الله ، وهي قراءَة الأَعرج ، وشيبة ، وأَهل المدينة ، وقرأَ الحسن ، وابن مسعود ، والأَعمش أَيضاً : [يُقَالُ] على بناءِ الفعل للمفعول .

وقوله : ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ تقرير وتوقيف ، واختلف الناس ، هل وقع هذا التقرير فامتلأَت أَو هي لم تمتلِئ ؟ فقال بكل وجه جماعة

من المتأولين ، وبحسب ذلك تأوّلوا قولها : ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ، فمن قال إنها امتلأت جعل قولها : ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ على معنى التقرير ونفي المزيد ، أي : وهل عندي موضع يُزاد فيه شيءٌ ؟ ونحو هذا التأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم : (وهل ترك لنا عقيل منزلًا)(١) ، وهو تأويل الحسن ، وعمرو ، وواصل . ومن قال إنها كانت غير ملأى جعل قولها : ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ على معنى السؤال والرغبة في الزّيادة ، قال الرّمّاني : وقيل : المعنى وتقول خَزَنَتُهَا ، والقول إنها لقائلة أظهر .

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، وأبو داود ، عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : أصبتُ شارفاً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المغنم يوم بدر ، وأعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم شارفاً أُخرى ، فأنختها يوماً عند باب رجل من الأنصار وأنا أُريد أن أحمل عليها إذْخِراً لأبيعه ، ومعي صائغٌ من بني قيْنُقاع لأستعين به على وليمة فاطمة ، وحمزة بن عبد المطلب يشرب في ذلك البيت ، فثار إليهما حمزة بالسيف ، فجَبَّ أسنمتهما وبقر خواصرهما ثم أخذ من أكبادهما ، قلت لابن شهاب : ومِنَ السنام ؟ — وابن شهاب أحد الرواة — قال : جبَّ أسنمتهما فذهب بهما ، قال : فنظرت إلى منظر أفظعني ، فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم وعنده زيد بن حارثة فأخبرته الخبر ، فخرج ومعه زيد ، فانطلق معه ، فدخل على حمزة فتغيَّظ عليه ، فرجع حمزة بصره فقال : هلْ أنتم إلاَّ عبيد لأبي ؟ فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَهْقِرُ حتى خرج عنهم ، وذلك قبل تحريم الخمر . اهـ . وفي رواية لمسلم أن حمزة كان يشرب ومعه قَيْنَة تغنّيه ، والشارف : الناقة المُسِنَّة ، وجمعها : شُرْف — بضم الشين وسكون الراء ، والإذْخر : حشيش طيِّب الريح ، وله ثمرة تُطحن فتدخل في الطيب ، وجَبَّ : قطع ، وبَقر : شقَّ ، وتغيَّظ : أظهر الغيظ والغضب .

واختلف الناسُ في قول جهنم ـ هل هو حقيقة أَو مجاز ؟ أَي : حالها حالُ من لو نطق لقال كذا وكذا ، فيجري هذا مجرى :

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى (١)

ومجرى قول ذي الرُّمة :

. . . . تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلاَعِبُهْ (٢)

والذي يترجَّح في قول جهنم : ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أَنها حقيقة ، وأَنها قالت ذلك وهي غير ملْأَى ، وهو قول أَنس بن مالك رضي الله عنه ، ويبين ذلك الحديث الصحيح المتواتر ، قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يقول الله لجهنَّم : هل امتلأْتِ ؟ فتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع

---

(١) هذا البيت من الرجز في اللسان غير منسوب ، وذكر معه بيتاً آخر ، قال : يقال للبعير إذا أتعبه السير فمدّ عنقه وكثر أنينه : قد شكا ، ومنه قول الراجز :

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طولَ السُّرَى صَبْراً جُمَيْلِي فكِلانَا مُبْتَلَى

والسُّرَى : السير ليلاً ، والابتلاء : المحنة تنزل بالمرءِ ليختبر بها ، أو الغَمُّ والحزن والجهد الشديد في الأمر .

(٢) هذا عجز بيت قاله ذو الرُّمَّة ، وهو مع بيت قبله :

وَقَفْتُ عَلَى رَسْمٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهْ
وأَسْقِيه حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلاعِبُهْ

ومعنى أسقيه : أدعو له بالسُّقْيا ، وأَبُثُّه : أشكو إليه ، والبيت كالشاهد السابق يدل على أن العرب قد تنسب القول إلى الحيوان والجماد تَجَوُّزاً .

الجبار فيها قدمه فتقول : قَطْ ، قَطْ ، وينزوي بعضها إلى بعض) (١)، وقد اضطرب الناس في معنى هذا الحديث ، وذهب جماعة من المتكلِّمين إلى أَن «الجبَّار» اسم جنس ، وأَنه يريد المتجبِّرين من بني آدم ، ورووا أَن الله تعالى يُعِدُّ من الجبابرة طائفة يملأُ بهم جهنَّم آخراً ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَن جلدة الكافر يصير غِلَظُهَا أَربعين ذراعاً ، ويَعْظُم بدنُه على هذه النسبة (٢)، وهذا كله من ملء جهنم ، وذهب الجمهور إلى أَن الجبَّار اسم الله تبارك وتعالى ، وهذا هو الصحيح ، فإن في الحديث الصحيح (فيضع ربُّ العالمين فيها قَدَمَهُ) (٣)، وتأْويل هذا أَن «القَدَم» ما قدَّم لها من خَلْقه وجعلهم في علمه من ساكنيها ،

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع ربُّ العزَّة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قَطْ قَطْ بعزَّتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئَ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة) ، واللفظ لمسلم .

(٢) رواه مسلم في « الجنة » ، والترمذي في « جهنم » ، وأحمد في مسنده (٢–٢٦) ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (يعظُم أهلُ النار في النار حتى إن بين شحمة أُذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غِلَظَ جلده سبعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أُحد) .

(٣) جاء التعبير بـ « رب العالمين » في رواية لمسلم في الحديث الذي خرجناه في الهامش قبل السابق على هذا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ (١) ، فالقَدَم ما قُدِّم من شيءٍ ، ومنه قول الشاعر :

صَلِّ لِرَبِّكَ وَٱتَّخِذْ قَـــــدَماً يُنْجِيكَ يَوْمَ ٱلْعِثــارِ والزَّلَلِ (٢)

ومنه قول العجّاج :

. . . . وَيُنْشِئُ ٱلْمُلْكَ لِمَلْكٍ ذي قَــدَمْ (٣)

أَي ذي شرف متقدِّم ، وهذا التأْويل مروي عن ابن المبارك (٤) ، وعن

---

(١) من الآية (٢) من سورة (يونس) ، وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ وذكر أقوالهم ابنُ عطية في الجزء السابع ص ٩٦ وما بعدها ، والمختار أن « قدم الصدق » هو ما قدَّموه من أعمال ، وهو الذي اختاره الطبري .

(٢) قال هذا البيت الوَضَّاح (جَذيمة بن مالك بن فهم التَّنوخي) ، والرواية في القرطبي « صَلِّ لِذِي العَرْشِ » ، والشاهد أن « قَدَماً » هنا بمعنى ما يُقَدِّمه الإنسان من عمل ، يقول : اعبد الله واعمل الأعمال الصالحة فتنجو يوم القيامة . ورُوي عن أحمد بن يحيى أن القَدَم هي كلُّ ما قدَّمت من خير ، ذكر ذلك صاحب اللسان .

(٣) هذا عجز بيت ، وقد ورد البيت كاملا في القرطبي مع اختلاف في الألفاظ ، قال :

زَلَّ بَنُو العَوَّامِ عَنْ آلِ الحَكَـــمْ وَتَرَكُوا المُلْكَ لِمَلْكٍ ذي قَــــدَمْ

والشاهد هنا أن قوله : « ذي قدم » معناه : ذو سابقة في الأفعال ، أو ذي شرف متقدم كما قال ابن عطية .

(٤) هو عبد الله بن المبارك المَرْوَزي ، مولى بني حنظلة ، ثقة ، ثبت ، فقيه عالم ، جواد مجاهد ، جُمعت فيه خصال الخير ، مات سنة إحدى وثمانين ، وله ثلاث وستون سنة . (تقريب التهذيب) .

النَّضْر بن شُمَيْل (١)، وهو قول الأُصوليين ، وفي كتاب مسلم بن الحجَّاج : (فيضع الجبَّارُ فيها رجْله) (٢)، ومعناه الجمع الذي أُعِدَّ لها ، يقال للجمع الكثير من الناس : «رِجْلٌ» تشبيهاً برجْــل الجراد ، قال الشاعر :

فَمَرَّ بِهَا رِجْلٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَانْزَوَى إِلَيْهِمْ من الْحَيِّ الْيَمَانِيِّ أَرْجُلُ (٣)

وملاك النظر في هذا الحديث أن الجارحة والتشبيه وما جرى مجراه منتف كل ذلك ، فلم يبق إلَّا إخراج الألفاظ على هذه الوجوه السائغة في كلام العرب .

---

(١) هو النضر بن شُمَيْل المازني ، أبو الحسن النَّحْوي ، نزيل مَرْوٍ ، ثقة ثبت ، مات سنة أربع ومائتين ، وله اثنتان وثمانون سنة ، (تقريب التهذيب) .

(٢) جاء ذلك في إحدى الروايات التي رواها مسلم رحمه الله .

(٣) هذا البيت شاهد على أن (الرِّجْلَ) بكسر الراء وسكون الجيم هو الطائفة من الشيء ، أو الجمع من الشيء ، وقد استشهد به القرطبي ، وذكره مع بيت آخر غير منسوبين ، قال : يقال رأيتُ رِجْلا من الناس ورِجْلا من الجراد ، قال الشاعر :

فَمَرَّ بِنَا رِجْلٌ مِنَ النَّـــاسِ وانْزَوَى إِلَيْهِمْ مِنَ الحَيِّ الْيَمَانِينَ أَرْجُــلُ
قَبَائِلُ مِنْ لَخْمٍ وعُكْلٍ وَحِمْيَــرٍ عَلَى ابْنَيْ نِزَارٍ بالعَدَاوَةِ أَحْفَــلُ

وفي اللسان : «والرِّجْلُ : الطائفة من الشيء ، أُنثى ، وخصَّ بعضُهم به القِطعةَ العظيمة من الجراد ، والجمع أرجال ... ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما : أنه دخل مكة رِجْلٌ من جرادٍ ، فجعل غلمان مكة يأخذون منه ، فقال : أما إنهم لو علموا لم يأخذوا منه ، كره ذلك في الحرم لأنه صيد» .

و «أُزْلِفَتْ» معناه : قُرِّبتْ ، وقوله تعالى : ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأْكيد وبيان أَن هذا التقريب هو في المسافة ، لأَن «قُرِّبت» كان يحتمل أَن يكون المعنى : بالوعد والإِخبار ، فَرُفع الاحتمالُ بقوله : ﴿غَيْرَ بَعيد﴾ .

وقوله تعالى : ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ الآيةَ يحتمل أَن يكون معناه : يقال لهم في الآخرة عند إِزْلاف الجنة : هذا هو الذي كنتم توعدون به في الدنيا ، ويحتمل أَن يكون المعنى أَنه خطاب لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أَي : هذا هو الذي توعدون به أَيُّها الناس لكلِّ أَوَّاب حفيظ ، و «الْأَوَّابُ» : الرَّجَّاع إِلى الطَّاعة وإِلى مراشد نفسه ، وقال ابن عباس ، وعطاءٌ : الأَوَّابُ المُسَبِّح ، من قوله تعالى : ﴿يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ (١) ، وقال الشعبي ، ومجاهد ، هو الذي يذكر ذنوبه فيستغفر ، وقال المحاسبي : هو الرَّاجع بقلبه إِلى الله تعالى ، وقال عُبَيْد ابن عمير : كنَّا نتحدث أَن الذي إِذا قام من مجلسه استغفر الله تعالى ممَّا جرى في ذلك المجلس ، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل . و «الحفيظ» معناه : لأَوامر الله تعالى فيمتثلها ، ولنواهيه فيتركها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : حفيظ لذنوبه حتى يرجع عنها .

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (سبأ) .

وقوله تعالى : ﴿مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يحتمل أن يكون من نَعْتِ «الأَوَّاب» أو بدلًا من [كُلٍّ] (١) ، ويحتمل أن يكون رفعاً بالابتداءِ ، والخبر : يقال لهم : ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَام﴾ ، ويحتمل أن تكون شرطية فيكون الجواب : يقال لهم : ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ ، وقوله تعالى : [بِالْغَيْبِ] معناه : غير مشاهد له ، إنما يصدِّق رسوله ويسمع كتابه ، وجاءَ أن معناه : يوم القيامة ، و «الْمُنِيبُ» : الرَّاجع إلى الخير والمائل إليه ، وقوله تعالى : [ٱدْخُلُوهَا] تقرير يقال لهم ، أو : فيقال لهم ، على ما تقدَّم . و «سلام» معناه : بأَمْن وسلامة من جميع الآفات ، وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ مقابلٌ لقوله تعالى قبْلُ في أمر الكفار : ﴿ذَلكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ خبرٌ بأَنهم يُعطون آمالهم أَجمع ، ثمَّ أَبهم تعالى الزِّيادة التي عنده للمؤمنين المنعَّمين ، وكذلك هي مُبْهمة في قوله تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (٢) ، وقد فسّر ذلك الحديثُ الصحيح في قوله صلى الله عليه وسلم : (يقول الله تعالى : أَعددت لعبادي الصَّالحين

(١) في قوله تعالى : ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ .
(٢) من الآية (١٧) من سورة (السجدة) .

ما لا عينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خَطر على قلب بشر ، بَلْهَ ما اطلعتم عليه) (١) ، وقد ذكر الطبريُّ وغيره في تعيين هذا المزيد أَحاديث مطوَّلة وأَشياء ضعيفة ؛ لأَن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ وهم يُعيِّنُونها تكلُّفاً وتعشُّقاً ، ورُوي عن جابر بن عبد الله ، وأَنس رضي الله عنهما أَن المزيد : النَّظرُ إِلى وجه الله تعالى بلا كيف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد وبدء الخلق وتفسير سورة السجدة ، ومسلم في الإيمان ، والجنة ، والترمذي في الجنة وتفسير سورة السجدة وتفسير سورة الواقعة ، وابن ماجه في الزُّهد ، والدارمي في الرِّقاق ، وأحمد في مسنده (٢-٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٤٧٠ ، ٥-٣٣٤) ، ولفظه كما جاء في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قال الله تبارك وتعالى: أعددتُ لعبادي الصَّالحين ما لا عَيْنٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خطر على قلب بشر) ، قال أبو هريرة : اقرءُوا إن شئتم : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ، وفي رواية مسلم زيادة هي : (ذُخْراً ، بَلْهَ ما اطلعتم عليه) ، ومعنى ذخْراً : مُعَدّاً . وأمَّا (بَلْهَ) فهو اسم فعل بمعنى (دَعْ) .

[كَمْ] للتكثير ، وهي خبرية ، والمعنى : كثيراً أهلكنا قبلهم. و «القَرْن» : الأُمَّة من الناس الذين يمر عليهم قدرٌ من الزَّمان ، واختلف الناس في ذلك القدر ـ فقال الجمهور : مائة سنة ، وقيل غير هذا ، وقد تقدَّم القول فيه غير مرَّة ، و «شِدَّةُ ٱلْبَطْشِ» هي بكثرة القوة والأَموال والمُلك والصحة والأَذهان إلى غير ذلك . وقرأَ الجمهور من الناس: [فَنَقَّبُوا] بشدِّ القاف المفتوحة على إسناد الفعل إلى القرون الماضية ، والمعنى : وَلَجُوا البلاد من أَنْقابها ، وفي الحديث : (إنَّ على أَنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطَّاعون ولا الدجَّال) (١)، والمراد : تطوَّفوا ومشوْا طماعية في النجاة من الهلكة ، ومنه قول الشاعر :

وقدْ نَقَّبْتُ في الآفَـــاقِ حَتَّى رَضِيتُ منَ الْغَنِيمَةِ بالإِيــاب (٢)

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل المدينة وفي الفتن ، ومسلم في الحج ، ومالك في المدينة ، وأحمد في مسنده (٢ـ٢٣٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨) ، عن نعيم بن عبد الله أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الدجال ولا الطاعون) ، والنَّقب : الخرق في الجدار ، وجمعه أنقاب .

(٢) هذا البيت لامرئ القيس ، وهو في الديوان ، واللسان ، ومجاز القرآن ، والطبري ، والقرطبي ، والبحر ، ورواية الديوان : (وقد طوَّفت في الآفاق) ، والتنقيب : الذهاب في الأرض والتطواف ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، والشاعر يفخر بنفسه في هذا البيت وفي القصيدة كلها ، ويقول : إنه قاد الجيوش في سبيل تحقيق مآربه الكبيرة ، لكنه بعد أن تعب رضي بالعودة سالماً .

وقول الحارث بن حِلِّزَةَ اليَشْكُرِيِّ :

نَقَّبُوا في الْبلادِ مِنْ حَذَرِ الْمَــوْ ــتِ وجَالُوا في الْأَرْضِ كُلَّ مَجَالِ (١)

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن يَعْمَر ، ونصَّار بن يسار ، وأبو العالية : [فَنَقِّبُوا] بشدِّ القاف المكسورة على الأمر لهؤلاءِ الحاضرين ، و ﴿هَلْ مِنْ مَحيصٍ﴾ توقيف وتقرير ، أي : لا محيص ، و « المحيص » موضع الحيص وهو الروغان والحياد ، قال قتادة : حاصَ الكفرة فوجدوا أمر الله مُتَّبِعاً مُدْرِكاً ، وفي صدر البخاري : (فحاصوا حَيْصَة حُمُر الوحش إلى الأَبواب) (٢) وقال ابن عبد شمس في وصف ناقته :

---

(١) هو شاهد على أن معنى « نَقَّبُوا في البلاد ... » هو : طوَّفوا في البلاد ، وذهبوا فيها مذاهب متعددة يلتمسون الهروب من الموت . والمجال : موضع الجولان ، يقول : جالوا في الأرض وطوفوا في كل مكان .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي وفي تفسير سورة النساء ، وكلٌ من أبي داود والترمذي في الجهاد ، وأحمد في المسند (٢–٧٠ ، ١٠٠) ، وهو حديث طويل ، رواه ابن عباس رضي الله عنهما ، عن أبي سفيان حين كان في تجارة بالشام في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، قال : إن هرقل أرسل إليه مع صحبه وسألهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : قلت : أنا أقربهم نسباً ، فلما سأله هرقل قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه . وفي آخر الحديث أن هرقل أُتي برجل أرسل به ملِك غسان يخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أَمُخْتَتِنٌ هو أم لا ، فنظروا إليه فحدثوه أنه مُخْتَتن ، وسأله عن العرب ، فقال: هم يختتنون ، فقال =

إِذَا حَاصَ الدَّلِيلُ رَأَيْتَ مِنْهَـــا جُنُوحاً لِلطَّرِيقِ عَلَى اتِّسَـــاقِ (١)

وقرأ أبو عمرو - في رواية عُبَيْد عنه - : [فَنَقَبُوا] بفتح القاف وتخفيفها ، وهي بمعنى التشديد ، واللَّفظة أيضاً قد تقال بمعنى البحث والطلب ، تقول : نقَّب عن كذا إذا استقصى عنه ، ومنه «نقيب القوم» لأنه الذي يبحث عن أُمورهم ويباحث عنها ، وهذا عندي تشبيه بالدخول من الأنقاب .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ يعني إهلاك من مضى ، و «الذِّكْرَى» : التَّذكرة ، و «القَلْبُ» عبارة عن العقل إِذْ هو محله ،

= هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برُوميَة ، وكان نظيره في العلم ، وسار هرقل إلى حمص ، فلم يَرِم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه نبيٌّ ، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فَغُلِّقَت ، ثم اطَّلع فقال : يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرُّشد وأن يثبت مُلْكُكُم فتبايعوا هذا النبيَّ ؟ فحاصوا حَيْصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقَت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال : رُدُّوهم عليَّ ، وقال : إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيتُ ، فسجدوا له ، ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل . اهـ .

(١) يستشهد المؤلف بهذا البيت على أن الحيص هو الحَيْدُ والرَّوَغَانُ ، قال في اللسان : «الحَيْصُ : الحَيْد عن الشيء ، حاص عنه يحيص حيصاً : رجع ، ويقال : ما عنه محيصٌ ، أي محيد ومهرب» ، والدليلُ : المرشدُ ، والجُنُوحُ : المَيْلُ ، والاتِّسَاقُ : الانتظام والاستواء. يقول الشاعر : إذا حاد الدليل عن الطريق فإن ناقته تميل بحسِّها وخبرتها إلى الطريق الصحيح فتمضي فيه على اتساق .

والمعنى : لمن كان له قلبٌ واعٍ ينتفع به ، وقال الشِّبلي : معناه : قلب حاضر مع الله تعالى لا يغفل عنه طرفة عين ، وقوله تعالى : ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ معناه : صرف سمعه إلى هذه الأَنباءِ الواعظة ، وانتبه في سماعها ، فذلك إلقاءٌ له عليها ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ (١) ، أي : أَثبتها عليك ، وقال بعض الناس : قوله تعالى : ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ وقوله : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ (٣) ، هي مما قلَّ استعماله الآن وبعدت معانيه ، وقول هذا القائل ضعيف ، بل هي بَيِّنَة المعاني ، وقد مضت في مواضعها ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال بعض المتأولين : معناه : وهو مُشاهد مُقبل على الأَمر غير مُعرض ولا متفكر في غير ما يسمع ، وقال قتادة : هي إشارة إلى أَهل الكتاب ، فكأَنه تعالى قال : إن هذه العِبَر لَتَذْكِرَة لِمَن له فهم فيتدبَّر الأَمر ، أَو لمن سمعها من أَهل الكتاب فشهد بصحتها لعلمه بها من كتاب التوراة وسائر كتب بني إسرائيل ، فَ [شَهِيدٌ] على التأْويل الأَول من المشاهدة ، وعلى التأْويل الثاني من

---

(١) من الآية (٣٩) من سورة (طه) .
(٢) من الآية (١١) من سورة (الكهف) .
(٣) من الآية (١٤٩) من سورة (الأعراف) .

الشهادة ، وقرأ السدي : ﴿أَوْ أُلْقِـيَ ٱلسَّمْعُ﴾ (١) ، قال ابن جني : أَيْ أُلْقِيَ السَّمْعُ منه ، حكى أَبو عمرو الداني أَنَّ قراءة السُّدِّي ذكرت لعـاصم فمقت السدي وقـال : أَليس الله تعالى يقول : ﴿يُلْقُـونَ ٱلسَّمْعَ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآيةَ ... خبرٌ مُضَمَّنُهُ الرَّدُّ على اليهود الذين قالوا : إِنَّ الله خلق الأَشياءَ كلها في ستَّة أَيام ثم استراح يوم السبت ، فنزلت ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُـوبٍ﴾ ، واللغوبُ : الإِعيـاءُ والنَّصَب والسأَم ، يقال : لَغَبَ الرجـل يَلْغُبُ

(١) جاءت القراءة في الأصول بدون ضبط ، وقد ضبطها ابن جني في المحتسب ، وأبو حيان في البحر ، وهي بضم الهمزة وكسر القاف من [أُلْقِـيَ] وبرفع العين من [ٱلسَّمْعُ] ، فالفعل مبني للمفعول ، و [ٱلسَّمْعُ] نائب فاعل . قال أبو الفتح : « أي : أُلْقِـيَ منه ، وهذا كأنه أندى معنى إلى النفس من القراءة العامة ، وذلك أن قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ معناه : أَلْقَى سمعه نحو كتاب الله تعالى ، وهو شهيد ، أي : قلبُه حاضر معه ، ليس غرضه أن يُصغي كما أُمر بالاصغاء نحو القرآن ، ولا يجعل قلبَه إليه ، إلا أن ظاهر الأمر وأكثره أنه إذا أَلْقى سمعه أيضاً فقلْبه أيضاً نحوه معه ، وهذه القراءة المنفردة كأنها أشدُّ تشابُهَ لفظ ؛ لأن ظاهرها أن قَلْبَه أُلْقي إليه ، وليس في اللفظ أنه هو أَلقاه ، فاتصل بعض ببعض ، فكأنه أُلْقيَ إليه سمعُه وقَلْبُه ، حتى كأن مُلْقياً غيره أَلْقَى سَمْعَهُ إلى القرآن ، وليس عجباً أن يقال : إن قلبه عند ذلك معه ، لأنه إذا كان هو الذي ألقاه نحوه فالعُرف أن يكون قلبه معه ، وهو شاهد لا غائب» ، قارن هذا بما ذُكر عن عاصم .

(٢) من الآية (٢٢٣) من سورة (الشعراء) .

إذا أعيا (١) ، وقرأ السُّلَمي ، وطلحة : [لَغُوبٍ] بفتح اللام .

وتظاهرت الأَحاديث بأَن بدءَ خلق الأَشياءِ كان يوم الأَحد ، وفي كتاب مسلم ، ، وفي الدلائل لثابت حديث مضمنه أَن ذلك كان يوم السبت ، وعلى كل قول فأَجمعوا على أَن آدم عليه السلام خُلق يوم الجمعة ، فمن قال إن البدأة يوم السبت جعل خلق آدم عليه السلام كخلق بنيه لا يُعد من الجملة الأُولى ، وجعل اليوم الذي كملت المخلوقات عنده يوم الجمعة .

قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ ، قال بعض المفسرين : المراد أَهل الكتاب لقولهم : ثم استراح يوم السبت ، وهذه المقالة من أَهل الكتاب كانت بمكة قبل الهجرة ، وقال النظَّار من المفسِّرين : قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ يراد به أَهل الكتاب وغيرهم من الكفرة ، وعم بذلك جميع الأَقوال الزائفة من قريش وغيرهم ، وعلى هذا التأْويل يجيءُ قول من قال إن الآية منسوخة بآية السيف ، و [سَبِّحْ] معناه : صَلِّ بإجماع من المتأَولين . وقوله تعالى : ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾

---

(١) في اللسان : لَغَب يَلْغُب – بفتح الغين في الماضي وضمها في المضارع ، ولَغِبَ – بكسر الغين – لغة ضعيفة .

الباءُ للاقتران ، أي : سَبِّح سُبْحَةً (١) يكون معها حَمْدٌ ، ومثله : ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ (٢) على بعض الأقوال فيها ، و ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ هي الصُّبح ، ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ هي العصر ، قاله قتادة ، وابن زيد ، والناس ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿قَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر ، ﴿وَمِنَ ٱللَّيْلِ﴾ هي صلاة العشاءَيْن ، وقال ابن زيد : هي العشاءُ فقط ، وقال مجاهد : هي صلاة اللَّيل ، وقوله تعالى : ﴿وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ﴾ ، قال عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو هريرة ، والحسن ، والشعبي ، وإبراهيم ، ومجاهد ، والأوزاعي : هي الركعتان بعد المغرب ، وأسنده الطبري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) ، كأنه رُوعي أدبار صلاة النهار كما رُوعي أدبار النجوم في صلاة الليل فقيل: هي الركعتان مع الفجر ،

---

(١) في اللسان : « السُّبْحةُ : الدعاءُ ، وصلاة التطوع والنَّافلة ، يقال : فرغ من سُبْحتِه ، أي من صلاته النافلة ، قال ابن الأثير : وإنما خُصَّت النافلة بالسُّبْحَة وإن شاركتها الفريضة في معنى التسبيح لأن التسبيحات في الفرائض نوافل ، فقيل لصلاة النافلة سُبْحَة » .

(٢) من الآية (٢٠) من سورة (المؤمنون) .

(٣) قال الطبري : حدثنا أبو كُرَيْب ، قال : ثنا أبو فضيل ، عن رشيد بن كُرَيْب ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا ابن عباس ، ركعتان بعد المغرب أدبار السجود) .

وروي عن ابن عباس أن «أدبار السجود» الوتر ، حكاه الثعلبي ، وقال ابن زيد ، وابن عباس أيضاً ، ومجاهد : هي النوافل إثر الصلوات ، وهذا جار مع لفظ الآية ، وقال بعض العارفين : هي صلاة الليل ، وقال الثعلبي : وقال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ ركعتا الفجر ، ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ الركعتان قبل المغرب ، وقال بعض التابعين : رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يهبُّون إليها كما يهبُّون إلى المكتوبة ، وقال قتادة : ما أدركت أحداً يصلي الركعتين قبل المغرب إلَّا أنساً وأبا برزة . وقرأ ابن عباس ، وابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وعيسى ، وشبل ، وطلحة ، والأعمش : [وَإِدْبَارَ] بكسر الألف ، وهو مصدر أُضيف إليه وقت ثم حذف الوقت ، كما قالوا : جئتك مَقْدِمِ الحج وخُفوقَ النَّجم ونحوه ، وقرأ الباقون ، والحسن ، والأعرج : [وَأَدْبَارَ] بفتح الهمزة ، وهو جمع دُبُر كطُنُبٍ وأطناب ، أي : وفي أدبار السجود ، أي في أعقابه ، قال أوس ابن حجر :

عَلَى دُبُرِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَأَرْضُنَا ... وَمَا حَوْلَهَا جَدْبٌ سِنِينٌ تَلْمَعُ(١)

---

(١) لم أجد هذا البيت في الديوان (دار صادر ـ تحقيق د. محمد يوسف نجم) ، ودُبُر الشَّهر : آخره ، يقال : جئتك دُبُرَ الشهر وفي دُبُرِه وعلى دُبُرِه ، والجمع من كل ذلك أَدْبَار . وأرْضٌ جَدْبٌ وجدبة بمعنى مجدبة ، والجمع جدوب ، وسُنِّتَت الأرضُ فهي =

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى : [وَٱسْتَمِعْ] هو بمنزلة «وانْتظر» ، وذلك أَن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بأَن يستمع في يوم النداءِ لأَن كلَّ من فيه يستمع ، وإنما الآية في معنى الوعيد للكفار ، وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : تحسَّس وتسَمَّع هذا اليوم وارتقبه فإِن فيه تبيين صحة ما قلته ، وهذا كما تقول لمن تَعِدُهُ بورود فَتْح : استمع كذا وكذا ، أَي كُنْ منتظراً له مستمعاً ، فعلى هذا فنصب [يَوْمَ] إنما هو على المفعول الصريح . وقرأَ ابن كثير [ٱلْمُنَادِي] بالياءِ وصلًا ووقفاً على الأَصل الذي هو ثبوتها ؛ إذ الكلام غير تامٍّ ، وإنما الحذف أَبداً في الفواصل

= مسنونةٌ وسَنِينٌ إذا أُكِلَ نباتُها ، ويقال : هذه بلادٌ سَنِين أي جدبة ، (راجع اللسان) فقد ذكر ذلك ، واستشهد عليه بقول الطِّرِمَّاح :

بِمُنْخَرَقٍ تحِنُّ الرِّيحُ فيهَ حَنِينَ الْجُلْبِ في الْبَلَدِ السَّنِينِ

يعني : في البلد المحل .

وفي الكلام التَّام تشبيهاً بالفواصل ، وقرأ أبو عمرو ، ونافعٌ في الوقف بغير ياءٍ لأَن الوقف موضع تغيير ، أَلا ترى أَنها تُبدَّل من التاءِ فيه الهاءُ في نحو «طلحة» و «حمزة» ، وتبدل من التنوين الأَلف، ويضعف فيه الحرف كقولك : هذا فوجٌ ، ويحذف فيه الحرف في القوافي . وقرأ الباقون ، وطلحة ، والأَعمش ، وعيسى بحذف الياءِ وصلًا ووقفاً اتباعاً لخط المصحف ، وأَيضاً فإن الياءَ تحذف مع التنوين فوجب أَن تحذف مع معاقب التنوين ، وهما الأَلف واللام .

قوله تعالى : ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ، قيل : وصفه بالقرب من حيث يسمع جميع الخلائق ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَن مَلكاً ينادي من السماءِ : أَيتها الأَجساد الهامدة ، والعظام البالية ، والرمم الواهية ، هلُمَّ إِلى الحشر والوقوف بين يدي الله تعالى (١) ، وقال كعب الأَحبار ، وقتادة ، وغيرهما : المكان صخرة بيت المقدس ، واختلفوا في معنى صفتها بالقرب ـ فقال قوم : وصفها بذلك لقربها من النبي صلى الله عليه وسلم ، أَي من مكة ، وقال كعب الأَحبار : وصفها بالقرب من السماءِ ، وروي أَنها أَقرب الأَرض إِلى السماءِ بثمانية

---

(١) أخرجه ابن عساكر ، والواسطي في (فضائل بيت المقدس) ، عن يزيد بن جابر ، في قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ ، وفيه أن الملك هو إسرافيل ، وأخرج مثله ابن جرير عن كعب . (الدر المنثور) .

عشر ميلًا ، وهذا الخبر إن كان بوحي وإلَّا فلا سبيل إلى الوقوف على صحته .

و « الصَّيْحَةُ » هي صيحةُ المنادي ، و « الخروج » هو من القبور ، و « يوْمُهُ » هو يوم القيامة ، و « يوم الخروج » في الدنيا هو يوم العيد ، وقال حسَّان بن ثابت :

وَلَأَنْتِ أَحْسَنُ إذْ بَرزْتِ لَنَا يَوْمَ الْخُرُوجِ بِسَاحَةِ الْقَصْرِ
مِنْ دُرَّةٍ أَغْلَى بِهَـا مَلِكٌ مِمَّا تَربَّبَ حَائِرُ الْبَحْـرِ (١)

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ ، العامل في [يَوْمَ] هو [ٱلْمَصِيرُ] ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر بتشديد الشِّين ، والباقون خفَّفوها ، و [سِرَاعاً] حال ، قال بعض النحويِّين : هي من الضمير في قوله تعالى : [عَنْهُمْ] ، والعامل في الحال [تَشَقَّقُ] ، وقال بعضهم : التقدير : يوم تشقق الأرض عنهم يخرجون سراعاً ، فالحال من الضمير في

---

(١) هذان البيتان من قصيدة قالها حسَّان ومطلعها :

حَيِّ النَّضيـرةَ رَبَّةَ الخِـدْرِ أَسْرَتْ إلَيْكَ وَلَمْ تَكُنْ تَسْـرِي

وهما في الديوان ، وفي اللسان – حير – والرواية فيه « بسَاحَةِ العَقْرِ » ، ورُوي البيت الثاني « مِنْ دُرَّةٍ أَغْلَى الملوكُ بها » ، والحائر : المكان المطمئن يجتمع فيه الماء فيتحير لا يخرج منه ، وهو يُريدُ الدُّرَّة التي تَتَربَّى في الصدف في قاع البحر . والشاهد أن « يوم الخروج » هو يوم العيد ، يشبه حسَّان هذه المرأة بالدرة التي يعتز بها ملك وقد نمت وتكونت في أعماق البحر .

«يخرجون» ، والعامل «يخرجون» ، وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ معادلٌ لقول الكفرة : ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وعيدٌ محض للكفرة ، واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ ـ فقال قتادة : نهى الله تعالى عن التجبر ، وتقدَّم فيه ، فمعناه : وما أنت عليهم بمُتَعَظِّم ، من الجبروت ، وقال الطبريُّ وغيره : معناه : وما أنت عليهم بِمُسلَّط تَجْبُرهم على الإيمان ، ويقال : جَبَرْتُه على كذا ، أي قَسَرْتُه ، ف «جَبَّارٌ» مبالغة من جبَرَ ، وأنشد المُفَضَّل :

عَصَيْنَا عَزْمَةَ الجَبَّارِ حَتَّى ... صَحِبْنَا الْخَوْفَ إِلْفاً مُعْلمينا (٢)

قال : أَراد بالجبَّار النعمان بن المنذر لولايته ، ويحتمل أَن نصب

---

(١) من الآية (٣) من هذه السورة (ق) .

(٢) هذا البيت من شواهد الفراء في (معاني القرآن) ، ذكره مع بيت آخر فقال : « لَست عليهم بمسلَّط ، جعل الجبَّار في موضع السُّلْطان من الجبرية ، وأنشدني المُفَضَّل :

وَيَوْمَ الحَزْنِ إِذْ حَشَدَتْ مَعَدٌّ ... وَكَانَ النَّاسُ إلا نَحْنُ دِينَا

عَصَيْنَا عَزْمَةَ الجَبَّارِ حَتَّى ... صَحِبْنَا الْخَوْفَ إِلْفاً مُعْلمينَا

وقد استشهد صاحب اللسان بالشطر الثاني من البيت الأول على أن (دِين) بمعنى (دائن) ، قال : « قومٌ دينٌ أي دائنون » قال : وذكر النصف الثاني من البيت .

وروي الشطر الثاني من البيت الثاني في (معاني القرآن) : « صَبَحْنَا الْجَوْفَ إِلْفاً معلمينا » ، ثم ذكر أن المراد بالجبار هو النعمان بن المنذر لأنه كان والياً عليهم . والإِلْف : المألوف الذي اعتاده الناسُ .

«عَزْمَةَ» على المصدر وأراد : عصينا مقدّمين عزمة جبار ، فمدح نفسه وقومه بالعتو والاستعلاء، أخلاقِ الجاهلية والحياة الدنيا، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المؤمنين قالوا : يا رسول الله ، لو خوّفْتَنَا ، فنزلت : ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآن مَنْ يَخَافُ وَعِيد﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولو لم يكن هذا سبباً فإنه لَمَّا أَعْلَمَهُ أنه ليس بمُسَلَّط على جبرهم أمره بالاقتصار على تذكير الخائفين من المؤمنين (١) .

كمل تفسير سورة قٓ ، وبها كمل تفسير الجزء الثالث عشر
والحمد لله رب العالمين

حقوق الطبع لهذا التفسير محفوظة للمحققين
فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
والأستاذ السيد عبد العال السيد إبراهيم

(١) في بعض النسخ «الخائفين من الناس» ، والأولى ما أثبتناه لأن الذكرى تنفع المؤمنين ، ومن لا يخاف الوعيد من الناس لا يتذكر فلا تنفع فيه الذكرى .

انتهى الجزء الثالث عشر بِعونِ اللهِ وتوفيقه ، والحمد للهِ ربّ العالمين ، ويليه الجزء الرابع عشر بمشيئة اللهِ تعالى ويبدأُ بقولهِ تبارك وتعالى :

بِسمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيم : ﴿ وَٱلذَّارِيَاتِ ذَرْواً ، فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً ، فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً ﴾ .

فهرس الآيـــات

الآيـــة	رقم الصفحة
تفسـير سـورة (غافر)	١
قوله عزّ وجلّ : (حمٓ ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنْب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطّوْل لا إلـه إلا هو إليه المصير) إلى آخر الآية ٥	٣
قوله عزّ وجلّ : (وكذلك حقّت كلِمَةُ ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النّار) إلى آخر الآية ٩	٩
قوله عزّ وجلّ : (إنّ الذين كفروا يُنَادَوْن لَمَقْتُ الله أكبر مِن مَقْتِكم أنفُسَكُم) إلى آخر الآية ١٢	١٢
قوله عزّ وجلّ : (هو الذي يُريكم آياته ويُنَزِّل لكم من السماء رِزْقاً وما يتذكّر إلاّ مَن يُنيب) إلى آخر الآية ١٧	١٦
قوله عزّ وجلّ : (وأنذِرهم يوم الآزِفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) إلى آخر الآية ٢١	٢١
قوله عزّ وجلّ : (ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبيِّنات فكفروا فأخذهم الله) إلى آخر الآية ٢٥	٢٧
قوله عزّ وجلّ : (وقال فرعون ذروني أقتل موسى ولْيدْعُ ربّه إني أخاف أن يُبدِّل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد) إلى آخر الآية ٢٨	٢٩
قوله عزّ وجلّ : (ياقوم لكم المُلك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) إلى آخر الآية ٣٣	٣٥

الآيــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيّنات فما زلتم في شكٍّ مما جاءكم به) إلى آخر الآية ٣٥	٤١
قوله عزّ وجلّ : (وقال فرعون يا هامان ٱبنِ لي صرحاً لعلّي أبلغ ٱلأسباب) إلى آخر الآية ٤٠	٤٣
قوله عزّ وجلّ : (وياقومِ ما لي أدعوكم إلى النّجاة وتدعونني إلى ٱلنار) إلى آخر الآية ٤٥	٤٦
قوله عزّ وجلّ : (ٱلنار يُعرضون عليها غُدُوّاً وعَشيّاً ويوم تقوم ٱلساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ ٱلعذاب) إلى آخر الآية ٥٠	٤٩
قوله عزّ وجلّ : (إنّا لننصر رسلنا وٱلذين آمنوا في ٱلحياة ٱلدّنيا ويوم يقوم ٱلأشهاد) إلى آخر الآية ٥٦	٥٣
قوله عزّ وجلّ : (لَخلْق ٱلسموات وٱلأرض أكبر من خلْق ٱلناس ولكن أكثر ٱلناس لا يعلمون) إلى آخر الآية ٦٠	٥٧
قوله عزّ وجلّ : (ٱلله ٱلذي جعل لكم ٱلليل لِتسكنوا فيه وٱلنهار مُبصراً) إلى آخر الآية ٦٤	٦٠
قوله عزّ وجلّ : (هو ٱلحي لا إلـٰه إلاّ هو فادعوه مُخلصين له ٱلدين) إلى آخر الآية ٦٧	٦٣
قوله عزّ وجلّ : (هو ٱلذي يُحيي ويُميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُن فيكون) إلى آخر الآية ٧٤	٦٥
قوله عزّ وجلّ : (ذلِكُم بما كنتم تفرحون في ٱلأرض بغير ٱلحق وبما كنتم تمرحون) إلى آخر الآية ٧٨	٦٨

الآيـــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (ٱللهُ ٱلذي جعل لكم ٱلأنعام لِتركبوا مِنها ومِنها تأكلون) إلى آخر الآية ٨٢	٧١
قوله عزّ وجلّ : (فلما جاءتهم رسلهم بالبيِّنات فرحوا بما عندهم من العِلْم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) إلى آخر الآية ٨٥	٧٣
تفسير سورة (فصِّلت)	٧٥
قوله عزّ وجلّ : (حٰمٓ ، تنزيلٌ من ٱلرحمن ٱلرحيم ، كِتابٌ فُصِّلت آياتُه قُرآناً عربيّاً لِقوم يعلمون) إلى آخر الآية ٧	٧٦
قوله عزّ وجلّ : (إن ٱلذين آمنوا وعملوا ٱلصَّالحات لهم أجر غير ممنون) إلى آخر الآية ١٠	٨١
قوله عزّ وجلّ : (ثم ٱستوى إلى ٱلسماءِ وهي دخَانٌ فقال لها وللأرض ٱئتيا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين) إلى آخر الآية ١٢	٨٥
قوله عزّ وجلّ : (فإن أعرضوا فقل أنذرتُكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود) إلى آخر الآية ١٥	٨٨
قوله عزّ وجلّ : (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نَحِساتٍ لِنُذيقَهُم عَذاب ٱلخزي في ٱلحياة ٱلدنيا) إلى آخر الآية ١٨	٩١
قوله عزّ وجلّ : (ويوم يُحشر أعداءُ ٱللهِ إلى ٱلنـار فهم يوزعـون) إلى آخر الآية ٢٢	٩٦
قوله عزّ وجلّ : (وذلكم ظنُّكم ٱلذي ظننتم بربِّكم أرداكم فأصبحتم مِن ٱلخاسرين) إلى آخر الآية ٢٦	١٠١

الآيـــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (فلَنُذيقَنّ الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينّهم أسوأ الذي كانوا يعملون) إلى آخر الآية ٣٠	١٠٥
قوله عزّ وجلّ : (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) إلى آخر الآية ٣٥	١١١
قوله عزّ وجلّ : (وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) إلى آخر الآية ٣٩	١١٥
قوله عزّ وجلّ : (إن الذين يُلحِدون في آياتنا لا يَخْفَوْن علينا) إلى آخر الآية ٤٣	١٢٠
قوله عزّ وجلّ : (ولو جعلناهُ قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلت آياتُه ءأعجميٌّ وعربيٌّ) إلى آخر الآية ٤٦	١٢٤
قوله عزّ وجلّ : (إليه يُرَدُّ عِلْم الساعة وما تخرج من ثمراتٍ من أكمامها وما تحمِل من أنثى ولا تضع إلاّ بعِلْمه) إلى آخر الآية ٥٠ ...	١٢٧
قوله عزّ وجلّ : (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشرُّ فذو دعاءٍ عريض) إلى آخر الآية ٥٤	١٣٢
تفسير سورة (الشورى)	**١٣٧**
قوله عزّ وجلّ : (حمٓ ، عٓسٓقٓ ، كذلك يُوحى إليك وإلى الذين من قبْلك الله العزيز الحكيم) إلى آخر الآية ٥	١٣٨
قوله عزّ وجلّ : (والذين اتّخذوا من دونه أولياءَ الله حفيظٌ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) إلى آخر الآية ٩	١٤٣

الآيـــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (وما ٱختلفتم فيه مِن شيءٍ فحُكمه إلى ٱلله ذلكم ٱلله ربي عليه توكّلت وإليه أُنيب) إلى آخر الآية ١٢	١٤٥
قوله عزّ وجلّ : (شرع لكم مِن ٱلدين ما وصّى به نوحاً وٱلذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا ٱلدين ولا تتفرّقوا فيه) إلى آخر الآية ١٤	١٤٩
قوله عزّ وجلّ : (فلذلك فادعُ وٱستقم كما أُمِرت ولا تتّبع أهواءهم) إلى آخر الآية ١٦	١٥٢
قوله عزّ وجلّ : (ٱلله ٱلذي أنزل ٱلكتاب بالحق وٱلميزان وما يُدريك لعلّ ٱلساعة قريب) إلى آخر الآية ٢٠	١٥٥
قوله عزّ وجلّ : (أم لهم شركاءُ شرعوا لهم مِن ٱلدين ما لم يأذن به ٱلله) إلى آخر الآية ٢٣	١٥٨
قوله عزّ وجلّ : (أم يقولون ٱفترى على ٱلله كذباً) إلى آخر الآية ٢٧	١٦٥
قوله عزّ وجلّ : (وهو ٱلذي يُنزِّل ٱلغيث مِن بعد ما قنَطوا وينشُرُ رحمته) إلى آخر الآية ٣٣	١٧٠
قوله عزّ وجلّ : (أو يُوبِقْهُنّ بما كَسَبوا ويَعْفُ عن كثير) إلى آخر الآية ٣٨	١٧٦
قوله عزّ وجلّ : (وٱلذين إذا أصابهم ٱلبغي هم ينتصرون) إلى آخر الآية ٤١	١٨٠
قوله عزّ وجلّ : (إنما ٱلسبيل على ٱلذين يَظلمون ٱلناس ويبغون في ٱلأرض بغير ٱلحق) إلى آخر الآية ٤٥	١٨٣

الآيـــة	رقم الصفحة

قوله عزّ وجلّ : (وما كان لهم مِن أولياءَ ينصرونهم مِن دون الله ومَن يُضلل الله فما له مِن سبيل) إلى آخر الآية ٤٨ ... ... ١٨٨

قوله عزّ وجلّ : (لله مُلك السموات والأرض يَخلق ما يشـاءُ) إلى آخر الآية ٥٣ ... ... ١٩٠

تفسـير سـورة (الزخرف) ١٩٦

قوله عزّ وجلّ : (حمٓ ، والكتاب المبين ، إنّا جعلناه قرآناً عربيّاً لعلكم تعقلون) إلى آخر الآية ٩ ... ... ١٩٦

قوله عزّ وجلّ : (الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سُبُلا لعلّكم تهتـدون) إلى آخر الآية ١٤ ... ... ٢٠١

قوله عزّ وجلّ : (وجعلوا له مِن عباده جزءًا إنّ الإنسان لكفور مبين) إلى آخر الآية ١٩ ... ... ٢٠٥

قوله عزّ وجلّ : (وقالوا لو شاءَ الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك مِن عِلم إن هم إلاّ يَخرُصُون) إلى آخر الآية ٢٥ ... ... ٢١٠

قوله عزّ وجلّ : (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني بَرَاءٌ مِما تعبدون) إلى آخر الآية ٣٠ ... ... ٢١٣

قوله عزّ وجلّ : (وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل مِن القريتين عظيم) إلى آخر الآية ٣٥ ... ... ٢١٦

قوله عزّ وجلّ : (ومَن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّض له شيطاناً فهو له قرين) إلى آخر الآية ٣٩ ... ... ٢٢٢

الآيـــة	رقم الصفحة

قوله عزّ وجلّ : (أفأنت تُسمع الصُمّ أو تهدي العُمي ومَن كان في ضلال مبين) إلى آخر الآية ٤٥ ... ... ٢٢٦

قوله عزّ وجلّ : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول ربّ العالمين) إلى آخر الآية ٥٠ ... ... ٢٣٢

قوله عزّ وجلّ : (ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي مُلْك مصر وهذه الأنهار تجري مِن تحتي) إلى آخر الآية ٥٦ ... ... ٢٣٥

قوله عزّ وجلّ : (ولـمّا ضُرب ابن مريم مثلا إذا قومك مِنه يَصِدّون) إلى آخر الآية ٦٢ ... ... ٢٤٠

قوله عزّ وجلّ : (ولـمّا جاء عيسى بالبيِّنات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيِّن لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتّقوا الله وأطيعون) إلى آخر الآية ٦٨ ... ... ٢٤٥

قوله عزّ وجلّ : (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) إلى آخر الآية ٧٣ ... ... ٢٤٩

قوله عزّ وجلّ : (إنّ المجرمين في عذاب جهنم خالدون) إلى آخر الآية ٨١ ... ... ٢٥٠

قوله عزّ وجلّ : (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عمّا يصفون) إلى آخر الآية ٨٥ ... ... ٢٥٦

قوله عزّ وجلّ : (ولا يملك الذين يدعون مِن دونه الشفاعة إلاّ مَن شَهد بالحق وهم يعلمون) إلى آخر الآية ٨٩ ... ... ٢٥٨

الآيـــــة	رقم الصفحة
تفسـير سـورة (الدخان)	**٢٦١**
قوله عزّ وجلّ : (حمٓ ، والكتاب المبين ، إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنّا كُنّا مُنْذِرين) إلى آخر الآية ١٠	٢٦١
قوله عزّ وجلّ : (يغشى الناس هذا عذاب أليم) إلى آخر الآية ١٨	٢٦٧
قوله عزّ وجلّ : (وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين) إلى آخر الآية ٢٨	٢٧٠
قوله عزّ وجلّ : (فما بكت عليهم السماءُ والأرض وما كانوا مُنظَرين) إلى آخر الآية ٣٦	٢٧٦
قوله عزّ وجلّ : (أهم خيرٌ أم قوم تُبّع والذين مِن قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين) إلى آخر الآية ٤٤	٢٨٢
قوله عزّ وجلّ : (كالمهل يغلي في البطون ، كغلي الحميم) إلى آخر الآية ٥٩	٢٨٥
تفسـير سـورة (الجاثية)	**٢٩٢**
قوله عزّ وجلّ : (حمٓ ، تنزيل الكتاب مِن الله العزيز الحكيم ، إنّ في السموات والأرض لآيات للمؤمنين) إلى آخر الآية ٦	٢٩٢
قوله عزّ وجلّ : (ويلٌ لكل أفّاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها فبشّره بعذاب أليم) إلى آخر الآية ١١	٢٩٨

الآيـــة | رقم الصفحة

قوله عزّ وجلّ : (ٱللهُ ٱلذي سخَّر لكم ٱلبحر لتجري ٱلفلك فيه بأمره ولتبتغوا مِن فضله ولعلكم تشكرون) إلى آخر الآية ١٤ ... ... ٣٠١

قوله عزّ وجلّ : (مَن عمل صالحاً فلنفسه ومَن أساءَ فعليها ثم إلى ربكم تُرْجعون) إلى آخر الآية ١٧ ... ... ٣٠٦

قوله عزّ وجلّ : (ثم جعلناك على شريعة مِن ٱلأمر فاتَّبِعْها ولا تَتَّبِـع أهواءَ ٱلذين لا يعلمون) إلى آخر الآية ٢١ ... ... ٣٠٧

قوله عزّ وجلّ : (وخلق ٱلله ٱلسموات وٱلأرض بالحق ولِتُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت وهم لا يُظلمون) إلى آخر الآية ٢٤ ... ... ٣١٣

قوله عزّ وجلّ : (وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيِّنات ما كان حُجَّتَهم إلاّ أن قالوا ٱئتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) إلى آخر الآية ٢٩ ... ... ٣١٨

قوله عزّ وجلّ : (فأمَّا ٱلذين آمنوا وعملوا ٱلصالحات فيُدخلهم ربُّهم في رحمته ذلك هو ٱلفوز ٱلمبين) إلى آخر الآية ٣٣ ... ... ٣٢٣

قوله عزّ وجلّ : (وقيل ٱليوم ننساكم كما نسيتم لِقاءَ يومكم هذا ومأواكم ٱلنار وما لكم من ناصرين) إلى آخر الآية ٣٧ ... ... ٣٢٦

تفسـير سـورة (الأحقاف) ٣٢٨

قوله عزّ وجلّ : (حٰمٓ ، تنزيل ٱلكتـاب مِن ٱلله ٱلعزيز ٱلحكيم ، ما خلقنا ٱلسموات وٱلأرض وما بينهما إلاّ بالحق) إلى آخر الآية ٦ ... ... ٣٢٨

قوله عزّ وجلّ : (وإذا تُتْلى عليهم آياتنا بيِّنات قال ٱلذين كفروا للحق لمَّا جاءَهم هذا سِحر مبين) إلى آخر الآية ٩ ... ... ٣٣٤

الآيـــة	رقم الصفحة

قوله عزَّ وجلَّ : (قُل أرأيتم إن كان مِن عند ٱلله وكفرتم به وشهِد شـاهد مِن بني إسرائيـل على مِثله فآمَن وٱستكبرتم) إلى آخـر الآية ١١ ... ... ٣٣٩

قوله عزَّ وجلَّ : (ومِن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدِّق لساناً عربيّاً لِيُنذِر ٱلذين ظلموا وبُشرى للمُحسنين) إلى آخر الآية ١٥ ... ... ٣٤١

قوله عزَّ وجلَّ : (أُولئك ٱلذين نتقبَّل عنهم أحسن ما عملوا ونتجـاوز عن سيئاتهم في أصحاب ٱلجنة وعْد ٱلصِّدق ٱلذي كانوا يوعدون) إلى آخر الآية ١٩ ... ... ٣٥٠

قوله عزَّ وجلَّ : (ويوم يُعْرض ٱلذين كفـروا على ٱلنار أذْهبتم طيِّباتكم في حياتكم ٱلدنيا وٱستمتعتم بها) إلى آخر الآية ٢٢ ... ... ٣٥٦

قوله عزَّ وجلَّ : (قال إنما ٱلعِلْم عند ٱلله وأُبلِّغُكم ما أُرسِلتُ به ولكني أراكم قوماً تجهلون) إلى آخر الآية ٢٦ ... ... ٣٥٩

قوله عزَّ وجلَّ : (ولقد أهلكنا ما حولكم مِن ٱلقرى وصرَّفنا ٱلآيات لعلَّهم يرجعون) إلى آخر الآية ٢٩ ... ... ٣٦٥

قوله عزَّ وجلَّ : (قالوا يا قومنا إنَّا سمعنا كتاباً أُنزِل مِن بعد موسى مُصدِّقاً لما بين يديه يهدي إلى ٱلحق وإلى طريق مُستقيم) إلى آخـر الآية ٣٣ ... ... ٣٧٢

قوله عزَّ وجلَّ : (ويوم يُعرض ٱلذين كفروا على ٱلنـار أليس هذا بالحـق قالوا بلى وربِّنا) إلى آخر الآية ٣٥ ... ... ٣٧٥

الآيـــة	رقم الصفحة
تفســـير ســـورة (محمد)	**٣٨١**
قوله عزّ وجلّ : (ٱلذين كفروا وصدُّوا عن سبيل ٱلله أَضلّ أعمالهم) إلى آخر الآية ٣	٣٨٢
قوله عزّ وجلّ : (فإذا لقيتم ٱلذين كفروا فَضَرْبَ ٱلرِّقاب حتّى إذا أَثْخَنْتُمُوهم فشُدُّوا ٱلوَثاق) إلى آخر الآية ٩	٣٨٤
قوله عزّ وجلّ : (أَفلم يسيروا في ٱلأرض فينظروا كيف كان عاقبة ٱلذين مِن قبلهم دمَّـر ٱلله عليهم وللكافـرين أمثالهـا) إلى آخـر الآية ١٣	٣٩٢
قوله عزّ وجلّ : (أَفمن كان على بيِّنة مِن ربِّه كمن زُيِّن له ســوءُ عمله) إلى آخر الآية ١٦	٣٩٤
قوله عزّ وجلّ : (وٱلذين ٱهتــدوْا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم) إلى آخـر الآية ١٩	٣٩٩
قوله عزّ وجلّ : (ويقــول ٱلذين آمنــوا لولا نُزِّلت ســورة) إلى آخـر الآية ٢٣	٤٠٤
قوله عزّ وجلّ : (أَفلا يتدبَّرون ٱلقــرآن أَم على قلــوبٍ أَقفالُها) إلى آخـر الآية ٢٨	٤٠٩
قوله عزّ وجلّ : (أَم حَسِب ٱلذين في قلوبهم مرض أَن لن يُخْرِج ٱلله أَضغانهم) إلى آخر الآية ٣٢	٤١٣
قوله عزّ وجلّ : (يأَيُّها ٱلذين آمنوا أَطيعوا ٱلله وأَطيعوا ٱلرَّسول ولا تُبْطِلوا أَعمالَكم) إلى آخر الآية ٣٥	٤١٩

الآيـــة	رقم الصفحة
قوله عزَّ وجلَّ : (إنما ٱلحياة ٱلدنيا لَعِبٌ ولهْوٌ وإن تؤمنوا وتتَّقوا يؤتكم أُجورَكم ولا يسألْكم أَموالَكم) إلى آخر الآية ٣٨	٤٢٣
تفسـير سـورة (الفتح)	**٤٢٧**
قوله عزَّ وجلَّ : (إنَّا فتَحنا لك فَتحاً مبيناً ، ليغفر لك ٱلله ما تَقَدَّم مِن ذنبك وما تأخَّر ويُتم نعمته عليك ويهديَك صراطاً مستقيماً) إلى آخر الآية ٤	٤٢٨
قوله عزَّ وجلَّ : (لِيدخل ٱلمؤمنين وٱلمؤمنات جناتٍ تجري مِن تحتها ٱلأنهار خالدين فيها ويُكفِّر عنهم سيِّئاتِهم) إلى آخر الآية ٧	٤٣٤
قوله عزَّ وجلَّ : (إنَّا أَرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) إلى آخر الآية ١٠	٤٣٩
قوله عزَّ وجلَّ : (سيقول لك ٱلمُخلَّفون مِن ٱلأعراب شَغَلَتنا أَموالنا وأَهلونا فاستغفِر لَنَا) إلى آخر الآية ١٢	٤٤٣
قوله عزَّ وجلَّ : (ومن لم يؤمن بالله ورسـوله فإنَّا أَعتدنا للكافرين سعيراً) إلى آخر الآية ١٥	٤٤٦
قوله عزَّ وجلَّ : (قل للمُخلَّفين مِن ٱلأعراب ستُدْعَوْن إلى قوم أُولي بأس شديد) إلى آخر الآية ١٦	٤٤٩
قوله عزَّ وجلَّ : (ليس على ٱلأعمى حـرجٌ ولا على ٱلأعـرج حرجٌ ولا على ٱلمريض حـرج) إلى آخر الآية ١٩	٤٥٢
قوله عزَّ وجلَّ : (وعدكم ٱلله مغانم كثيرة تأخذونها فعجَّل لكم هذه وكفَّ أَيدي ٱلناس عنكم) إلى آخر الآية ٢٤	٤٥٧

الآيــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحــرام والهديَ معكوفاً أن يبلغ محلّه) إلى آخر الآية ٢٦	٤٦٠
قوله عزّ وجلّ : (قد صدَق الله رسوله الرُّؤيا بالحق لتدخُلُنّ المسجد الحرام إن شاءَ الله آمنين) إلى آخر الآية ٢٩	٤٦٨
تفسـير ســورة (الحجرات)	**٤٨١**
قوله عزّ وجلّ : (يأيُّها الذين آمنوا لا تُقَدِّموا بين يَدي الله ورسوله واتّقوا الله إن الله سميع عليم) إلى آخر الآية ٣	٤٨١
قوله عزّ وجلّ : (إن الذين يُنادونك مِن وراءِ الحجراتِ أكثرهم لا يعقِلون) إلى آخر الآية ٨	٤٨٨
قوله عزّ وجلّ : (وإن طائفتان مِن المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) إلى آخر الآية ١٠	٤٩٥
قوله عزّ وجلّ : (يأيُّها الذين آمنوا لا يسخر قوم مِن قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ مِن نساءٍ عسى أن يكنّ خــيراً منهن) إلى آخر الآية ١٢	٤٩٩
قوله عزّ وجلّ : (يأيُّها الناس إنّا خلقناكم مِن ذكر وأُنثى وجعَلْناكم شعوباً وقبائل لِتعارفوا) إلى آخر الآية ١٤	٥١٢
قوله عزّ وجلّ : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) إلى آخر الآية ١٨	٥١٩

الآيـــــة	رقم الصفحة
تفســير ســورة (قٓ)	**٥٢٣**
قوله عزّ وجلّ : (قٓ والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيب) إلى آخر الآية ٨	**٥٢٤**
قوله عزّ وجلّ : (ونزّلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد) إلى آخر الآية ١٥	**٥٣٣**
قوله عزّ وجلّ : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) إلى آخر الآية ٢١	**٥٣٩**
قوله عزّ وجلّ : (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) إلى آخر الآية ٢٨	**٥٤٩**
قوله عزّ وجلّ : (ما يبدّل القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد) إلى آخر الآية ٣٥	**٥٥٦**
قوله عزّ وجلّ : (وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ هم أشدُّ منهم بطشاً فنقّبوا في البلاد هل من محيصٍ) إلى آخر الآية ٤٠	**٥٦٥**
قوله عزّ وجلّ : (واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصّيحة بالحق ذلك يومُ الخروج) إلى آخر الآية ٤٥	**٥٧٤**

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
٣٣٤ لسنة ١٩٨٨

العلوم

مؤسسة دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ١٦٧١ - الدوحة - قطر